وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
MINISTERE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE
ⵓⵖⵍⵉⵙ ⵏ ⵓⵙⵍⵎⴷ ⵓⵏⵏⵉⴳ ⴷ ⵓⵏⴰⴷⵉ ⵓⵙⵏⴰⵏ
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵏ ⵎⵓⵍⵓⴷ ⴰⵜ ⵎⵄⵎⵎⵕ ⵏ ⵜⵉⵣⵉ ⵡⵣⵣⵓ
ⵜⴰⵣⴷⵍⴳⴰⵜ ⵏ ⵜⵙⴽⵍⵉⵡⵉⵏ ⴷ ⵜⵓⵜⵍⴰⵢⵉⵏ

جامعة مولود معمري -تيزي وزو
كلية الآداب واللّغات
قسم اللّغة العربيّة وآدابها

UNIVERSITE MOULOUD MAMMERI DE TIZI–OUZOU
FACULTE DES LETTRES ET DES LANGUES
DEPARTEMENT DE LANGUE ET LITTERATURE ARABES

التخصُّص: اللغة والأدب العربي.

الفرع: علوم اللُّغة

أطروحة لنيل درجة دكتوراه علوم

إعداد الطّالبة: نادية معاتقي

الموضوع:

التّــراث اللّـغويّ العربــيّ
في كـتابـات المســتشـرقين

لجنة المناقشة:

أ.د. عمر بلخير، أستاذ التعليم العالي، جامعة مولود معمري تيزي وزو .... رئيسا

د. السعيد حاوزة، أستاذ محاضر (أ)، جامعة مولود معمري تيزي وزو، ....مشرفا ومقررا

أ.د. يوسف مقران، أستاذ التعليم العالي، المركز الجامعي مرسلي عبد الله تيبازة ......ممتحنا

د. بوبكر الصديق صابري، أستاذ محاضر (أ)، جامعة البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج ..ممتحنا

د. زاهية راكن، أستاذة محاضرة(أ)، جامعة مولود معمري تيزي وزو.................ممتحنة

د. صافية كساس، أستاذة محاضرة(أ)، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة ....ممتحنة

تاريخ المناقشة: 2021/06/17 الموافق لـ 6 ذو القعدة 1442هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أبي وأمي وإخوتي

وزوجـــــــــي

وابنائي: آميــن وآلاء وإدريس وإسراء

وإلى كلّ من أحب العربية وكان حاميها ودرعها الواقي

أهـــدي هـــذا العــــمــــل.

عرفانا دائما وحبا باقيا ووفاءً.

شكر وعرفان

لا يسعني بعد الختام على هذا العمل المبذول، إلاّ أن أتقدم بخالص الشكر لأستاذي المشرف السعيد حَاوْزَة، ولولا فضله عليَّ، وفضل الله عزّ وجل أولى وأَحَقْ، ما اكتمل هذا العمل، أسأل الله أن يزيده فضلا على فضل وعلما على علم، دون أنْ أنسى كلّا من أعانني في إعداد هذا البحث، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

مقدّمة

إنّ عملية الاستشراق، هي من أكبر العوامل في دراسة الثقافة العربية الإسلامية وإحيائها بجميع أنواع فنونها وأجناس علومها المتفرعة عنها: كالأدب والفلسفة، والدراسات القرآنية والفقه وأصوله، والحديث وعلوم اللسان من النحو والصرف وفقه اللغة وعلم الدلالة وعلم المعاجم والبلاغة وعلوم أخرى، كالتاريخ والجغرافيا، وعلم الرحلات وغيرها... كما أنّ ذلك النشاط الاستشراقي الحثيث، ليس وليد القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ بل بدأ منذ القرن العاشر الميلادي عن طريق الأندلس، والحروب الصليبية وكذا عن طريق بجاية، ثم اشتد هذا النشاط في القرون الوسطى، حيث تمت ترجمة القرآن العظيم على أيديهم إلى اللاتينية ثم منها إلى اللّغات الأوروبية المتفرعة منها.

فلمّا جاء القرن الثامن عشر الميلادي، وهو زمن اكتشاف العالم الجديد، غزا الأوروبيون القارات البعيدة والبلدان النائية، أخذ فقهاء اللغة (الفيلولوجيون) يقارنون مقارنة علمية بين الألسنة البشرية ويوازنون عامة، بين اللغات الشرقية أو الساميات المتفرعة من الفصيلة السامية والحامية – السامية، خاصة كالعربية والعبرانية والآرامية والكنعانية والسريانية والسبائية والحميرية والحبشية والقبطية وهلم جرا... جلهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ابتغاء اكتشاف القرابة اللغوية، إفرادا وتركيبا، وقرب العربية من أخواتها الساميات، لفهم ما اسْتغلق واسْتبهم من الكتاب المقدس، العهد القديم في العبرانية خاصة، وما استغلق واستبهم من الألفاظ العربية القديمة التي اندثرت معانيها الدلالية وعفت.

ويأتي القرن التاسع عشر، فتزدهر حركة الاستشراق أكثر وتنشط نشاطا أكبر، وينشئ العلماء المتخصصون على أثر ذلك، الجمعيات الثقافية، والمجلة الآسيوية، ودائرة المعارف الإسلامية والمجلة الإفريقية وغيرها... كما عقدت المؤتمرات الشرقية، سواء في العواصم الأوروبية أو في العواصم العربية.

وقد عرفت ثلة منهم ذهبوا شهرة وصيتا من الفرنسيين والألمان والإنجليز والمجريين والنمساويين والإيطاليين والهولنديين وغيرهم، وهم أجيال وطبقات ودرجات، ومن هؤلاء الأجيال والطبقات الأخيرة: المستشرق الفرنسي هنري فليش Henri Flich الذي ألّف كتابا مهما ذا وزن في الدراسات العربية والسامية أي وزن سمّاه: Traité de philologie arabe تعريبه: الجامع أو المطول في فقه اللغة العربية، والمستشرق الألماني يوهان فك Johann Fuck بمؤلَّفه: العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، والإيطالي إغناطيوس (إِيْنياتْسْيُو) جْوِيدي بمؤلَّفه: المختص في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة، والألماني كارل بروكلمان Brockelmann Carl بكتابه الشهير: تاريخ الأدب العربي وغيرهم...

الإشكالية: إنّ الإشكالية المبتغاة أو المقصودة هنا هي: إنّ المستشرقين حسب مشاربهم وتكوينهم الثقافي الأوروبي العميق الدقيق، كان هدفهم المروم، هو الوصول إلى نتيجة، أو طريحة أو نقيضة في كلّ ما ورد في الثقافة العربية الإسلامية، بأصولها وفروعها تنظيرا وتطبيقا، نوعا وجنسا فهؤلاء المستشرقون قد توصلوا بالفعل إلى نتيجة تتراوح بين السلب تارة؛ وبين الإيجاب تارة أخرى فالسلب يتبين أثناء تحليلهم جملة من مسائل علم العربية ووجوهها إفرادا وتركيبا، وذلك يرجع إلى فطانة القارئ وملاحظاته الدقيقة أثناء قراءته ما بين السطور، وهي خصيصة انفرد بها المستشرقون في تآليفهم، ومرد ذلك إلى أسباب شتى؛ إذ يجمل بي أن أذكر منهم من خرج بنتيجة يرتضى بها البحث العلمي السليم، فيما قام به هؤلاء المستشرقون، بهذا العمل الجليل في الثقافة اللسانية العربية خاصة، وأمها الثقافة اللسانية السامية عامة، مع ما كانوا غزيري التآليف في ميدان العربية والساميات إلاّ أنّ اختياري وقع على كتبهم ذائعة الصيت في المشرق والمغرب.

انطلاقا ممّا سبق ذكره؛ نطرح الأسئلة على هذا النحو: ما هو الاستشراق؟ وما الذي تعنيه هذه الكلمة؟ هل الاستشراق حقل معرفي تعريفي بالتراث اللغوي العربي؟ وما الذي قدمه هذا العلم للقارئ في الشرق والغرب من معارف؟ وما هي الخلفية التي انطلق منها؟ ومن هم المستشرقون؟ وما هي أبرز أعمالهم في اللغة؟ وما هي المناهج العلمية التي سلكوها في تحقيق هذا التراث اللغوي؟ وما طبيعة الموقف الاستشراقي من أصالة التراث اللغوي العربي خاصة؟ وما هي أهم النتائج التي توصلوا إليها؟

الفرضيات: يُنْظَرُ إلى المستشرقين نظرتان: نظرة إيجابية ونظرة سلبية:

- ✓ فالإيجابية تتمثل فيما قدمه هؤلاء المستشرقون من خدمة كبيرة معتبرة للثقافة العربية بصفة عامة، وللغة العربية بصفة خاصة. كإحياء التراث العربي القديم من تحقيق ونشر وفهرسة على الطريقة الحديثة، وبما استنبطوه من نظريات ومناهج في سائر علوم الثقافة العربية.
- ✓ والسلبية تتبين في نزعتهم العصبية الأوروبية والدينية، وليس كلّهم سواء، منهم المنصف العادل النزيه في بحثه يتبع الحق والصدق في عمله، ومنهم المتعصب المغالي في تعصبه هدفه الانتقاص والطعن في التراث العربي وحسب.

استدعت إشكاليّة البحث جملةً من الفرضيّات، سأوردُها على هذا النحو:

* الاستشراق ظاهرة علمية ثقافية تاريخية، نشأت بحكم اتصال الشعوب وتأثير الحضارات.
* السبب الرئيس وراء توجه المستشرقين إلى الشرق هو الدافع الديني.

* اتَّجه المستشرقون إلى دراسة التراث باحثين في أصوله، قائمين بدراسات مقارنة لإظهار الآثار المتداخلة.

* يمكن أن يعود اهتمام المستشرقين بالتراث اللغوي العربي إلى دافع علمي محض، أو إلى دوافع ذاتية مجردة من الموضوعية.

* شكلت الدراسات الاستشراقية العقل الغربي، وحددت موقفه بوضوح من قضايا اللغة العربية.

* أحدث المستشرقون تحولا بينا في مسار الفكر اللغوي العربي الحديث.

* تلقف الباحثون العرب كلّ ما طرح من أفكار لغوية من قبل المستشرقين فهناك من أضاف ومنهم من حذف.

وقد جاءت هذه الدراسة في خمسة فصول بعد المقدمة وقبل الخاتمة، واقتضى فحص الجوانب المتصوّرة لهذه الدراسة تفصيلا لخطّة العمل وفق خطوات منطقية معلومة، ظهر لنا في مستهلّها التعرّض – ولو بصفة موجزة – لذكر لمحة تاريخية عن النشاط الاستشراقي، وبعدها خمسة فصول، خصصنا بالفصل الأوّل منها بالحديث عن نشاط المستشرقين على صعيد تحقيق المصادر اللغوية، وخلال مباحث هذا الفصل تفصيلا لهذه الفكرة كان لابدّ من فحص اهتمام المستشرقين بالمصادر العربية، وذلك حسب المراحل التاريخية، من منتصف القرن الثامن عشر إلى بداية القرن التاسع عشر، ومن القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، ومن القرن العشرين إلى عصرنا الحالي، وفي المبحث الثاني تهممنا بأمر اشتغال هؤلاء المستشرقين بالمعاجم القديمة ولاسيما تأليفهم المعاجم العربية على الطريقة الحديثة، كمعجم رينهارت دوزي 1820–1883م ومعجم أوغست فيشر 1865–1949م، ثمّ كان المبحث الثالث المخصص بالحديث عن عمل المستشرقين في ميدان النحو العربيّ، والمبحث الرابع بفقه اللغة العربية ومقارنته في اللغات السامية وفق المنهج الاستشراقي، والمبحث الخامس بالحديث عن البلاغة، والمبحث السادس بالحديث عن نظرة المستشرقين إلى الصوتيات العربية ضمن دائرة اهتمام هؤلاء المستشرقين دائما.

وأما الفصل الثاني فيحوي خمسة مباحث، في كلّ مبحث دراسة لعلم من أعلام المستشرقين المشهورين، وحديث عن نشاطه في التراث اللغوي العربي، وهم على هذا النحو: تيودور نولدكه 1836–1930م، وكارل بروكلمان 1868–1956م، ويوهان فك 1894–1974م، ورجيس بلاشير 1900–1973م، ونيلينو 1872–1938م، وبراجستراسر 1886–1933م، وأغناطيوس

جويدي 1844-1935م، وأوغست فيشر 1865-1949م، وأنوليتمان، وأخيرا هنري فليش حسب تعاقب أجيالهم، دون إغفال إبراز ما اختصّ به كلّ جيل منهم.

وألحقت بالفصل الثالث دراسة لجانب مهمّ من جوانب نشاط المستشرقين، ونعني هنا اهتمامهم بالموسوعات، فحاولنا تسليط الضوء على طبيعة اهتمامهم بهذا الجانب من التراث العلمي العربيّ الإسلاميّ، وتمّ تفصيل الحديث عن هذا في ثلاثة مباحث، فكان المبحث الأوّل منها الحديث عن اهتمامهم بالموسوعات، فمعرفة وظيفتها، والغاية من تأليفها وانعكاساتها على الفكر الشرقي المعاصر، والمبحث الثاني حول دائرة المعارف والموسوعات وحرص المستشرقون عليها لمّا أدركوا أنّ المعلومات حول الحضارة العربية الإسلامية كانت متفرّقة هنا وهناك، في مصادر متنوّعة، في أماكن مختلفة من العالم، فقرروا جمعها في مؤلف واحد يلمّ كلّ المعارف حول الإسلام والقرآن والعرب وتاريخهم.

وخصصنا في المبحث الثالث الحديث عن مفهوم دائرة المعارف الإسلامية وموضوعاتها ومنهجها وقيمتها العلمية، وفصلنا الحديث عبر اثني عشر عنصرا لبيان ذلك، وختمنا هذا الفصل بتدعيم كلّ ما سلف ذكره بالنظر في سائر تآليفهم في التراث اللغوي العربي، للنظر فيما إذا كان لذلك صلة ما بالساميات.

وجعلنا الفصل الرابع للحديث عن اهتمام المستشرقين بترجمة القرآن الكريم، وسعينا إلى بيان ذلك في خمسة مباحث بحسب ما يقتضيه تفصيل الفكرة، فكان المبحث الأول حينئذ للحديث عن المستشرقين وترجمتهم للقرآن الكريم، والمبحث الثاني خصصناه بالحديث عن ترجمة معاني القرآن الكريم من وجهة نظر علماء الإسلام ومفكريه، وسعينا خلال المبحث الثالث إلى بيان مختلف اتجاهات المستشرقين في دراسة لغة القرآن الكريم، ثمّ تحدّثنا في المبحث الرابع عن المنهج الاستشراقي المتبع في دراسة القرآن الكريم، حيث تعرّضنا لمشكل الفطرة اللغوية الأوروبية لدى المستشرقين وصلتهم بترجمة القرآن الكريم لقصور بَاعِهم في النظر بدقائق معاني الألفاظ العربية ودلالاتها، سلبا وإيجابا، وكان في المبحث الخامس تحليلا لمفهوم النزاهة في ترجمة القرآن والموضوعية، بالنظر إلى هوية المترجم.

وختمنا هذه الأطروحة بالفصل الخامس، مفصلين الكلام حول صلة المستشرقين بالدارسين العرب المحدثين، وذلك في ثلاثة مباحث، الأول منها كان حول مدى تأثّر الباحثين العرب المحدثين بمناهج المستشرقين للدراسات اللسانية، والمبحث الثاني خصصناه بتآليف المستشرقين في

التراث اللغوي العربي والسامي، والمبحث الثالث كان حول توقف النشاط الاستشراقي في أواخر السبعينات من القرن العشرين، إلى أن ختمت البحث بما توصّلت إليه من نتائج.

المنهج المتبع: لاحظنا أنّ هذه الكتب المهمة قد غفل عنها الباحثون العرب المحدثون إلا قليلا ممن أشاروا إليها في هوامش دراساتهم اللسانية، في كتبهم ومقالاتهم في المجلات والدوريات.

ومهما يكن من أمر؛ فالموضوع الذي تناول قضية آراء المستشرقين، فقد كان من الطبيعي اعتماد المنهج الوصفي التحليلي؛ الذي يبدو أنّه الأنسب لدراستنا هذه وأهدافها، ومن ثم فهو يسمح لنا بتحليلها واستجلاء كنهها، والوقوف على ظواهرها، ومحاولين النظر فيها شرحا وتفسيرا، دون إغفال الملاحظة العلمية لأصحاب هذه الجهود، ومحاولة فهم مراميهم والخلفيات التي دفعتهم إلى القيام بكل ذلك النشاط، وبذل كل ذلك الجهد، وهم يخوضون في علوم لم تكن علومهم وثقافات لم تكن ثقافاتهم، وبألسنة لا تشبه ألسنتهم، ويبنى المنهج المتبع على هذه الخطوات:

1- **وصف الظاهرة:** وآثرت في هذه المرحلة من البحث؛ تحديد ما تضمنته المدونة من آراء المستشرقين، ووصفها وصفا دقيقا.

2- **تحليل الظاهرة:** وأروم من خلاله تتبع ما حوته مؤلفات المستشرقين من آراء لغوية وتحليلها شرحا، وتمحيصها تدقيقا.

3- **نقد الظاهرة:** يتم في هذه المرحلة نقد ما حقه النقد لآراء المستشرقين، وعرض مواطن القوة والضعف فيها.

4- **التقعيد للظاهرة:** وأحاول من خلاله رصد ما اعتمدته مؤلفاتهم من آراء، وتقديمها وتقييمها والعمل على تقعيدها؛ ابتغاء تبيان قيمتها.

الصعوبات: واجهت الدراسة صعوبات جمة وعديدة أثناء جمع المادة، تأتي في مقدمتها سعة الموضوع، وكثرة المصادر وتشعبها، وتقارب الأفكار وتداخلها، بالإضافة إلى صعوبة الحصول على مصادر المستشرقين، مما دفع بنا إلى اعتماد الكتب المترجمة والمتوفرة فقط، مستعينين بالدراسات التي تناولت المستشرقين بالبحث والدراسة.

والله المسدّد للصواب.

تمهيد

الاستشراق: مفهومه، ومراحله، وأهدافه، وغاياته

من خلال استقراء المراجع والدراسات التي تناولت موضوع الاستشراق، وفي ظل ما ذكرته من التعريفات والمفاهيم، يلاحظ أنّ الاستشراق من المصطلحات الحديثة؛ وقد ذهب أحمد سمايلوفيتش إلى أنّ المستشرق الألماني رودي بارت Rudi Baret 1901-1983 يرى أنّ الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، وبأنّ الكلمة مشتقة من كلمة الشرق التي تعني مشرق الشمس، فبارت يذهب إلى أنّ الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي، في حين هناك من يرى أن الاستشراق تيار فكري يعبر بقوة عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري الذي لا يزال قائما بين الشرق والغرب إلى يومنا، مستمرا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا بنص قرآني وإقرار رباني حكيم، يقول تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾[البقرة: ١٢٠].

ومن المعروف والمسلم به أنّ مصطلح الاستشراق مصطلح حديث النشأة كما سبق ذكره ظهرت أولياته وبوادره في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وهذا لا يعني مطلقا أنّ التفكير الغربي في العصور القديمة في مجال العلوم الانسانية يخلو تماما من دراسات تهتّم باللغات الشرقية خاصة؛ بل على العكس من ذلك فالاهتمام باللغات الشرقية عموما، وبالدراسات العربية خصوصا بدأ منذ ظهور الإسلام، وهذا الأمر قد اعترف به المستشرق الألماني يوهان فك Johann Fuck 1894-1974م حيث يقول: "لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنّه أقوى من كلّ محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية"[1] ويقول المستشرق البريطاني آرثر جون آربري Arthur John Arberry 1905-1969م: "إنّ اللغة العربية لغة حية وحضارة العرب هي حضارة مستمرة ... وعن طريق العرب عرفت أوروبا الحضارة، فقد كانت أوروبا تغط في سباتها العميق حين كان العرب يصنعون الحضارات، وكانت جامعاتهم تخرج كثيرا من العلماء في حقل الآداب والعلوم والفنون والطب والهندسة"[2] ويقول كارل بروكلمان Carl Brockelmann 1868-1956م عن القرآن وقيمته وفضله: "بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة من لغات الدنيا"[3] فظهور القرآن يُعدّ مصدر ولادة الاستشراق، وباعث انطلاقاته

[1]– أنور الجندي، الموسوعة العربية الإسلامية، الفصحى لغة القرآن، بيروت لبنان: 1982، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ج10، ص 320.

[2]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]– أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، ص 305.

الأولى، فموضوعات هذا العلم واهتماماته قديمة قدم البحوث الغربية في الدراسات الإسلامية، وإن لم يسمّ بهذا الاسم، باعتبار أنّ الحركة الاستشراقية امتداد للحركة التنصيرية ليس إلا.

إنّ التراث اللغوي العربي الذي خلفه لنا اللغويون والنحاة من "القواعد والأحكام والضوابط التي استخرجوها من العربية الفصحى فرض نفسه"[1] على الباحثين عامة، وعلى المستشرقين خاصة فتأثروا به تأثرا كبيرا، ثم بدأوا يدرسونه، واشتدت عنايتهم به، وبكلّ ما يتصل به على وجه الخصوص، وقد أذاعوا كثيرا من دراساتهم في كتب عدّة ومجلات خاصة، كما جمعوا معظم بحوثهم "في كتاب جامع يتبعون فيه منهج القواميس والمعاجم فكتبوا دائرة المعارف الإسلامية باللغات الأوروبية"[2] حيث أكدوا بهذا الاهتمام البالغ على قيمة التراث اللغوي العربي وأهميته، ممّا يدل على أنّ دراسة هذ التراث وما يتعلق به كان ولا يزال أمرا بالغ الأهمية لعلم الاستشراق ودراساته.

ومهما يكن من أمر؛ فإنّ الاستشراق حركة فكرية بدأ ظهورها في أوائل القرن العاشر الميلادي أو الحادي عشر، وليدة بيئتها وعصرها، تتجدد وتتقولب حسب الظروف والمعطيات والمصالح، ذات خلفية غربية محضة، ومرجعية صليبية بحتة، هدفها التعرف – عن قرب– على الفكر الإسلامي ومصادره المختلفة، وما يحمله من لغة وآداب وعادات وتقاليد وثقافات وتاريخ وحضارة وفلسفة وما إلى ذلك من العلوم والفنون، للنهل من معارفه، والاستفادة من كنوزه، وقد أتت هذه السياسة المحكمة الدقة والتخطيط أكلها بوضوح، وبخاصة في صياغة التصورات الغربية عن العالم الشرقي وأديانه وحضارته عامة في العصر الحديث، ممّا فتح له باب السيطرة العالمية على مصراعيها، وبالأخص باب العالم العربي الإسلامي، وقد تفننت هذه الحركة في تنفير الغربيين من الإسلام، وفي فصل المسلمين عن جذورهم الراسخة، وذلك ببث الأكاذيب والأضاليل، وتشويه الحقائق التاريخية وتحريفها وتزييفها، وليّ أعناق النصوص الإسلامية أيا كانت، وتفسيرها وتأويلها حسب أهوائها، ووفق ما يخدم أغراضها الغربية ويحقق غاياتها الاستشراقية، وهذا ما أشارت إليه الدكتورة بنت الشاطئ بقولها: "إنّ اللغة العربية بالنسبة للمستشرقين لغة أجنبية عنهم مهما أتقنوها وأجادوا تعلمها، فهم يعجزون عن تذوق بعض أساليبها، ويحول تركيبهم الاجتماعي وتكوينهم الحضاري دون النفاذ إلى ما وراء الكلمات والحروف من الشفافية وحسن أثار مبثوثة، وهذا أوقع

---

[1]– محمد حسن عبد الغزيز، القياس في اللغة العربية، ط1. القاهرة: 1995، دار الفكر العربي، ص 10.

[2]– يحي مراد، افتراءات المستشرقين على الإسلام والرّد عليها، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية، ص 128.

بعضهم في أخطاء دفعتهم إلى اصدار أحكام مجحفة، سجلوها ظلما على مفاهيم الإسلام"[1] وفكره ونظمه وشرائعه.

أمّا فيما يخص تحديد تاريخ الاستشراق وبداياته الأوّلى، ففي ذلك تضاربت الآراء وتعددت الأقوال؛ وكثرت الاحتمالات؛ لأن الاستشراق ميدان فسيح، وبحر يصعب سبْرُ غوره، ولكن المؤكد والمتفق عليه هو أنّ هذا التيار الغربي بدأ بمباركة الرهبان والقساوسة والأساقفة في الكنيسة وبرعاية من المؤسسات العسكرية والتجارية والدينية، وبقرار رسمي من مجمع فيينا الكنسي في حدود القرن الرابع عشر الميلادي، بالضبط سنة 1312، بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية، ويذهب البعض إلى أنّه بدأ في القرن العاشر الميلادي، وهناك من يقول في القرن الحادي عشر، وهناك من ذهب إلى أبعد من ذلك وذهب حتى القرن الثامن الميلادي بالضبط 711م، بعدما فتح العرب الأندلس فازدادت حرارة بعض العناصر الغربية في التعرف على عقلية الفاتحين العرب المسلمين وأفكارهم واتجاهاتهم وتصوراتهم، وسرعة انتشارهم وتغلبهم على الخصوم وسر تفوقهم ومصدر تقدمهم وأسرار دستورهم، وحقيقة عقيدتهم، ونوعية فلسفتهم الدينية.

وقد مرّت الحركة الاستشراقية بمحطات تاريخية مهمة حسب تطور الفكر الغربي الصليبي منذ نشأتها حتى الوقت الراهن، بدءا بالاستشراق اللاهوتي، مرورا بالاستشراق الرسمي الأكاديمي وانتهاء بالاستشراق الجديد المتمثل بالأساس في الغزو الفكري لبلاد الشرق عامة، وللعالم الإسلامي خاصة، محاولة انتاج جيل من المثقفين المسلمين يعمل على تحقيق أهداف استشراقية عجز المستشرق في حد ذاته عن تحقيقها، هكذا أصبح للحركة الاستشراقية كيان ضخم قائم لا يستهان به، تعلق بها منذ نشأتها خلق كثير، ولكلٍّ دوافع عديدة، وأغراض مختلفة حسب متطلبات كلّ مرحلة ومستجداتها تتلاقى كلّها عند هدف واحد، هو محاربة الإسلام والمسلمين وتوسيع رقعتها الاستعمارية، والمحافظة على المصالح الغربية بطرق وأساليب وأدوات شتى، وعرف روادها جيدا كيف يتقنون فنونها على اختلافها وتباينها، وكيف يجسدون خططها، ويحققون أهدافها.

وحسب ما تؤكّده بعض الدراسات المختصة في مجال الاستشراق ورواده؛ فإنّ بحوث المستشرقين بصفة عامة كانت موجّهة، ذات صلة وطيدة بالمنظومة الاستشراقية على تعدد هيآتها؛ من دوائر حكومية، ومؤسسات استعمارية، استنادا إلى اعترافات بعض المنصفين الأكاديميين من

[1]– أنور الجندي، مقدمات العلوم والمناهج، دط. القاهرة: 1979، دار الأنصار، مج4، ص63.

المستشرقين؛ إذ يذكر الدكتور علي توفيق الحمد على لسان المستشرق الألماني أولريش هارمان Ulrich Harman قائلا:"إنّ مقدمي الدعم المالي يمارسون ضغوطا على المستشرقين وهناك أيضا الضغط الملح من قبل الذين يقدمون الأموال لدعم النتائج التي تؤدي إلى احتواء العالم الإسلامي والتشبث به"[1] باعتباره منطقة اضطراب، حيث تكمن اهتمامات الغرب ومصالحه.

أما الدوافع الخفية منها والمعلنة التي دفعت بالغرب إلى دراسة الشرق وحضاراته وأديانه فهي عديدة مختلفة، أحصى الدارسون عددا معتبرا، منها: الدوافع الدينية: وهي جوهر القضية لما يشكله الإسلام من خطر على كيانهم، وفي عقر دارهم، باعتباره ينكر بعض معتقدات النصارى ويفندها ويقر زيفها وبطلانها بالأدلة الدامغة، فهبوا على إثر ذلك بمؤلفات مليئة بروح التعصب والحقد والكراهية، محاولين وضع حواجز منيعة لمنع الإسلام من الانتشار والتوسع، ومن وصول الصورة الحقيقية له إلى الجماهير النصرانية، حتى لا تعتنقه، فأخذوا في الافتراء والتشنيع على الإسلام ومصادره، وتشويه أحكامه. وهذا؛ ما صرح به الغربيون أنفسهم، وقد أفصح يوهان فك عن الدافع الديني التبشيري في صراحه فقال: "إنّ الاستشراق لم يكن عملا علميا محضا؛ بل إنّ المراد منه هو الرد على الإسلام والتبشير بالنصرانية بين المسلمين، وذلك بتراجم عربية للإنجيل"[2] وذلك في كتابه: تاريخ الاستشراق والمستشرقين في أوروبا بدءا من القرن التاسع عشر الذي نشره سنة 1943، ولتأكيد هذا المعنى أكثر، وضع رسالة أخرى عن الدراسات العربية في أوروبا سنة 1955 على حد ما ذكر الدارس عبد المتعال محمد الجبري في مؤلفه الموسوم بـ: "الاستشراق وجه للاستعمار الفكري" والباحثان محمد البهي ومحمد ياسين عريبي في مقالهما المسمّى: "الهدف الديني للاستشراق من دراسة التراث الإسلامي" فهذا التصريح كما هو واضح ينص صراحة على خدمة أهداف تبشيرية محضة بعيدة كلّ البعد عن الأساليب العلمية، والمتغنى بها في الدراسات الاستشراقية الحديثة، وهو ما نوه به المفكرون في جلّ مؤلّفاتهم وبحوثهم، مؤكدين على أنّ الهدف

---

[1]- علي توفيق الحمد "نحن والمستشرقون مع دراسة تحليلية لأثر المستشرق دوزي في المعجمة العربية" مجلة جامعة النجاح للأبحاث، الأردن: 2001، مج 15، ص 5 / وينظر: محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط1. القاهرة: 1989، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، ص58.

[2]- عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، ط1. القاهرة: 1995، مكتبة وهبة، ص 16/ ينظر:
Muhammad al-Bahi and Muhammad Yasin Arabi, The Religious Objective of Orientalism in Studying Islamic Literature according to, Universiti Kebangsaan Malaysia International Journal of Islamic Thought ،Universiti Kebangsaan Malaysia :2012, Vol 1, p 94.

الأساس والمباشر للحركة الاستشراقية هو هدف ديني في أساسه، استعماري في مضمونه، علمي في ظاهره، وكلّها جاءت من أجل خدمة النصرانية في البلاد الإسلامية.

وللأسف الشديد فإنّ هذه النظرة التي خرجت عن نطاق البحث العلمي الأكاديمي الصرف للتراث الشرقي برزت بوضوح في مؤلّفات الاستشراق طوال مراحله المختلفة، ومحطاته البارزة وكشفت عن حقيقة المنظومة الاستشراقية برمتها، وعن الخلفية الغربية ومرجعيتها، وأبقت إلى الآن جملة من أحقاد دفينة لم تطفئها سياسة الشعارات الغربية البراقة والفارغة في آن واحد تحت مظلة السلام في الشرق الأوسط وسياسة الانفتاح؛ ولا المناهج العلمية النزيهة المزعومة التي يتغنون بها؛ بل الأمر دون ذلك

وبهذه الدوافع وغيرها أقبل المستشرقون على تعلم اللغة العربية وعلومها بشغف كبير، ليس حبا فيها ولا في أهلها؛ بل لتمكنهم من الاطلاع على ما فيها من مصادر تراثية قيمة، بوصفها لغة القرآن والفكر والعقيدة والثقافة حيث "شكلت الهوية الحضارية لمرحلة مهمة من تاريخ الإنسانية"[1] ومن هذا المنطلق نظروا إليها برؤى مختلفة متباينة، وتنوعت المناهج التي استخدموها في دراستها والتنقيب عن أسرارها، وكلّ هذا ألقى بتبعاته على فهم النصوص التراثية "فدرجة المعرفة بها هي معيار هام لموضوعية الباحث"[2] ولا ريب في أن قيمة المصادر المعتمدة وطبيعتها تُؤثر تأثيرا عميقا جدا في أي دراسة، وهذا ما يؤكده الباحث حسن عزوزي بقوله: "إنّ فعالية ونجاعة المنهج المتبع في أية دراسة تتوقف على قيمة وطبيعة المصادر والروافد المعتمدة، إذ هي القاعدة المغذية والمادة الخام التي ترتكز عليها الدراسة فكلّما كانت المصادر رئيسة وأصيلة وذات علاقة مباشرة بالموضوع، كانت الدراسة أقرب إلى حصول المراد المنشود والمبتغى المقصود من طرف الباحث"[3] وهذا أمر يمكن أن يلاحظه كلّ من تتبع بدقة بعض أعمال المستشرقين ودراساتهم في مجال دراسة التراث العربي على اختلاف جوانبه قديما وحديثا، وانكبوا على جمع التراث العربي وتحقيقه ونشره وتنافسوا في اقتناء الكتب الإسلامية والشرقية بوجه عام مغتنمين فرصة سيادتهم على الشرق وضعفه واضمحلاله، فصادروا مخطوطات المساجد والزوايا بقرارات ملكية، وبإيحاءات من الدول

---

[1]- ياسر عبد الرحمن الليثي "اللغة العربية ودراسات الاستشراق الإسلامية" مجلة التسامح، سلطنة عمان: 2007، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ع17، ص 2.

[2]- المرجع نفسه، ص10.

[3]- حسن عزوزي، آليات المنهج الاستشراقي في الدراسات الإسلامية، ط1. فاس-المغرب: 1996، مطبعة آنفو-برانت ص 19.

الاستعمارية، واشتروا بثمن بخس دراهم معدودة ما لدى الأفراد من كتب ومصادر هامة، وفي هذا المقام يقول الدكتور زكريا هاشم زكريا في كتابه: "المستشرقون والإسلام" عما ذكره الكونت فليب دي طرازى في الجزء الثاني من خزائنه في مكتبة دير الشوير بلبنان مخطوطة من كتاب وفيات الأعيان لشمس الدين بن خلكان 1211- 1282م "قنصل فرنسا في بيروت في منتصف القرن السابع عشر، خلاصتها أنّه في سنة 1671م أرسل ... الملك لويس الرابع عشر رسله إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات في شتى العلوم والمعارف الإنسانية، وزود مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنسية ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمة هذه الغاية"[1] ولم يقف هذا الاهتمام عند هذا الحد فقط؛ بل حرص وغيره من ملوك أوروبا على إنشاء منبر خاص لتعليم اللغة العربية في المدرسة الملكية، وعمل لذلك إنشاء على إحداث المكتبات العربية في قلب أوروبا، ويضيف الباحث أحمد درويش في كتابه: «الاستشراق الفرنسي والأدب العربي» حيث تعرض فيه لأهمية المخطوطات العربية بالذات قائلا: "ازدادت حركة البحث عن المخطوطات العربية وتصنيفها في فرنسا... ومثّلت إحدى الظواهر المهمة في القرن السابع عشر والثامن عشر، وكان الوزير الشهير كولبير Colbert يكلّف بعض المعتمدين في الشرق بالبحث عن المخطوطات العربية لتزويد مكتبة لويس الرابع عشر بها، وكانت تشترى من العاصمة العثمانية استنبول التي كانت مكتباتها العامة والخاصة تعج بالمخطوطات العربية المجلوبة إليها من الولايات العربية المختلفة"[2] وهكذا أصبحت فرنسا تحوي أعظم مكتبات العالم وأغناها وأهمها بندرة مخطوطاتها.

وإنّ كنا لا ننكر أنّ بعضهم قد أنصف، والآخر قد أسلم بعد دراسته وتمحيصه وتدقيقه في أسرار الدعوة الإسلامية ومقاصدها الكبرى، واكتشف ما فيها من كنوز، ومدى ارتباطها بالعلم والحق والقوة والعزة، من حيث هي عقيدة وتشريع وعبادة وتربية وسياسة ومعاملة وقانون، ثم الاقتناع بما جاء فيها من خير للبشرية كافة، وبما تتميز به من عدل ومساواة، أمثال: المستشرق البريطاني المشهور هاري سنت جون بريدجر فيلبي Harry St. John Bridger Phillby

[1]- زكريا هاشم زكريا، المستشرقون والإسلام، مصر: 1965، لجنة التعريف بالإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية الكتاب العشرون، ص 21.

[2]- أحمد درويش، الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، ط10. القاهرة- مصر: 2004، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص21.

1885-1960م المسمى بعد إسلامه الشيخ عبد الله[1] والسويسري جوهن لويس بوركهارت John Lewis Burckhardt 1784-1817م الذي "تسمى باسم الشيخ إبراهيم بن عبد الله بعد اعتناقه للإسلام"[2] والألماني فريتس كرنكوف Fritz Krenkow 1872-1953م المدعو بعد إسلامه سالم كرنكو"[3] وغيرهم.

---

[1]- هاري سينت فيلبي، الربع الخالي، تر: صبري محمد حسن، ط1. القاهرة: 2007، المركز القومي للترجمة والهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ص 8- 9 / وينظر: أحمد محمود أبو زيد "فيلبي الرحالة البريطاني" المجلة العربية، مصر: 2012، ع 522، ص 5.

[2]- جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي، تر: إبراهيم أحمد شعلان ط3. مصر: 2000، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ص26.

[3]- خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط7. بيروت-لبنان: 1986، دار العلم للملايين، مج5، ص 144، بتصرّف.

الفصل الأوّل

المستشرقون وفن تحقيق المصادر اللغوية.

1- نظرة المستشرقين إلى مصادر العربية حسب المراحل التاريخية

من المعروف أنّ النشاط الاستشراقي ليس وليد القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ بل ظهرت أولياته وبوادره في القرن العاشر الميلادي، عن طريق الأندلس وصقلية وبجاية، والحروب الصليبية وحروب الإفرنج، وكذا عن طريق الفتوحات الإسلامية في مختلف البلدان التي انتشر فيها الإسلام، ولا شك في أنّ هذا الانتشار السريع لهذا الدين في مشارق الأرض ومغاربها قد لفت بقوة أنظار رجال الدين – اللاهوت النصراني- وشغل بالهم أولا، فمن هنا بالتحديد لا بّد من الاعتراف مسبقا أن هذا الاهتمام بالإسلام ودراسته، بدأ أولا من أجل حمايتهم – رجالات الدين- لأنفسهم ولإخوانهم منه وليس حبا فيه ولا في الدخول فيه أو معرفته، أو ابتغاء إدراك كنوزه، واكتشاف أسراره.

وعلى كلّ حال؛ وبإجماع الدارسين في هذا الميدان، وعلى رأسهم د. محمد فاروق النبهان الذي يؤكد بقوله إنّ الظاهرة الاستشراقية: "وليدة صراع طويل بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية وهي نتاج تجربة حية من تناقض وتباين بين عقيدتين وثقافتين وحضارتين"[1] فإنّ في الصدام العنيف بين الحضارتين المختلفتين هو الدافع الأساسي والمبكر لهذا الاهتمام الذي أدى بدوره إلى ظهور حركة الاستشراق قوية فيما بعد، ويتمثل في الصراع القائم بين العالمين، العالم النصراني والعالم الإسلامي على الصعيدين الديني والإيديولوجي.

فعندما فشل أسلوب القوة مع الشرق، بعد الحروب الصليبية خاصة، لجأ الغرب إلى استعمال أسلوب آخر؛ ألا وهو أسلوب دراسة أحوال المسلمين، ليتمكنوا من السيطرة على العالم الإسلامي وإخضاعه تماما.

ثم اشتد هذا الاهتمام في القرون الوسطى، حيث تمت ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، كما ظهر أيضا في هذه الفترة نفسها أوّل قاموس لاتيني-عربي، مع الإشارة إلى أن هناك نفر من الدارسين ممن زعموا أن أوربا عرفت اللغة العربية قبل ترجمة القرآن الكريم؛ طبعا لأغراض

---

[1]- محمد فاروق النبهان، الاستشراق: تعريفه، مدارسه، آثاره، دط. الرباط- المملكة المغربية: 2012م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. إيسيسكو، ص8.

تبشيرية واستعمارية بالدرجة الأولى، ومن هؤلاء نجد بعض الدارسين في مؤلفه المسمّى "الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم" قائلا: "أُسِّست المعاهد للدراسات العربية أمثال مدرسة بادوي العربية وأخذت الأديرة والمدارس العربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللغة اللاتينية وهي لغة العلم في جميع بلاد أوربا يومئذ، واستمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون"[1] وهذا في حدود القرن الحادي عشر الميلادي وبالضبط في غضون 1092–1156م.

ومن أوائل الرهبان الغربيين الذين قصدوا الأندلس وأخذوا عن علمائها، وتثقفوا في مدارسها وترجموا الكتب العربية إلى لغاتهم الأصلية، وعملوا على نشر ثقافة العرب وعلمائهم نجد كلّا من: الراهب الفرنسي الذي انتخب بابا لكنيسة **روما** بعد عودته إلى بلاده عام 999م، ألا وهو جربرت Jerbert وبطرس المحترم وجيراردي كريمون Gérard de Grémone حسب ما أشار إليه السباعي في مؤلفه حول مسألة الاستشراق والمستشرقين.

وعلى الرغم من هذه البدايات المبكرة للنشاط الاستشراقي، إلاّ أنّ مفهوم المستشرق orientaliste والاستشراق L'orientalisme لم يظهر في أوروبا إلا في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، حيث أُدْرِج هذا المفهوم في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838 للدلالة على التخصص بالثقافات الشرقية.

ففي القرن الثامن عشر الميلادي، ظهرت الدراسات اللغوية في أوروبا رغم قلتها، ومحدوديتها وافتقارها إلى المنهج العلمي، فلم يكن الدّرس اللغوي في هذه الفترة بالضبط يتجاوز بعض الدراسات التي تناولها المستشرقون لبعض اللغات السامية وبعض اللغات القديمة.

وتأتي نهاية هذا القرن– القرن الثامن عشر– فتحدث نقطة تحول ذات شأن في الدراسات اللغوية بأوروبا، حيث اكتشفت اللغة السنسكريتية من قبل الانجليزي وليم جونز William Jones 1746– 1794م، الذي بيّن العلاقة الموجودة بين هذه اللغة –المقدسة للهند– واللغات الأوروبية.

---

[1]– مصطفى السّباعي، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، دط. دار الورق للنشر والتوزيع، المكتب الإسلامي، ص 17.

حيث دفع هذا الاكتشاف إلى لفت أنظار علماء اللغة الأوروبيين- بالضبط فقهاء اللغة الفيلولوجيين- إلى اللغة السنسكريتية، وإلى وجوه القرابة الموجودة بينها وبين لغاتهم، فأخذوا يقارنون مقارنة علمية بينها وبين الألسنة البشرية ويوازنون عامة، حيث أخذ الدرس اللغوي في هذه الفترة الطابع التاريخي المقارن.

واهتمت الدراسات اللغوية خلال هذه الفترة بتحليل النصوص المكتوبة بلغات مختلفة لكنها ذات صلة، حيث تمكنوا – علماء هذه الفترة – في إثبات وجود علاقة بين كلّ من اللغة اللاتينية واليونانية والسنسكريتية، وذلك انطلاقا من تشابه معاني أصوات متشابهة في هذه اللغات الثلاث وهذا ما دفع بعلماء اللسانيات إلى دراسة العلاقات الموجودة بين مختلف اللغات الطبيعية.

مع الإشارة إلى انّ الهدف الأساسي من هذه الدراسة اللغوية كان دينيا محضا- بل قل أنّ الغرض الأساسي من دراساتها هو تحقيق غايات أخرى، مثل الوصول إلى معرفة ثقافة أمّة ما أو حضارتها- حيث كانت عند علمائها الرغبة الشديدة من حيث التمكن من قراءة كتابهم المقدس الفيدا ولم يقصد بها؛ أي هذه الدراسة علم اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، كما قال أبو اللسانيات الحديثة دي سوسير De Saussure فيما بعد.

والملاحظ على الدرس اللغوي في نهاية هذا القرن- القرن الثامن عشر- أنّه كان طابعا تاريخيا يعتمد بالأساس على المقارنة، وتعد اللغة السنسكريتية المنطلق الأساسي والمرتكز عليه حيث مكنت مختلف الشعوب بالاطلاع على التراث اللغوي الهندي، وهذا الفضل كله يعود إلى العالم اللغوي بانيني الذي لا تزال أفكاره ومصطلحاته الفنية والصوتية خاصة التي وضعها لعدد من الظواهر اللغوية مستعملة من طرف بعض الدارسين الغربيين المحدثين حتى وقتنا هذا.

إنّ الناظر في محطات هذه الظاهرة – ظاهرة الاستشراق طبعا- يجدها قد مرت بعدّة مراحل منذ بزوغها إلى سائر القرون الموالية لها، حيث يمكن اعتبار القرن الثامن عشر الميلادي شاهدا أمينا على تحول مفهوم هذه الظاهرة، التي كانت في أول الأمر ذات طبيعة ثقافية استكشافية حيث كان أصحابها يعتنون بالبحث في العلاقات الثقافية الإنسانية بين الشرق والغرب من خلال اللغات الشرقية والفنون والعادات والمعتقدات، ومقصدهم من ذلك استكشاف الفكر الإنساني وإيجاد الروابط بين الثقافات الشرقية والغربية إلى مفهوم أوسع وأعمق ذي طبيعة ثقافية علمية حيث كان روادها

يعتنون بالدراسات الإسلامية والعربية: دراسة الشرق وفكره وثقافته ومعتقداته، لاستكشاف طبيعة الحضارة الشرقية وخصوصياتها، على نحو ما يوضحه هذا المخطط البياني:

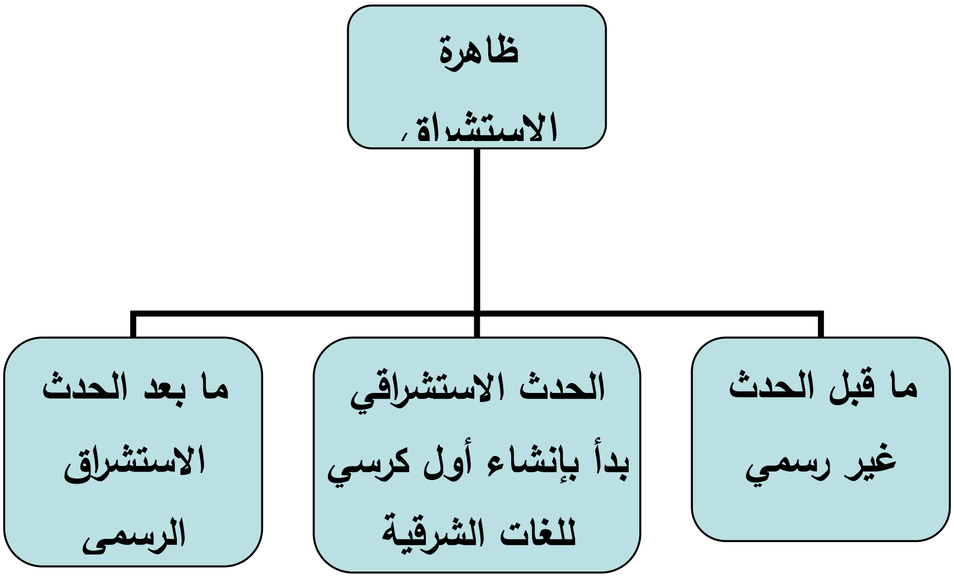

فلمّا جاء القرن التاسع عشر الميلادي، وهو زمن ازدهار الحركة الاستشراقية، حيث شهد ترجمة الأعمال اللغوية الهندية المكتوبة باللغة السنسكريتية إلى اللغات الأوروبية، فساعد ذلك على تنشيط الحركة الاستشراقية أكثر، وقد تُرجم مصطلح الفيلولوجي من قبل بعض المستشرقين إلى «فقه اللغة».

ومع حلول القرن العشرين، أخذت الدراسات اللغوية تكتسي طابع العلمية، حيث اصطبغت بصبغة الوصفية، بعد أن كانت النظرة التاريخية المقارنة هي المهيمنة عليها لعقود طويلة، والفضل في ذلك يعود إلى العالم اللغوي دي سوسير بمنهجه الوصفي الذي ساد أوروبا ثم أمريكا ومختلف أنحاء العالم، حيث أحدث ثورة حقيقية في مجال الدراسات اللغوية.

والملاحظ على القرن العشرين وعلى عقوده خاصة هو العناية الكبيرة المتنامية باللغة العربية وآدابها وبالدراسات المتعلقة بالنقود الشرقية ومسكوكاتها، وتتبع المصادر الشرقية التاريخية مع العناية الفائقة بالمخطوطات دراسة وتحقيقا، فجعلت كل هذه العناية المتنوعة والمتعددة من فن الاستشراق فنا، أو بتعبير آخر علما قائما بذاته له كيانه ومعالمه وحدوده الخاصة به، يرفض أية قراءة عقيدية، دراسة اللغة بدوافع دينية لتفسير الكتب المقدسة أو لأغراض أخرى، سواء تاريخية أو تراثية أو غيرها أو تاريخية اللغة العربية.

وإذا حاولنا تصور الاستشراق الأوربي بمدارسه بصفة عامة، ابتداء من المدرسة الفرنسية العريقة التي تعد "مدرسة اللغات الشرقية الحية التي أسست في باريس 1795 وجهة المتخصصين باللغة العربية، نجد أنّ استقلال الدراسات العربية أدى إلى بث روح جديدة فيها، فألف سِلفستر دي ساسي سنة 1810م كتابه: "النحو العربي" واتجه تلامذة بعزيمة ونشاط إلى المخطوطات العربية وحققوا عددا كبيرا منها، كما انصرف بعضهم إلى إعداد المعاجم"[1] وتكمن أهميتها في مؤسسيها حيث كان لهم الفضل في تدريس أوائل المستشرقين الألمان ممن لهم أثرهم صيتا وفعالية فالمدرسة الألمانية والإنجليزية والهولندية والروسية وغيرها من البلدان الأوربية.

مع الإشارة إلى أن عدم توسعنا في المدرسة الإنجليزية يرجع إلى طبيعة اهتماماتها، حيث إنّها لم تعمل على تحقيق التراث إلا قليلا؛ بل ركزت جهدها على نقده ووصفه وتفسيره فقط، فكلّ مدرسة تعدّ مؤسسة وممهدة لمدارس استشراقية أتت من بعدها؛ ونحاول أن نذكر الاستشراق الأوربي بأكثر رواده انفردوا بحلقات متصلة فيما بينها كما يوضح الشكل الآتي:

وبوسعنا الآن أن ننقل هذه الصّيرورة إلى هذا المخطط:

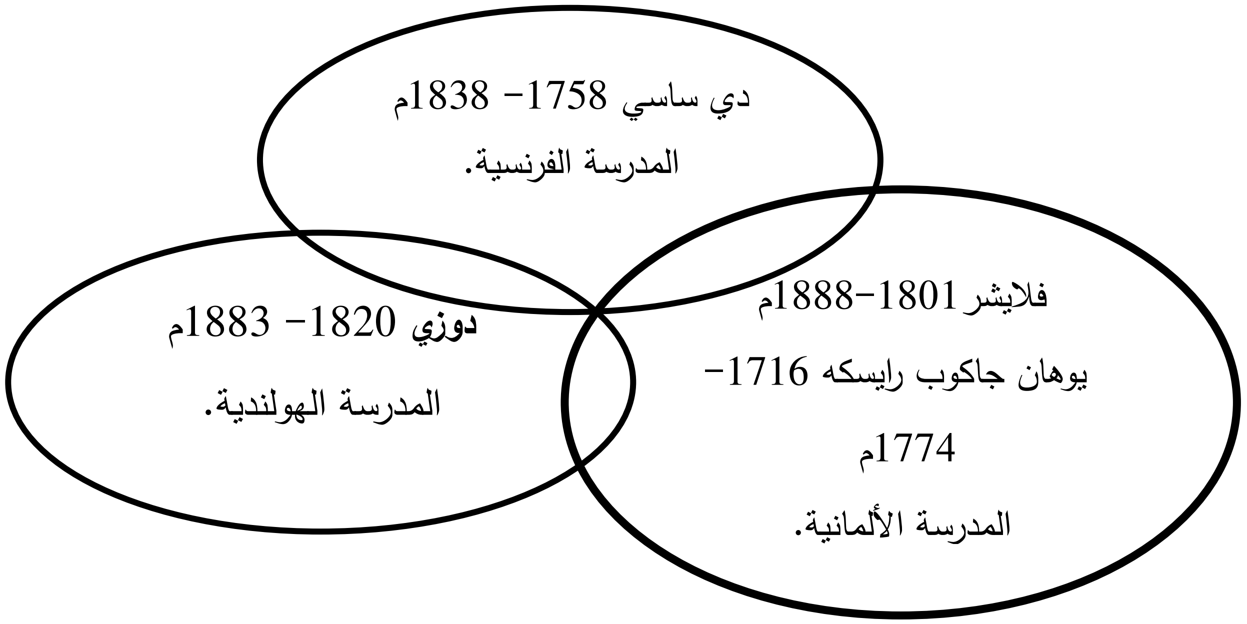

---

[1]- عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، 2010، ص21.

يفهم ممّا تقدم أن وصول فن الاستشراق إلى استقلاليته وتحديد معالمه، وبلوغه القمة لم يبلغ الذروة إلا في القرن التاسع عشر، الذي ظهرت فيه مؤلفات جليلة القدر، إذ من الضروري أن يمر على مراحل وأطوار طويلة من المحطات، ولكلّ محطة منها ينفرد ذلك الاستشراق برائد من روادها، إذ يبنى اللاحق منهم منجزه على جهود سابقيه، وهذه سنة من سنن أي علم فهو لا ينشأ من عدم؛ بل هو نتيجة تراكم معرفي، فهذا ترابط للأوشاج العلمية التي لا يمكن فصلها أبدا عن بعضها البعض، فكلّ علم يولد وينمو ويتطور على مر الزمان، فالعلم كلّ متصل الأجزاء يرتبط أوله بآخره، ومن القصور أن نقف به عند حدود زمنية معينة.

فبدءا برواد المدرسة الفرنسية، نذكر أبرزهم مكانة؛ ألا وهو شيخ المستشرقين الفرنسيين كما يلقبه بعضهم أنطوان إيزاك سِلفستر دي ساسي 1758- 1838م مرورا برائد الاستشراق الألماني رايسكه 1716- 1774م، الذي كان له أثر كبير جدا في تاريخ حركة الاستشراق حيث تمكن هذا العالم من تحديد وضبط بدقة موضوع الاستشراق، ألا وهو دراسة اللغة العربية وآدابها وكلّ ما يتعلق بتراثها لا غير، فبفضل هذا الضبط أخرج رايسكه الدراسات اللغوية من دائرة التاريخ والدين وغيرها من الأغراض، ثم بعده يأتي المستشرق الهولندي دوزي 1820- 1883م أحد زعماء المدرسة الهولندية، الذي كان بدوره تلميذ دي ساسي، وبلغ فن الاستشراق ذروته على يد المستشرق الألماني فلايشر 1801-1888م، وأوغست فيشر 1949م وغيرهم من الدارسين الذين جاؤوا من بعدهم ونهجوا منهج هؤلاء السابقين – بعدما فتحت إسهاماتهم في ميدان اللغة طريقا واضحا ممنهجا- وتتلمذوا على أيديهم وتابعوا مسيرة الدراسات الشرقية، من أبرزهم نجد كلّا من: ريجيس بلاشير 1900-1973م، وبرجشتراسر 1886-1933م، وهاري سينت جون بردجر فيلبي 1885-1960م، وليفي بروفنسال 1894-1956م، وكارل بروكلمان 1868-1956م ولويس ماسينيون 1838-1962م، والفريد جيوم 1888-1966م، ويوهان فوك 1894- 1974م وغيرهم كثر، ممن قدموا جهودا جبارة جديرة بالتقدير والتنويه، وإسهامات كثيرة ومتعددة في الدراسات العربية سواء أكانت لغوية أدبية أم دراسات إسلامية – كلّ ما يتعلق بالإسلام وفكره ومذاهبه وطرقه الصوفية وتراثه ومؤلفاته – بدون أن ننسى تطرقهم إلى كلّ ما يتعلق بالحضارة

الإسلامية والخلافة الإسلامية كذلك، وبالمخطوطات العربية وبالشعر الجاهلي أيضا، تحقيقا وتأليفا وتصنيفا وترجمة وفهرسة.

ويمكننا أن نوجز هذه المراحل كلّها من خلال رسم بياني عام يوضح حدود كلّ مرحلة من مراحل هذا العلم على هذا النحو:

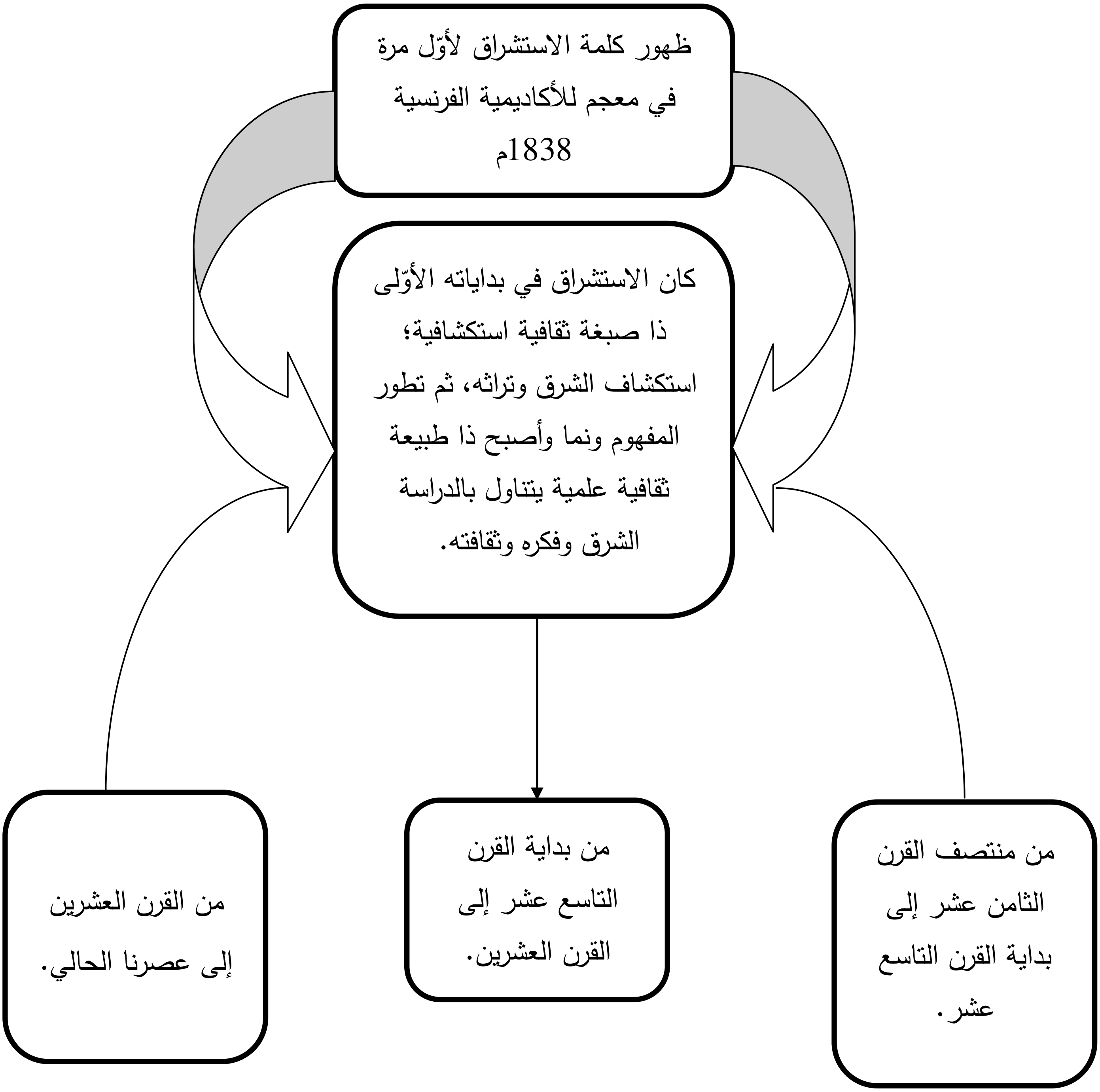

هذا المخطط يبيّن تطور مفهوم الاستشراق في مجال الدراسات اللغوية حسب المراحل الزمنية:

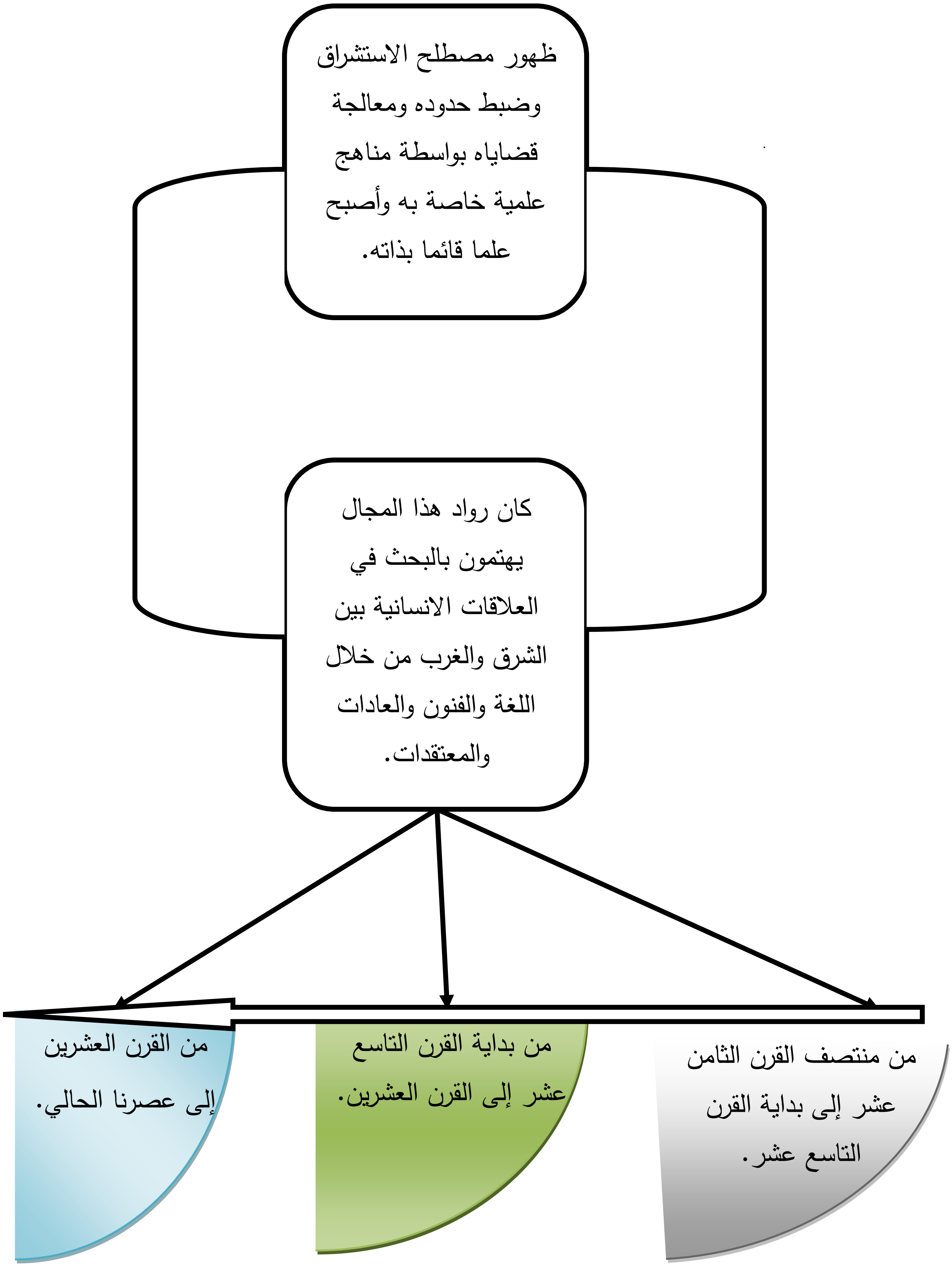

2- المعاجم القديمة، وتأليفهم المعاجم العربية على الطريقة الحديثة

1/2- المعاجم القديمة

اجتهد النحاة واللغويون في دراسة اللغة العربية، وتحديد معالمها، من جميع نواحيها: الصوتية والصرفية، والتركيبية والدلالية المعجمية، وقد برز العرب بشكل خاص في صناعة المعاجم وتصنيفها، فشهد لهم بالتميز والسبق كمّا وكيفا في هذا المضمار، ويعترف بهذه الحقيقة "المستعرِب جون أ. هيوود، كبير أساتذة الدراسات العربية في جامعة درهام الإنجليزية في كتابه المعنون بـ: صناعة المعاجم في العربية أو إذا صحّ التّعبير معجمه: اللغة عند العرب؛ إذ يقول: ... وكان لدى العرب معجم شامل هو لسان العرب كانت دونه دقّة وشمولا معاجم سائر اللغات قبل القرن التاسع عشر"[1] وعلى غرار هذا القول يقول أحد الباحثين: "إنّ اللغات العالميّة الحيّة الأخرى لم تحظ بمعجم قبل القرن التاسع عشر؛ أي بعد حوالي تسعة قرون من صدور المعجم العربي الأوّل، ثم ظهر معجم أكاديمية كروسكا الإيطالية الذي صدر1612، ثم ظهر معجم الأكاديمية الفرنسية الذي نشر بين عامي 1638-1694م، وبعد هذين المعجمين ألّف دكتور جونسون معجمه الإنجليزي عام 1755، ثم ظهر معجم وبستر الأمريكي الذي صدر عام 1828"[2] فالقولان يؤكدان الأسبقية للعرب في هذا الفن، في صناعة المعاجم.

إلى أن ظهرت الإرهاصات الأولى لعلم المعاجم lexicologie باعتبار هذا العلم يبحث في المفردات اللغوية من حيث مبناها ومعناها وعلى هذا الأساس يعدّ فرعا من فروع علم اللغة العام بمجموع علومه من صوتية وصرفية ونحوية ودلالية وبلاغية وأسلوبية - في مرحلة نشأته الأولى عند العرب والمسلمين في شكل حقول مختلفة، كما نجد أيضا رصيدا وافرا كبيرا من المعاجم تتبعت الكلمات جمعا وترتيبا وتصنيفا.

---

[1]- عدنان الخطيب، المعجم العربي بين الماضي والحاضر، ط2. بيروت: 1994، مكتبة لبنان ناشرون، ص 5.

[2]- علي القاسمي "المعجم التاريخي للغة العربية" مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع99، 12-06-2017 www.alfawanis.com.

لقد كانت هناك مظاهر للتناول المعجمي- ونذهب هنا مذهب كلّ من المعجمي محند الركيك والمعجمي محمد رشاد الحمزاوي وغيرهما من الذين يتبنون مصطلح "المعجمية" في مقابل المصطلح الحديث lexicologie لأنّ هناك من يرى أن المعجمية تشمل علمين أساسين هما علم المعاجم وعلم صناعة المعاجم lexicographie أمثال: الباحث علي القاسمي في التراث المعرفي العربي؛ لكن ضمن الاهتمامات اللّغوية الأخرى، امتزج البحث فيه بضروب من المعارف المختلفة من غير أن يحمل عنواناً مميزاً، باعتباره فرعا من فروع علم اللغة له استقلال في موضوعاته ومعاييره الخاصة، وكذلك هو علم حديث النشأة؛ باعتبار أنّ أصوله وأسسه ومناهج البحث فيه قد حددت في مطلع القرن العشرين، فمع مطلع هذا القرن ظهرت ثورة علمية في مختلف العلوم، وعلم المعاجم كغيره من العلوم حاول أن يرسم معالمه الخاصة به ويحد حدوده التي تفصله عن بقية العلوم، مستفيدا في ذلك من علم اللغة بشقيه النظري والتطبيقي.

لكن إذا نظرنا من جهة أخرى إلى حركة النشاط المعجمي الغربي نجده قطع أشواطا كبيرة في هذا المجال، ذلك حين نتحدث نحن عن ضرورة تأليف معجم تاريخي، نجعل منه مرجعا وديوانا للغة العربية يجمع بين دفتيه تاريخ ألفاظها وأساليبها وتطورها عبر الأزمنة والأصقاع وهي أحوج ما تكون لهذا المعجم باعتبارها الأطول عمرا بين اللغات، وأغنى تراثا، وهي إحدى اللغات العالمية التي استعملتها مختلف الشعوب والثقافات والأعراق، ويبقى لحد الآن مجرد فكرة سهل تصورها صعب تحقيقها، أما في الغرب فنجدهم يمتلكون مؤسسات خاصة بهذا الشأن، وتعمل على تجسيد ما توصلت إليه في شكل معجمة متجددة تسجل فيها كل ما جد في لغتهم، ونذكر على سبيل التمثيل لا الحصر مؤسسة أكسفورد Oxford الإنجليزية وغيرها من المؤسسات الكثيرة الأخرى.

لذلك برع في هذا الميدان كثير من المستشرقين الكبار، الذين اهتموا بالحضارة العربية الإسلامية وتاريخها وتراثها اللغوي، حيث أجهدوا قرائحهم دراسة وتأليفا وتحقيقا وتصنيفا، باحثين في جذورها ونشأتها، ليكتشفوا كنوزها ودررها، وتركوا لنا إرثا كبيرا في هذا المضمار.

ونروم في هذا الفصل تبيان إسهامات بعض المستشرقين البارزين في مجال الدراسات اللغوية وفي مجال التأليف المعجمي، والنحو، وعلم الأصوات، كذا فقه اللغة العربية ومقارنته في اللغات السامية

خاصة، ومن أبرز هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر– نظرا للكمية الكثيرة والمتنوعة من المؤلفات التي خلفوها– الذين كانت لهم اليد الطولى في ذلك نذكر منهم: المستشرق الفرنسي أنطوان إيزاك سلفستر دي ساسي Antoine Isaac Silvestre de Sacy والألماني يوهان جاكوب رايسكه Johann Jakob Reiske 1716–1774م، والبولوني بيبر شتاين كاسيميرسكي Kazimirski Biberstei 1780–1865م، والهولندي رَيِنْهَارْت دوزي Reinhart Pieter Anne Dozy 1820 –1883م، والألماني أوغست فيشر August Fischer 1865 –1949م وما إلى ذلك.

1/2-1- رَيِنْهَارْت دوزي 1820–1883م

يُعدُّ دوزي من أبرز المستشرقين في المدرسة الهولندية الذين اهتموا بالمخطوطات الشرقية له فهرس للمخطوطات الشرقية في مكتبة جامعة ليْدن، وآخر في المجمع الهولندي بأمستردام ،وكان من تلاميذ فايرس، تخرج في جامعة ليْدن بهولندا، وعين فيها أستاذا للغة العربية.

يتميز هذا المستشرق الهولندي الأصل والفرنسي الجنسية بكثرة إنتاجه العلمي تأليفا وتصنيفا عن الإسلام وثقافته وحضارته، كما اشتهر بدراسة تاريخ شمال أفريقيا والأندلس "ويراه أعلام المستشرقين أوّل فاتح للدراسات الأندلسية وتعد مؤلفاته فيها مرجعا لتاريخ الأندلس وحضارته وثقافته"[1] حيث كتب عن تاريخ المسلمين فيها عدّة مؤلفات، من أشهرها وأبرزها المسمى: تاريخ المسلمين في إسبانيا إلى فتح المرابطين لها، وهو كتاب في أربعة أجزاء، يتألف من 1410 صفحة، تناول في جزئه الأول الحروب الأهلية، وفي الثاني عالج قضية النصارى والمرتدين، وفي الثالث تطرق إلى مسألة الخلفاء، وفي الرابع تحدث عن ملوك الطوائف.

ومجمل القول فإنّ هذا التأليف عبارة عن مرجع تاريخي يتحدث فيه دوزي عن البدايات الأولى لفتح الأندلس إلى غاية مجيء المرابطين إليها، حيث يعدّ هذا الحدث من أضخم الأعمال التاريخية التي كتبها المستشرقون، وهذا ما يؤكده أنور زناتي بقوله "فقد نال اهتماما كبيرا من المستشرقين وعلى رأسهم دوزي الذي فطن مبكرا إلى قيمة ما كتبه ابن حيان واستعان بمخطوطاته

[1]– رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، تح: محمد سليم النعيمي، دط. العراق: 1398هـ/1978م، دار الحرية للطباعة ج1، ص6.

في كتاباته عن تاريخ الأندلس"[1] حيث قام في هذا الكتاب بإبراز مكانة ابن حيان الأندلسي بين مؤرخي الإسلام.

كما كان دوزي من كبار المستشرقين الذين اهتموا بالدراسات اللغوية المعجمية بصفة عامة ومن الذين تخصصوا بمجال صناعة المعاجم العربية بصفة خاصة، وله آثار علمية عديدة في هذا المجال من أشهرها معجم تكملة المعاجم العربية أو المستدرَك المصطلح عليه بالحرف اللاتيني Supplément aux dictionnaires arabes الذي ألّفه عام 1881، وقد جاء هذا المؤلف في مجلدين ضخمين من الحجم الكبير، مجموع صفحاتهما 1728 صفحة.

ويعترف دوزي في مقدمة هذا المعجم "أنه خلاصة عمل أربعين سنة جمع فيها مواده، وأنّ تنسيقه وتحريره اقتضاه ثماني سنوات من عمره قضاها في عمل دائب"[2] ما يدل دلالة واضحة على جهد دوزي المبذول في صناعة المعاجم العربية بالمفهوم التطوري التاريخي من ضمن السابقين الأولين في وضعها تأليفا وتصنيفا، وعلى مدى اهتمامه بالتراث المشرقي بصفة عامة وبالعمل المعجمي بصفة خاصة، وإنّه لدليل قاطع على عناية فائقة من قبله بالدراسات اللغوية العربية.

وهو معجم موسوعي يجمع خليطا أو جملة من الكلمات العربية الفصحى واللغة العامية (الدارجة) ومرادفاتها من اللغة الفرنسية دون تحليل لطبيعة هذه المفردات أو بيان طريقة ظهورها أو حصر المنطقة التي تُستعمل فيها، فحاول أن يثبت فيه "الألفاظ الطارئة التي دعت إليها ضرورات التطور وفرضها تقدم الحضارة ورقي العلم، واستعملها مؤلفو العصور الوسيطة ومن جاء بعدهم من مؤرخين وقصاص وجغرافيين ونباتيين وأطباء وفلكيين"[3] وثبت غيرها من الألفاظ التي لم تذكر في المعاجم القديمة. ولعلّ من أبرز المآخذ التي سجلت على معجم دوزي، التي حاول الباحث محمد سليم النعيمي حصرها ألا هي:

---

[1]- أنور زناتي، حامل لواء التاريخ في الأندلس ابن حيان القرطبي 377-988/469هـ-1076م، دط. ص 6-7 بتصرّف.

[2]- رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، تح: محمد سليم النعيمي،ج1، ص8- 9.

[3]- المرجع نفسه، ص9.

* أنّ دوزي لم يرجع إلى المعاجم القديمة حتى يتأكد من أنّ الألفاظ التي أوردها في معجمه غير واردة فيها، وكان من أثر ذلك على وجه التحديد "أنّه أثبت في معجمه كثيرا من الألفاظ التي وردت في الكتب العربية المنشورة وهي مذكورة في هذه المعاجم"[1] معتمدا في تفسيره أياها على ما ذكره إدوارد وليام لين Edward William Lane من تفسير لها باللغة الإنكليزية في معجمه: "مد القاموس" الذي ألفه في ثمانية أجزاء في غضون 1863-1893م، وعمد فيه إلى شرح ألفاظ اللغة العربية باللغة الإنجليزية شرحا موسعا، بحيث أصبح هذا المعجم قاعدة بنيت عليها معظم المعاجم العربية الأحدث عهدا باللغات الأوروبية، ومازال من أجود المعاجم المتداولة لدى بعض الدارسين، يقول الرئيس السابق لقسم الدراسات الشرقية بجامعة كمبريج الأستاذ آربري: "إن هذا المعجم يعد أكثر خدمة قدمها أوربي للغة العربية"[2] وفي هذا الصدد أيضا نجد أوغست فيشر يسجل شهادته في إدوارد لين ويعتبره من أعلم المستشرقين بالثقافة الشرقية وبمعجماتها على وجه التحديد.

* كما أنّ دوزي ذكر كثيرا من الألفاظ العامية التي وجدها في المصادر التي اعتمد عليها من غير أن يشير إلى أنّها من كلام العامة، أو من الألفاظ المستعملة في اللغة الدارجة لمنطقة معينة؛ بل إنّه يحذف الإشارة إن وجدت مثبتة في المصدر الذي نقل عنه، وهذا الفعل من دوزي سيؤدي حتما إلى اختلاط المفردات الفصيحة بالعامية على القارئ العربي بالضبط، فكيف بغير العربي ألفناه مستعربا دخيلا؟

* عدم رجوع دوزي إلى المصادر الأصلية تسبب له في احتواء معجمه على أخطاء ليست بقليلة "ومن هذه الأخطاء ما يؤاخذ عليه عَلاَمَةٌ مثله، فقد ذكر مثلا لفظة (أطراسنا) بعد لفظة (أطمة)"[3] وأنه في بعض الحالات لم يكن يفهم جيدا شرح المفردات وهذا ما اعترف به دوزي نفسه

[1]- رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، تح: محمد سليم النعيمي،ج1، ص9.

[2]- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ط6. القاهرة: 1988، عالم الكتب، ص320.

[3]- رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، تح: محمد سليم النعيمي،ج1، ص10.

حين قال: "بأنّه لم يفهم معنى بعض النصوص التي ينقلها"[1] ففي بعض الأحيان يُرجع السبب إلى صعوبة فهم النص وإدراك معانيه.

ولا بّد لنا من الإشارة إلى الدّور الفعال الذي لا ينكره منصف ما قام به دوزي في إعادة بعث التراث اللغوي العربي ونشره وتحقيقه ودراسته، حتى لو كان من بعض جوانبه فقط. ومن أهمّ مميزات هذا المعجم التي تحسب لدوزي كذلك، أنّه على غرار المعاجم القديمة التي حاولت إثبات الألفاظ القديمة من غريب اللغة ونوادر الأعراب، وفي الوقت نفسه أهملت كثيرا من الألفاظ والاستعمالات الجديدة التي ترددت في الشعر المحدث الذي ظهر في العصر العباسي، فإنّ رينهارت دوزي تجاوز هذا التاريخ؛ ولم يقف عنده بل حاول مسايرة النهضة ومتابعة التطور الذي حدث تاريخيا إلى عصره، فقام بذكر الألفاظ المولدة والمعاني المستحدثة في مؤلفه هذا، وبذلك لم يقطع سلسلة التطور من معاني الألفاظ، وقام بمراعاة التطور التاريخي للغة.

وأثبت دوزي بمعجمه "تكملة المعاجم العربية" أنّ اللغة بصفة عامة كائن حي متطور، فهي تنمو وتضعف وتنهار، وتمر بنفس مراحل الكائن الحي وتخضع لما يخضع له من تغير: "في نشأته ونموه وهي ظاهرة اجتماعية تحيا في أحضان المجتمع وتستمد كيانها منه ومن عاداته وتقاليده، وسلوك أفراده، وهي تتطور بتطور هذا المجتمع فترقى برقيه وتنحط بانحطاطه"[2] واللغة العربية بصفة أخص لغة مرنة قابلة للاستجابة ولمتطلبات العصر الحديث في جميع الميادين في المجال التقني خاصة.

وتبين لنا من خلال المعجم المدروس – معجم دوزي– أنّه من معاجم متعددة اللغات، حيث تشمل هذه المعاجم على مفردات لغة واحدة، ثم يذكر ما يقابل مدلولها بأكثر من لغة أخرى، منها اللغة الفرنسية وأحيانا قليلة ما يقابلها باليونانية أو اللاتينية أو العبرية، أما المنهج الذي انتهجه دوزي في ترتيب مواده، فهو منهج حديث، حيث قام بترتيب مفردات اللغة فيه بحسب حروف الهيجاء أو الحروف الألفبائية العربية، ورتبها حسب ترتيب الحروف فيها مضيفا إليه مداخل الأعلام والنبات والحيوان، وهذا ما جعل منه معجما سهل التنسيق، سهل المأخذ لمن أتى بعده.

---

[1]– رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، تح: محمد سليم النعيمي،ج1، ص 10.

[2]– عبد الكريم الرديني، المعجمات العربية دراسة منهجية، ط1. دار الهدى، الجزائر، ص23.

2/2- المعاجم الحديثة

2/2-1- أوغست فيشر 1865-1949م

أولى فيشر اللغة العربية اهتماما كبيرا، وذلك من خلال التأليف والتصنيف فيها منذ وقت مبكر، واهتم بالدراسات المعجمية خاصة، وهو من رواد المدرسة الألمانية التي تميزت بجدية البحث والتعمق فيه، والدقة في التحليل والاستنباط وعمق النظر وتأكيد المصادر وصحتها، ومن الصعب جدا تجاهل دور هذه المدرسة في مجال البحث والدراسة، ويعدّ فيشر أحد المبرزين في مجال الصناعة المعجمية الحديثة، فهو صاحب الفضل في فكرة مشروع إعداد معجم تاريخي للغة العربية، حيث نال هذا المشروع قبولا عاما وترحيبا واسعا في أوساط الباحثين العرب المحدثين في مضمار اللغة عامة، والمستشرقين خاصة.

ويؤكد بعض الباحثين أنّ فيشر كان مجتهدا طيلة عشرات السنين في جمع مادة معجمه قد عرض فكرته في اجتماع المستشرقين الألمان 1908؛ أي قبل طرحها من قبل المجمع الذي تأسس في عام 1932، الذي كان مشروع تأليف معجم تاريخي للغة العربية غرضا من أغراض تأسيسه، وبذلك فقد كانت فكرة تأليف معجم للغة العربية الفصحى عند فيشر تراوده منذ فترة، حيث تناول فيه: "تاريخ كل كلمة، مبتدئا بالكتابة المنقوشة في القرن الرابع الميلادي منتهيا بالقرن الثالث الهجري العاشر الميلادي"[1] شريطة أن تستخرج هذه الكلمات من متون المخطوطات والكتب القديمة ليتم على إثر ذلك تحديد عمر اللفظة ومعناها وبنيتها.

وعلى الرغم من أنّ معجم فيشر لم يخرج إلى حيز الوجود، ولم يسعفه الحظ في إكماله فإن له في ذلك مشاركة فعالة رائدة، وجهدا معجميا كبيرا، حيث أنّه بدأ الخطوات الأولى لتنفيذه إلا أنّ المنية سبقته، واعتبرت وفاته خسارة كبيرة للبحث اللغوي بصفة عامة، وللدراسات العربية بصفة خاصة.

لازم فيشر المستشرق توربكه Thorbecke آخذا عنه أجزاء علم الفيلولوجية والدراسات العربية خاصة، متقنا جملة من اللغات الشرقية، بفضل توجيهه إياه إليها، متوسعا فيها توسعا لا

[1]- محمد شوقي أمين "من التراث المعجمي: مثال (أخذ) من معجم فيشر" مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة: 1978م، ع 42، ص 35.

ينكر، وقد "نحا نحو فلايشر في العناية بفقه اللغة بوصفه أساسا لدراسة النصوص وتحقيقها"[1] فعمل بذلك على تحقيق التراث النحوي العربي، فنبغ فيشر وذاع صيته بفضل فكرته في إعداد معجم تاريخي للغة العربية يجمع جميع الألفاظ: "شرط أن تكون لغته تنتمي إلى نهاية القرن الثالث الهجري"[2] على حد ما ألزم به معجمه، فضلا عن البحوث والمقالات المترجمة، التي قام بنشرها في مختلف المجلات ودائرة المعارف الإسلامية وبعض الكتب.

وقد كان فيشر عميد الاستشراق في عصره في القرن التاسع عشر الميلادي، والذي بلغ البحث المعجمي على يده ذروته، فازداد الاهتمام به والإقبال عليه حتى أصبح فرعا مهما من فروع المعرفة الإنسانية، فكان صاحب أوّل تجربة عملية لصناعة معجم تاريخي للغة العربية.

عرّف الدكتور أحمد مختار عمر فيشر في كتابه «البحث اللغوي عند العرب» بقوله: إنّه كان "حجة في اللغات الشرقية من عربية وعبرية وسريانية وحبشية وفارسية وغيرها"[3] مكنته من الاطلاع على خزائن كتب الشرق من أدب وتاريخ – تاريخ الحضارة العربية طبعا – لاكتشاف أسراره، وبالتعرف أيضا إلى علمائه وأدبائه، وثمة رأي يقول إنه كان دائم التنقل بين مكتبات المشرق وألمانيا باحثا عن ما تزخر به من مؤلفات نفيسة تمكنه من تحقيق مشاريعه.

وقد عين أستاذا لكرسي اللغات الشرقية في جامعة لايبزغ بين فترتي 1899– 1930م وأنتخب عضوا في مجمعي القاهرة ودمشق، ومن بين المهام التي أسندها مجمع اللغة العربية في القاهرة إليه وضع خطة معجم للغة العربية، حيث يتتبع فيه تاريخ بعض الكلمات وجميع التغيرات التي تطرأ عليها؛ أي تغير مدلولاتها ومعانيها، ويستفيد مما توصلت إليه المعاجم الأوربية من تطور ودقة وحسن تبويب وبراعة في الاستعمال، وثمة رأي يرى أنّ معجم أكسفورد كان المثال الأعلى لفيشر، فحاول تطبيق منهجه على اللغة العربية حسب ما ذهب إليه الدكتور إبراهيم مدكور 1902– 1995م في مقاله المسمى: مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما، وأكده الدكتور أحمد مختار عمر في كتابه: البحث اللغوي عند العرب.

---

[1]– عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، ص 261.

[2]– المرجع نفسه، ص 233.

[3]– أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص316.

وباعتبار فيشر عضوا في هذا المجمع حيث كان من الرعيل الأول الذين اختيروا لعضوية المجمع غداة إنشائه سنة 1932، فقد اشترك في كثير من لجانه، وبالتحديد كان عضوا في لجنة (المعجم التاريخي للغة العربية) وهي: "دائرة علمية يعمل بها مئات من العلماء والأدباء واللغويين تكون جامعة لإعداد مئات من الباحثين والمحررين، وتُحدث تطورا شاملا في الدراسات التاريخية والثقافية واللغوية بالكشف عن تراث العربية الذي لم يُنشر أو لم يقرأ بكامله، وعن معارف متعددة الأنحاء لم تكن متاحة من قبل"[1] حيث طلبت منه لجنة المعجم "وضع خطة للمعجم التاريخي"[2] والداعي الرئيسي لهذا الطلب يتمثل في أن: "المعجمات العربية الموجودة التي ألّفها الغربيون – وبخاصة تلك التي عالجت اللغة العربية الفصحى لعهدها القديم لا تفي بحال من الأحوال بالمطالب العلمية، وذلك لأسباب أخطرها أنها لم تعتمد على كتب الأدب الموجودة؛ بل نشأت من المعجمات التي ألّفها العرب وإن كانت هذه قيمة جدا..."[3] فمن خلال هذه العبارات السالفة الذكر نلحظ أن اللجنة طلبت من فيشر إعداد معجم للغة العربية الفصحى يساير فيه روح العصر ومستجداته ومتطلباته كذلك، وهذا لن يكون إلا إذا أخذ بعين الاعتبار تطور معاني الألفاظ عبر العصور.

وعرض فيشر على أعضاء المجمع مشروعه بالتحديد في الجلسة السادسة عشرة من الدورة الثانية للمجمع المصري في غضون سنة 1935م، تُلي محضر للجنة المعجم هذا نصه: "هذا المعجم خاص بألفاظ اللغة العربية الأدبية الواردة في دواوين الشعر، ونصوص النثر، والقرآن الكريم (على اختلاف الروايات) والحديث. أما المصطلحات فلا يذكر منها إلا ما يتعلق بالعلوم العربية كالنحو والصرف والعروض والقوافي، ومصطلح الحديث"[4] يتضح مما سبق تحديد فيشر الدقيق لمدونة معجمه.

---

[1]– محمد حسن عبد العزيز، المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج، ط1. القاهرة: دس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2008، ص11.

[2]– عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، ص231.

[3]– محمد حسن عبد العزيز، المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج، ط1. ص 62.

[4]– المرجع نفسه. ص29، بتصرّف.

ومن أهم مزايا هذا المعجم أنّه "يشرح ويبين المعنى الحقيقي لبعض الكلمات الواردة في بعض المصادر العربية التي عجز عن تفسيرها مؤلفو المعاجم القديمة، والسبب يرجع إلى عدم معرفتهم باللغات السامية وعادات بعض الأمم التي كانت تجاور العرب"[1] يتبين لنا جليا أن الشواهد والمراجع المختلفة والمتنوعة التي يتضمنها المعجم تقوم بإرشاد الباحث إلى المعنى الحقيقي للمفردة التي يبحث عنها، وقلما يجده في المعاجم التي لا تتوفر على الشواهد.

وفي حقيقة الأمر؛ كانت هناك حوافز دفعت بفيشر إلى إعداد هذا المشروع وهي: الدافع الأوّل هو نظرته "للغة على أنها دائمة التطور... ولكل كلمة تطورها التاريخي الخاص"[2] أما الدافع الثاني فيتمثل في "تأثره بالإنجاز التاريخي المتمثل في معجم أكسفورد فأراد تطبيق منهجه على اللغة العربية"[3] مع الإشارة إلى أن هذا المعجم اللغوي على الأساس التاريخي هو أوّل معجم لغوي حديث لم يسبق له مثيل في العالم، الذي لا تخلو مكتبة جامعية أو عامة – شرقا وغربا– من نسخة منه.

يتقصى معجم أكسفورد تاريخ حياة الكلمة في اللغة الإنجليزية واللغات المتصلة بها ولعلّ أهمية العمل نشأت نتيجة للمدة التي استغرقت في إعداده ونشره "التي تربى [تربو] على أكثر من نصف قرن نمت فيها اللغة الإنجليزية، وتأثرت مفرداتها في خلاله وما طرأ من تغير عبر السنين التي استغرقها أصحابه في إعداده وطبعه"[4] حيث بدأ العمل فيه سنة 1858، وتم طبعه سنة 1928، حيث استغرق العمل فيه قرابة سبعين عاما.

حيث سجل هذا المعجم الضخم مفردات اللغة الإنجليزية في مبانيها ومعانيها عبر التاريخ موضحة بشواهد مؤرخة ابتداء من عام 1150م، وإلى غاية صدور الطبعة الأخيرة في حدود عام 1970م: "منذ أن تبلورت اللغة الإنجليزية من العصور الأنجلوسكسونيّة إلى العصر الحديث"[5] أي

1– محمد حسن عبد العزيز، المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج، ط1. ص 29.

2– عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، ص231.

3– المرجع نفسه، ص231، بتصرّف.

4– داود حلمي السّيد، المعجم الإنجليزي بين الماضي والحاضر دراسة في منهج معجمة اللغة الإنجليزية، ط1. الكويت: 1978م، جامعة الكويت، ص 84، بتصرف.

5– جهاد يوسف العرجا وإيمان دلول، فنّ الصّناعة المعجميّة بين القديم والحديث، ص 14.

ابتداءً من القرن الثاني عشر الميلادي إلى غاية القرن العشرين، وحددت خلال هذه المدة عصور اللغة الإنجليزية؛ من إنجليزية وسيطة middle English، إلى إنجليزية حديثة Modern English دون أن ننسى الإنجليزية القديمة Old English حيث يحمل هذا المعجم بين طياته قرابة 5 ملايين بطاقة دونت عليها الكلمات وشواهدها التي اقتبست من 5000 مؤلف أو أكثر في مختلف العصور- ويعالجها معالجة تاريخية، كما يتقصى حياة كل مفردة واللغة المتصلة بها ليسجل بالتقريب تاريخ دخول هذه المفردة حيز الاستعمال، ويوضح مراحل نمو كل معنى من معانيها وصلاتها التاريخية أيضا بمعانيها الأخرى، كما يسجل كذلك الكلمات الإنجليزية المائة والمندثرة المهجورة العصر، ومن أهم المواصفات التي يتميز بها هذا المعجم مقدمة نظرية من أربع وثلاثين صحيفة تليها رموز مختصرة لمصادر المعجم، وفي الأخير رموز أخرى لبعض المصطلحات الواردة فيه.

أمّا متن معجم فيشر فيتكون من "ثلاث وخمسين صفحة، تبدأ مواده بالهمزة وتنتهي بمادة (أبد) كما استغرق تفصيل أنواع الهمزة عشرين صفحة، أما الصفحات الباقية فقد اشتملت على كلمات عربية وغير عربية"[1] وبنظرة متعمقة لمواد هذا المعجم نجده لا يحمل بين طياته إلا بعض الجذور العربية فقط، فهو معجم لا يحفل بجذور عربية كثيرة حسب رأي الدكتور عباس حسن الزويني.

وتجدر بنا الإشارة هنا ونحن نتحدث عن معجم فيشر أنّ نشير إلى اللغتين اللتين ترجمت بهما مفردات اللغة العربية، ألا وهما اللغتان الألمانية والإنجليزية، في حين كان رأي اللجنة أن تترجم الكلمات العربية باللغتين الفرنسية والإنجليزية، وهنالك من الدارسين الذين يرون أنّ: "اتباع الشرح العربي للكلمات شرحا بالإنجليزية والفرنسية لا يعود بالفائدة على اللغة العربية؛ إذ لسنا بصدد إنجاز معجم ثنائي اللغة؛ بل نحن بصدد إنجاز معجم أحادي اللغة، له نسق تاريخي خاص به، غير أن تعليل فيشر يوضح ذلك، حيث أرجعه إلى تمكين غير العرب من اللغة العربية، وهذا يعد تبريرا منطقيا مقبولا.

---

[1]- عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، ص231-232، بتصرف.

وعلى الرغم من أنّ المنية – بالضبط توفي فيشر سنة 1949- قد سبقته في مواصلة عمله المعجمي، إلا أن المجمع اقترح – وبقرار من رئيسه- طبع القدر الذي تم إنجازه من قبله وهذا ما يؤكده الدكتور إبراهيم مدكور- الأمين العام للمجمع- بقوله: "وعبثا حاول المجمع أن يلم شعث ما تفرق من أصوله، ولم يقف من جهود 40 سنة إلا على جذاذات غير مستوفاة"[1] وقد جاء هذا العمل – كما يرى معظم الدارسين المحدثين – ثمرة جهود طويلة متصلة، ووليدة خبرة واسعة تفوق أربعين سنة – وهذا باعتراف فيشر نفسه أنه كرس كثيرا من وقته لهذه المهمة، وعكف على ذلك زهاء نصف قرن من الزمان – من البحث والمثابرة، فعدّ بحق تجربة رائدة بامتياز في ميدان صناعة المعجم، وأقواها أثرا فيه، دعت المتخصصين بالمجال إلى قراءتها وتسجيل ملاحظتهم عليها ونذكر من بين هذه القراءات على سبيل المثال لا الحصر قراءة الدكتور عبد القادر المغربي، وهو أحد أعضاء المجمع بعنوان: معجم الدكتور أ. فيشر – وصفه ونقده في مجلة المجمع العلمي العربي، حيث أقام دراسته على تقرير قدمه فيشر نفسه إلى المجمع.

كما نجد أيضا عناوين عديدة ومختلفة تناولت معجم فيشر بالوصف والتحليل تارة، وبالنقد والتعقيب تارة أخرى، وأبرز هذه الدراسات وأشهرها: مقال للدكتور محمد رشاد الحمزاوي في مجلة "المعجمية" بعنوان: تاريخ المعجم التاريخي العربي في نطاق العربية: المبادرة الرائدة، كذلك مقال إسماعيل مظهر الموسوم "باللغة العربية وحاجتها إلى معجم لغويّ تاريخيّ" ونجد أيضا محمد شوقي أمين كتب مقالا في مجلة المجمع (الجزء الثاني والأربعون عام 1978م) بعنوان: من التراث المعجمي: مثال (أخذ) من معجم فيشر، وهلم جرا.

ولا شك أنّ هذه الجذاذات توضح جليا القواعد الأساسية التي اعتمد عليها فيشر في تأليف معجمه، أولا من حيث: أسلوب المعجم وخصائصه والمبادئ التي اعتمد عليها، ويتمثل ذلك في طريقته ومنهجه، كما تتبين فيه أيضا المراجع التي اعتمد عليها في جمع المواد التي يتكون منها هذا المعجم.

1- ابراهيم مدكور، المعجم الكبير، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج28، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1971، ص 13.

أمّا المصادر التي اعتمد عليها، فهي مصادر موثوقة ومرجعيات ثابتة؛ حسب ما أكده فيشر بقوله: "فالمعجم يتناول بقدر الإمكان بحث تاريخ كل الكلمات التي جاءت في الآداب العربية"[1] أي الكلمات الموجودة في القرآن الكريم أولا، ثم يليه الحديث النبوي الشريف وكتب التفسير، فالمصادر اللغوية من المعاجم وكتب النحو وشروحها، فالمصادر الأدبية من دواوين الجاهليين، والمخضرمين والإسلاميين والأمويين والعباسيين، بالإضافة إلى المصادر التاريخية والجغرافية: كتب السير والتاريخ العربي والتراث الجغرافي، وبذلك كلّه يتبين معنى الكلمة ومكانها في التركيب ويتحدد كذلك عمر الكلمة وتاريخها.

وأمّا منهج فيشر في الدراسات اللغوية فهو منهج أستاذه هاينرش ليبريشت فلايشر H.L.Fleischer مؤسس مدرسة ليبزج المتخصصة بالاستشراق الألماني، وهو منهج يتحرى الدقة ويستعين بالوثيقة، ويتم ذلك بتتبع التغيرات التي تطرأ على مباني الألفاظ ومعانيها عبر العصور والبيئات المختلفة مع الاستشهاد على استعمالاتها المتعددة بشواهد موثقة من الشعر والنثر الفني وغير فني، بعيدا كلّ البعد عن عنصر الافتراض، وهذا ما أقره فيشر بقوله: "على الرغم من الدقة التي تحرّيتها في البحث والعمل فيه"[2] وما أثبته جدول رموز للكتب التي نقل منها الشواهد التي استعملها في المعجم بدقة.

ومن أشد الانتقادات التي وجهت لفيشر: "أنه لم يلتزم بحق كلّ كلمة أن تدخل معجمه بوقوفه عند القرن الثالث للهجرة، لذلك وصف معجمه بأنّه مقتصر على لغة الشعر القديم"[3] وأحسن شاهد على ذلك ذكره "شواهد لمادة (إبان) تنتمي لعصور متعددة، منها أحاديث نبوية شريفة وشواهد شعرية لشعراء مولدين كأبي نواس، وأبي العتاهية والمتنبي، ورجزا وأقوالا لمجهولين"[4]

---

[1]- أغوست فيشر، المعجم اللغوي التاريخي، ط1. القاهرة: 1967م، مجمع اللغة العربية، القسم الأول من أول "حرف الهمزة" إلى "أبد"، ص 26.

[2]- المرجع نفسه، ص 34.

[3]- عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان، ص 234.

[4]- المرجع نفسه، ص 235.

فخالف بذلك معياره الذي ارتضاه لعمله، ألا وهو القرن الثالث الهجري، حيث جعل من هذا التاريخ حدا فاصلا لمدونته؛ أي مدونة المعجم.

2/2-2- نماذج من مواد معجم أكسفورد اللغوي التاريخي:

نظرا لأهمية هذا المعجم وفائدته اللغوية، ارتأينا أن نورد في هذا الفصل نماذج منه حسب ما أورده الدكتور محمد حسن عبد العزيز في مؤلفه المسمى: "المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج" فهو يُعدّ نقلة عظيمة نقلت التأليف المعجمي الحديث من طور السذاجة إلى طور النضج والاكتمال، فهو بذلك يعتبر مصدر إلهام اللغويين الذين احتذوه، ونهجوا نهجه، وكان مصدرا أساسا لمعجماتهم اللغوية، ومن بين هؤلاء المستشرق الألماني فيشر كما نوهنا به ذكرا فكان مثله في الاقتداء، فمنذ أن صدر وظهر والباحثون ينهلون منه، ويفيدون كلّ بحسب حاجاته ومطلبه من العلم في المسائل اللغوية وموضوعاتها.

1 – النموذج الأوّل: Pleasing ⟸ حدث المتعة، إعطاء المتعة أو الرضا حقيقة أن تكون سعيدا أو راضيا، من الإنجليزية الوسيطة المتأخرة، بالإضافة إلى خاصية الامتاع التي استعملت في أواخر ق16م.

2 – النموذج الثاني: Realistic ⟸ ممثل الأشياء كما هي في الواقع. من الثلث الأول من القرن 19م، وهو متسم بنظرة عملية للحياة، وظهر منتصف القرن 19م.

3 – النموذج الثالث: Politic ⟸ وقد استعملت الكلمة وصفا لكل ما يتصل بالدولة أو يتعلق بالدستور. ثم استعملت لوصف الأشخاص بالحكمة والدهاء والحصافة وتعقّل الأشياء والأحداث وتقدير الأمور [حصيف، حكيم متعقّل، لَبِق] وهذا في الإنجليزية الوسطى Middle English فقط. ثم استخدمت الكلمة عام 1580م بظلال دلالية سيئة لتدل على أوصاف الماكر والمخادع والمحتال... كما استخدمت مركبة مع كلمة body كما في body Politic أو body Politic وهو استخدام قديم مهجور أنظر body.

- ومن الاستخدامات والأمثلة التي وردت فيها كلمةPolitic 1693م:
- الشؤون السياسية Political affairs.

- الحياة السياسية Political life.
- المصالح السياسية Political business.

وفي عام 1769م استخدمت الكلمة للدلالة على المبادئ أو الآراء السياسية لشخص أو حزب ما أو مشاركته في الحياة السياسية.

أما في عام 1693م فاستخدمت للدلالة على وضع الخطط، أو إدارة الشؤون الخاصة، أو الإدارة السياسية، وفي عام 1477م اشتقت الحال Politicly (adv) من كلمة politics للدلالة على معنى: فعل شيء بصورة سياسية، أو بسياسة، أو بدهاء، أو بفن.

كما استخدمت كلمة Political في عام 1769م أيضا للدلالة على المعاني السيئة لمفهوم السياسي: [الماكر، المخادع المحتال...].

كما استخدمت كبادئة معناها: سياسة أو سياسي، ومنها:

- السياسة الاقتصادية Politico- economical
- السياسة الأخلاقيةPolitico- ethical
- السياسة الجغرافية Politico- geographical

كما استخدمت الكلمة لربط السياسة ببعض المجالات والفنون على اختلافها وتنوعها، فمن ذلك:

- السياسة التجارية Politico- commercial
- السياسة العسكرية Politico military
- السياسة اللاهوتية Politico theologecal
- السياسة الدينية Politico religious

وكل ما يتصل بالسياسة التي تقوم على أسس ومذاهب وتوجهات وأغراض دينية، كما استخدمت الكلمة أيضا مقطعا في بعض الكلمات متعددة المقاطع؛ مثل:

- أهوال السياسة Politicophobia

كما استخدمت للدلالة على الشخص المنافق أو الحقير أو اللامبالي، وكذلك الشخص السوفسطائي (ذي القدرة على قلب الحقائق وتبريرها)"[1].

فمن خلال النماذج الثلاثة التي أوردناها من المعجم التاريخي- معجم أكسفورد للغة الإنجليزية Dictionary The Oxford English – نلحظ أنّه يشمل كلّ كلمة وجدت في اللغة الإنجليزية دون استثناء أو إهمال بعض العناصر اللغوية، كالدخيلة وغيرها... إذن هو مسح كلّي وشامل للألفاظ التي نحتتها الإنجليزية، حيث عرض لنا التحولات التي طرأت على الكلمات في مبناها ومعناها عبر مختلف العصور والبيئات من خلال تتبع تطورها منذ أقدم ظهور مسجل لها – ونقصد هنا الوثائق- حتى العصر الحديث حيث حدد الدارسون ثلاثة أعصر للغة الإنجليزية من الإنجليزية القديمة Old English فالإنجليزية الوسيطة middle English وأخيرا الإنجليزية الحديثة Modern English، مع الإشارة إلى تحديد تاريخ الكلمات، تمّ من أواسط القرن الثاني عشر الميلادي "وكان تعيين هذا العصر راجعا إلى الرغبة في إهمال جميع الألفاظ التي استعملت في اللغة الإنجليزية القديمة حسب ما أقره الدكتور محمد حسن عبد العزيز في مؤلفه: "المعجم التاريخي للغة العربية: وثائق ونماذج".

كما يرصد لنا المعجم دلالات الكلمات من حيث الرقي والانحطاط، ويسجل لنا مختلف استعمالاتها من حيث الزمان والمكان أيضا، وفي مواضع كثيرة ومختلفة يتعرض للشرح أو التلخيص، حيث نجد عنصر التغيير يجري في حدود واسعة وبوتيرة مطلقة، لا يضيرها تغيير- وهنا نقصد اللغة الإنجليزية حتى وإن كان ذلك التغيير جملة وتفصيلا، أو استيعابها من لغات مجاورة لها على غرار اللغة العربية التي نجد فيها عنصر التغيير يسير في حدود ضيقة، وبوتيرة محسوبة وهذا نتيجة محاولة دارسيها الحفاظ على القرب من النص القرآني ما أمكن.

ويعرض لنا التسلسل الألفبائي للألفاظ المكوِنة للغة الإنجليزية، مع جميع الحقائق المتصلة بها انطلاقا من أصل الكلمة أو أصولها في اللغات الأخرى واشتقاقاتها، ابتداء من شكلها (ونقصد به الصيغة) ثم متطرقا لطريقة نطقها (ونقصد بها اللفظ)، ثم في الأخير يتطرق إلى بيان المعاني

[1]- محمد حسن عبد العزيز، المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج، ص131- 138، بتصرف.

التي تعاقبت على الكلمة في الاستعمال منذ توثيقها إلى يومنا هذا؛ أي التطور الدلالي للكلمة خلال عصور اللغة المختلفة.

كما نلحظ تفاوت درجات البيان من مفردة إلى أخرى حسبما يقتضيه الحال، ونضرب على ذلك مثلا حيث نجد الاختصار في الألفاظ الشاذة والتوسع في الألفاظ المولدة والدخيلة، ولو حاولنا تطبيق هذا المنهج – المنهج التاريخي- وتقفينا القواعد المعجمية اللغوية المتبعة في هذا المعجم وطبقنا كل ذلك على اللغة العربية مع ما تزخر به من ثروة لفظية كثيرة: "من النقوش الجاهلية إلى قصص أيام العرب إلى كلام شجع الكهان وخطب حكماء العرب وشعر شعرائهم في جاهليتهم مرورا بعهد الوحي وصدر الإسلام إلى الزمن الذي يقرره مجلس المجمع ومؤتمره، واستعمل في ذلك الحاسوب مع خبراء متخصصين"[1] لكان اليوم بين أيدينا معجم تاريخ ضخم كبير يعكس الحضارة العريقة لهذه الأمة، ويكون سجلا حافلا بتاريخها، ومرجعا قائما لأبنائها، خيرا مما عند غيرنا بحكم خاصيتها الاشتقاقية التي تنفرد بها عن سواها من اللغات الحية – وأقدمية هذه اللغة فحسب بعض الدارسين فإنها الأقدم والأقرب للغة السامية الأم – ووجود ظاهرة المثنى فيها لا في غيرها من اللغات، وغزارة مفرداتها ودلالاتها المختلفة للفظ الواحد كالمشترك اللفظي والتضاد وكذا الترادف... وأيضا اختصاصها بظاهرة الإعراب: "فحياة كل لغة في أمرين مهمين لا ثالث لهما: ماض له قداسته، وحاضر له متطلباته، واللغات الحية هي تلك التي تعتز بماضيها وحاضرها معا"[2] ومن هنا تكمن مهمة المعجم في التوفيق بين الأمرين، الاحتفاظ بالماضي المجيد مسايرة المستقبل بجميع متطلباته.

وواضح جدا ما يتميز به هذا المعجم من دقة في وضع الضوابط المحكمة في تتبع التطور الذي طرأ على معاني المفردات عبر مختلف العصور، وأن يستشف كل التفاصيل المتعلقة بها مع ذكر عدد من الشواهد التي تظهر أو تتضمن دلالة على أن الكلمة قديمة المعنى أو مهجورة أو نادرة الاستعمال وبذلك يمكن تعيين تاريخ استعمالها بالتقريب حسب الروايات المختلفة.

---

[1]- محمد حسن عبد العزيز، المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج، ط1. ص 69.

[2]- إبراهيم مدكور "مجمع القاهرة والمصطلح العلمي" مجلة مجمع اللغة العربية، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر: 1978، ع42، ص11.

3- نظرة المستشرقين إلى النحو العربي

أخذ المستشرقون يعنون بالنحو العربي وبمؤلفاته، فانهالوا على التراث النحوي بالدرس والتحليل وإبراز المآخذ، إلى جانب تحقيقه وفهرسته وترجمته إلى لغاتهم منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يوم تأسست المدرسة الفرنسية للغات الشرقية في باريس L'école nationale des langues orientales vivantes, Paris خاصة عام 1795، حيث كانت وجهة للغوبين المتخصصين باللغات الشرقية، ولعلّ من أهم الدوافع - الرئيسة - التي دفعت بفرنسا إلى تأسيس هذه المدرسة هو الدافع الاستعماري المحض؛ ألا وهو منافسة بريطانيا في الصراع على الشرق – علما أن بريطانيا قد حظيت بفضل السبق بالدراسات الاستشراقية فتأست فرنسا بذلك- وذلك بتكوين خبراء بلغاته وبعاداته وتقاليده للتحكم فيه والسيطرة عليه يتقدمهم في ذلك المستشرق الفرنسي سلفستر دو ساسي، بمؤلفه النحو العربي، الذي ألّفه عام 1810، في مجلدين، ولعلّ هذا المؤلَّف أنضج محاولة لقدماء المستشرقين في مجال شرح النحو العربي حيث تطرق فيه إلى مسائل نحوية متفرقة قدمه لطلاب المدارس قصد تيسيره لهم في حين كان استقلال الدراسات اللغوية يتبلور ويتقدم تقدما رائعا بثّ روحا جديدا في مختلف فروعها الصوتية والتركيبية والمعجمية والدلالية، حيث ظهرت ثلة من الباحثين تنادي بإقامة علوم مستقلة متفرعة عن علم اللغة، حتى إنّ العديد من النظريات والآراء المتعلقة باللغة ظهرت إلى جانب ما ظهر في بقية العلوم الأخرى التي عرفت تطورا كبيرا وسريعا وصلت أوجها خلال القرن العشرين أين شهدنا ثورة علمية في مختلف مجالات الحياة، حيث كان هذا القرن قرن الخصوصية والاستقلالية، وعلم اللغة كغيره من العلوم لم يكن بمنأى عن هذا التطور، مستفيدا ممّا توصلت إليه هذه العلوم بشقيها النظري والتطبيقي، حتى أنه ظهرت مؤسسات في أوربا تعمل على تجسيد ما توصلت إليه هذه العلوم في شكل مؤلفات تسجل فيها كل ما جد واستجد في لغتهم على غرار مؤسسة لروس Larousse الفرنسية ومؤسسة أكسفورد Oxford الإنجليزية، مع العلم أن السبق كان للمؤسسات الإنجليزية، فقد تأسست مدرسة الدراسات الشرقية الحية ببارس سنة 1832، التي أسستها فرنسا أسوة بالمدرسة الإنجليزية للغات الشرقية بلندن عام 1917.

1/3- دي ساسي 1758-1838م

ومن المؤلفين الفرنسيين القدامى يبرز المستشرق اللغوي الفرنسي دي ساسي De Sacy وذلك عندما أصدر بحثه الأول: المرجع للآداب الكتابية والشرقية "وهو مجموع علمي كان يصدره Eichorn J.G وكان بحث سيلفستر هو عن مخطوط سرياني محفوظ في المكتبة الوطنية"[1] سنة 1785م، وكان هدف المؤلف الاهتمام بالكتاب المقدس وتاريخ الأديان، فكلّ هذا الاهتمام الديني دفع بدي ساسي إلى تعلم سائر اللغات الشرقية تقريبا، ومن بين هذه اللغات اللغة العربية، ورآها ضرورية لاكتشاف أسرار أقدم الوثائق الدينية، وثائق العصور الأولى للعالم، وبها يتمكن من النفود إلى دُورْ العبادة وكان يقصد المعبد، وكان من ثمار هذا الاهتمام باللغة العربية تأليف كتاب في نحوها في مجلدين.

كان دي ساسي حجة في ما كتبه عن الاستشراق، حيث كون مدرسة استشراقية – فرنسية- متميزة وله مريدون من مختلف أنحاء أوربا، تعلموا على يديه، فتأثروا بطريقته ومنهجه حتى حاز على لقب "شيخ المستشرقين الفرنسيين" كما لقبه الدكتور عبد الرحمن بدوي، غير أن الغموض "يحيط بالكيفية التي سار فيها سيلفستر دي ساسي مستشرقا، كما قال هيرتقج دارنبور في ترجمته له فنحن لا نعرف أسماء أساتذته، ولا الدور الذي كان لهم في اختيار سيلفستر التخصص في الدراسات العربية الشرقية بعامة"[2] وعين أستاذا بكرسي اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، واهتم بالدراسات العربية وبمخطوطاتها، وترجم لبعض المشهورين في الإسلام ومن المؤلفات المشهورة التي قام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية «كليلة ودمنة» كما يعدّ من مؤسسي "المجلة الأسيوية" بفرنسا سنة Journal Asiatique 1832 فهذه الترجمات والتآليف والأعمال الجليلة دليل على سعة اطلاعه على التراث العربي مترجما إياه إلى اللغات الأوربية، وعلى تعمقه في فهمه وإدراكه لمضامينه، وعلى كل ما قام به دي ساسي من أعمال عظيمة في ميدان الدراسات الشرقية خلال هذه الفترة.

---

[1]- عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3. بيروت – لبنان، دار العلم للملايين، 1993، ص 334.

[2]- إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، ص334.

ولعلّ من المفيد أن نشير إلى أن البارون دي[1] ساسي تخرج على يديه عدد لا بأس به من المستشرقين البارزين الذين أقبلوا عليه من مختلف أصقاع أوربا، وألمانيا خاصة، ويعضد ما قلناه قول أحد الدارسين: "لما تولى العلامة دي ساسي تدريس العربية والفارسية فيها أصبحت كعبة الطلاب يتقاطرون إليها من ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا والسويد وإسبانيا وفنلندة وغيرها، ليتخرجوا عليه بهما (العربية والفارسية) ويعلموهما في بلدانهم، فلم تزدهر مدرسة استشراقية في الغرب ازدهارها ومعظم من نبغ في ذلك العصر كان من طلابها"[2] وبذلك يكون دي ساسي قد حظي بتكوين الطلائع الأولى لجيل الاستشراق، ولا نبالغ إذا قلنا إنّ هذا الحظ الوفير مكنّ المدرسة الفرنسية من احتلال الريادة في مسار الحركة الاستشراقية، وازدهارها أيما ازدهار خلال هذه الفترة الزمنية، ولا يمكن إدراك هذه المكانة إلا إذا نظرنا إلي وضعية البحث اللغوي الاستشراقي خلال هذه الحقبة من تاريخ الفن الاستشراقي.

فنظرا للدور البارز الذي لعبه دي ساسي في إطلاق شرارة الاستشراق في مختلف أصقاع أوربا، حيث يعدّ هذا الأخير بمثابة حلقة وصل بين المدرستين الفرنسية والألمانية: "فمعظم من نبغ في ذلك العصر كان من طلابه، بخاصة الألمانيين"[3] أمثال المستشرق الألماني جوستاف فلوجيل 1802-1870م، وكذا جورج فريتاج 1788-1861م، وهاينريش ليبرشت فلايشر1801-1888، والبولوني بيبرشتاين كازيمرسكي 1780- 1865 وهلم جرا.

خلّف دي ساسي آثارا جليلة – تقارب خمسة عشر مؤلفا – أَثْرَت المكتبة الشرقية وكانت منهلا لكل من جاء بعده، ومن أشهر آثاره: ما حققه وشرحه شرحا مسهبا مقامات الحريري عام 1822، وترجم إلى الفرنسية كتاب الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار لموفق الدين عبد اللطيف البغدادي، كما ترجم وشرح أيضا كليلة ودمنة في سنة 1816، وكتاب النحو العربي في

---

[*]– مع الإشارة إلى أن (de) المستعملة كثيرا في الأسماء الفرنسية تدل على النبالة، كما ذكر ذلك جملة من الدارسين العرب المحدثين.

[2]– نجيب العقيقي، المستشرقون موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى اليوم ط4. دار المعارف، مصر، ج1، ص 140، بتصرف.

[3]– المرجع نفسه، ص 140، بتصرف.

مدرسة اللغات الشرقية الحية عام 1810، ومؤلفه: أنطولوجيا النحو سنة 1829، حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين الدميري، كما درس مقدمة ابن خلدون وغيرها من الأعمال القيمة.

ولا يفوتنا أن نذكر أيضا اهتمامه بترجمة المجلة العسكرية الفرنسية، ونذكر على سبيل المثال ترجمته لبيانات الحكومة الفرنسية التي كانت توجهها للشعب الجزائري، فله في الميدان ترجمات بالعربية – بالعربية المغربية ويقصد بها حسب بعض المصادر اللغوية اللغة الدارجة حيث كانت معظم هذه البيانات الموجهة للشعوب المستعمرة تنشر باللغات الدارجة مع الإشارة إلى أن دي ساسي قد شغل كرسي العامية العربية – ويقول بعض الدارسين في ذلك: "كان دو ساسي هو من ترجم البيان الموجه للجزائريين عام 1830، وكان يستشار بانتظام حول جميع المسائل المتعلقة بالشرق من قبل وزير الخارجية الفرنسية وفي بعض الحالات من قبل وزير الحرب أيضا ومن هنا نلاحظ أنّ الاستشراق كان جانبا من جوانب الإمبريالية والاستعمار"[1] للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه والاستحواذ على تراثه العريق وما إلى ذلك، ولا يحجب هذه الحقيقة إلا الشعارات البراقة التي يتغنون بها، شعارات التحرير والاستقلال والحرية والديموقراطية وغيرها من الشعارات التي لا يزال الغرب يرددها حتى يومنا الناس هذا، وخير شاهد على ما قلنا هو قول بعض الدارسين "إنّ الاستشراق الذي كثيرا ما أسهب المعنيون بتوصيفه وتعريفه، لا يعدو في رأي الكوكبة كونه علما طال الإسلام عقيدة وثقافة، أنَّى ترجل فاتح، أو انطوت تحت لوائه أمة أو حضارة"[2] وهكذا ندرك المغزى من اهتمامات المحور الغربي بالدراسات الشرقية عامة، اقتصادية وسياسية وتجارية كانت أم ثقافية وفنية وتعليمية وغيرها، وجعلت منها واجبا لا يُرد، نظرا للفوائد الجمة التي يعود بها تعلم اللغات الشرقية – إلى جانب تعليمها وتعلمها– على التجارة الغربية وسياساتها الاستعمارية، وقد أصاب هؤلاء القوم كبد الحقيقة حين عدلوا عن السيف إلى الفكر، ووجهوا جلَّ اهتماماتهم إلى ترجمة القرآن الكريم للتعرف على الطبيعة الفكرية للخصم، وإدراك مضامينها جيدا

[1]– إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، دط. مكتبة ديوان العرب، مجلة أدبية فكرية ثقافية اجتماعية، ص 184.

[2]– يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين: نقله: عمر لطفي العالم، ط2. بنغازي– ليبيا: 2001م، دار الكتب الوطنية، ص 8.

لمقارعته بالحجة وبقوة العلم والمعرفة على اختلاف جوانبها بدل العنف الأعمى الذي أثبت فشله عبر مراحل تاريخية مختلفة.

وبهذا المؤلَّف في النحو العربي يكون دي ساسي قد حظي بالسبق التاريخي في هذا اللون من الدراسات اللغوية على طريقة النحويين العرب القدامى ومنهجهم، حيث خطا خطاهم واقتفى آثارهم في وصفه للظواهر النحوية وصفا دقيقا، متبعا في ذلك منهجا دقيقا وواضحا في عرضه لقواعد علم النحو العربي في كتابه النحو العربي ولم" يسبقه بين الأوربيين من كتب نحوا عربيا بهذا المستوى"[1] حيث وجهه لتلاميذ المدرسة الخاصة باللغات الشرقية Grammaire arabe à l'usage des élèves l'Ecole Spéciale des langues Orientalistes. مع الإشارة – السريعة– إلى من سبقه في هذا المضمار أمثال بوستل Guillaume Postel 1510–1581، الذي يُعد من أوائل المستشرقين الذين ألفوا في النحو العربي بتأليف نحوا عربيا عام 1539، وفيه يشيد بثراء التآليف العربية وتنوعها.

ومن المؤلّفين الأوروبيين القدامى أيضا يبرز المستشرق الهولندي توماس إربنيوس Thomas Erpenius الذي "عقد العزم على التخصص في اللغة العربية وإتقانها نحوا وصرفا فقرأ الأجرومية والكافية والعوامل المئة للجرجاني وما شابه ذلك من كتب في النحو والصرف يسّر له الاطلاع على كازوبون وهوبرتوس."[2] ووجه الاهتمام أيضا إلى فهم أسرار اللغة العربية، وسعى إلى إبراز الفروق الموجودة بين اللغة العربية الفصيحة والعامية، وبناءً على اطلاعه الواسع على التراث النحوي العربي قرر أن يعرض قواعد النحو العربي بإيجاز وترتيب منهجي، ومن أهم مؤلفاته "النحو العربي" في خمسة أبواب، إلا أن هذا المؤلف كتبه باللاتينية وترجمه إلى العربية رافيلنجيوس سنة 1613.

---

[1]– عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 337، بتصرّف.

[2]– المرجع نفسه، ص 16.

وقد لاحظنا من خلال هذه المصادر اللغوية أن الدارسين المستشرقين قد ألفوا كتبا في النحو قديما من خلال اطلاعهم على التراث اللغوي العربي القديم، فجاءت أبحاثهم امتدادا لجهود أسلافهم من اللغويين وكانت آراؤهم تتويجا لتراكم معرفي في تراثهم التاريخي.

وما هذا إلا مجرد عرض قصير وموجز لأهم رواد الاستشراق وآرائهم باعتبارهم ممثلي المدارس الاستشراقية المختلفة والمتنوعة، حيث يعتبر هؤلاء الأساس الذي قامت عليه جل المدارس الاستشراقية اللاحقة.

وهكذا نجد أنّ حدود هذا العلم قد رسمت معالمه وظهرت في الموروث اللغوي الاستشراقي بشكل يتفق مع الدّرس اللّغوي الحديث منذ أمد بعيد، وتشهد على ذلك المؤلفات اللغوية بكلّ فروعها التي تزخر بذخيرة كبيرة في هذا المجال من الدّراسات اللغوية؛ والناظر في المكتبات الغربية يُدرك غناها بهذه الكتب، حيث نجد بعضها تحتوي على المئات إذ لم نقل الآلاف.

وقد أنجز دي ساسي هذا الكتاب وقدمه إلى المطبعة في سنة 1805؛ لكنّه لم يظهر إلا بعد مضي خمس سنوات؛ أي بالضبط سنة 1810 حسب الدكتور عبد الرحمن بدوي فدلّ هذا المؤلف على ما يصطلح في العصر الحديث بالنحو التعليمي، وهذا ما ذهب إليه يوهان فك وأكّده بقوله: "كتب دي ساسي القواعد من أجل مستمعيه في البدء، فجمع بذلك مختاراته التعليمية من أجلهم أيضا في بادئ الأمر"[1] نظرا لندرة مصادر مادة المطالعة العربية إن لم نقل كانت منعدمة تماما– في مجال الدراسة الأكاديمية– في هذا القرن عكف دي ساسي على كتابة مؤلفه الموسوم: مقتطفات لغوية مختارة حيث كان هذا الكتاب "يتضمن نصوصا منتقاة من كتاب سيبويه في النحو وصولا إلى إعراب ابن هشام ونصوصا من تفسير الزمخشري والبيضاوي، وأخيرا الجزء المتعلق بهذا الموضوع من مقدمة ابن خلدون"[2] وفتح بذلك دي ساسي بهذه التفسيرات الحية أبواب البحث النحوي والأدبي العربي أمام الباحثين المستشرقين من بعده – وتلامذته خاصة– ممهدا لهم الطريق

[1]– يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، نق: عمر لطفي العالم، ص 146، بتصرّف.

[2]– المرجع نفسه، ص147، بتصرّف.

جلبا لانتباههم إلى المؤلفات العربية القديمة، موجها إياهم نحو التنقيب في التراث العربي المكتوب وتبعه في ذلك طلابه الألمان وغيرهم من المستشرقين اللاحقين.

فتشهد كلّ هذه التحف الفنية اللغوية والأدبية لدي ساسي في تنشيط الحركة الاستشراقية الأوروبية، ودفع بعجلة البحث والتنقيب في الثقافة العربية والتراث اللغوي العربي الإسلامي في عصره والذي استمر حتى بعد مماته سنة 1835 على أيدي خلفه من بعده فكان بذلك كلّه أكبر عامل في النهضة الاستشراقية ومحور تلك الحركة الفكرية ومُدشِنها في مستهل القرن التاسع عشر الميلادي في القارة الأوروبية.

وكان إنجاز دي ساسي ممثلا في إنتاجه حقلا كاملا من حقول الدراسات اللغوية العربية "وبوصفه أوروبيا، فقد هجم سجلات المخطوطات الشرقية، وقد كان باستطاعته أن يفعل ذلك دون أن يغادر فرنسا... وعالجها وقنّنها وعلّق عليها ورتّبها وشرحها"[1] وهكذا تعرف دي ساسي على الشرق من خلال تراثه اللغوي، وبحث فيه بباعث اللذة العقلية المحضة؛ أي أنه طلب المعرفة الشرقية لتحقيق أغراض عديدة وأهداف متنوعة "بالتالي يكون دي ساسي من وضع الشروط المسبقة لتحرير الدراسات العربية من كل قيود اللاهوت المكبلة لها"[2] ومن هنا يتجلى دي ساسي في المقام الأول ويبلغ مكانة رفيعة دون منازع بحكم عصره لم يبلغها إلا القليل حتى أصبح مضرِب المثل في مجال دراسات التراث اللغوي العربي والتبريز فيه، دون أن ننسى دوره في تحريه للكنوز الأدبية العربية واستكشاف حضارة الشرق القديم فقدم بذلك خدمة جليلة يعترف بها على مرّ العصور والأزمنة للدراسات اللغوية والأدبية العربية وفي مجال الترجمة خاصة، حيث أسهم في تكوين طاقم لا بأس به – الطلائع الأولى من المترجمين العسكريين الذين لعبوا دورا فعالا لدى المستدمر الفرنسي- من المترجمين نذكر من بينهم مارسيل 1776-1854م، وكازيمرسكي 1780-1865م، وجوزيف، ولويس جاك بريسنبير 1814-1869م، وغيرهم من المترجمين الضالعين في مجال الدراسات الاستشراقية.

1- إدوارد سعيد، المستشرقون، تر: كمال أبو ديب، ص 188.

2- يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، نق: عمر لطفي العالم، ص 141، بتصرّف.

4- فقه اللغة العربية ومقارنته باللغات السامية

تجرد المهتمون للغة العربية، دراسة وبحثا، من العرب وغير العرب في العصر الحديث لما انفردت بخصائص دقيقة بوجه لا ينكر حتى برع فيها ثلة من دارسيها، وقسم خصص لهذه اللغة دراسة عامة في تاريخ هذه اللغة، من حيث نشأتها وتطورها وحياتها وموت بعض ألفاظها وما إلى ذلك، وقسم آخر لدراستها في مختلف مستوياتها أصواتها وقواعدها ومفرداتها ... وقد ألّف في كلا القسمين عدد كبير من أعلام الباحثين، فمن أشهر من كتب في القسمين وأبرزهم العلامة تيودور نولدكه Theodor Noldeke 1836-1931م، وهو من أبرز المستشرقين الألمان في عصره فإذا كان دي ساسي شيخ المستشرقين الفرنسيين فإنّ نودلكه "شيخ المستشرقين الألمان غير مُدَافَع"[1] قضى حياته في خدمة الاستشراق بالبحث والتحقيق والتأليف والنقد والنشر والترجمة، وكان مكلفا بالمخطوطات التركية، عين أستاذا في عدّة جامعات كبرى منها: جامعة جيتنجن Gotingen بإيطاليا، وكذا بجامعة كيل Kiel في غضون 1864-1872م أستاذا للغات السامية، ثم أستاذا بجامعة اشتراسبورج إلى غاية 1920م، وكانت "هذه الفترة الطويلة التي بلغت أكثر من خمسين عاما في اشتراسبورج هي فترة استقرار مكانته ودراساته وبؤرة إشعاعه في عالم الاستشراق"[2] وكان مهتما اهتماما خاصا بالنحو العربي والنحو المقارن للغات السامية، ومن باكورة هذا الاهتمام مؤلفه الذي ألّفه سنة 1897م Grammatik des Klassichin Arabish وألّف أيضا عام 1904 كتابه المسمّى: بحوث في علم اللغات السامية، وقدم فيه عرضا تاريخيا للغات السامية مع الإشارة إلى علاقة اللغة العربية مع أخواتها الساميات التي تنتمي إلى أسرة واحدة، ذلك في أي مستوىً من مستويات الدراسة اللغوية وليس بالضرورة عقد المقارنة في جميع مستويات اللغة الأربعة: الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية؛ بل يكفي إجراء مقارنة في ظاهرة لغوية في مستوى من المستويات الأربعة لاكتشاف علاقات القرابة الموجودة فيما بينها بهدف التوصل إلى الأصل المشترك بينها وقد تمخض عن هذا الاهتمام بالدراسات اللغوية "دراسة حول قواعد العربية الفصحى 1896

[1]- عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 337.

[2]- المرجع نفسه، ص597.

مهدت الطريق أمام تأمل تاريخي جاد"[1] كما كتب باللغة الألمانية أيضا في التوجه نفسه بحوثا جديدة في علم اللغات الساميات سنة 1911 Neue beitrage zur semitishen Sprachkunde وغيرها من المؤلفات القيمة، دون أن ننسى كتابه الشهير الذي يعد من أهم مؤلفاته وأبرزها، ألا وهو كتابه: تاريخ القرآن الذي نشره سنة 1860.

حيث يعدّ هذا المؤلف الجليل محور اهتمام نولدكه من أشهر ما كتبه عن الإسلام على الرغم ما اتسم به هذا الكتاب من الابتداع والضلال والتحريف، مع ذلك يحسب له اهتمامه بالتراث العربي كاهتمامه بالشعر العربي القديم، حيث التفت إلى الشعر الجاهلي بشكل خاص، كما اهتم بالشعر الأموي كذلك، ويبرز ذلك جليا في المساهمات الفعالة التي بذلها في معرفة شعراء العرب القدماء والعمل على شرح معلقاتهم ودواوينهم وترجمتها إلى اللغة الألمانية كديوان "عروة بن الورد 1863م"[2] وعرف عنه أيضا اهتمامه بقواعد اللغة العربية الفصحى على غرار المستشرقين الذين اهتموا بالعربية الدارجة على حساب اللغة العربية الفصحى كما تجسد هذا الاهتمام في كتاب أصدره بعنوان "مختارات من الشعر الجاهلي" وغيره من مجالات اللغة والأدب.

كما عرف أيضا بمؤلفه المسمى أصل القرآن وتركيب سوره الذي تقدم به لنيل درجة الدكتوراه سنة 1856 – مكتوبا باللغة اللاتينية – وفي هذه "الرسالة عولجت مسائل نشوء القرآن وجمعه ووصوله بحصافة، وفي معرض المناقشة النقدية للسور حقق لسائر مباحث القرآن التاريخية أساسا متينا"[3] حيث تعرض فيه إلى قضية التسلسل التاريخي لسور القرآن الكريم محاولا أن يجعل لها ترتيبا خاصا ابتدعه وسنتعرض إلى هذا المؤلف بالتفصيل والتحليل والنقد – إن شاء الله– في الفصل الرابع من موضوع "المستشرقون وترجمة القرآن الكريم" كونه من ألمع مؤلفات القرن التاسع عشر التي تعرضت للقرآن الكريم.

مع الإشارة إلى كتابته عدة مقالات تحدث فيها عن العهد القديم من الكتاب المقدس بالإضافة إلى مقالاته عن اللغتين السنسكريتية والتركية التي نشرها في عدة مجلات وغيرها من

---

[1]– يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، نق: عمر لطفي العالم، ص 227.

[2]– المرجع نفسه، ص 226.

[3]– نفسه، ص 225.

الآثار القيمة التي خلفها، والتي تفوق حسب بعض الباحثين 700 سبعمائة عنوان في مجلة الإسلام كما خلف حوالي عشرين مؤلفا- هذا المستشرق الفذ الذي احتل مكانة متميزة في التراث اللغوي العربي، وينظر إليه على أنّه صاحب نظرية مبتدعة في ترتيب سور القرآن الكريم خاصة وهو بذلك يعدّ عبقرية غربية متميزة جعلت من ألمانيا مركزا للدراسات الشرقية، وأسهمت في وضع أسس البحث في الدراسات القرآنية التي جاءت بعده.

وهذه الشخصية بدورها كانت مكونة لفطاحلة المستشرقين الألمان نذكر منهم شفالي 1886- 1919م، الذي أعاد طبع (تاريخ القرآن) في مجلدين وبروكلمان 1868-1956م، الذي تعرض في مؤلفاته لمسألة الوحي، وجيورج يعقوب 1862- 1937م، وبريجسترسير 1886-1933م وهلموت ريتر 1892- 1971م، وإدوارد ساخو 1836م-1930م وغيرهم من المستشرقين الرائدين في مجال الدراسات الاستشراقية.

وقد وصفه أعظم مستشرق في عصره ألا وهو يوهان فك في مؤلفه: تاريخ حركة الاستشراق نولدكه وصفا جامعا مانعا في قوله: إنّه يتميز بفكر ثاقب، وذلك بامتلاكه "لذاكرة قوية سريعة الالتقاط سمحت له بشق طريقه بسرعة في كل ميدان، في استجلاء ما هو جوهري وعرضه بدقة ووضوح، أنجز نولدكه في هذه المجالات الواسعة، كلغوي وباحث في اللغة، ومؤلف ومترجم ونحوي وناقد، أنجز هذا القدر من العمل القيم، بحيث يمكن وصفه أعظم مستشرقي عصره من الألمان"[1] يتضح من هذه العبارة أن هذا المستشرق المعاصر نظر إلى التراث اللغوي الإسلامي نظرة علمية دقيقة قدّم من خلالها أراءه اللغوية حتى ولو أنه لم يكن مصيبا فيها فهذا لا يلغي دوره الفعال الذي لعبه في تنشيط حركة الاستشراق خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

كما وُصف في معجم "أسماء المستشرقين" بالتضلع في لغات عدّة منها: الإيرانية والتركية والحبشية والأرامية واليونانية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية وغيرها من اللغات، وبسعة المعرفة ووضاحة التفكير، والتزامه في مصنفاته أسلوبا علميا حديثا دقيقا صارما لا يقبل فيه إلا ما يقوم على المنطق طبع به الدراسات الشرقية في حقبة السبعين سنة الأخيرة.

[1]- يوهان فك، تاريخ حركة الاستشراق، ص255، بتصرّف.

ومن هنا نجد أنّ نولدكه أضاف إضافة جديدة إلى فن الاستشراق الذي تجاوز فيه حدود أسلافه ومعاصريه، ولا شك أنّه كان متأثرا بالمنهج العلمي التاريخي، محاولا توظيفه في ضوء علم اللغة الحديث وفي إطار المنهج المقارن، مع التزام الموضوعية في مقارناته اللغوية والنفور من كل ما هو تأملي، سواء كان عقائديا أو فلسفيا للوصول إلى دراسة علمية تاريخية تؤتي ثمارها وتحقق أهدافها إلى أبعد الحدود الممكنة.

وهذه فكرة نذكرها موجزة عن كتاب له: اللغات السامية مستعرضين فيها بعض ما ورد في الكتاب من الدراسات التي تعد من أهم الدراسات في أوائل القرن العشرين المتعلقة باللغات السامية ذلك أنّ نودلكه "التزم الموضوعية في مقارناته اللغوية، وقد أدرك بنظرته العلمية الثاقبة أدرك عدم ثبات المعتقد اللغوي الحديث"[1] وقد لخص نولدكه نظرته هذه أحسن تلخيص، ثم انتقل بعد ذلك إلى البحث في: "مسألة السامية القديمة مع المرادف المعروض ورفع صوته في شيخوخته محذرا من التأملات الجوفاء والاشتقاق التعسفي"[2] وبجانب هذا كله يتضمن هذا المؤلف "مراجعات نولدكه حول استكشاف الكلمة العربية بشكل أخص"[3] أدمجها فيه على شكل ملاحظات متفرقة.

كما كان نولدكه من المستشرقين الذين دافعوا بشراسة عن أصالة الإعراب في اللغة العربية في مؤلفه: "مقالات جديدة في علم اللغات السامية" يقول فيه: "لو كان النبي ﷺ أو أحد معاصريه من المؤمنين، قد نطق بالقرآن دون إعراب، لكان من غير الممكن أن تضيع الروايات الخاصة بذلك، دون أن يبقى لنا أثر منها"[4] ويستطرد – مؤكدا– في كتابه هذا أن: " لهجة شديدة الانحراف عن عربية النحاة، لا يناسبها مطلقا بحور الشعر المعروفة"[5] من هنا نرى أنّ نولدكه يُعدّ من الذين حاولوا إثبات حقيقة الإعراب في اللغة العربية بشواهد وأدلة دامغة تتماشى مع المنطق ولا تنافيه أبدا.

[1]– يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص 227، بتصرف.

[2]– المرجع نفسه، ص 227.

[3]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4]– رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، ط6. القاهرة، 1999، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ص 381، بتصرف.

[5]– رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، ط6. القاهرة، 1999، مكتبة الخانجي، ص 381.

وهذه المؤلّفات كلّها والمواضيع التي خاض فيها نولدكه تعد بحق محاولة رائدة منه للكشف عن هذه المشكلات كلها، وتقليب وجهات النظر المختلفة فيها القديمة والحديثة والبحث عن الأسس والقوانين التي تقوم عليها، ودراستها دراسة تاريخية في ضوء المنهج المقارن، كلما أمكن ذلك.

5- البلاغة العربية في كتابات المستشرقين

اهتم المستشرقون بدراسة اللسان العربي وكلّ ما يتصل به منذ اليوم الأوّل الذي بدأ الإسلام يتخطى حدود الجزيرة العربية، وبدا لهم الإسلام منافسا شرسا للدين النصراني واليهودي ولمختلف المعتقدات الدينية الأخرى، وكان لهذا الاهتمام دوافعه وفقا للأهداف الاستشراقية المختلفة والمتنوعة، الظاهرة والخفية، القصيرة والبعيدة المدى، بجميع مسمياتها، كل هذه الدوافع والمؤثرات أسهمت في تفعيل الصراع الحضاري القائم إلى حد الساعة، وسنحاول التركيز هنا على الجانب البلاغي لهذه اللغة، ومقولات المستشرقين الذين تناولوا هذا الجانب من جوانب اللغة ففي طياته – الجانب البلاغي- ما يدعو إلى التأمل والغوص في أسراره.

كان القرآن الكريم ولا يزال الدافع الأساس في نشأة مختلف العلوم اللغوية العربية – دون إغفال الدوافع الأخرى مثل الخلافات التي كانت تسود علماء اللغة والأدب مثل مقاييس الكلام وغيرها من الدوافع النحوية منها والبلاغية والدلالية... وهلم جرا، فقد ساق الحرص الشديد من الغيورين على هذا الكتاب ولغته إلى وضع أسس علم البلاغة لاستكشاف أسراره، إذ نجد مِن المستشرقين مَن له باع في مجال الدراسات البلاغية، والذين اهتموا بالدراسات القرآنية حيث تعرضوا للجانب البلاغي فيه.

إنّ قضية البلاغة من القضايا التي شغلت حيزا كبيرا من جهود علماء العربية في وقت مبكر جدًا ويظهر ذلك جليا من خلال إسهاماهم الجبارة في تطوير علم البلاغة وإرساء أسسه وكان الدافع الأساس الذي قامت من أجله جل الدراسات اللغوية العربية القديمة هو القرآن الكريم؛ إذ " يكاد يكون الأمر عاما عند كلّ الأمّم التي وجد عندها نص أو كتاب مقدس تقدره وتجله وله شأن في حياتها"[1] وهذا الكتاب المبجل الذي أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين، وتحدى به القوم فكرا

---

[1]- أحمد نعيم الكراعين، علم الدلالة بين النَظَر والتطبيق، ط1. بيروت: 1993، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص 7.

ولغة فوقفوا عاجزين أمام هذا التحدي وأمام هذا الإعجاز، يقول تعالى في محكم تنزيله:﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[يوسف: ١ –٢] ويقول عز وجل أيضا:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[النحل: ١٠٣] ف (القرآن الكريم) هو محور الدراسات العربية كلّها، فقامت معظم الدراسات حول هذا الكتاب المعجز لبيان مقاصده واستجلاء معانيه، ومحاولة إزالة الإبهام عن ألفاظه ومعانيه الغريبة وتفسيرها.

وقد ظهرت وترعرعت وتدرجت البلاغة العربية بالمفهوم التعليمي الأكاديمي لأسباب دينية بحتة ونمت في رحاب كتاب الله ولم تكن تطبيقا لنظرية لغوية فقد صنفت مؤلفات في بادئ الأمر لبيان بلاغة القرآن الكريم والحديث الشريف، فكانت هذه هي البدايات الأولى للدراسات البلاغية العربية على أيدي السابقين الأولين من علماء العربية، ثم تمّ نضجها الحقيقي على يد عبد القاهر الجرجاني 400–471هـ/1009–1078م، بمؤلفيه: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز على حد قول الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي في مقدمة شرحه لكتاب التلخيص للقزويني: "وهذا ما حدا بإمام اللغة في عصره: الشيخ عبد القاهر الجرجاني إلى وضع كتابين في هذا العلم، دان لهما فلك الفصاحة وبرقت أسارير[*] البيان، سمي أحدهما "أسرار البلاغة" والآخر "دلائل الإعجاز"[1] حيث يعدّ الأوّل؛ أي "أسرار البلاغة" من أبرز ما كتب في علم البلاغة وفي أسرار البيان وإعجازه، حيث تعرض فيه الجرجاني لمختلف مسائل الفن البلاغي مستقصيا ما فيه من تشبيه واستعارة ومجاز وجناس وسجع... وغيرها من فروع علم البلاغة العربية.

---

[*] – جاءت لفظة أسارير في لسان العرب: «جمع سِرَرُ: خطوط الجبهة والوجه، ملامح الوجه ومحاسنه، انبسطت أسارير وجهه؛ أي برقت أساريره. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ط1. بيروت: 1968، دار صادر، مادة (س ر ر) ووردت أيضا لفظة (أسارير) في معجم الوسيط بمعنى: خطوط بطن الكفّ والوجه والجبهة. واحدها أسرار، ومحاسن الوجه والخدَّان والوجنتان ، ينظر: مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، دط. مصر: 1985، مكتبة الشروق الدولية، ص 426. وممّا جاء فيه أيضا من أمثلة سياقية قول عائشة: ﴿ إنّ الرسول ﷺ دَخَلَ عَلَيَّ مَسْرُورًا، تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجهِهِ فقال: أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِزًا نَظَرَ آنِفا إلى زيد بن الحارثة، وأُسَامة بن زيد، فقال: إنّ هذه الأقدامَ بعضُهَا من بعضٍ﴾ ينظر: البخاري صحيح البخاري، ط1. دمشق: 2002، دار ابن كثير، كتاب الفرائض، باب القائف، رح 6770، ص 1676.

[1]– جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، شرح وضبط: عبد الرحمن البرقوقي ط1. مصر: 1904م، دار الفكر العربي، ص 02.

ويتحدث الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز الذي يُعد من أهم المؤلفات التي ألفت في هذا المجال في الدراسات اللغوية عن الفصاحة في القرآن الكريم وبلاغته، وقد اجتهد اجتهادا كبيرا في استنباط أسرار البيان ومدى ارتقائه على النصوص البشرية من شعر أو نثر مع الإشارة إلى الأولين الذين تضلعوا في هذا العلم أمثال: الجاحظ 159–255هـ، وابن دريد 223–321هـ والسَّكَاكي 555–626هـ، وغيرهم من علماء العربية القدامى ممن برز في هذا الميدان من علم اللسان، ثم ظهر الاهتمام بهذا الفرع من فروع علم اللغة من غير الالتزام بمنهج معين إلى أن جاء القرن الثامن الهجري وعرف فيه الخطيب القزوني 666هـ–739هـ /1268م–1338م فوضع أوّل مؤلف مجدد التراث البلاغي، ألا وهو كتاب: "التلخيص في علوم البلاغة" فاقترن بهذا الكتاب اسم القزويني في التراث اللغوي العربي بعلم البلاغة، وقد تناول فيه مباحث عديدة تتمحور كلّها حول هذا العلم، وغيرها من الموضوعات اللغوية المتشعبة العديدة المختلفة.

فجاء كتابه هذا تهذيبا لما وضعه السَّكَاكي في مؤلفه المشهور في البلاغة والمعنون "بمفتاح العلوم" ويضيف الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي قائلا لقد: "نهض بعد ذلك جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب فهذب ما وضعه السّكاكي وضم إليه نتفا ممّا وضعه عبد القاهر وأخرج للناس كتابا هشت له النفوس، وأصاب منها مواقع الماء من ذي الغلة الصّادى"[1] وبذلك يكون القزويني قد أعطى لعلم البلاغة نفسا جديدا، ويكفيه جهدا أن أعاد للبلاغة مكانة في الدرس اللغوي العربي، ولا يزال كتابه: التلخيص مرجعا أساسيا في الدراسات اللغوية الحديثة بصفة عامة والبلاغية المعاصرة بصفة خاصة.

ونظرا للأهمية التي حظي بها كتاب: "أسرار البلاغة والبحوث" التي دارت حوله منذ تأليفه فهو الذي جلى فيه أسرار البلاغة وخصائصها، واهتدى به إلى مختلف مسائل الفن البلاغي وعلم النظم في: دلائل الإعجاز خاصة، إذ كان منهلا وموردا لكل من جاء بعده، وكلا الكتابين حظي باعتناء أيما اعتناء من لدن علماء اللغة أو علماء البلاغة، ثم بعد قرون مضت اهتم بهما كذلك الدارسون العرب المحدثون وكذا المستشرقون المستعربون، ومن أبرز أعلام هؤلاء المستشرقين

---

[1]– القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، شرح وضبط: عبد الرحمن البرقوقي، ص4.

المجتهدين في فن تحقيق كتاب: أسرار البلاغة، تبويبا وتفصيلا وترتيبا وتخريجا وفهرسة وتقديما هلموت ريتّر Hellmut Ritter 1892–1971م.

فقد جاء في موسوعة المستشرقين أن ريتر "أشرف على مجموعة ممتازة من المخطوطات العربية ... المحققة تحقيقا علميا دقيقا"[1] ومن بين هذه المخطوطات أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني استانبول 1954، منشورات جامعة استانبول.

في حين نجد بعض الدارسين العرب المحدثين يعزون نشأة علم البلاغة – وضع اللبنات الأولى لهذا العلم بالجاحظ 150–255ه وقيل 15ه–250ه وقيل غير ذلك، وعلى رأس هؤلاء المحدثين الدكتور شوقي ضيف القائل في كتابه البلاغة تطوّر وتاريخ: "لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ الجاحظ يعدّ –غير منازع– مؤسس البلاغة العربية، فقد أفرد لها لأول مرة كتابه: البيان والتبيين ونثر فيه كثيرا من ملاحظاته وملاحظات معاصريه. وتعمق وراء عصره، فحكى آراء العرب السابقين والتمس آراء بعض الأجانب، أو قل سجلها، وقد مضى ينثر في كتابه: الحيوان تحليلات لبعض الصور البيانية في الذكر الحكيم، وليس من شك في أن كتابه المفقود الذي صنفه في نظم القرآن كان يشمل على كثير من الملاحظات البلاغية، وهو حقا لم يكن يعنى بوضع ملاحظاته في شكل قوانين محددة بالتعريفات الدقيقة، ولكنه صورها في أمثلة متعددة بحيث تمثلها من خلفوه تمثلا واضحا"[2] وعلى هذا المذهب ذهب بعض الدارسين المحدثين مؤكدين أسبقية الجاحظ في هذا المجال من الدراسات اللغوية –الدراسات البلاغية– في مؤلَّفه: النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ حسب ما نقله الدكتور حمادي صمود، ويضيف ميشال عاصي في الموضوع نفسه من خلال كتابه المسمى "مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ" إلى أن الجاحظ هو: "أوّل من أرسى القواعد الأساسية لعلم البلاغة"[3] وإذا تأملنا أيضا في المؤلفات نجد أبرز من دعم هذا الرأي وذهب هذا المذهب المستشرقة الروسية كريستينا سكار زين سكا Skarzynska Bochenska krystyna

[1]– عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 278، بتصرف.

[2]– شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، ط9. القاهرة: 1995، دار المعارف، ص 57 – 58.

[3]– حمودي صمودي، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس: مشروع قراءة، مجلد 21، السلسلة 6 كلية الآداب والعلوم الانسانية، تونس، 1981، منشورات الجامعة التونسية، ص 137، بتصرف.

في بحث عنوانه: Les opinions d'Al-Gahiz sur rhétorique et la stylistique وهذا البحث هو عبارة عن أطروحة تقدمت بها الروسية المستشرقة لنيل درجة الدكتوراه، حيث أبدت فيها الاهتمام الشديد بجمع النصوص ذات الغرض الواحد وبالتقريب بين مضامينها بغية الوقوف على رأي الجاحظ في قضية أدبية ما، أو مدى تبلور صورة بلاغية لديه"[1] وحاولت أن تدرج ذلك في فصلين عنوانهما كالآتي:

- ✓ - Les opinions d'Al-Gahiz l'écrivain, in rocznik oriens.
- ✓ - Les ornements de style selon la conception d'Al-Gahiz.

وقامت المستشرقة سكار زين سكا بنشر هذين الفصلين في سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية عدد 36 دار المعارف بمصر، القاهرة 1973. فأقتصر عملها في الفصلين "على استخراج هذه الوجوه من مظانها وضبطها بمدلولها وشواهدها"[2]، وتقصد سكار زين سكا بالوجوه هنا الوجوه البلاغية في مؤلفات الجاحظ كالإيجاز والإطناب والكناية والإشارة والتعريض وغيرها من الوجوه البيانية التي عمل بعض المحدثين على استغلالها استغلالا واسعا فيما بعد.

ومن هنا يتبين لنا حسب ما حددته الدراسات العربية والغربية الحديثة أن الجاحظ هو واضع أسس علم البلاغة، انطلاقا من مؤلفه البيان والتبيين بالدرجة الأولى، وإليه يرجع الفضل في تحديد أوليات هذا العلم وبيان خطواته الأولى، وإن ظهر على يديه بشكل غير ممنهج؛ أي أنّه لم يكن لعلم البلاغة نظرية واضحة المعالم.

بناء على ما تقدم، فالتناول البلاغي في التراث المعرفي العربي كان ضمن الاهتمامات اللّغوية الأخرى امتزج البحث فيه بضروب من المعارف المختلفة من غير أن يحمل عنواناً مميزاً له استقلال في موضوعاته ومعاييره الخاصة، وكذلك هو علم بدأت معالمه تلوح في الأفق في نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس على يد الجرجاني صاحب كتاب "أسرار البلاغة" باعتبار أنّ أصوله وأسسه ومنهج البحث فيه قد حددت علي يد القزويني في مطلع القرن السابع

---

[1] - حمودي صمودي، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس: مشروع قراءة، ص 137، بتصرّف.
[2] - نفسه، ص 304.

الهجري بتأليفه "التلخيص في علوم البلاغة" وقد أسهم هذا المؤلف في تغذية البحث البلاغي وتطوير مسائله المتنوعة والمختلفة وتبلورها وبلوغها حد النضج والاكتمال.

6- نظرة المستشرقين إلى الصوتيات العربية

من المعروف أن تداخل الدراسات اللغوية عند اللغويين العرب القدامى- علم اللسان العربي- في بداياتها الأولى كانت متداخلة متشابكة؛ إما مع الدراسات القرآنية، وإما فيما بينها وبتقدمها عبر القرون، حيث بدأ روادها في استقلالية التأليف اللغوي شيئا فشيئا، حتى أصبح اللغوي يدرس النحو ابتغاء التركيب العربي والتفقه في أسرار نظمه وأسلوبه ومنطق خصائصه وبذلك تطورت الدراسات اللغوية على أيدي علماء أجلاء خلفوا وراءهم مؤلفات قيمة، ولا سيما في العصر العباسي، فبدأت تظهر دراسات لغوية مستقلة، فنشأت على إثر ذلك دراسات تهتم بالصوتيات العربية، التي هي جزء من علم اللسان العربي، وعدت دراساتها مفتاحا لغيرها من الدراسات اللغوية الأخرى على اختلاف محاورها.

فاللغة عند جل اللغويين العرب المحدثين على مستويات خمسة: المستوي الصوتي والمستوى الصرفي والمستوى النحوي أو التركيبي، والمستوى المعجمي، وأخيرا المستوى الدلالي وهذه المستويات مرتبطة فيما بينها ارتباطا وثيقا، ومن الصعب الفصل بينها لأنّها كلّ متكامل ومتداخل وما اللغة في حقيقة الأمر إلا كلام متصل، وهذا الكلام لا يتضح ولا يفهم إلا بتضافر جميع مستويات اللغة : بدءا بالمستوى الصوتي، مرورا بالصرفي والتركيبي، ثم المعجمي بالإضافة إلى معطيات المقام، ومهما يكن من أمر: فإنّ كلّ عنصر من بنية اللغة يمثل جزءاً في بناء دلالاتها سواء كان عنصرا صوتيا أو صرفيا أو نحويا أو معجميا.

وقد اهتم علماء اللغة القدامى بكل ما يتصل بالقرآن الكريم اهتماما بالغا، وكما أحاطوا بجميع جوانبه بحثا ودرسا وتحليلا، وتوالت الجهود اللغوية بجل جوانبها المختلفة، وكما سبق أن ذكرنا فمعظم الدراسات اللغوية هي قرآنية المنشأ، مندفعة للحفاظ على لغة هذا الكتاب السماوي المقدس، ومن بين فروعه نجد علم التجويد الذي يعد علما صوتيا محضا في أصوله وفروعه ومقاييسه وعلله ومقرراته "ولا شك في أنّ بحث هذه الظاهرة في ضوء علم التجويد؛ أي الظاهرة

الصوتية، ذلك أن العلم الذي نقل إلينا «الصوت» القرآني بالتواتر من جيل إلى جيل، جمعا عن جمع، هو – لا ريب– أهمُّ مصدر يقف بنا على طريقة التلفظ بالقرآن الكريم"[1] لذا نجد رواد هذا العلم – علم التجويد – لهم محاولات جادة في تفسير الظواهر الصوتية والكشف عن حقيقتها اللغوية "ولعل أكثر ما أقلق القراء على مدى العصور، أن كثيرا من الناس تزيغ ألسنتهم عن نطق بعض الأصوات، وقد لحق هذا الزيغ الأصوات الانفجارية الساكنة، قياسا خاطئا على ما يجري في الأصوات التي تشكل ظاهرة القلقلة ... ولذا كان من دوافع هذه الدراسة أن تقف على الأسباب اللغوية التي تحمل كثيرا من الألسنة على القلقلة في جميع الأصوات الانفجارية... فأهلتها إلى أن تدرج في باب الأصوات المقلقلة"[2] فمن الواضح هنا أن هذه الدراسات أفادت كثيرا من الدراسات الصوتية العربية خاصة، مثل التكييف الصوتي الفزيائي والفيزيولوجي العلمي الأكاديمي الصرف الذي بحث فيه سيبويه في الكتاب وابن جني في الخصائص وفي سر صناعة الإعراب والزمخشري في شرح المفصل لابن يعيش "وأما القرّاء فلعل من أبرز كتبهم التي أفدت منها: الرعاية لمكي بن طالب القيسي والتمهيد في علم التجويد لابن الجزري وتنبيه الغافلين لعلي بن محمد النوري الصفاقسي"[3] وغيرهم.

إنّ المستوى الصوتي الذي يعدّ من أبرز المستويات اللغوية؛ شأنه شأن المواد الأخرى التي بدأت تأخذ مكانتها العلمية والأكاديمية طريقة ومنهجا، عند بزوغ القرن الرابع الهجري، حيث ظهر علم من أعلام العربية مكملا متمما ما بدأه الخليل وتلميذه سيبويه في مضمار الصوتيات العربية؛ ألا وهو ابن جني بكتابه المخصص بالمادة المسمى "سر صناعة الإعراب".

بزغ ابن جني في القرن الرابع الهجري عالما لغويا سائر الذكر ذائع الصيت، أضاء التراث اللغوي العربي، بنظرياته في النحو، والصرف، وعلم الأصوات، وعلم الاشتقاق والأدبِ، وعلم

---

[1]– إسماعيل أحمد عَمَايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، ط1. عمان –الأردن : 1996، مؤسسة الرسالة، دار البشير ص 196، بتصرّف.

[2]– المرجع نفسه، ص 196.

[3]– نفسه، ص 198 – 199.

القراءات، وسائر علوم اللسان، ولا زالت خصائصها حية تتدفق حيوية ونشاطا في مجال البحوث اللسانية في العصر الحديث.

وينفرد ذلك الكتاب في تاريخ اللسان العربي بخصائص صوتية ذات مسحة علمية أكاديمية لا تنكر، حيث كان هذا المؤلَّف موضع اهتمام الدارسين العرب وغير العرب، كيف لا وهو الذي جلّى فيه أسرار علم الأصوات وخصائصه، واهتدى فيه إلى أهم مستوى من مستويات اللغة، وهذا باعتراف صريح من ابن جني "بانكشاف أسرار هذا العلم وبُدوِّها"[1] فنال بذلك ابن جني حق الأسبقية، أسبقية الوضع واضعا بهذا الكتاب – سر صناعة الإعراب– أصولا في علم الأصوات العربي، ولذلك من الطبيعي أن يحتل ابن جني هذه المكانة في الدراسات اللغوية عند الدارسين اللغويين المحدثين.

ونستعرض بعض المادة الصوتية التي تمخضت عن هذا الكتاب، فقد جاء في كتاب ابن جني أن ما حمله على تأليفه، جملة من الأغراض الموضوعية، حيث ذكر بدقة غايته من هذا الكتاب، وذكر بوضوح غرضه منه، وهو: "ليس ذكر الحروف مؤلفة؛ بل لغرض فيه ذكر أحوال الحروف مفردة، أو منتزعة من أبنية الكلم التي هي مصوغة فيها لما يخصه من القول في أنفسها"[2] فواضح من هذا القول أن ابن جني حدد بدقة موضوع دراسة علم الأصوات، وهو الحرف مفردا وليس الحرف المركب في لفظة، ويطلق عليه في مواضع أخرى اصطلاح الصوت– الذي ذكره في أكثر من موضع في الكتاب– فهذا القول وغيره يدل على بواعث الدراسة الصوتية – بداية التفكير الصوتي– عند ابن جني بالنظر طبعا إلى خصائص اللغة العربية وطبيعتها.

وتجدر بنا الإشارة هنا ونحن نتحدث عن علم الأصوات أن نشير ولو إشارة طفيفة إلى أنّ صاحب العقل الرياضي الخليل ظهر في هذا المجال بمعجمه العين الذي يعد بحق أول مادة في علم الأصوات العربي وقضاياه.

ثم إنّ هذه المادة – مادة الكتاب– على كثرتها وتنوعها، تدل دلالة قطعية على أصالة علم الخليل، وتشهد له على ريادته – الخليل هو الرائد الأول– في هذا المجال بلا منازع بإجماع

---

[1]– أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، تح: حسن هنداوي، ط2. دمشق: 1993، ج1، دار القلم، ص 5.

[2]– نفسه، ص 5، بتصرّف.

الدارسين اللغويين العرب المحدثين، وحتى بشهادة المستشرقين، ومن أهم تلك الشهادات وأدقها نذكر شهادة أبرز مستشرقي القرن الماضي وأشهرهم؛ المستشرق الألماني برجستراسر Gotthelf Bergstrasser 1886–1933م بقوله المشهور: "أوّل من وضع أصول هذا العلم من العرب: الخليل بن أحمد المتوفى 177هـ، أو سنة 180هـ."[1] ويضيف برجستراسر مؤكدا الارتباط والتلازم بين نشوء الدرس اللغوي ووجود كتاب سماوي أو مقدس، وهذه البديهة حسبه يؤكدها بروكلمان أيضا بقوله في مؤلفه "تاريخ الأدب العربي" القسم الأول، الباب الرابع: علم العربية: "أن أصل علم اللغات عند جميع الأمم هو قيام تضاد بين لغتين، أو مرتبتين من لغة واحدة، مثل لهجة عامة ولهجة الأوائل في كتب الدين، يبعث الداعي إلى البحوث والأنظار اللغوية"[2] فهذا كلّه صحيح لا شك فيه من وجهة نظر علماء الغرب عامة، وبروكلمان كغيره من الغربيين استقى هذه الملاحظة من الملاحظات العامة حول اللغة وتبناها، وبرجستراسر أيضا كغيره من المستشرقين كذلك، ويؤكد في قوله هذا أن الدافع الأساسي وراء نشأة الدراسات اللغوية عند مختلف الأمم هو الدافع الديني – التعليمي.

لم يقف رأي برجستراسر عند هذا الحد؛ بل نجده أيضا في قول آخر يؤكد على تداخل فروع علم اللسان العربي في بداياتها الأولى مستدلا بجزئية علم الأصوات من علم النحو: "وقد كان علم الأصوات في بدايته جزءا من أجزاء علم النحو، ثم استعاره أهل الأداء والمقرئون، وزادوا فيه تفصيلات كثيرة، مأخوذة من القرآن"[3] ونستشف أيضا من القول إقرار برجستراسر إقرارا واضحا بالعلاقة الوطيدة الوثيقة القائمة بين علم القراءات على اختلاف قرائها وعلم الأصوات، وهي علاقة تداخل وتشابك لغوي بامتياز.

---

[1]– برجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه وعلق عليه: رمضان عبد التواب، ط2. القاهرة: 1994 مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص11.

[2]– كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: عبد الحليم نجار، ط4. القاهرة: دت، دار المعارف، ج2، ص 123 -124.

[3]– برجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، تع: رمضان عبد التواب، ط2، ص 11.

ومن أبرز أعلام المستشرقين وأهمهم الذين ركزوا اهتماماتهم على الدراسات الصوتية عند العرب المستشرق الألماني صاحب كتاب علم الأصوات عند سيبويه آرثور شاده 1883-1956م، ولعلّ هذا المؤلف يعدّ أكثر أعماله قيمة وأهمية.

ومن بين هؤلاء المستشرقين؛ المستشرق الألماني تلميذ أوغست فيشر وأستاذ جامعة هامبورج آرثور شاده، الذي يعد شخصية استشراقية مهمة تنوعت مؤلفاتها، وتعددت إسهاماتها التي نالت حظها من الدراسة عامة، والكتاب السالف الذكر خاصة، ويعتبر من أشهر مؤلفات شاده وهو عبارة عن رسالة دكتوراه في الدراسات الصوتية، أعدها سنة 1911 في جامعة لايبزغ، وقد ذكرت مختلف المصادر اللغوية أنّ هذا المستشرق كان مولعا بالدراسات الصوتية في اللغات السامية والشرقية، حيث كانت هذه الأخيرة دائما تثير اهتمامه وتدفعه إلى البحث والتأليف.

اجتهد النحاة واللغويون العرب في دراسة علم العربية، وتحديد معالمه، من جميع نواحيه: الصوتية والصرفية، والتركيبية والدلالية المعجمية، وقد برز العرب بشكل خاص في الدراسات اللغوية والنحوية، وعلى رأس هؤلاء اللغويين يقف إمام النحاة سيبويه تلميذ الخليل بن أحمد علمًا شامخا بتنظيراته الواسعة المقترنة بمختلف فروع علم اللغة.

وقد جاءت عدة مؤلفات عربية بذكر مكانة هذا الرجل ونخص بها ذكرا: "مراتب النحويين" لأبي الطيب اللغوي ت351هـ: "وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل، وألّف كتابه الذي سماه الناس قرآن النحو، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل"[1] وأشهر ما قيل فيه قول السيرافي ت368هـ في كتابه أخبار النحويين البصريين: "عمل كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد قبله، ولم يلحق به من بعده"[2] فمن هنا تظهر جليا مكانة سيبويه ويعلو كعبه في علم العربية الذي لا يضاهيه مضاه بعد وفاته وهذا بشهادة أهل الاختصاص واعترافهم.

وقد عكف على خدمة هذا الكتاب منذ تأليفه مع مطلع القرن الثالث الهجري ولا نبالغ إذا قلنا إلى يومنا هذا بالضبط والتفسير والشرح والتعليق والترجمة ثلة من اللغويين المشارقة والمغاربة

---

[1]- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب كتاب سيبويه تح: عبد السلام محمد هارون، ط3. القاهرة: 1996، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، مقدمة المحقق، ص 22.

[2]- المرجع نفسه، ص 23.

والأندلسيين وكذا من بعدهم من المستشرقين المستعربين، ويسر للمهتمين بالبحث اللغوي السبل الموصلة إلى مستجدات الحركة العلمية الحديثة.

وإن صاحب الفضل الأكبر في إحياء هذا الكتاب هو المستشرق الفرنسي هرتويغ درنُبرغ Hartuig Derenbourg 1844-1908م تلميذ دي ساسي وأستاذ اللغة العربية الفصحى بالمدرسة الخاصة باللغات الشرقية في باريس، حيث وضع مؤلفا ضخما في مجلدين سنة 1881م مسماه: كتاب سيبويه المشهور في النحو، واسمه "الكتاب" حيث نوه بالمجهودات الجبارة التي قدمها كل من دي ساسي وجورجواس Guiguass في هذا العمل، وختم مقدمة الكتاب بقوله: "وهنا يتوقف حديثي عمن سبقوني إلى هذا العمل وإن كنت قد عددت نفسي من زمرتهم وإني لأجرؤ على أن آمل أن هذا الجزء الأول سيلقي ضوءا كبيرا على أهمية هذا الكتاب الذي حاولت جاهدا أن أرده إلى أصوله الأولى"[1] ومهما قيل في هذا الكتاب، فإنّه لا يعدو أن يكون دليلا قاطعا على المكانة التي حققها هذا المؤلف وشهرته في عصره والعصور التي جاءت بعده منذ صدوره حتى العصر الحالي.

سعى سيبويه من خلال مؤلفه "الكتاب" إلى تدوين قواعد اللغة، وتبيين أهمية القواعد النحوية في اللغة العربية، ودورها في بناء الكلام، فجاء شاملا لمختلف المسائل النحوية، فعقد في ذلك أبوابا خاصة لبيان أبنية الكتاب، ومن جملة ما أورده سيبويه من مسائل نحوية في أبواب نذكر منها: هذا بابُ عِلْمِ ما الكَلِمْ من العربية، هذا باب الفاعل، وهذا باب المفعول، وهذا باب تُخبرُ فيه عن النكرة بنكرة، وهذا باب الإضمار في ليسَ وكان كالإضمار في إنّ، وباب مجاري أواخر الكلم من العربية* وباب المسند والمسند إليه... وغيرها من الأبواب، وعمد سيبويه إلى شرح كلّ باب شرحا وافيا مستفيضا مستدلا بالشواهد الشعرية والنثرية.

فجاء هذا الكتاب في حجم ضخم متكونا من خمسة أجزاء، وكلّ جزء يتألف من أربعمائة صحيفة أو تزيد، فعدّ بهذه الضخامة، من اتساع المادة وغزارتها، وتنوعها بمختلف مستوياتها من أشهر ما ألّف في النحو العربي قديما وحديثا، وأكثرها فائدة، وأوسعها مادة – سواءً أكانت لغوية أم نحوية–

[1]– سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ص 51.

مع الإشارة إلى أنّ المؤلف عرف باسم الكتاب: "ومن المقطوع به تاريخيا أن سيبويه لم يسمِّه باسم معين على حين كان العلماء في زمانه ومن قبل زمانه يضعون لكتبهم أسماء: كالجامع والإكمال لعيسى بن عمر والعين المنسوب إلى الخليل"[1] ويرجع عبد السلام محمد هارون عدم تسميته من لدن سيبويه إلى موته شابا – أدركته المنية – فلم يتمكن من معاودة النظر فيه، فليست للكتاب مقدمة وليست له خاتمة مع جلالة قدره وإحكام بيانه، حسب عبد السلام محمد هارون دائما.

ولقد احتوت هذه الرسالة – رسالة آرثور شاده – على أفكار سيبويه الصوتية، فهي عبارة عن دراسة علمية للغة الطبيعية والكلام المنطوق، الأصوات البشرية، تحدث فيها آرثور شاده: "عن دراسة سيبويه لهذا العلم مع بيان رأي علماء اللغة المحدثين – زمن شاده – فيها"[2] حيث أشاد شادة بأسبقية سيبويه في اكتشاف ظاهرة الإدغام في حين: "لم يوفق علم الأصوات العصري إلى معرفته؛ أي معرفة الإدغام، منذ خمسين سنة على الأكثر"[3] ومن جملة الأهداف التي حفزت سيبويه على دراسته الصوتية، والتي حصرها بعض الدارسين في ثلاثة أهداف:

* الهدف الأول: لزوم إجادة نطق الأصوات منفردة من حيث المخرج والصفة، ومنتظمة من حيث الفك والإدغام، والفتح والإمالة، والإبدال، والإخفاء.

وحسن أداء هذه الجوانب ضمان للنطق السليم المنزه عن العيوب الكائنة في كثير من الصور النطقية الشائعة في اللهجات قديما وحديثا.

* الهدف الثاني: معرفة التعليل الصوتي للتغيرات التركيبية من إعلال، وإبدال، وإمالة، وإدغام ومخالفة وإتباع.

* الهدف الثالث: معرفة أسباب ثقل جملة من الصيغ الصرفية التي يهرب منها الناطق لعدم

---

*– وهي تجري على ثمانية مجارٍ: على النصب والجر والرفع والجزم، والفتح والضم والكسر، والوقف. وهذه المجاري الثمانيةُ يجمعهنّ في اللفظ أربعةُ أضرب: فالنصبُ والفتح في اللفظ ضربٌ واحد، والجرّ والكسر فيه ضرب واحد، وكذلك الرفع والضمّ، والجزم والوقف. ينظر سيبويه، الكتاب، ص 13.

[1]– سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ص 24.

[2]– صبيح حمود التميمي "علم الأصوات عند سيبويه للمستشرق الألماني أرتور شاده (1883–1952م) محاضرة برؤية استشراقية ومراجعة حديثة" مجلة آداب الرافدين، 2010، ع58، ص1.

[3]– المرجع نفسه، ص 2.

خفتها"[1] ونلاحظ مما سبق أن هذه الأهداف استشفها الدارس من قول سيبويه في خاتمة باب الإدغام "وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يُحسن فيه الإدغام وما يجوز وما لا يُحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقالا كما تدغم وما تخفيه، وهو بزنة المتحرك"[2] في حين افتتح سيبويه الإدغام، الذي احتل الصدارة في مختلف الدراسات الصوتية المعاصرة بذكره عدد الحروف باختلاف مخارجها والتغيرات التي تطرأ على أحوالها، حيث نلاحظ أن سيبويه في هذه الدراسة التي قام بها للأصوات كانت دراسة علمية وصفية محضة قائمة على تذوق الحروف –على غرار الدراسات القديمة– حيث اعتمد على الملاحظة الشخصية الذاتية للظواهر الصوتية، ثم قام بتحديد مخارجها بدقة كبيرة، مستفيدا من علم السابقين له في هذا الميدان.

ومن جملة النقاط؛ التي تعرض لها **شاده** في مؤلفه: "علم الأصوات عند سيبويه" سواء كانت سلبية أو إيجابية نذكر أهمها:

– إشادة شاده بعبقرية سيبويه وبعلمه الدقيق، وريادته في مجال علم الأصوات اللغوي وذلك بإدراكه لظواهر الصوتية الحسية، وضبطه مخرجَ الصوت ومعناه، رغم خلطه بين مصطلح الحرف ومصطلح الصوت، كغيره من الدارسين اللغويين المحدثين.

– دقة آراء سيبويه ووضوحها في وصفه لبعض الظواهر الصوتية، كالغنة، والإطباق والرخاوة والشدة والليين وغيرها من الظواهر التي اهتدى إليها.

– تقسيمه الدقيق لمخارج الحروف، التي أوردها في ستة عشر مخرجا للأصوات، وكذلك ذكر الخليل في معجم العين وابن جني في كتابه: سر صناعة الإعراب، مستبعدين الأصوات الجوفية، ويرجع ذلك حسب بعض المصادر اللغوية الحديثة إلى اعتقادهم أن هذه الأصوات تتعلق بأحرف العلة المتذبذبة في الهواء فزيائيا، لأنها تخرج من الجوف ولا تقع في مدرجة من مدارج اللسان أو الحلق أو اللهاة.

---

[1]– صبيح حمود التميمي "علم الأصوات عند سيبويه للمستشرق الألماني أرتور شاده، ص 6.

[2]– سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ج4، ص 436.

ولأهمية مادة الكتاب سواء أكانت نحوية أم لغوية، أصبحت مصدرا مهما لا يمكن الاستغناء عنه لمعظم البحوث الصوتية التي دارت حول فكر سيبويه قديما وحديثا للدارسين اللغويين سواء أكانوا عربا أم مستشرقين غربيين فلا نكاد نقف على دراسة نحوية أو صرفية أو صوتية إلا والكتاب أحد أبرز مصادرها.

انطلاقا مما سبق نلحظ أن المستشرق آرثور شاده قد أثنى على المجهودات الجبارة التي قدمها سيبويه في ميدان الدراسات الصوتية، لما بلغه من الدقة والتفصيل في تبيين الحقائق الصوتية وادراكها، التي أكدتها الدراسات اللغوية الحديثة.

خلاصة الفصل:

تعقيبا على ما سلف نرى؛ أن ظاهرة الاستشراق من الظواهر التي نشأت في أحضان الصراع الحضاري العقائدي، الذي كان هذا التصادم – الحضاري – المحرك الأساسي لنشأة هذه الظاهرة، وهي من الظواهر التي لاقت اهتماما كبيرا، وهذه الحقيقة تؤكدها وتبينها كثير من المؤلفات التي تناولت هذه الظاهرة بإسهاب سواء أكان ذلك بالتحليل والوصف، أو بالشرح والنقد والتعقيب.

ونحن على قناعة، بناءً على إيماننا بأن جميع الظواهر العلمية والمعرفية، أي ظاهرة كانت؛ انطلاقا من نشأتها الأولية باعتبارها عملية ثقافية حضارية معقدة ومتشابكة تتولد بتضافر عوامل متعددة انطلاقا من هذه الماهية لا يمكن أن نحدد بدقة تاريخا محددا لنشأتها، ولا يمكننا أن ننسبها أو نردها إلى شخص معين.

وفي الحقيقة فإنّنا نجد أنفسنا في حيرة إزاء إصدار بعض الأحكام والتقديرات التي يجب أن ندرجها مبدئيا في هذا الفصل، حيث حاولنا طيلة هذا الفصل أن نسلط الضوء على أهم العوامل التي هيأت المناخ الملائم لنشأة ظاهرة الاستشراق، وحرصنا على الاطلاع بقدر الإمكان على مختلف مؤلفات المستشرقين التي تعد في حقيقة الأمر بالآلاف، والتي تعرضت لمختلف المصادر اللغوية، حيث ركز أصحابها على دراسة التراث اللغوي العربي من خلال الرجوع إليها والاعتماد عليها كركيزة أساسية في تآليفهم المتنوعة الكثيرة، حيث كانت هذه المصادر بمثابة الذاكرة الحية التي حفظت لنا تاريخ هذه الأمّة بجميع أطواره، وحملت المستشرقين على التفكير في الشرق وتراثه

بمختلف أنواعه ومعتقداته، وفتحت سبل البحث أمام الدارسين لاستكناه كنوزها، وقد اهتدينا إلى تقسيم مراحل هذه الظاهرة – ظاهرة الاستشراق– إلى ثلاث مراحل تحتل مرحلة الحدث الاستشراقي أو البروز الاستشراقي أو نشأة ظاهرة الاستشراق.

فظاهرة الاستشراق عند جل الدارسين المحدثين مرت بمراحل عديدة عبر التاريخ البشري وبطرائق متنوعة مختلفة ، وهذه الطرائق تنمو وتتطور منسجمة مع مستجدات العصر وتطور حياة الشعوب والأمّم، حيث كيفت هذه الظاهرة حسب أهدافها وتطلعاتها منذ نشأتها إلى غاية يومنا هذا؛ لكن في اعتقادنا أنّ فن الاستشراق مرّ بثلاث مراحل بارزة كما يبينها في الرسم البياني سالف الذكر.

حيث نلاحظ أنّ المرحلة الأولى، مرحلة ما قبل الحدث، كان فيها الاستشراق ظاهرة غير رسمية، تتسم بكثير من الغموض والضبابية، وهي أقل المراحل وضوحا وأكثرها استعصاء على الضبط والتحديد، بوجه من الدقة الضرورية وأقلها إنتاجا، وهذا يرجع إلى انعدام الوثائق المخصصة المتعلقة بهذه المرحلة الزمنية بالذات، وإلى تضارب الآراء واختلاف الروايات حول تاريخ النشأة والشخص الأول الذي بدأت على يديه هذه الظاهرة بالبزوغ، فما بحوزتنا لا يكاد يكون جملة من الأخبار المتفرقة في مؤلفات ألفت في عصور لاحقة لها لأن هذه الظاهرة كغيرها من الظواهر المعرفية، لا تتولد دفعة واحدة ؛ بل تتولد تولدا متدرجا وتنمو شيئا فشيئا حتى تتبلور وتبرز إلى الوجود في مرحلة من مراحلها، حيث تشير بعض المصادر إلى أنّ ظاهرة الاستشراق بدأت مع بداية القرن الثاني عشر الميلادي، فالنشاط الاستشراقي في المرحلة الأولى على أهميته، يبدو مشتتا، حيث كان في مجمله مقتصرا على جمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد الشرق الإسلامي وترجمتها إلى مختلف اللغات الأوروبية.

أما المرحلة الثانية فتبين أهم العوامل التي هيأت المناخ الملائم لظهور هذه الظاهرة، وهي الأسباب التاريخية والدينية المعروفة التي دفعت بالدول الأوروبية إلى إنشاء كراسي للغات الشرقية في مختلف جامعاتها، وظهرت على اثرها مختلف المدارس الاستشراقية، حيث ارتبط نشاط روادها بدراسة اللغة العربية والدين الإسلامي، وعملوا بجد على بلورة الفكر الاستشراقي، ثم توسعت وامتدت إلى كلّ ما يتعلق بالشرق من عادات وتقاليد وتراث وغيرها من مكوناته، وتأثروا تأثرا جليا بالتفكير اللغوي العربي

ومن بين المستشرقين الذين جسدوا هذا التأثر شيخ المستشرقين الفرنسيين دي ساسي والمستشرق الألماني دوزي.

في حين نجد هذا التأثير يقل تدريجيا مع رواد المرحلة الثالثة، حيث مال هؤلاء إلى دراسة اللغة العربية في ضوء الدراسات الغربية الحديثة، يلقون الضوء على التراث اللغوي العربي في ظل المناهج الحديثة، ومن أبرز هؤلاء المستشرقين المستشرق الألماني آرثور شادة بدراسته الصوتية لكتاب سيبويه.

وفي هذا الكم الهائل من الدراسات الاستشراقية دلالة واضحة على الجهود القيمة التي قدمها المستشرقون في خدمة لغة الضَّاد، وعليه لا بّد من هذا التساؤل: لماذا كلّ هذه الأعمال الفنية والمعرفية؟ ولماذا كلّ هذا الاهتمام بالثقافة العربية خاصة؟ ولماذا كلّ هذه الحركية والحيوية والإثارة؟ ولماذا كلّ هذا الاعتناء الزائد عن حده بالعربية؟ في حين كان عليهم أن يهتموا بثقافاتهم الخاصة ويولّوها العناية الأوفر.

الفصل الثاني

أعلام المستشرقين المشهورين ونشاطهم في التراث اللغوي العربي.

1- أعلام المستشرقين المشهورين ونشاطهم في التراث اللغوي العربي

نروم في هذا الفصل تبيان إسهام المستشرقين في تنشيط مجال البحث اللغوي العربي بجملة من الأفكار اللغوية الحديثة، وذلكم الإسهام نعتقد أنّه جدير بالعناية والاهتمام لأسباب موضوعية، فهو من جهة؛ يُسهم في الوقوف على جهود المستشرقين في مجال دراسة التراث الشرقي بصفة عامة، ومن جهة أخرى في دراسة التراث اللغوي العربي بصفة خاصة.

فالازدهار الحضاري العربي الإسلامي خلال القرون الأولى للهجرة، والقرن الرابع الهجري خاصة، واكبه ازدهار لغوي لا نظير له، حيث تمكنت لغة الضاد خلال هذه القرون أن تواكب التطور الحضاري وتسايره وتعبر عنه بكل يسر، بعد انتشارها تقريبا في كل بقاع العالم.

وبعد أنّ وصلت الحضارة العربية الإسلامية أوجها في هذه المرحلة من النضج والاكتمال في شتى مجالات الحياة، بدأت معها النظرة الغربية تتجه صوب هذا الإرث الحضاري بمختلف أنواعه، والتفكير في الآليات التي تمكنها من السيطرة على الشرق وزعزعته، لتحكم فيه فبدأت تهيء السبل لتبعث من جديد سلسلة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب.

فالدول الأوروبية: "لم تنس هزيمتها المنكرة في الحروب الصليبية أو حروب الإفرنج على الرغم من مرور القرون العديدة على أحداثها ووقائعها، فقد لاحت للغرب فرصته الذهبية في العصر الحديث، فانقض على الشرق الإسلامي المترنح بفعل عوامل التخلف والانحطاط الثقافي والسياسي والعسكري والاقتصادي التي دارت به وأحاطت، فوضع رقبة الشرق تحت قيده الغليظ"[1] وفي هذا الصدد يضيف بعض الدارسين قائلا: "لم ييأس الغربيون بعد هزيمتهم في الحروب الصليبية، فراحوا يدرسون هذه البلاد في كل شؤونها: من عقيدة ولغة وحضارة، وعادات وتقاليد وأخلاق..."[2] وقد وجدت في المستشرقين فرصة ذهبية تمكنها من الوصول إلى تحقيق أهدافها وأغراضها المختلفة، وهذا بإقرار المستشرقين أنفسهم، وبتأكيد مختلف المصادر التي أرخت لهذه الظاهرة الاستشراقية.

[1]- محمد بن عبد الله الشرقاوي، في الفكر الإسلامي المعاصر الاستشراق دراسة تحليلية تقويمية، دط. كلية دار العلوم- جامعة القاهرة، ص 65، بتصرّف.

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ومن أبرز المستشرقين الذين أقروا بهذه الحقيقة المرة، وخاضوا فيها، نجد كلا من مؤسسي مجلة الإسلام الألمانية المستشرق كارل هينريش بيكر Karl Heinrich Becker 1876-1933م والمستشرق الألماني المعاصر استفان فيلد Stephan Wild من مواليد 1937، حيث يعترف كلّ واحد منهما بوجود ثله من المستشرقين يشعرون بالعداء لكل ما هو شرقي ويقول في هذا الصدد استفان فيلد: "إنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين وهذا واقع مؤلم، لا بّد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة"[1] لغرض علمي وعملي وظيفي.

فأخذ "الملوك يرعون نشاط المستشرقين ويمهدون أمامهم طريق دراسة الشرق والإحاطة بتراثه العلمي على مختلف أنواعه"[2] ولا ننسى دور رجال الدين في هذا كله، حيث كان لهم الدور البارز في اتساع النشاط الاستشراقي، وتنشئة جيل يغرد خارج التيار العام للاستشراق، وكذا بإجماع هؤلاء وهؤلاء على تكوين المناخ الاستشراقي، الذي سيترعرع فيه المشتشرقون، ويعملون على نقل أمات الكتب الشرقية إلى الغرب، لا لهدف، إلا لهدف الاستحواذ على التراث الشرقي الزاهي بكل جوانبه.

إنّ ظاهرة الاستشراق هي في الحقيقة أداة لنقل روح الحضارة الشرقية، وهي الحاملة لكل مصدر من مصادرها، وأن أول عمل ممنهج متجسد للمستشرقين، هو توليدهم مناخا فكريا جديدا في العالم الغربي، يبحث عن كل حقيقة في كل ميدان من ميادين التراث الشرقي، في اللغة والأدب، والعقيدة، والتاريخ، والاجتماع، وهلّم جرا.

ولا شك أن هذا المناخ دعم عمليا النشاط الاستشراقي، وأدى بصفة خاصة إلى إذكاء روح الترجمة عند ثلة من المستشرقين والرحالة وغيرهم من الذين عملوا بكل جد وكد لتحقيق هذا الهدف مما أتاح للدول الغربية الدخول إلى الحضارة العالمية من بابها الواسع.

---

[1]- محمد بن عبد الله الشرقاوي، في الفكر الإسلامي المعاصر، ص 68.

[2]- عفاف صبره، المستشرقون ومشكلات الحضارة، دط. مصر: 1985م، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع ص 16، بتصرّف.

وبالنظر إلى اصطلاح "المستشرقين نجد أنّ هذا الاصطلاح واسع جدا يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة، فهم يدرسون العلوم والفنون والآداب والديانات والتاريخ وكل ما يخص بشعوب الشرق"[1] ولا يمكن من جهة أخرى؛ إغفال الجهد المطلق الذي قدمه الدارسون العرب القدامى، إذ كانت لأفكارهم وآرائهم ونظرياتهم وتوجهاتهم ومناهجهم في الدراسات اللغوية الحديثة، جل الأثر في مسار النشاط الاستشراقي.

وقد جاء في تعريف مفكر جزائري معاصر وعلم من أعلام الفكر الإسلامي في القرن العشرين المشهود له بنظرة فلسفية ثاقبة ميزة وفضلا، أو بفكر فلسفي حضاري عميق؛ ألا وهو المفكر الجزائري مالك بن نبي 1905-1973م للمستشرقين أنّه قال: "إنّ المستشرقين هم الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية"[2] ويضيف في المضمار نفسه للمستشرقين تصنيفا جعلهم في طبقتين ثنتين، مادحا وقادحا.

أولا: من حيث الزمن "طبقة القدماء مثل جربر دورياك والقديس توماس الأكويني، وطبقة المحدثين مثل: كاره دوكو وجولدتسهير.

ثانيا: من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتابتهم: فهناك طبقة المادحين وطبقة المنتقدين لها والمشوهين لسمعتها"[3] وعلى ضوء هذا رتب مالك بن نبي المستشرقين في دراسته مركزا على الصدام الفكري الحضاري الحاد القائم بين الحضارتين: الشرقية والغربية مشترطا ضرورة اعتماد هذا التصنيف؛ بل جعله محورا تدور حوله الدراسة الاستشراقية، في كل دراسة يكون محورها الأساس دائرا حول الاستشراق والمستشرقين.

بهذا المنطق، صنفت جل المصادر الحديثة للمستشرقين، بين منصف وجائر مع اعترافه في الأخير بصعوبة الفصل بين التيارين، لأن المنصف لا يمكن له أن يكون مستقلا عن الجائر حيث شبهه بالمدمن الذي يبحث عن حقنة المخدر، لا لشيء، إلا لإشباع حاجته المُرضية

[1] – عفاف صبره، المستشرقون ومشكلات الحضارة، ص 11، بتصرّف.

[2] – مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ط1. الجزائر: 1969م، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوريع، ص 5، بتصرف.

[3] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

الخاطفة، لفترة ظرفية مؤقتة لا أكثر، كلاهما كان شرا على الفكر الشرقي، عاقدا مسبقا عقدة الحرمان، سواء في صورة المدح والإطراء أو في صورة التفنيد والإقلال، قاصرين فيما ذهبوا إليه من بحث ودراسة، على أن دور هذا التراث هو مجرد ما أنتجته الحضارات الأخرى، على غرار الحضارة اليونانية والرومانية وغيرها من الحضارات السابقة للحضارة العربية الإسلامية.

فالدراسات الاستشراقية في مجال حقل الدراسات اللغوية لها مرجعتيها التاريخية والفكرية والسياسية والثقافية الخاصة بها، فهي تخضع لتصورات عقيدية وفكرية واجتماعية، وهذا كلّه يعود إلى ارتباط اللغة ارتباطا وثيقا بالفكر البشري، وهذا ما تؤكده الفرضية التي تقول بلغويّة الفكر، فهي الفرضيّة الوحيدة الفعّالة القادرة على تفسير العلاقة القائمة بين الفكر واللغة "فهما يرتبطان معا برباط وثيق في نشاط عقلي، بحيث لا ينفصل أحدهما عن الآخر"[1] وقد ثَبَتَ بشكل لا يقبل الشك أو الجدل أنّ "اللغة تعين الإنسان على تجسيد فكره أو بلورته وصوغه وتداوله، فالفكر بدوره يعين اللغة على الدقة ويُثريها بالمصطلحات"[2] فهي التي تعبر عن الخلفية الفكرية لصاحبها، وتعبر أيضا عن النظم الاجتماعية والثقافية وغيرها.

فمن الطبيعي أن يرتبط النشاط الاستشراقي بتطوير الحياة السياسية، والاجتماعية، والفكرية والثقافية، باعتبار هذا النشاط حدثا تاريخيا، ولما له من دور فعال، وإسهامات بارزة في تحقيق نهضة غربية شاملة وحقيقية، فتنشيط هذا الفن الاستشراقي الذي يعد مصدرا متميزا من مصادر المعلومات عن الحضارة العربية الإسلامية، والمسلمين والشرق كله، وكلّ ما يزخر به من تراث حي، يحوي أنفس المؤلفات التي نباهي بها الغرب دون أن نبالغ في ذلك، فهو مرآة تعكس المستوى الفكري واللغوي لأيّ أمّة، وهذا ما يؤكده التاريخ الطويل لحياة الأمم على مر العصور حيث يُعدّ دعامة من الدعائم الأساسية، والإرث الحضاري للحضارة العربية الإسلامية العظيمة وركيزة من الركائز الأولى التي أقيمت عليها الحضارة الغربية المعاصرة بكل جوانبها، والتي غيرت بها وجه العالم، ولم لا وجه الإنسانية جمعاء، فالواجب إذن يقتضي منا إبراز هذا التأثير، وذاك

[1]– محمّد محمّد داود، جدليّة اللغة والفكر، ط1. القاهرة – مصر: 2009، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص 172.

[2]– المرجع نفسه، ص 173.

التأثر في الفكر والثقافة واللغة والأدب وغيرها من العلوم والفنون.

لذا كان التراث الشرقي ولا يزال جذابا من كلّ جوانبه، ولا زال يدرس من منظورات مختلفة حتى الساعة، وخير دليل على ذلك؛ مختلف المؤلفات القديمة التي شغلت علماء الغرب، وما زالت لحد الآن تدرس في كبريات الجامعات الأوروبية مثل: جامعة كورنيلCornell University أكسفورد وكامبريج وغيرها من الجامعات الغربية؛ وعلى رأس هذه الكتب كتاب "المقدمة" لصاحب العقل المنطقي، والمؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع والعمران البشري، وصاحب النظريات المختلفة الرائجة في الاقتصاد والتربية وغيرها من الفنون، وفلسفة التاريخ والعلوم وغيرها بلا منازع العلامة عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي 1332-1406م، وقد ترجم هذا الكتاب إلى مختلف اللغات العالمية كاللغة الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، وغيرها من اللغات، ولا تزال النقاشات والأطاريح تدور حوله، وحول منهجه وآرائه ونظرياته ومختلف المفاهيم التي تفرد بها متواصلة إلى يومنا هذا.

ومن أكثر المؤلفات العلمية الشرقية المنتشرة في مختلف أرجاء المعمورة كتاب القانون في الطب، الذي يعد مرجعا أساسيا لتدريس الطب في مختلف الجامعات الغربية، حيث ترجم هذا الكتاب إلى العديد من اللغات الأوروبية للفيلسوف الكبير ابن سينا 370-427هـ، وغيرها من الكتب النفيسة، ولولا أن الاختصاص يقيدنا في هذا البحث لذكرنا مختلف كنوز التراث الشرقي التي لا تعد ولا تحصى، التي ترجع بالفضل على الإنسانية جمعاء، تأكيدا على ضخامة هذا الإرث الحضاري وغزارته بمختلف جوانبه وتخصصاته المختلفة.

ورغم كلّ هذا؛ فلا يمكن بالضرورة إسقاط ظاهرة الاستشراق من أي مقاربة علمية وهذا ما دفع الدارسين اللغويين المحدثين إلى الدعوة إلى إعادة قراءة التراث اللغوي للمستشرقين لثرائه قراءة علمية جديدة، ابتغاء الكشف عن كنوزه ، وإثراء اللسان العربي، دون إغفال المفاتيح العلمية الحديثة، وهو أبرز ما اهتم به الدارسون المحدثون في الدراسات اللغوية المعاصرة.

ولا بّد من الاعتراف مسبقا؛ أنّ النظريات الغربية استمدت مبادئها، وأسسها العلمية من لغات أجنبية غير اللغة العربية، في حين نجد معظم الدراسات التي تعرضت لدراسة المؤلفات اللغوية العربية القديمة، دائما تدرسها في ضوء المناهج العلمية الغربية الحديثة، وتحاول اسقاطها عليها دون مراعاة خصوصية لغة الضاد، مع العلم أن لغة الضاد تفردت بخصائص تميزها عن

غيرها من اللغات البشرية، وتجعلها لغة غنية، تستطيع أن تساير التطور الحضاري والفكري؛ وخير دليل على ذلك تمكن اللغة في العهود الإسلامية المختلفة من استيعاب الفكر الدخيل، التعبير عنه بلغة صافية مرنة، على الرغم من أنّها تنتمي إلى مجموع اللغات البشرية وتشترك معها في مجموع من الخصائص الصوتية، والدلالية وغيرها من الميزات.

وستجري تطبيقات هذا الفصل بالوقوف على نخبة من المستشرقين المبرزين، لأنّ البحث لا يتسع لذكر المستشرقين جميعا، الذين يعدون بالمئات؛ لإبراز جهودهم المبذولة في هذا المجال من الدراسات، وعلى طائفة مختارة من مؤلّفاتهم في الاستشراق مع مراعاة المسار الزمني لإصدارها، في لمحات خاطفة بطائفة من النماذج والأمثلة، وفي ظل هذا التخطيط الأولي كانت معالم الفصل متسعة على ثلاثة مباحث تدور كلها حول أبرز جهود أعلام المستشرقين حسب تاريخ الأجيال، ابتداءً من الجيل الأول الذي يمكن أن نسميه باسم طلائع المستشرقين، الذين حاولوا تقليد المنهج المتبع في مؤلفات التراث اللغوي العربي القديم، مرورا بالجيل الثاني الذي أَسَسَ أُسُسْ هذه الظاهرة ومكّن لها وقعّد، وذلك بتأسيس مختلف المؤسسات الاستشراقية: مثل إنشائهم معاهد اللغات الشرقية في مختلف الجامعات الغربية، محاولين التخفيف من المصطلح العربي في مؤلفاتهم، وانتهاءً بالجيل الثالث الذي حاول التخلص من آثار الدرس اللغوي العربي القديم، وبلغ على يديه النشاط الاستشراقي أوجه، وفق هذا المخطط:

يسير المخطط البياني لأعلام المستشرقين وفق هذا المنظور:

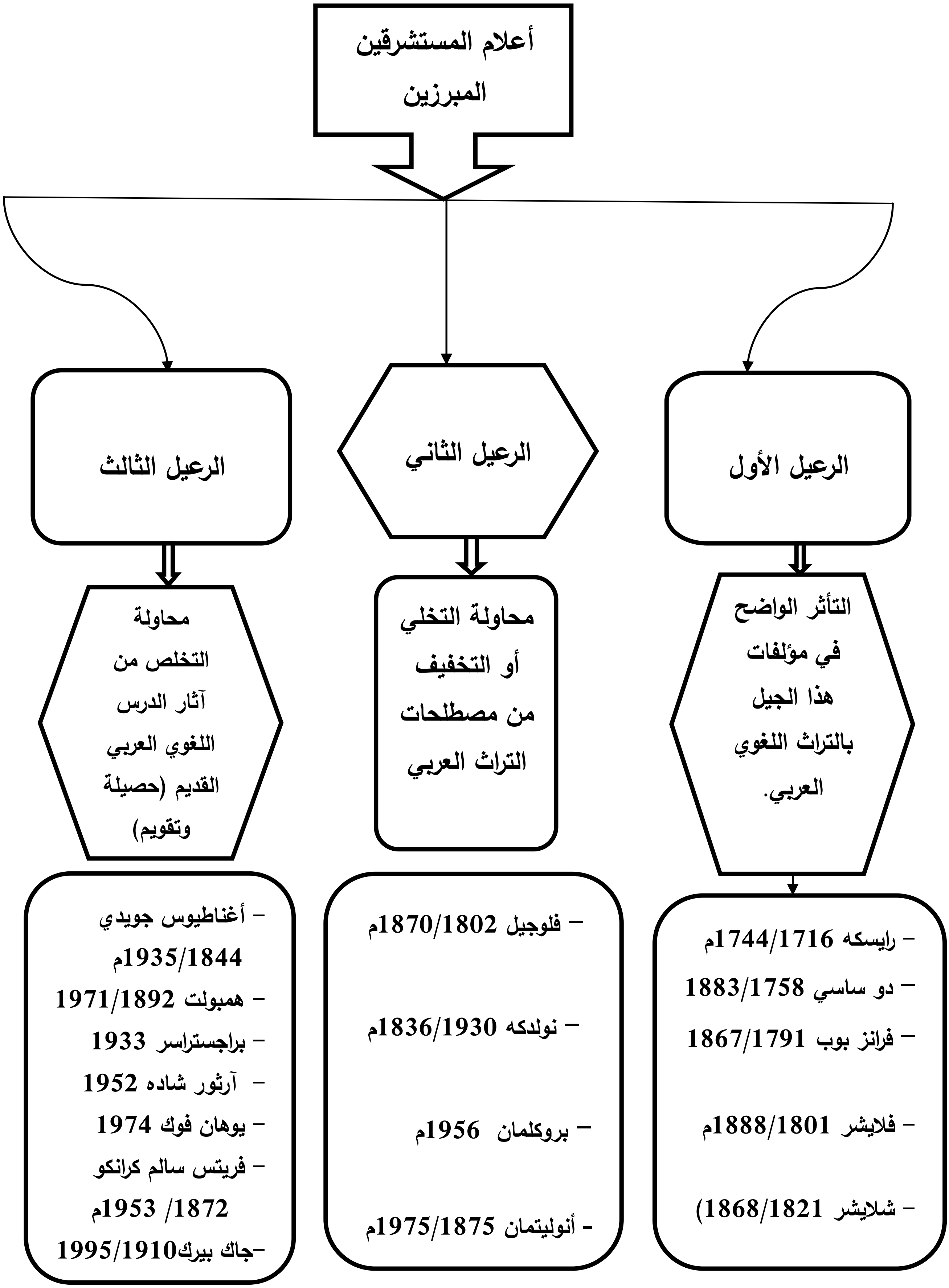

2- الجيل الأوّل من المستشرقين المتأثرين بالفكر اللغوي العربي القديم

نحاول في هذا المبحث أن نرصد نشاطات ثلة من المستشرقين ونتتبع آثارهم، ونتقصى منهجهم في التأليف، فهذه الثلة تندرج ضمن لواء المستشرقين الذين استمدوا منهجهم في التأليف من منهج اللغويين العرب القدامى، سائرين على أثرهم، متأثرين بمنهجهم في التأليف والتصنيف فنشأت مع هذا الجيل حركة لغوية تمثل نشاطها عموما في النقل عن العرب القدامى وترجمة كتبهم في مختلف العلوم العربية إلى لغات أوروبية عديدة، ونخص بالذكر هنا التراث اللغوي العربي وعلى هذا النحو بدأ التفكير الاستشراقي في هذه الفترة بالذات، وكان حقا على رواد هذه المرحلة أن يواكبوا الظروف والملابسات المحيطة بهذا الحدث التاريخي، الحدث الاستشراقي باعتباره تيارا فكريا غربيا متجها نحو الشرق للاطلاع على تراثه وحضارته وثقافته ولغته وتاريخه وعاداته وتقاليده وآدابه، معتمدا في ذلك على كل الوسائل المتاحة له لتحقيق أغراضه الاستشراقية الخفية منها أو المعلنة، والأحداث المصاحبة لكل ذلك.

ولا بّد لنا من الاعتراف مسبقا؛ بأن دراسة ظاهرة الاستشراق Orientalisme لا تكتمل دون دراسة العاملين عليها، والساعين إلى انتشارها، والقائمين على إنجاحها، ولا يتأتى لنا ذلك إلا إذا تصفحنا مؤلفاتهم، ووقفنا على أقوالهم، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، واطلعنا على توجهاتهم واستقراءنا مواقفهم، ووقفنا على آثارهم، والهدف من كلّ هذا؛ هو النظر فيها، وتمحيصها، ولا يكون ذلك إلا بتحري الموضوعية والمصداقية عن مؤلفي هذه المراجع من خلال ما كتبوه في هذا الشأن حيث مهدت هذه المؤلفات لصحوة فكرية صاحبت النهضة الغربية الحديثة.

إذْ يُعد هؤلاء المستشرقون حقا من مترجمي الفكر الشرقي بامتياز، حسب أهدافهم المنشودة وأهوائهم المدروسة والمقصودة، فهم مدركون جيدا قيمة هذا التراث الذي لا غنى لهم عنه أبدا؛ أي التراث الشرقي بكل محتوياته لأجل إثراء ثقافتهم الغربية، وتعزيزها وتقويتها وهم يتجهون كذلك إلى سبيل تحقيق ذلك كل السبل، لبلوغ أهدافهم الموعودة، وتحقيق أحلامهم المسطورة، حيث تُعدّ من أقوى المبررات الاستشراقية "لذا يمكن أن يقال إن الاستشراق قد قام على خلفية فكرية اتكأت على

الصراع الحضاري ... ويؤيد هذه الخلفية أن الاستشراق قد انطلق من الأديرة والكنائس"[1] وقام بها في البدء كما سبق وذكره الرهبان والقساوسة بالطرق التي أتاحت لهم فعلا تلك الخطوات الموفقة التي هدتهم إلى بعث حركة النهضة Renaissance في أواخر القرن الخامس عشر حسب المفكر بن نبي، حيث ربطت حلقة وصل بين الحضارتين؛ الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، ويؤكد هذا الطرح الدكتور أحمد سمايلوفتش في كتابه: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر قائلا: "أخذ الاستشراق العلوم والآدب والفنون عن العرب، ونقلها إلى الغرب حيث أقام نهضته العارمة على دعائمها، وبلغ ما بلغه الآن من التقدم والرقي والازدهار"[2] فقول كلّ من المفكرين بن نبي وسمايلوفتش إثبات واضح على مدى تأثير التراث العربي الإسلامي في النهضة الغربية ومدى تغلغله في آفاقها الفكرية، لما قدمه هذا الأخير من ذخيرة ومادة أولية لها، فعدّ بذلك هذا التراث دعامة أساسية ومهمة في قيام النهضة الغربية وبلوغها ما بلغته الآن من قوة وتطور وتفوق وازدهار.

وما زاد من اهتمام المستشرقين بالشرق وتراثه وبكل شيء يتصل به، الصراع الوجودي المستمر بين العرب والغرب على حد تعبير سمايلوفتش، وفي هذا الصراع ولدت الحقيقة الماضية هي حقيقة التملك والقوة التي كانت بينهم على مر التاريخ البشري، مستعملين في سبيل ذلك كل الوسائل المتاحة لهم، وليست النهضة إلا عاملا من عوامل الاستشراق، حيث أسهمت إسهاما كبيرا في تفعيل الصراع الفكري الحضاري الأزلي بين الكتلتين؛ الشرقية والغربية من جديد فهذا الصراع هو صراع فكري قديم قدم الإنسانية، ينتج في الغالب عن الرغبة الجامحة في السيطرة على شيء ما يكون ثروة أو قوة أو يراد به عموما فرض رأي ما، أو ثقافة ما لجماعة معينة على الجميع دون استثناء، ولو بفرض منطق القوة للوصول إلى الهدف وتحقيق الغايات.

---

[1]– علي بن إبراهيم النملة، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين: استقراء للمواقف، الرياض: 1993 مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، س12، ص10.

[2]– أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دط. القاهرة: 1998، منتدى مكتبة الاسكندرية دار الفكر العربي، ص7.

وما كان للمستشرقين أن يلعبوا هذا الدور الفعال والبارز في تاريخ الحركة الاستشراقية ويبلغوا هذه المكانة؛ لولا الجهود التي بذلوها في "سبيل ما آمنوا به، وأفنوا فيه أعمارهم، وكانوا حريصين كلّ الحرص على بلوغ أقصى درجات الكمال"[1] والبحث في كل قضايا التراث الشرقي؛ الكلية، والجزئية منها، حيث يرجع لهم الفضل في الكشف عن التراث، ودراسته، وفهرسته وتصنيفه وترجمته، والتأليف فيه، وتحقيقه، وجمع مخطوطاته من كلّ رطب ويابس له علاقة بالموضوع ووضعه تحت المجهر Microscope محاولين استكشاف دره وخباياه النفيسة والإحاطة بكلّ الوقائع التاريخية المرتبطة به من قريب أو من بعيد، لتحقيق أغراضهم الاستراتيجية، وبلوغ أهدافهم الاستشراقية المحددة بدقة.

وقد اهتم المستشرقون بمؤلفات التراث اللغوي العربي الإسلامي بوجه خاص اهتماما بالغا لا نظير له، وحاز على اهتمام الباحثين والدارسين عند الغرب، والدليل الملموس على ذلك أنّه لا تكاد تكون مكتبة من مكتبات العالم الغربي تخلو من مؤلفات هذا التراث حتى" شغلت حيزا كبيرا فيها، ولا تزال تغص بها حتى الآن"[2] إذ لا تكاد تكون جامعة من الجامعات الأوروبية تخلو معاهدها من معهد للغة العربية وآدابها.

ولا شك أنّ المستشرقين قاموا بعملية "التحقيق في كلّ موضوع من مواضيع التراث؛ الكتاب والسنة والسيرة النبوية والفقه والكلام، كما تحدثوا عن الصحابة الكرام والتابعين والأئمة المجتهدين والمحدثين والفقهاء، والمشايخ والصوفية، ورواة الحديث، وعن علم الجرح والتعديل ، وأسماء الرجال وحجية السنة، وتدوينها، ومصادر الفقه الإسلامي وتقديمه، والشعر الجاهلي ورواده، وشعر صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي، والفلسفة الإسلامية، والفلك والنحو والمعاجم والتحقيق والشعر والنثر على مختلف أنواعه"[3] وغيرها من مؤلفات الأمم الشرقية بعناوينها المختلفة وموضوعاتها المتنوعة المتعددة حيثما وجدت لعقود طويلة من الزمن امتدت نحو قرنين أو أكثر، حسب معظم

---

[1]- يحي مراد، معجم أسماء المستشرقين، ص6.

[2]- علي بن إبراهيم النملة، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين: استقراء للمواقف، س12، ص9، بتصرّف.

[3]- أبو الحسن علي الحسني الندوي، مقالات وبحوث: حول الاستشراق والمستشرقين، ط1. دمشق- بيروت: 2002، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ص 19، بتصرّف.

الدراسات المؤرخة لهذه الظاهرة، التي كانت ولا تزال؛ وهذه المصادر التراثية أثمن ذخيرة للمستشرقين، وأكبر مصدر للمعلومات المختلفة عن الشرق وخباياه؛ بما فيه من تاريخ وأدب ولغة وتقاليد وعقيدة وتراث... وغيرها من المصادر، للإفادة منها في نهضة الشعوب الغربية.

وإلى جانب هذا كلّه؛ ظهور عدة دراسات ومؤلفات للمستشرقين في مجالات متعددة مختلفة تتراوح بين التقليد والإبداع تارة، والتأثير والتأثر تارة أخرى، وكذا بين التنصل والبعث والإحياء والتجديد، والتوثيق... وغيرها من المتناقضات المصطنعة، وكانت لهذه الإسهامات اللغوية نتائج واضحة المعالم، ودور مهم وفعال في إغناء الدراسات اللغوية في مختلف حقولها، وتأليف مؤلفات ضخمة تعد من نفائس الكتب، ولا تزال هذه الدراسات تشغل بال المثقف العربي والغربي وفكره على حدٍ سواء، إلى حد الساعة، وإنه لدليل واضح على مكانة هذا التراث الحضاري في الماضي عند سائر الأمم السالفة، وأهميته الثقافية والاستراتيجية في الحاضر والمستقبل، وكان بحق نقطة احتكاك حضاري على درجة عالية من الصدام بين الشرق والغرب.

ولا شك في أن عددا كثيرا من دراسات المستشرقين، وفي موضوعات مختلفة ومتنوعة كهذه، سوف تحدث نشاطا لغويا منقطع النظير يؤدي إلى تنبيه الباحثين على واقع جديد، وتطلعهم على آفاق رحبة لم يدركوها من قبل، ويقر نفر من الدارسين اللغويين المحدثين بالجهد بشقيه الإيجابي والسلبي الذي قدمته هذه البحوث والدراسات الاستشراقية للمتلقي العربي بصفة خاصة والمتلقي الغربي المسلم على حدٍ سواء، وفي مجال خدمة التراث الشرقي بمختلف جوانبه وبتعدد ميادينه، لما قدمته من آثار علمية مهمة.

وقد ركز المستشرقون في أوّل الأمر اهتمامهم بالعربية الفصحى أو الكلاسيكية كما اصطلح معظم المستشرقين مقتفيين في ذلك أثر اللغويين الأولين العرب في المنهج والتصنيف والتركيب والتأليف وقد انصب جلّ اهتمامهم على اللهجات العربية القديمة ونصوصها محاولين فهم أسرار التركيب اللغوي، وإدراك معاني مفرداته، ودراسة أساليبه النحوية، مع المؤلفات النحوية والصرفية والبلاغية والدلالية والمعاجم خاصة على أساس أنّ الدراسات العربية القديمة لغوية كانت أو أدبية نشأت نشأة أولية متداخلة متشابكة فيما بينها، وهذا ما أشارت إليه جل المصادر الحديثة.

ولقد ظهرت "النصوص العربية القديمة محققة بعناية الألمان منذ القرن الثامن عشر"[1] وحسب الدكتور صلاح الدين المنجد فإنّ المستشرق الألماني رايسكه Rreiske 1716-1774م أوّل من نشر معلقة طرفة بن العبد بشرح بن النّحاس، ثم تطورت ترجمة النصوص القديمة من الشعر العربي الجاهلي والإسلامي على حد سواء تطورا ملحوظا خلال القرن التاسع عشر وازدهرت فنشرت المئات منها في اللغة والأدب والفلسفة والتاريخ والجغرافيا وغيرها من الفنون لتشمل الشرق بمختلف مصادره التراثية في شتى فروع المعرفة.

ويضيف صلاح الدين المنجد قائلا: "إنّ مجموع ما نشره الألمان وحدهم يفوق ما نشره المستشرقون الفرنسيون والإنجليز معا... وقد ضرب بعض المستشرقين مثالا نادرا في تحقيق النصوص، من حيث العدد، ومن حيث الدقة، ولقد نشر فون من حيث العدد، ومن حيث الدقة ونشر ستنفلد F. Wustenfeld ت 1899 ما يعجز مجمع علمي عن نشره"[2] ومن مجمل ما نشره وحققه هذا المستشرق معجم البلدان وهو مؤلف ضخم يتكون من سبعة مجلدات تقدر صحفه بـ 3800 صحيفة في الجغرافيا والرحلات للمعجمي ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي 574هـ-626هـ، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان للقاضي ابن خلكان 608-681هـ، وهو من أهم المصادر في السير والتراجم، جاء في ثمانية مجلدات ضخمة، والاشتقاق لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ت321هـ، ويُعدّ هذا المؤلف من أوائل المصادر في علم اللغة متخصص في مسألة الاشتقاق.

ويذكر ابن دريد في مقدمة كتابه السبب الذي حفزه على تأليف كتابه هذا "أنَّ قومًا ممن يَطعُن على اللِّسان العربيّ وينسُب أهلَه إلى التَّسمية بما لا أصلَ له في لغتهم، وإلى ادِّعاء ما لم يقع عليه اصطلاحٌ من أوَّليَّتهم، وعدوا أسماءَ جَهلِوا اشتقاقها ولم يَنفُذْ علمُهم في الفحص عنها وعارضوا بالإنكار، واحتجُّوا بما ذكره الخليل بزعمهم: أنّه سألَ أبا الدُّقيش: ما الدُّقيش؟ فقال: لا أدري إنّما هي أسماء نسمعها ولا نعرف معانيها، وهذا غلط على الخليل، وادعاء على أبي الدقيش

[1]- صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان تراجمُهم وما أسهمُوا به في الدّراسات العربيّة، ط1. بيروت- لبنان: 1978 دار الكتاب الجديد، ج1، ص 5.

[2]- المرجع نفسه، ص 7، بتصرف.

وكيف يَغْبَى على أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد – نضَّر الله وجهَه– مثلُ هذا وقد سمع العرب سمّت: دَقْشًا ودُقَيْشًا ودَنْقَشًا، فجاؤوا به مكبَّرا ومحقرا، ومعدولا من بنات الثلاثة إلى البنات الأربعة بالنون الزائدة والدَقش* معروف وسنذكره في جملة الأسماء التي عَمُوا عن معرفتها "[1] والتي أفرد لها بابا كاملا في آخر هذا الكتاب.

وقد عزز ابن دريد هذا الباب بشواهد شعرية تدعم صحة ما يرمي إليه من شرح واشتقاق لهذه الأسماء، وغيرها من المؤلفات التي حققها المستشرق ستنفلد F. Wustenfeld 1975–1856م، وكان مجموع ما حققه ونشره من مصادر تراثية ضخمة وصعبة في حدود المائتي مصدر أو أكثر.

ومن أبرز الذين عكفوا على دراسة التراث اللغوي العربي، نشرا وتحقيقا، دراسة وتبويبا استقصاء وفهرسة، المستشرق الموسوعي الألماني يوهان يعقوب رايسكه J.J Reiske كما سبق بيانه، وفي هذا الصدد يؤكد المستشرق ألبرت ديتريش 1795–1856م Dietrich Gottfried Albert أن أوّل محاولة "لتعليم اللغة العربية في ألمانيا كانت من قبل المستشرق كريستمان ت 1613م بتأليفه كتيبا لتعليم كتابة حروف اللغة العربية"[2] وقد سبقه في هذا المجال حسب الدكتور صلاح الدين المنجد المستشرق الألماني رايسكه الذي كان بحق رائد الدراسات اللغوية العربية في ألمانيا، والواضع الأوّل والمؤسس لأسسها العلمية المتينة والمروج لها في أوروبا، والذي وقف حياته كلّها على دراسة اللغة العربية والحضارة الإسلامية، انطلاقا من العبارة السابقة نقول إنّه جدير باللقب الذي لقب نفسه به "شهيد الأدب العربي"** إذ سخَّر كلّ ما يملك في سبيل خدمة هذه اللغة بإجماع الدراسات اللغوية الحديثة، ثم تتابعت في ذلك دراسات ألمانية أخرى مبرزة في هذا المجال

*– والدَنْقَشُ، والنون فيها زائدة، وهو من الدَّش، وهو تطأطُؤ الرَّأس ذُلاً وخُضُوعًا. ينظر: ابن دريد، الاشتقاق، ص 305.

[1] – أبو بكر بن الحسن بن دريد الأزدي، الاشتقاق، تح: عبد السلام محمد هارون، ط1. بيروت: 1991م، دار الجيل ج1، ص4، بتصرّف.

[2] – صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان، ص 7، بتصرف.

**– وقد نال بعضهم كثيرا من المتاعب والأذى في سبيل العربية، إنّ رايسكه، الذي كان فقيرا، وبقي كذلك، مات مسلولا بعد انصرافه الطويل إلى العربية؛ بل كان يطبع كتبا بالعربية ويترجمها إلى اللاتينية على حساب نفقته الخاصة على الرغم من حاله المورثي له. ينظر: صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان، ص 8، بتصرّف.

حتى مطلع القرن التاسع عشر، قرن ازدهار الاستشراق الألماني وبلوغه مبلغ الحذاقة والدقة في المسائل العلمية والموضوعية والمصابرة والمثابرة بما لا يوجد له نظير.

وقد قيل الكثير عن الاستشراق الألماني، وأشادت به شخصيات عدة رائدة بارزة ذات صيت عالمي، والمجهودات الجبارة خاصة، التي قدمها رواده في خدمة تراث الأمم الشرقية، لما تميز به عن غيره من التيارات الفكرية الاستشراقية الغربية بمختلف اتجاهاتها، أمثال الباحث إدوارد سعيد 1935-2003م، حيث أثنى "ثناءً استثنائيا على التراث التفسيري للبحث الفيلولوجي الألماني، كما أوضح أثره القوي في أعماله، وعدّه مصدرا مهما لكلّ من الفهم والنقد في عالم العولمة"[1] كما أثنى عليه صلاح الدين المنجد على المستشرقين الألمان بعد أن خبرهم لمدة تفوق ثلاثين عاما معتبرا إياهم الأكثر نزاهة في التوجه العلمي وجديته في فهم التراث الإسلامي وتاريخه بالإضافة إلى الإشادات التي قدمتها معظم الأوساط العلمية في أوروبا وأمريكا.

كانفراد الاستشراق الألماني "بميزات قد لا تتوفر لدى الاستشراق في البلدان الغربية فالمستشرقون الألمان على الأغلب لم تسيطر عليهم مآرب سياسية ولم تستمر معهم أهداف التبشير طوال مسيرتهم في دراسة الشرق، ولم يتصفوا بروح عدائية ضد الإسلام والحضارة الإسلامية العربية، بل اتصفوا بحماسهم وحبهم للغة العربية"[2] وتلكم هي أهمّ الخصائص التي اتسمّ بها الاستشراق الألماني.

ومع ذكر هذا المستشرق المنصف الجدير بالذكر- بإجماع جل الدراسات- في هذا المبحث؛ لا بّد لنا من الإشارة إلى أنّ رايسكه الذي "شرع في دراسة اللغة العربية بنشاط كبير ووفق في درس النحو العربي دون الأخذ بمعونة أي معلم، مستندا على موهبته الخاصة في تعلم اللغات"[3] فبالإضافة إلى عصاميته في تعلم اللغات، كان عالما موسوعيا بالأدب العربي كلّه؛ بل كان مطلعا على الأدب العربي على اختلاف أقسامه الجاهلي منه والإسلامي، وكذا كان عارفا

[1]- محمد سعدون المطوري، الاستشراق الألماني ودوره في الدراسات الاستشراقية: تاريخ الاستشراق الألماني وملامح من أسسه المنهجية، مجلة الدراسات الاستشراقية، العراق: 2015، ع3، ص 191.

[2]- صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان، ص186.

[3]- المرجع نفسه، ص 12.

بالتاريخ العربي الإسلامي، ولعلّ أعظم أثر في هذا الميدان يعتبر فخرا لرايسكه هو تعرضه للمعلقات Mu’allaqât أو المُسَمَطات* وهي قصائد مطوّلة من أشهر وأروع وأرقى وأعذب وأجمل وأندى ما أنشد العرب من شعر في الجاهلية، وأنفس الوثائق التي صورت بدقة حياة المجتمع الجاهلي وطبيعته وتاريخه من كل جوانبه ومظاهره خلال حقبة زمنية معينة، وهي الحياة التي كان الجاهليون يعيشونها قبل بزوغ فجر الإسلام، فهي بذلك حققت غرضي الجمال والمتعة للأدب في آنٍ واحد، وكانت بمثابة بحر من الإبداع، لا مثيل له بين آداب الأمّم الأخرى بالإضافة إلى اعتبارها حاملة للتراث الأدبي العربي الحافل ببطولات وأمجاد العرب في عصرهم قبل الإسلام وهذا ما دفع بالمستشرقين إلى الاهتمام بها اهتماما خاصا، فريدا من نوعه، رغم صعوبة لغتها وجزالتها، حتى تمكنهم من التعرف على بيئة قائليها وحياتهم، ليتمكنوا من فهمها وفهم المحيط الدائر بها على اختلاف جوانبه، ليتمكنوا من تحقيقها وشرحها وتفسيرها، وترجمتها إلى لغاتهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، والمتصفح في مؤلفات المستشرقين يجد ذلك جليا ويدركه جيدا، حيث كانت هذه المعلقات محل اهتمام بالغ من طرفهم، فتناولوها بالشرح تارة وبالترجمة تارة أخرى وبالنقد والشك في غالب الأحيان.

وقد تبيّن ذلك جليا من خلال نشره معلقة طرفة بن العبد التي كانت "فتحا جديدا عظيما في ميدان الدراسات العربية"[1] حيث دلت هذه الدراسة على سعة اطلاعه على المصادر اللغوية العربية القديمة، وغزارة علم رايسكه بالشعر العربي القديم وبرواده وبحياتهم وبيئتهم أيضا؛ بل إنّه تمكن من ترجمة هذه المعلقة رغم صعوبة لغتها على حد تصريح رايسكه نفسه بصعوبة أبيات المعلقة في

---

* – جاء في كتاب تاريخ الأدبي العربي: العصر الجاهلي لشوقي ضيف: ولو أنهم تنبهوا إلى المعنى المراد بكلمة المعلقات ما لجأوا إلى هذا الخيال البعيد، ومعناها المقلّدات والمسمَّطات، وكانوا يسمون فعلا قصائدهم الطويلة الجيدة بهذين الاسمين وما يشبههما، وأطلقت عليها تسمية المسمَّطات؛ لأنّ ما أتى من بعدها من الشعر متبع مقلد على طريقتها ونهجها في النظم، والمقدمة الطللية، وإنّ المتتبع لجذور مادة سمط في المعاجم العربية يجدها أنها جاءت من مصدر سَمْطٌ سُمُوطٌ وتذهب جل المصادر الأدبية إلى أنّ القصيدة المسمَّطة: هي ما يؤتى فيها بأشعار مقفاة بقافية ثم يُؤتى بعدها بشطر مقفى بقافية مخالفة، والمعلقات لغة من العِلْقُ، والعلق حسب المعاجم العربية هو النفيس من كل شيء. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي 1 العصر الجاهليّ ط13. القاهرة: 1999، دار المعارف، ص 140، بتصرّف.

1 – عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 299.

الملاحظات التي أوردها في آخر التحقيق على القارئ العربي الذي لا يدرك معناها ببساطة إلى اللغة اللاتينية في سنة 1742 بشرح أبي جعفر بن محمد بن إسماعيل النّحاس النحوي المصري ت 338هـ-950م، وحواشي له، وعمل لمدة طويلة على شرحها وتهذيبها إلى أن أتمّ العمل في سنة 1740، في حين تمكن من طباعتها سنة 1742، كما سبق أن ذكرنا، وكان رايسكه بهذا العمل "أول من سلك الطريق الذي يُسلك إلى الآن في الغرب عند شرح آثار الشعراء العرب"[1] متبعا في ذلك المنهج العلمي الصحيح الذي هدى به إلى غايته العلمية بعيدا كل البعد عن الاعتقادات اللاهوتية التي لم يؤمن بها يوما رايسكه، مخالفا بذلك الدراسات السابقة له، والتي كانت تقوم على المخيلات غير المعقولة، والتصورات اللاعقلانية.

ومن هذا المنطلق؛ يُعد رايسكه منقذ اللغة العربية ومحررها من قيود علم اللاهوت في أوروبا ومن أحضان الدراسات اللاهوتية التي لم تثمر ولم تعد بفائدة على اللغة العربية، ولإبراز هذا المنعرج التاريخي الحاسم في تاريخ الدراسات اللغوية الغربية صرح رايسكه قائلا: "لو شاء المرء النهوض بالعربية، ينبغي عليه ألا يتناولها تناول اللاهوتي"[2] مُعلنا ميلاد تيار جديد، التيار الرافض للاهوتية يرفض توجهات الدراسات السابقة التي تقام على اللغة العربية، ويكون بذلك الأصل في تبلور مناهج الدراسات اللغوية في أوروبا، وما يتصل منها باللغة العربية خاصة، وانعكاس ذلك على مناهج دراساتها.

والمهمّ من كلّ هذا؛ أنّه سرعان ما ظهرت أصوات وتعالت تنادى بضرورة تجديد النظرة إلى الدراسات اللغوية، وضرورة تغيير منهج الدراسة فيها، وأنّ المعرفة اللغوية لهذا العلم في حاجة ملحة إلى وضع جديد، ودراسته دراسة مستقلة؛ أي من أجل ذاتها ولذاتها، وقد اقتضى منا ما سبق، إرجاع الفضل لهذا المستشرق، تقديرا لما قدمه من خدمات جليلة للغة العربية بصفة خاصة وللدراسات الإسلامية بصفة عامة، وذلك لن يكون إلا بالتنويه بدراساته في الميدان والاعتراف بمجهوداته الجبارة التي بذلها في خدمة التراث العربي الإسلامي جمعا وتحقيقا ونشرا وحفظا وترجمة.

---

[1]- صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان، ص 13.

[2]- عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 299.

ولعلّ ما يؤسف عليه؛ أن هذا المستشرق لم يحظ بتقدير بين مواطنيه أو قل بين أقرانه في حياته، خاصة وأنّه كان ذا باع طويل في ميدان الحركة الألمانية للدراسات الشرقية، حتى أنّه ليس من اليسير حصر كلّ مجهوداته وإسهاماته الفكرية في هذا المجال من الدراسات، ولا يمكن لنا أيضا حصر كل أعماله الجليلة الجمة التي قدمها في سبيل إيجاد مكان بارز للدراسات اللغوية العربية في ألمانيا، وتخليصها من ربقة اللاهوتية.

ولم تقتصر اهتمامات رايسكه على الأدب العربي الجاهلي والإسلامي فقط؛ بل نجده أيضا قد خاض في المسائل اللغوية المختلفة، وذلك بمراجعته كتاب مُعلِّمِه فريدريش شولتنس Friedrich Schultens ت 1922، يُعد رائدا من رواد الدراسات المقارنة في القرن الثامن عشر الميلادي في أوروبا، حيث كان من الأوائل الذين قاموا بدراسات مقارنة بين العربية والعبرية، فقام بترجمة كتاب "أمثال سليمان مع شرح له مستعملا فيه منهاج البحث عن مشتقات الكلمات بلا حرج، وقام بمراجعة هذا الكتاب...وألزمه ضميره ي هذا النقد الأدبي أن يصرح عن الحقيقة بشأن هذا الكتاب مع أنّه حافظ على الاحترام اللائق تجاه شولتنس، فأنّه أدرك من الوقع الذي سببه فقطأنه كان من الأفضل لو كان قد قام أحد غيره بهذه المهمة"[1] في مجلة Eruditorum Nova Acte وهي مجلة علمية من نشر السيد "**منكن**" فلا يمكن أن نتصور أستاذا كرايسكه بشهادة جل المصادر أنّه موسوعي في الأدب العربي بمختلف أنواعه، جاهليا كان، أو أمويا، أو عباسيا، وحتى أندلسيا منه من ألمّ الماما لا يُنكر، مكنه من قواعد اللغة العربية، ومراجعته لكتاب معلمه لدليل قاطع على ذلك.

وممّا لا شك فيه أنّه بكونه فقيها في اللغة كان يرى رايسكه أنّ أصل العلم وأساسه لا يكمن إلا بدرس عميق للغة في ذاتها ولذاتها، وبعمق النظر والتأكد من صحة المصادر وأصالتها وعرضها بطريقة علمية، وقد وافق في ذلك رايسكه إلى حدٍ كبير وأصبح هاديا للآخرين من بعده فصار بحق قدوة لمتبعيه من المستشرقين الألمان وغير الألمان من بعده، والمؤسس الحقيقي لها وهي دراسات بعيدة كلّ البعد عن الدراسات اللاهوتية في أوروبا بصفة عامة.

[1]- صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان، ص23.

في حين كان أوّل هؤلاء المستشرقين المستشرق الفرنسي ويلهلم بوستل W. Postel 1510-1581م، الذي ألّف في النحو العربي كتابا، تحدث فيه عن أهمية اللغة العربية وآدابها "ولكن أمله في درس هذه اللغة كان فتح باب جديد للمبشرين النصارى في بلاد الإسلام"[1] فالتبشير كان من جملة العوامل التي عززت التيار الاستشراقي، بل قل أنّه كان الممهد للحركة الاستشراقية والمغذي لروحها على حدٍ سواء.

وقد انتهز الغربيون هذه الفرصة، واستغلوها أحسن استغلال في إطار إرسال بعثات لتعزيز منطق تبادل المصالح بين فرنسا والدولة العثمانية وإقامة علاقات حضارية بين البلدين، ذلك بتعيين مستشرقين في البعثات المرسلة إلى الأمّم الشرقية بمختلف مشاربها، ومن أبرز هؤلاء المستشرقين الذي كان ضمن هذه البعثات بوستل، الذي أرسل في حدود سنة 1534 "لشراء مخطوطات شرقية وإلى هذا الرجل تدين أوروبا بفضل قواعد اللغة العربية"[2] وقد أفاد بوستل كثيرا من هذه الإرساليات لدى تعلمه اللغة العربية، حيث استغلها لتوسيع مداركه اللغوية واللغة العربية خاصة وإنماء آفاقه العلمية باللغات الشرقية وتضلعه فيها.

وقد أثمرت هذه الجهود في سنة 1539 بظهور أوّل كتاب له تناول فيه مسألة قواعد اللغة العربية في أوروبا المسمّى قواعد العربية Arabica Grammatica وقد شكر بوستل في مقدمة كتابه "الأسقف فون أينو أريحيته على الأنماط العربية الرديئة للقواعد... ثم انطلق في تعليله حول ما كتب عن القواعد وأحرف الهجاء العربية... ومن ثم يمتدح بوستل ثراء المصادر العربية"[3] ثم يعيد ذكر مكانة اللغة العربية واصفا إياها باللغة العالمية وأنها "تفيد في التعامل مع المغاربة والمصريين والسوريين والفرس والترك والمغول والهنود، وهي لغة غنية بالمراجع"[4] ويُقر بوستل بفضل تعلم اللسان العربي على صاحبه، حيث يتمكن هذا الأخير من اختراق كل أعداء العقيدة المسيحية على حد زعمه بسيف الكلمة المقدسة؛ أي الكتب المقدسة ويفند بها عقيدة المسلمين، كما

---

[1]- صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان، ص 15.

[2]- يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، نقله: عمر لطفي العالم، ص 48.

[3]- المرجع نفسه، ص 49.

[4]- المرجع نفسه، ص 50، بتصرّف.

يتمكن صاحب اللسان العربي من طواف العالم بأسره بلغة واحدة، وهذا اعتراف صريح وإقرار منه بعالمية اللغة العربية، وما كان للغة أن تنتشر هذا الانتشار الواسع إلا بتبنيها المفاتيح الإجرائية لمختلف العلوم، وهو نفي قطعي لكل ما يحاك لهذه اللغة، وما يقال عنها من قبل حاسديها وجاحديها على حد سواء.

وبعد هذا المدخل العريض يتعرض بوستل في كتابه قواعد العربية بالحرف العربي لقواعد اللغة العربية التي تظهر في كل صفحة من صفحاته مقدار تعلق بوستل بالنحاة العرب القدامى وتأثره بهم، وتبرهن هذه الصفحات في الوقت نفسه على أنّه ليس سيد المادة التي بين يديه حسب ما أورده يوهان فوك في كتابه: تاريخ حركة الاستشراق.

ومن جملة ما أورده بوستل في كتابه "الأبجدية العربية" الحرف الأبجدي ثم أتبع كلّ حرف منها بكتابة صوتية، مقدما إياها في شكل حروف متصلة تارة، ومنفصلة تارة أخرى، متعرضا للاسم والحرف والفعل، مقدما إياها بنظرة شمولية، دون تفصيل، حيث قدم أزمنة الفعل في مثالين فقط، الفعل: دحرج وناصر دون أن يتطرق إلى موضوع الاشتقاق بتاتا.

ثم ينتقل بوستل إلى الأسماء ويذكر منها أسماء الإشارة، وبعض الظروف، وفي الأخير يدلي ببعض النصائح في كيفية قراءة النصوص غير المعجمة، مع ترجمة لسورة الفاتحة إلى اللغة اللاتينية تظهر مدى ضعف بوستل –حسب يوهان فوك– في اللغة العربية، بأنه يفتقر فيها لأسس متينة ثابتة.

ويعضد يوهان فوك في هذا الرأي صلاح الدين المنجد حول ضعف بوستل في اللغة العربية مصرحا بقوله: نجد في كتاب بوستل أخطاء كثيرة وردت "بلا عدد ونستدل منه على أن معرفته بالعربية كانت ضعيفة غير كافية"[1] أما في خاتمة كتابه هذا فأورد ترجمة لاتينية لسورة الفاتحة.

ورغم هذه الانتقادات التي وجهت لكتاب "النحو العربي" لبوستل؛ إلا أنه ظل مرجعا أساسيا يرجع إليه كلّ من أراد تعلم اللغة العربية في عصره، أمثال يعقوب كريستمان Christmann

[1]– صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان، ص 15.

1554/ 1613م "وتلميذ بوستل يوسف سكاليجر Scaliger 1540-1609م"[1] وتوماس أربنيوس Erpenuis 1584-1624م، وغيرهم.

ومع ذكر بوستل Guillaume/ Wilhelm Postel هنا، نذكر اختلاف المراجع في ذكر اسمه كاملا وتضاربها، فنجد يوهان فوك في "ترجمة عمر لطفي العالم" وصلاح الدين المنجد يذكران بوستل بويلهلم W.Postel في حين يذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ويحي مراد بغليوم G.Postel ، كما نجد بعض المصادر تذكره باسم كيوم أو غيوم، وهذا الاختلاف يرجع إلى عامل الترجمة، لذا من الأجدر في ترجمة الأسماء من اللغات الأجنبية أن نكتبها كما وردت في لغتها الأصلية، ثم نقابلها باللغة المترجم إليها، حرصا على الدقة والوضوح.

وممّا زاد في دفع حركة التأليف وتنشيطها خلال هذه الفترة هو تقدم فن الطباعة وبلوغه درجة من التطور والازدهار، التي ظهرت في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي على يد الألماني الشهير يوهانس غوتنبرغ Johannes Gutenberg 1398-1468م، بالضبط سنة 1436م، فطبعت لأوّل مرة حروف اللغة العربية، وازدادت المعرفة بها في الدول الغربية، فأسهم ذلك بشكل كبير في تنشيط الحركة الاستشراقية بشكل واسع في القارة الأوروبية، بالإضافة إلى تطور فن الطباعة، حيث لعبت دورا كبيرا في ذلك كلّه، وفي تطور الدراسات الاستشراقية بصفة خاصة، وتطور الحضارة الإنسانية وانتشار المعرفة في مختلف أصقاع المعمورة على مرّ التاريخ بالتوازي مع متطلبات العصر وحتمية التغيير بصفة عامة.

وقد كان من الطبيعي أن يظل كتاب النحو لتوماس أربنيوس الملجأ لكل من أراد الاطلاع على المؤلفات العربية "فكان يستعمله كل من أراد درس العربية في الغرب نحو قرنين"[2] إلى أن ظهر إلى الوجود كتاب في النحو لشيخ المستشرقين الفرنسيين كما يلقبه الدكتور عبد الرحمن بدوي سيلفستر دي ساسي S.de sacy سنة 1810 بعنوان: "النحو العربي".

---

[1]- صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان، ص 15.

[2]- المرجع نفسه، ص 16.

كما نذكر محاولة أوغست فيشر الذي يعدّ من أشهر المختصين بالعربية: نحوا وصرفا ومعجما، فقد وضع جذاذات حوت الآلاف من المفردات "تعد بداية صالحة لمشروع معجم تاريخي للغة العربية ... وكان يتوخى القيام به وإتمامه"[1] وذلك في أحضان مجمع اللغة العربية القاهري معتمدا في ذلك على مصادر اللغة العربية القديمة على اختلاف عصورها ابتداء من "اللغة العربية الأدبية الخاصة بزمن الجاهلية، وبثلاثة القرون الأولى بعد الهجرة"[2] ففي هذه الحقبة بالذات يرى فيشر نشأة اللغة العربية الكلاسيكية أي الفصحى وبلوغها قمة التطور والازدهار.

حاول فيشر في هذا المشروع اللغوي محاكاة خطة معجم أكسفورد البريطاني الشهير محاكاة رائدة يذكرها أغلب الباحثين والعلماء، وفيه محاولة: "لرصد معاني الكلمة العربية على امتداد عصور زمنية متباعدة وبيئات مكانية متعددة، وبذا يكون في وسع الباحث أن يدرك النتائج اللازمة في التطور التاريخي للكلمة ومعانيها"[3] مقتفيا في ذلك خطوات المنهج التاريخي الذي يطلعه ويوصله إلى استكشاف حقائق علمية لغوية عميقة ودقيقة عن مختلف الظواهر اللغوية.

ومن أهمّ المصادر التراثية التي اعتمدها فيشر في هذا العمل نذكر منها المعلقات ودواوين أشعار العرب والمصطلحات النحوية في كتاب سيبويه وبعض مصطلحات الحديث وكتبه مثل كتاب الترمذي وابن ماجة والنسائي، بالإضافة إلى ذلك دواوين الشعراء المولدين، كأبي نواس وبشار بن برد، وغيرها من المصادر الأساسية البارزة في التراث اللغوي الأدبي العربي.

وظل الأستاذ فيشر يجمع مادة هذا المشروع الكبير "الذي مات بموته عام 1949"[4] والذي وضّح فيه أهمّ الميزات وسمات المعجم التاريخي للغة العربية لمدة تقارب أربعين سنة أو تزيد مع ما بذله من جهد في هذا المضمار، إلا أنّ هذا العمل لم يتم لظروف قاسية حالت دون ذلك، ما

---

[1]- على توفيق الحمد، المعجم التاريخي العربي: مفهومه- ووظيفته- محتواه، مجلة المعجمية، تونس، 1990، ع 5-6 ص 100، بتصرّف.

[2]- محمد حسن عبد العزيز، المعجم العربي للغة العربية: وثائق والنماذج، ط1. جمهورية مصر العربية: 2008، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ص35.

[3]- إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية، ص 101.

[4]- المرجع نفسه، ص 31.

عدا المقدمة والجزء الأوّل من هذا المعجم، الذي أصدره مجمع اللغة العربية بمصر، ومن مظاهر نشاطه الحافل بالكد والجد أيضا فهرسته المخطوطات العربية الموجودة في المكتبات الألمانية، أو المكتبات العالمية أو التنويه بها، ومجموعة من البحوث والمقالات القصيرة المختلفة المتنوعة نذكر منها المسألة الزنبورية، ومقال عن أسماء الإشارة للمؤنث، والكلمة العربية، وتركيب المصدر وغيرها من النشاطات اللغوية.

وتذكر بعض المصادر اللغوية أن فشر كان أحرص الناس على معرفة اللغة العربية معرفة دقيقة، ووجوب الإحاطة بها إحاطة وافية، تشمل الصرف والنحو والمعجم والاستعمال اللغوي وغيرها من جوانب اللغة، بذلك كله كان ينصح طلبته، قبل الشروع في أي بحث يدور موضوعه حول اللغة، أو أي مجال من مجالات الدراسات اللغوية، ويلزمهم بذلك كله حتى في الدراسات التاريخية والدينية والفلسفية وغيرها من الدراسات.

وجاء ذكرنا هذا المستشرق في هذا المبحث، لأنّه كان من ضمن أبرز أعلام المستشرقين الألمان الذين اهتموا بالعربية الكلاسيكية التراثية التي سارت على النمط الذي وصفته كتب النحو العربي القديمة منذ سيبويه، وقد كتب بها التراث حسب ما أشار إليه بعض الباحثين العرب المحدثين، حيث يحتوي "المعجم على كل كلمة وجدت في اللغة بلا استثناء، وأنّ تعرض حسب وجهات النظر السبع التالية: التاريخية، الاشتقاقية، التصريفية، التعبيرية، النحوية، البيانية والأسلوبية"[1] بالإضافة إلى اعتماده في أعماله على الفصحى دون العامية، على الرغم من أنّه كان يتقن بعض اللهجات العربية، لكنه استغل ذلك في اكتشاف أسرار العربية، وذلك برجوعه إلى المصادر العربية القديمة اللغوية منها والأدبية، حيث أخذ من المصادر اللغوية المصطلحات، ومن المصادر الأدبية الألفاظ الأدبية، مستقصيا في ذلك نصوص نثرية وشعرية كثيرة في مختلف العصور الماضية والعصور الذهبية للغة العربية الفصحى وبيئاتها حسب تسلسلها التاريخي مسجلا كلّ ما ورد فيها من ألفاظ مختلفة ودلالات متعددة، حتى استوفت الحد الزمني الذي سطره فشر، انطلاقا من العصر الجاهلي، مرورا بصدر الإسلام، وانتهاء بالقرن الثالث الهجري، وهذا

---

[1]– حسين نصّار، المعجم العربي نشأته وتطوّره، ط4. القاهرة: 1988، دار مصر للطباعة، ج2، ص 625، بتصرّف.

التاريخ الذي سطره "يدل على الحد الزَّمنيّ الذي أخذت فيه اللغة تفقد صفاءها، وكان هذا المصير بعد اختلاط العرب بغير العرب، وهي نتيجة حتمية لفتوح العرب العظيمة"[1] هذا ما يميز فيشر عن غيره من المستشرقين، على الرغم مما قيل فيه، وما أكده بعض الدارسين العرب المحدثين بقوله: "إنّ جلّ الشواهد التي استشهد بها أوغست فيشر في مختلف كتاباته ليست هي الشواهد التي ألفناها في كتب النحو القديمة؛ إذن هي شواهد من العربية المعاصرة كما يصطلحون عليها، الذين أدرجوا العامية في معاجمهم، ودعوا إلى سنّ قواعد خاصة بها"[2] ونادوا بدراساتها وتحليلها بدلا من الفصحى، بحجة صعوبة هذه الأخيرة وعدم صلاحيتها لدراسة العلوم ومواكبة النهضة الحديثة؛ لكن في حين تعالت أصوات هؤلاء المغرضين نجد شهادة بعضهم شهادة منصفة، ولعلّ أجمعها تلك التي ذكرها أحد المستشرقين المعاصرين عن مكانة هذه اللغة بين اللغات، والتي كانت بمثابة حجة دامغة أدحضت كل الادعاءات التي حاولت أن تطال لغة الضاد حين قال: "إن اللغة العربية لغة متميزة، عاشت خمسة عشرة قرنا لم تتغير في أثنائها تغيرا جوهريا، إنها غالبا ما تكتسب ولم تخسر ألبتها، إنّها كفينوس ولدت وافية الجمال، واحتفظت بهذا الجمال على الرغم مما أصابها بمرور الأيام، لقد استطاعت أن تعبر عن شيء وما يقابله، لقد عرفت بالبساطة البالغة والتعقيد الشديد بالوجدان الصوفي وبالانغماس في الدنيوية، بالتوقد والانطفاء. لقد امتلأت حيوية في عصور بهائها وواصلت طريقها في عصور محنتها في حالة أشبه بالبيات الشتوي، ولكنها حين نهضت من رقادها بدت كما كانت من قبل قوية فتية، يقال إنّ وراء ذلك عوامل دينية واجتماعية وهذا صحيح ولكن قدرتها على الانتشار واحتفاظها بخصائصها وبحيويتها وبكمالها راجع إلى بنيتها الذاتية، وهذا ما يميزها من غيرها من اللغات"[3] فهذه الشاهدة في مجملها وتفصيلها لدليل قاطع على حيوية اللغة العربية ومرونتها وقدرتها على مواكبة مستجدات العصر.

---

[1]– أ. فيشر، المعجم اللغوي التاريخي القسم الأوّل من أوّل "حرف الهمزة" إلى "أبد"، ط1. القاهرة: 1968، مجمع اللغة العربية المصري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ص8.

[2]– إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والدراسات اللغوية، ص 102.

[3]– محمد حسن عبد العزيز، المعجم العربي للغة العربية، ص 44.

ومع الزمن أصبحت لدراسة اللغة العربية وعلومها معاهد ومراكز ومؤسسات تجمع في مكتباتها الألاف من أمهات المصادر والمخطوطات، وتفرغ لذلك عدد كبير من الباحثين والدارسين، ومنحت أموال طائلة في سبيل تلبية كلّ متطلباتهم، ومنها النفقات المالية الطائلة التي منحت للمستشرقين، حتى كثرت دراساتهم وتعددت بحوثهم في كلّ جانب من جوانب التراث اللغوي العربي، وما دراسة التراث اللغوي العربي؛ إلا جزءا من محاولة فهم الفكر العربي الإسلامي باعتبار اللغة العامل الثقافي الأساسي في دراسة الحضارة الشرقية والتعمق فيها والتغلغل في علومها كافة فاتجهوا إلى أن يكون حرب هذه الحضارة في لغتها التي تعد حصنها وأصل دراساتها، فأخذوا يترجمون مؤلفاتها إلى لغاتهم متعمقين متمحصين دقائقها، ليتعرفوا على نشأتها، وطبيعتها وفطرتها ومناهجها، وخصائصها، ومميزاتها، ويخضعوها لدراسة علمية موضوعية، لاستجلاء أسسها واستنباط خصائصها، وهكذا ظلوا يعتمدون على اللغة ويركزون عليها، باعتبارها مفتاح الشرق بأسره، ولذلك بات لزاما على المستشرقين تعلم هذه اللغة، وجعلها ضرورة حتمية عليهم، لا مناص من تعلمها، لبلوغ أهدافهم الاستشراقية، وتحقيق أغراضهم الاستعمارية التوسعية، للسيطرة على الشرق وإفراغه من جميع مقوماته، جاهدين في تجريده من جميع محتوياته وممتلكاته ودرره وكنوزه النفيسة، من عقيدة ولغة وتاريخ وهوية وتراث وغيرها من مقوماته ومكوناته الأصيلة.

وانطلاقا ممّا تقدم نستنتج أنّ المعركة بين الشرق والغرب، معركة حضارية لا تنكر، وهذا الرأي يؤكده بعض الدارسين العرب المحدثين؛ فمستلزمات هذه المعركة دراسة لغة العدو لتكون مفتاحا للدخول إليه حضاريا، أو إيقاف مده الحضاري، والمستهدف الأول من هذه الحرب بالدرجة الأوّلى هي حضارة الشرق وثقافاته، لغزوه فكريا وثقافيا، لأن مسخ ثقافة ما هو سلاح قوي وفعال في القضاء على الأمة وحضارتها، ويضيف بعض الباحثين حسب ما ذهبوا إليه رأيا، حيث تفطنوا وتنبهوا إلى أهمية اللغة بوصفها سلاحا يفوق كلّ الأسلحة، حتى السلاح العسكري، باعتبار اللغة حاملة للثروة الفكرية والدينية والعلمية والحضارية للدول الشرقية، كما تنبه إلى ذكر هذا التخطيط الذي حققه المستشرقون، لأن من يتمكن من نشر لغته حتما سيتمكن من نشر ثقافته وفكره وتحقيق جميع أهدافه، سواء كانت قريبة المدى أو بعيدة المدى، كاستراتيجياته وعولمته بجميع

أبعادها وانعكاساتها ومؤشراتها– في مختلف المجالات والميادين والصُعُد – خير دليل على ذلك كلّه إذ تعد العولمة ثمرة من ثمار الاستشراق، بذرة غرست في حدود القرن الحادي عشر الميلادي وقطفت ثمارها في القرن الواحد والعشرين الميلادي، ولا تزال تمد بجذورها إلى المستقبل البعيد وتزداد حدة أكثر شيئا فشيئا مع مرور الوقت والأيام.

بناءً على ما تقدم؛ نلاحظ أنّ هذا الجيل من المستشرقين تأثر تأثرا واضحا بالتفكير اللغوي عند العرب القدامى وبنظرياتهم وآرائهم اللغوية، وهذا يتجلى بوضوح في نشرهم للنصوص العربية ودراساتهم اللغوية، وفي بحثوهم العلمية ومؤلفاتهم اللغوية والأدبية العديدة التي نشرت خلال هذه الحقبة الزمنية من التاريخ الاستشراقي في منتصف القرن التاسع عشر حسب ما تذكره بعض المصادر اللغوية، منتهجين في ذلك منهجهم، إلى أن ظهر الجيل الثاني من المستشرقين، حيث بدأت معهم ظاهرة الاستشراق تزدهر وتتطور بكثرة دارسيها وباحثيها، وكثرة الدراسات التي توثق لهذه الظاهرة وتعمل على نشرها وإجلاء صورتها أكثر فأكثر، حيث بدأ هذا الجيل يتحرر من قيود النظرية اللغوية العربية القديمة، ويبتعد شيئا فشيئا عن منهجها ويتخلى عن معالمها، وقد اتّضح ابتعادهم هذا بجلاء في كتبهم الكثيرة ودراساتهم المتنوعة، سواء كانت في المجال الأدبي أو المجال التعليمي، وغيرها من المجالات العلمية، ونذكر من هذه المؤلفات على سبيل التمثيل لا الحصر مؤلفات المستشرق الألماني كارل بروكلمان Carl Brockelmann 1956/1868م، والمستشرق ألبرت سوتزين/ سوسين Albert Socin 1844–1899م، ورودلف برونو Rudolf Brunnow 1858–1917م وفولف ديتريش فيشر Wolfdietrich Fische من مواليد 1928، وهانس فيشر Hans Fischer 1881–1945م، صاحب المعجم المعاصر: معجم اللغة العربية المعاصرة (عربي– ألماني) وغيرهم.

3- الجيل الثاني: المستشرقون ونظرتهم إلى العربية الكلاسيكية

وجاء بعد الرعيل الأوّل من المستشرقين الجيل الثاني الذي كان أقل تأثرا بالفكر اللغوي العربي القديم، فباعتبار ظاهرة الاستشراق نابعة من محيط تاريخي بأبعاده واستراتيجياته، فالأكيد أنّ كلّ حدث تاريخي والمناخ المحيط به يساعد على إبراز أقلام تعمل على نقله وتوضيحه وتفسيره

وتوجيهه وغيرها من العوامل، كذلك كان الاستشراق كغيره من الحوادث التاريخية مساهما إسهاما فعالا في إنتاج مجال خصب للدراسات الاستشراقية، وعلى إثر ذلك ظهرت مؤلفات عديدة متنوعة في الميدان، توضح توجهات هذا الجيل وميوله، فمن خلال مؤلفاتهم نلاحظ أن هذه الحقبة أفرزت جيلا بدأ يحيد شيئا فشيئا عن المنهج اللغوي العربي ويبتعد عنه، ومرد ذلك حسب الدارسين إلى أنّ المنهج اللغوي العربي لا يتناسب في جوهره مع ما ألّفه الدارس الغربي في تناول لغته هو، إذ يسير الدرس اللغوي المألوف في الغرب على أسس النظرية اليونانية، وهي عبارة عن مجموعة من مبادئ وقوانين وقواعد كلاسيكية تعمل على أن تنظم العمل اللغوي الأدبي الغربي وتسيره، وتُفْرَض على الكُتابِ فرضا، حيث يأخذونها بالحسبان أثناء محاولتهم إنشاء نصوصهم اللغوية التي أرسى دعائمها النحوي اليوناني ديونيسيوس تراكس Dionysios Thrax الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد، وهي تخالف مخالفة كبيرة التفكير اللغوي عند العرب"[1] التي كانت ولا تزال ذات تأثير فعال في توجيه الدرس اللغوي الغربي، وتحديد آفاقه، ورسم حدوده منذ نشأتها، وذلك في حدود 206 ق.م إلى يومنا هذا، ولا تزال تلقي بظلالها على تصنيف الأعمال اللغوية والأدبية في أوروبا طيلة هذه القرون العديدة، فضلا عن هذا كلّه، لا تزال نموذجا يحتذى به في إنتاج مختلف الأعمال اللغوية والأدبية الأوروبية كذلك، ولا تزال عملية إنتاج هذه النصوص وتقعيدها في تتابع مستمر للمعرفة خلال أجيال عدة متعاقبة، ما انفكت، منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا، رغم التحولات والتغيرات الجذرية ذات التأثير الواسع، التي شهدها الدرس اللغوي الغربي وتطوره في غضون القرنين الأخيرين، ومع بزوغ الفكر العقلاني الجديد خاصة، المصطلح عليه باصطلاح عصر التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر الميلادي، ويضاف إلى ذلك كلّه، الصبغة التاريخية المقارنة التي ظهرت في القرن التاسع عشر وسادت فيه، حيث أدى كلّه إلى ظهور ثورة علمية على المناهج اللغوية السائدة قَبْل القرن العشرين تمثلت في المنهج الوصفي العلمي في حقل الدراسات اللغوية، حيث يعتبر هذا المنهج الوصفي الأساس الذي قامت عليه جل الدراسات اللغوية الحديثة، ودفع بالبحث اللغوي إلى آفاق واسعة، وصل بها إلى ذروة التطور والازدهار مع القرن

[1]– إسماعيل احمد عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، ص 296، بتصرّف.

الواحد والعشرين، ويمكن لنا أن نلخص صيرورة الدراسات اللغوية الأوروبية، انطلاقا من ظهور النظرية اليونانية القديمة إلى العصر الحالي وفق هذا الشكل:

النظرية اليونانية القديمة 206 ق. م

↓

بنيت على أسس وقواعد منطقية فلسفية.

↓

انبثاق أو تفرع جميع النظريات الغربية عن هذه النظرية اليونانية القديمة.

↓

كانت في أولها ذات طابع لاهوتي ثم اكتست صبغة تاريخية مقارنة ثم تبنت المنهج الوصفي وأصبحت دراسات ذات طابع وصفي علمي دقيق.

ويرجع اللغوي الشهير ر.هـ. روبنز استمرارية اقتفاء منهج الدراسة اليونانية القديمة طيلة هذه القرون الطويلة إلى "المفكرين اليونان الذين فكروا في اللغة وفي المشكلات التي تثيرها البحوث اللغوية، فقد استهلوا في أوروبا الدراسات التي يمكن أن نطلق عليها العلم اللغوي بمعناه الأوسع لأن هذا العلم كان مركز اهتمام مستمر منذ اليونان القدماء، وحتى العصر الحاضر في تتابع متصل للمعرفة، بحيث إنّ كل من عمل في المجال كان على دراية بأعمال سابقيه وكان متفاعلا

معها بطريقة معينة"[1] ويضيف روبنز مؤكدا أن في اليونان القديمة كانت النشأة الأوروبية لعلم اللغة النظري، وكان هذا إلى حد ما بفضل المتطلبات العلمية، وهناك فقط توافرت لدينا المدونات الأولى في التفكير اللغوي الناشئ عن علم اللغة الشعبي والتطبيقات العلمية، ولقد أخذ علم اللغة الأوروبي واستفاد كثيرا من هذه الدراسات اليونانية، ولا يزال البعض يجري دراسات وبحوث عليها حتى العصر الحاضر، وهذا تأكيد على اتصال المعارف فيما بينها، وفي هذا المجال، اتصال القديم بالحديث، يقول الدكتور محمود السّعران: "فالعلم الجديد، وهو تطور «للعلم» القديم لا يقضي على القديم، إنّه يؤرخ له، ولا يزال يستوحيه ويستهديه، وهذا هو الشأن في علم اللغة الحديث إنّه وهو المنهاج الجديد في فهم اللغة ودراساتها، يوصي بجهود الأقدمين والتنقيب فيها لتأريخها التأريخ الصحيح، ولاستحيائها واستهدائها"[2] كما تقتضي هذه الدراسة العلمية للغة الاستعانة بعلوم أخرى مثل علم الاجتماع وعلم وظائف الأعضاء؛ بل الجغرافيا والتاريخ وما إلى ذلك من العلوم الحديثة.

مع الإشارة إلى أنّ المحيط الذي نشأت فيه الدراسات اللغوية اليونانية القديمة هو محيط فلسفي محض، والبحوث المنطقية خاصة، وعلى يد مجموعة من الفلاسفة أكبر منظري اللغة الإغريقيين القدامى كانوا فلاسفة، ويرجع ذلك بوجه خاص إلى اهتمام قدماء الإغريق بالفلسفة بشكل عام، حيث كانت الفلسفة أمّ العلوم المختلفة، ومنها انبثق العلم اللغوي الإغريقي المشرب بالنزعة الفلسفية الماورائية، ومنها أيضا انبثقت التساؤلات اللغوية فتساءل روادها عن "ماهية اللغة وعن أصلها وعن ماهية الكلمة، وتساءلوا هل هناك علاقة طبيعية وضرورية بين الكلمة وبين الشيء الذي ترمز إليه؟ أهو تعلق المعاني بالكلمة أم تعلق بالطبع أم تعلق بالاصطلاح؟ فيم تستعمل؟ كيف تستعمل؟ لم تستعمل؟ متى تستعمل؟ إلى آخر ما يكشف لنا عن حقيقة اللغة؟.. وغيرها من التساؤلات"[3] ومن هذه التساؤلات يظهر جليا أن العلم اللغوي الذي كان محل البحث

---

[1]– ر. هـ. روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: 1997، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، ع 227، ص 27.

[2]– محمود السّعران، علم اللغة: مقدّمة للقارئ العربي، ط1. بيروت– لبنان: 1962، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ص 22.

[3]– المرجع نفسه، ص 77 بتصرّف.

والدراسة عند الإغريق القدامى خلال هذه الفترة بالذات؛ هو بالتحديد علم اللغة الفلسفي، أو علم اللغة المنطقي، باعتبار أن النحو اليوناني بني على أسس منطقية معيارية، والدارس لهما يلاحظ وجودا كبيرا للاتجاه الفلسفي المنطقي فيه.

كما يرجع امتداد الدراسات اللغوية اليونانية القديمة إلى الدراسات اللغوية الغربية، وتجذرها في الفكر اللغوي الغربي إلا أنّ نحوي الإغريق: "لم يصفوا قواعد اللغة التي كان يستعملها الناس في عصرهم؛ بل وضعوا قواعد أو معايير لما يجب أن تكون عليه اللغة، وهذه هي ما تسمى بالقواعد المعيارية التي لم تتغير بتعاقب القرون"[1] هذه هي الخاصية الأولى التي تتميز بها القواعد النحوية الإغريقية.

أمّا الخاصية الثانية التي تتميز بها هذه القواعد فترجع إلى طبيعتها، فالإغريق "يعتقدون بأن هذه القواعد منطقية، وتبعا لذلك فهي عامة ويمكن أن تطبق على أية لغة أخرى، وهذا ما حصل بالفعل في أوروبا بالنسبة للغات الحديثة"[2] فالملاحظ على الدراسات الأوروبية حتى الحديثة منها، يجدها قد طبقت قواعد اللغة اليونانية واللاتينية على لغاتها رغم الاختلاف الجلي الواضح بين تلك اللغات.

وعلى ضوء ما ذكرناه يتضح لنا جليا أنّ لكلّ لغة خصائص تميزها عن غيرها من اللغات حتى ولو كانت من أرومة واحدة، وهذا الاختلاف يفرض نفسه على الدّرس والتحليل، "فما يصلح لدراسة لغة ما من حيث استعمال المناهج، واستجلاء الأسس، ووضع نظريات قد لا يتناسب بشكل عام مع لغة أخرى، مما يجعل تعميم مبادئ الدرس اللغوي في لغة أو فصيلة معينة على لغة أخرى ذات خصائص مختلفة من الخطأ العلمي، لعدم مراعاته شخصية اللغة المطبق عليها"[3] كما أنّ البعض أضاف لهذه الخصوصيات اللغوية الذاتية مجموعة من المقومات كالظروف الخارجية التي

---

[1]– نايف خرمة، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب الكويت: 1978، ع 09، ص 80.

[2]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]– عصام فاروق، المستشرقون وتأثرهم بالفكر اللغوي الغربي في دراسة العربية، مصر: 2013، جامعة الأزهر، كلية الألسن، جامعة عين الشمس، مؤتمر الدراسات العربية في عالم متغير، ص 3.

تلزم الدارسين مراعاتها في دراسة أية لغة، وهي مقومات دينية وحضارية واجتماعية وثقافية وفكرية تميز لغة عن الأخرى.

لقد تأثر الرعيل الأول من المستشرقين بالفكر اللغوي العربي القديم، وبالمدرسة النحوية العربية القديمة التي نظّر لها وأسسها علماء أجلاء أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وابن جني وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم من علماء العربية الأفذاذ الذين تركوا أثرهم الخالد في القواعد النحوية العامة للغة العربية، وامتد هذا التأثر واتسع مداه حتى القرن التاسع عشر، الذي شهد نشر مؤلفات نحوية لمستشرقين أمثال المستشرق الفرنسي دي ساسي، والمستشرق الهولندي توماس أربنيوس Thomas Erpenius 1584-1624م، الذي أصدر أوّل كتاب في النحو سماه: النحو العربي في خمسة أبواب، ويُعدّ أوّل عرض منهجي للغة العربية الفصحى حسب الدكتور عبد الرحمن بدوي، مكتوبا باللغة اللاتينية، شأنه شأن معظم ما كتبه المستشرقون حتى القرن الثامن عشر؛ إذ كانت اللغة اللاتينية اللغة المسيطرة خلال تلك الحقبة الزمنية من تاريخ الدراسات اللغوية الأوروبية، وهي لغة الممارسة للطقوس والشعائر الدينية الأخرى.

ولقد تطرق توماس أربنيوس في القسم الأول من هذا الكتاب إلى جملة من المسائل اللغوية: منها "الإملاء، والقواعد النحوية، وأنواع الخطوط العربية، وقواعد النطق بالحروف"[1] حتى أنّه ذكر جانبا من جوانب الدراسات القرآنية، ألا وهي مسألة أصوات القراءات القرآنية، أما في الجزء الثاني منه فيبحث في تصريف الأفعال، وأمّا في القسم الثالث "فتناول تكوين الأسماء والإعراب، وتكوين جموع التكسير"[2] وفي الجزء ما قبل الأخير خصصه بالحروف، والجزء الخامس والأخير خصصه لتركيب الجمل، وظل هذا المرجع طيلة قرنين من الزمن المرجع الأوّل بلا منازع في تدريس اللغة العربية ونحوها في أوروبا، ولم تتزعزع مكانة هذا الكتاب إلا بعد إصدار دي ساسي لكتابه: النحو العربي، وغيرها من المؤلفات النحوية التعليمية المدرسية، والكتب القيمة التي ألّفها والمصادر التي ترجمها هذا المستشرق الهولندي الشهير، مثل ترجمته للأجرومية التي تُعدّ من أهم متون النحو

1- عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص17، بتصرّف.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

العربي لابن آجروم الصنهاجي 672–723هـ، وكتاب: "العوامل المائة" للجرجاني فقد ترجم ترجمة لاتينية بالإضافة إلى شروح في المتن والحواشي، وعنوان هذا الكتاب حسب الدكتور عبد الرحمن بدوي "كتاب الجَرُوميَة ومأْيَةُ العامِل".

ويتأتى هذا الاهتمام باللغة العربية الفصحى لأوّل مرة من تاريخ الاستشراق البحث في العربية الكلاسيكية L'arabe classique باصطلاح الأروبيين، نتيجة التوجه التعليمي الذي تبناه المستشرقون خلال هذه المرحلة، مركزين في ذلك على نماذج مختلفة ومتعددة من النصوص التراثية في عصورها المختلفة، محاولين فهمها قصد استخلاص القواعد الأساسية منها من صوتية وصرفية ونحوية بهدف التعرف أكثر على الفكر اللغوي العربي والتقرب منه لاكتشافه أكثر فأكثر.

ولكن مع ظهور الرعيل الثاني من المستشرقين بدأ هذا الاهتمام يقل شيئا فشيئا والانصراف عنه في الغالب الأعم؛ ويبدو ذلك واضحا في دراساتهم، وبدأ الاهتمام مع هؤلاء باللهجات العامية المعاصرة أو كما اصطلح عليها الغربيون بالعربية الفصحى المعاصرة المكتوبة، على حساب الفصحى الكلاسيكية، كما تذكر بعض المصادر اللغوية، في حين نجد هذا التأثر منعدما تماما مع الرعيل الثالث من المستشرقين الذين أصبحوا يتناولون الدرس اللغوي، ويقعدون له على أساس النظرية النحوية الغربية التقليدية، ذات الأصل اليوناني كما سبق بيانه؛ وسنتطرق إلى هذا مع الجيل الثالث حسب تقسيمنا للمستشرقين لاحقا إن شاء الله.

فالعربية المعاصرة كما رآها بعض المستشرقين بنظرة حداثية هي تلك اللغة المحددة في دراستها بزمن معين، وفي الوقت ذاته المكتسبة لصفة الحداثة، فمفهوم المعاصرة مرتبط بالحداثة في حين يختلف المستشرقون في تحديدهم لمفهوم العربية المعاصرة، فمنهم من يفهم من هذا المصطلح:

* الفصحى المُعْرَبَة.

* أو الفصحى غير المُعْرَبَة*.

---

*– العربية غير المُعْرَبَة عند بعض المستشرقين المعاصرين، أمثال: كلوبفر Klopfer هي لغة الصحافة، لغة الحديث اليومي، لغة الاستعمال اليومي، وهي اللغة المتداولة في العصر الحالي في مختلف مجالات الحياة اليومية. ينظر: إسماعيل أحمد عمايرة، بحوث في اللغة والاستشراق، ص 327.

* أو العاميّة.

أما فولف ديتريش فيشر W. Fischer– موريس ياسترو W. Fisher – M. Jastrow فيريان أنّ العربية المعاصرة Modern Arabisch مُعْرَبَة، وقد أطلقا على كتابهما اسم Lehrgang fur die arabishe Shriftsprache der Gegenwrt مدخل لتعلم العربية المكتوبة المعاصرة، وعلى هذا كانت كلمة المكتوبة Shriftsprache لتميزها عن المنطوقة، ويعنون بالمنطوقة العاميات Dialekte"[1] والمصطلح نفسه العربية المعاصرة تبناه كلّ من جونتر كرال Gunther Krahl وهانس قير Hans Wehr 1881–1909م، ويظهر ذلك جليا بوضوح من عناوين مؤلفاتهم المختلفة، فكتاب هذا الأخير سماه: بصيغ أسماء الإشارة في اللهجات العربية المعاصرة، وهي عبارة عن أطروحة تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه، أما كتاب كرال فسمّاه: كتاب تعليم العربية المعاصرة.

ويتضح لنا ممّا سبق؛ أنّ ما اصطلح عليه كلّ من فولف فيشر وياسترو وتبعهما فيه كلّ من هانس وكرال وغيرهم، يدل دلالة واضحة على أنّهم يريدون اسقاط خاصية من الخصائص الأصيلة للغة العربية الفصحى، ألا وهي خاصية الإعراب وخصائص أخرى على حد سواء، فعلى حد زعمهم أن الفصحى المعربة، والفصحى غير المُعْرَبَة والعاميّة أو اللهجات المحكية مصطلح معاصر يطلق على العاميات عند بعض الدارسين المحدثين، خالية من قيود "القواعد المتشعبة الدقيقة، وخاصة قواعد الإعراب التي لم تكن مراعاة إلا في لغة الآداب، شعرها وخطابتها ونثرها أما لهجات الحديث فكانت منذ أقدم عصورها غير معربة، أو على الأقل لم يكن لقواعد الإعراب فيها ما كان للغة الأدب من شأن"[2] واستدلوا على رأيهم بأدلة عديدة مختلفة، منها الدليل اللغوي والدليل العقلي؛ فالدليل اللغوي حسب رأيهم يكْمن في "أن جميع اللهجات العامية المتشعبة من العربية والتي تستخدم الآن في الحجاز ونجد واليمن ومصر والعراق والشام وبلاد المغرب العربي مجردة من الإعراب، فلو كانت لهجات المحادثة العربية القديمة معربة لانتقل شيء من نظامها هذا

---

[1]– إسماعيل أحمد عمايرة، بحوث في اللغة والاستشراق، ص 328.

[2]– علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، إشراف عام: داليا محمد إبراهيم، ط3. مصر: 2004م، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 161، بتصرّف.

إلى اللهجات الحاضرة أو إلى بعضها بما في ذلك العربية الفصحى القديمة، فبحجة انعدامه في هذه اللهجات المختلفة والمتنوعة، يستلزم بالضرورة – ووجوبا– انعدامه في اللغة الفصحى القديمة.

أمّا الدليل المنطقي فهو دليل عقلي، وهو أن قواعد هذا شأنها في التشعب والدقة وصعوبة التطبيق، وما تتطلبه هذه القواعد من قوة التركيز وشدة الانتباه ودقة الملاحظة ومراعاة علاقاتها بعضها ببعض، لا يعقل أنّها كانت مراعاة في لهجات الحديث"[1] بل وصل بهم الإنكار إلى حد السخرية من اللغة الفصحى ونعتوها باللغة الميتة، وهذا ما فعلة المستشرق الأمريكي وليم بولك 1929 في مقدمة كتابه: العربية الفصحى الحديثة "لستتكيفتش متسائلا، ساخرا من تعلق العرب باللغة الفصحى: أليست اللغة قبل كل شيء مجرد وسيلة اتصال، ومن ثَمَّ تقوَّم بصورة أساسية في ضوء الجوانب العملية؟ وإذا ما وجدت وسيلة أفضل متوفرة ألا ينبغي اتخاذها؟ أيمكن أن تكون ثمّة مزية حقيقية في المحافظة على لغات لا تفي بما يطلب منها؟ لغات هجرت منذ أمد أو في طريقها إلى ان تهجر"[2] فالعبارة السابقة إثبات صريح لا يخفى ما فيها من حقد وضغينة وتحامل على هذه اللغة؛ أي اللغة الفصحى على سوء النية المبيت للغة الضاد ومحاولة فاشلة للتخلي عنها والتوجه نحو العامية، لا لسبب؛ إلا لارتباطها الوثيق بالكتاب المقدس (القرآن الكريم) وبالحضارة العربية الإسلامية وتاريخها، وتجريدها من الرسالة المنوطة بها، وهي حفظ كتاب الله وصونه، وتشبيه العربية الفصحى باللغات المنقرضة الميتة كاللغة اللاتينية، تشبيه باطل مزيف وتصور خاطئ لاختلافها معهم في أصولها وتاريخها ومسار حياتها، وما ثُبت لها لم يثبت لغيرها من اللغات البائدة الزائلة، وهذا ما أكده التاريخ الحافل والطّويل والعريق الضارب بجذوره في القدم، فهي لا تزال إلى حد الساعة اللغة الرسمية والفكرية والثقافية والحضارية التي تربط جميع العصور التي مرت بها، وارتضتها جميع الأمّم التي مرت بها قاسما مشتركا بينها، وهذا يعود حسب الدكتور إسماعيل

[1]– علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص 161، بتصرف.

[2]– إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية المنهج التاريخي، المنهج المقارن، المنهج الوضعي، المنهج الإحصائي، ط2. عمان – الأردن: 1996م، دار حنين العبدلي، ص 113.

أحمد عمايرة إلى أن العربية الفصحى الكلاسيكية* التراثية قد قامت على لون من ألوان الائتلاف بين اللهجات القديمة وهو منهج في التشكل اللغوي تُرى أثاره في العربية اليوم، وهذا ما يجهله أو يتجاهله الناقمون عليها على مر العصور.

والأدهى والأمر في القضية هو أن نجد عزوف بعض الدارسين العرب المحدثين عن العربية الفصحى، ونجدهم يركبون الموجة نفسها؛ ويتجهون مع التيار نفسه، تيار المعادين لها بغض النظر عن جنسهم وعرقهم، ويؤلفون كتبا مطولة؛ بل قل مجلدات في هذا المضمار منتهكين في ذلك كل الأعراف، سواء كانت عرقية، أو دينية أو قومية، وغيرها من الأعراف المعروفة متناسين حق الانتماء والصلة، فذهب بعضهم "إلى إنكار أن تكون الفصحى لغة حية، قياسا على واقع اللغتين اليونانية واللاتينية، وهذا ما فعله الخوري مارون الغصن 1880-1940م في كتابه: حياة اللغات وموتها، اللغة العامية، الذي أصدره سنة 1925، فقد راح يؤبّن العربية الفصحى انطلاقا من افتراض أن كل لغة سائرة إلى الفناء"[1] فقد وصل به الحد إلى البكاء على أطلالها ونعتها باللغة الفانية والمنقرضة وإذا نظرنا قليلا في سيرة هذا الرجل فلا نتعجب من هذا التأثر والتقليد الأعمى؛ لأنه تتلمذ وتربى على أيدي الآباء اليسوعيين، وتخرج من مدرسة الآباء المرسلين اللبنانيين سنة 1907، فهو مثله مثل معظم المستشرقين نتاج الكنيسة وصنيعتها.

ولا يمكن لنا أن ننكر أن ظهور الاهتمام بالعاميات المعاصرة عموما على حساب اللغات القديمة الرسمية المتداولة يرجع بالدرجة الأولى إلى الرغبة الملحة من قبل الغربيين في استكشاف الموروث الثقافي الشفوي الشرقي بجميع ما يحمله: من حكايات وقصص وعادات وتقاليد وغيرها

*- فرق الدكتور إسماعيل أحمد عمايرة بين مفهوم اللغة الفصحى ومفهوم اللغة الكلاسيكيّة وأكّد على خلط المستشرقين بين مفهوم الكلاسيكية من واقع لغاتهم، وهو حسبه مفهوم تاريخي يدل على أنّ تلك اللغات قد انتهت من واقع الاستعمال اللغوي، ومفهوم الفصحى وهو ليس مفهوما منقطعا عن الحاضر بالنسبة إلى اللغة العربية الفصحى، فالعربية إذن يلتقي واقعها مع لغاتهم في أمر، ويفترق معها في آخر، إنّما تلتقي مع تلك اللغات في صفة القدم، وانطلاقا من هذه الصفة يمكن أن تُنعت بأنّها «كلاسيكية» ولكنها ما تزال اللغة المعياريّة الدارجة (Standard Language) وهذا ما لا تتصف به لغاتهم الكلاسيكية، وهذا ما نلمسه في نظرة «فيشر» إلى مفهوم مصطلح «العربية الكلاسيكية» بأنه إشارة إلى واقع اجتماعي لغوي، لا دالا – أي هذا المصطلح– على تاريخ لغة.

[1]- إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية، ص111.

من المكونات الشعبية، للتحكم في شعوب مستعمراتهم جيدا، بالإضافة إلى التحول الذي طرأ على الدراسات اللغوية الغربية، من الاتجاه التاريخي إلى الاتجاه الوصفي الذي يجري وراء المنطوق؛ أي وصف لهجة منطوقة كما تحدث فعلا، وذلك بالنظر إلى ما تؤديه ألفاظها من معانٍ آنية، لا ما كانت تؤديه من معانٍ في لغتها الأصلية، وهذه الأخيرة هي الحلقة المفقودة في المنهج الوصفي حيث يجسد هذا المنهج القطيعة التامة بين حاضر اللغة وماضيها على حساب المكتوب، وهذا التصور أخرج اللغات الكلاسيكية من الدراسة، ويخرج باللغة عن هدف أسمى من أهدافها "ألا وهو تحقيق قدر من التفاهم والاستقرار الاجتماعي والنفسي"[1] للمجتمعات حسب ما أكده الدكتور إسماعيل أحمد عمايرة في المرجع السابق.

وفي ضوء هذه النظرة الوصفية الجديدة التي ظهرت في الدراسات اللغوية الحديثة، ظهر معها ما "يعرف باسم الجغرافيا اللغوية أو اللغويات الجغرافية، فقد نشر أول أطلس لغوي ألّفه جليرون وأدموند اسمه الأطلس اللغوي* لفرنسا Atlas Linguistique de la France– سنة 1902م – 1920م"[2] وقد جاءت الدراسة الجغرافية للهجات في بلاد الشام مزامنة لذلك الأطلس الفرنسي، وغيرها من الأطالس التي عالجت اللهجات العربية، كاللهجة الشامية والمصرية والمغربية وغيرها من اللهجات الشرقية.

وفي خضم هذا التحول المنهجي الذي أفرز تأثيرا بالغا على الدراسات الاستشراقية الحديثة التي أصبحت بدورها تنظر إلى "العربية الفصحى المعاصرة على أنها تمثل مرحلة جديدة من عمر اللغة"[3] ومن ثمة تعالت الأصوات التي تنادي بضرورة دراسة اللهجات العربية الحديثة وتحليلها؛ بل

---

[1]– إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية ص 115.

[2]– المرجع نفسه، ص111.

[3]– إسماعيل أحمد عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، ص 328.

*– جاء معنى الأطلس اللغوي (جمع أطالس) في معجم المعاني الجامع على غرار المعاجم الأخرى، يفيد مجموعة من الخرائط تبيّن التوزيع الجغرافي للأنماط اللغوية واستخداماتها، يقول الباحث سعد مصلوح: الأطلس اللغوي موضوعه توزيع الظواهر اللغوية توزيعا جغرافيا في مقابل الأطلس التاريخي، والأطلس الاقتصادي وغير ذلك من أنواع الأطالس، أما أطلس اللهجات موضوعه توزيع الظواهر اللهجية للغة معينة في منطقة معينة. ينظر: سعد مصلوح "عن مناهج العمل في الأطالس اللغوية" مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة– مصر: 1976، ع5، ص 107.

إحلالها محل العربية الفصحى التي أصبحت حسب رأيهم عاجزة عن مواكبة مستجدات النهضة الحديثة، ومتطلبات روح العصر، ولا تصلح إلا في مجال الكتابات الشعرية والنثرية لا أكثر، ولم يقف الأمر عند الدعوات وحسب؛ بل وصل الأمر إلى حد التطبيق في اتجاه موازٍ مع ما يسمى: باللغويات الجغرافية، كما سبق أن ذكرنا، من أعمال المستشرقين التي جسدت بالفعل هذا التطبيق نجد مشروع المستشرق الألماني هانز فير Hans Wehr في معجمه المعنون بـ: معجم اللغة العربية المعاصرة/ معجم اللغة العربية في العصر الحاضر/ قاموس العربية المكتوبة المعاصرة عربي- ألماني Worterbuch der Arabischen Schriftsprache der Gegenwart سنة 1952، الذي سرعان ما لقي صيتا وصدى عالميين، وطبعت له عدة طبعات متتالية، فترجمه إلى الإنجليزية ونقحه ج. ملتون كوان J. J. Milton Cowan ونشره في طبعة مزيدة ومنقحة في سنة 1960م"[1] بعنوان: قاموس العربية المكتوبة المعاصرة Disctionry of Modern Written Arabic.

وجاء هذا المؤلف بحجم ضخم جدا في حدود 1136 صحيفة حاول فيه صاحبه جمع وترتيب مختلف الألفاظ والمصطلحات العربية المعاصرة والمقولات الأكثر تداولا، والشائعة الاستعمال بين العامة وقابلها باللغة الألمانية، مقتفيا في ذلك آثار استعمالها الدارج عن عامة الناس وعند خاصتهم، متبعا في ترتيب مفرداته الترتيب الألفبائي – ترتيب بحسب الأوائل- وفقا للمفردات العربية، في حين أنّ ج. ملتون كووان بدأ ترجمته في هذا المعجم "المفردات العربية" بالحرف اللاتيني أولا، ثم باللغة الانجليزية، وعند وقوفنا على المعجم المترجم وجدنا الأمثلة واضحة فيه حسب الترتيب الألفبائي L'alphabet internationale كما يوضح الشكل:

أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د
أب	بابا	تابوت	ثأر	جبر	حب	خبأ	تدبر
Ab.	Bãbã.	Tãbût.	Ta'ara.	Jabara.	Hubb.	Kaba'a.	Tadabbur.
Father.	Father, papa, daddy	Box, case, Coffer.	To avenge.	To Set.	Love.	To hide.	Reflection.

[1] – Hans Wehr, a Dictionary of Modern Written Arabic, Edited by: J. Milton Cowan, Third Edition, p 4.

ض	ص	ش	س	ز	ر	ذ
ضآلة	صالة	الشام	سؤال	زبيب	رأس	مذبحة
Da'ûla.	Sala.	aŠ–Ša'm.	Su'ãl.	Zabib.	Ra'ase.	Madbaha.
Littleness.	Large Room.	The northern region.	Question.	Raisins.	The head.	Massacre.

ف	غ	ع	ظ	ط
فان	غبرة	عبد	ظبية	طاولة
Fa'inna.	Gubra.	Abada.	Zabya.	Tawola.
With foll.	Dust color.	To serve.	Female gazelle.	Table.

ي	و	هـ	ن	م	ل	ك	ق
يناير	وجد	هانم	نبراس	ماركة	ليرا	كابل	قالب
Yana'ir.	Wajada.	Hanum.	Nibras	Marka	Lira.	Kable	Qalab.
[1]January	To find.	Lady.	Lamp.	Mark.	Monetary	Cabl.	Forme

يتبين من الجدول أعلاه أنّ العملية التي قام بها المستشرق الألماني هانز فير في جمع مفردات معجمه، هي عملية استقصائية بحتة للاستعمالات اليومية الجديدة – الحية– في البيئات العربية، التي تعبر عن الحياة المعاصرة في مختلف مظاهرها، فالمفردات التي أدرجها في هذا المعجم عبارة عن هجين لغوي بين اللغة العربية الفصحى واللهجات العامية فهي مزيج بين هذا

[1]– Hans Wehr, a Dictionary of Modern Written Arabic, Edited by: J. Milton Cowan, p1–5–10.

وذاك مع الفرق الشاسع بينهما، فالفصحى كما يعرفها اللغويون هي لغة فنية خالصة، تعلو بما لها من طبيعة مميزة عن كل اللهجات العامية العربية المتعددة والمتنوعة.

وممّا يؤخذ علي هانز في معجمه تناقض مادة المعجم مع عنوان المعجم: معجم اللغة العربية المعاصرة فكان من المفروض أن نجد جميع مفردات المعجم ألفاظا دارجة، أو يعنونه بـ: معجم ألفاظ اللغة العربية الأكثر تداولا أو معجم المقولات العربية الشائعة، ففيه عدد لا بأس به من المقولات العربية الأكثر استعمالا بين الناس والمتعارف عليها بينهم ثقافيا، كما نلاحظ فيه أيضا عددا لا بأس به من مفردات الدخيل اللغوي، وفي حقيقة الأمر أن هانز فير قام بجمع المفردات والمقولات التي تجري على ألسنة المتحدثين كثيرا، أي المفردات المتداولة والمستعملة أكثر في جماعة معينة لا أكثر مع مقابلتها بالحرف اللاتيني.

ومع ما وقع فيه هانز من إشكالات كتابة الحروف العربية بالحروف اللاتينية، وما سببت من لبس وتعقيد لحرفي الهمزة والعين، الذي عبر عنهما بحرف واحد وهو A ولحرفي الدال والذال الذي عبر عنهما بحرف واحد كذلك وهو D فكل هذه الحروف التي ذكرناها سابقا يعبر عنها أكثر من صوت، فالحرف D في الأبجدية اللاتينية يعبر عنه بأكثر من صوت، فحينا يعبر عنه بالدال المهملة، وحينا آخر بالذال المعجمة، ذلك في كلمتين مذبحة وتدبر، وتقابلهما بلفظ Madbaha Tadabbu، وهذا ما يعاب على هانز فير النطق الخاطئ للأسماء أو الأفعال المكتوبة بالحرف العربي.

مع الإشارة إلى دعاة تغيير رسم الحرف العربي؛ أي دعاة الحرف الآخر كما يلقبون الذين يدعون إلى إلغاء الحرف العربي وإبداله بالحرف اللاتيني، حيث ظهر هؤلاء وبرزوا مع هيمنة المستدمر الغربي في حدود القرن الثامن عشر الميلادي، لتكييف الفصحى مع مقتضيات العصر وجعلها أكثر لينا ومرونة مع مقتضيات التطور والتكنولوجيا ولعل أبرز الدارسين العرب المحدثين وأهمهم الذين تأثروا بهذه الدعوة سائرين في فلكها، نجد كلا من الأديب المصري: أمين الخولي 1966/1895م، وعبد العزيز فهمي حجازي 1870/ 1951م، وداود الحلبي 1879/ 1960م والشاعر اللبناني: المعاصر سعيد عقل 1912/ 2014م، الذي وضع المبادئ الأولية لأبجدية

التي تعتمد الحرف اللاتيني، وأسس وقعد للأبجدية اللبنانية – اللهجة اللبنانية– المبنية على الحرف اللاتيني، وغيرهم كثر.

ومن رموز الأمة الإسلامية وزعماء الدولة التركية الحديثة، ومن أعلام التجديد والنهضة الحديثة، إن صح التعبير الذي لم يكتف بالدعوة والمجاهرة فقط؛ بل جسدها بالقانون وطبقها بالفعل وذلك بإلغاء الحرف العربي وأحل محله الحرف اللاتيني، فقضى بذلك كله على الثقافة الإسلامية التركية، وقطع أواصر الارتباط بماضيها العريق، ألا وهو الزعيم التركي ومؤسس تركيا المعاصرة كمال أتاتورك 1881–1938م، بعد خمس سنوات من وفاته، حيث كانت لدعوته صدى على المستويين الغربي والشرقي، وكان بمثابة دافع لحركة التجديد والتغيير التي بدأت تتوسع أكثر فأكثر في عالم الشرق.

ومن أشهر المستشرقين الذين نحوا المنحى نفسه، واقتفوا أثر المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون Louis Massignon 1883–1962م، المعروف بالدراسات الصوفية الإسلامية والمتخصص بها، وبخاصة سيرة الحسين بن منصور الحلاج، وهو علم من أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري– أو ما تعرف طريقته الصوفية بالحلاجية، الذي حاول أن يقدمه في صورة من صور المسيح في الإسلام، حيث قدم هذا المستشرق الفرنسي دراسات مهمة لا غنى عنها في مجال الدراسات اللغوية عامة، وفي مجال الدراسات الاستشراقية خاصة.

وقد عرف لويس ماسينيون حسب جملة من الدراسات اللغوية التي نوهَّت بذكره، أنّه صاحب مخططات استعمارية جهنمية، محكمة الصنعة، ويظهر هذا جليا في مؤلفاته الضخمة التي ملأها وحشاها بكثير من الأباطيل والترهات المغرضة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل اشتط في المبالغة حين نادى أو دعا إلى التخلي عن الحرف العربي تحت عنوان: لا حياة للعربية إلا إذا كتبت بحروف لاتينية على حد تعبير الأستاذ معد الجبوري في مقال له في صحيفة المثقف المعنون بـ: دعاة استبدال الحرف العربي باللاتيني.. نظرة سريعة موجزة.

ولعلّ ضخامة معجم هانز تفسر سعة الاطلاع، وتنم عن الإحاطة الوافية بمفردات اللهجات العربية الدارجة، وشغف هانز وإقباله الشديد على دراستها، وهذا ما يؤكد اهتمامه البالغ بها على

حساب اللغات الكلاسيكية القديمة، فهو من المستشرقين الذين عنوا عناية كبيرة بالدراسات العربية وحدها دون غيرها من الدراسات الشرقية، في حين نجد الغالب منهم يوجهون اهتمامهم إلى أكثر من ناحية من نواحي الاستشراق.

ويُعدّ هذا المعجم الحديث من اللوازم الأساسية في اكتساب اللغة عموما وفي مجال تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها، فهو معجم فريد من نوعه، ذو أهمية بالغة في ميدان تعليم وتعلّم اللغة العربية، سواء في مجال اكتساب المفردات اللغوية من مترادفات وأضداد أو في مجال اكتساب المهارات اللغوية على وجه العموم، للناطقين بها وللناطقين بغيرها، وفي هذا المعجم يقول بعض الدارسين العرب المحدثين: "إنّ معجم هانس هو المعجم الوحيد الذي يستخدم الجذر والأوزان العشرة في الكشف عن المعاني، منتميا بذلك إلى المدرسة الاستشراقية التي اشتهرت لدى المستشرقين الذين جعلوا للكلمات العربية: أسماءها وأفعالها خمسة عشرة وزنا، عشرة منها مشهورة وخمسة نادرة قليلة الاستعمال تتدرج في الماضي على هذا النحو: فعل، فعّل، فاعل أفعل، تفعّل تفاعل، انفعل افتعل، وافعلّ، واستفعل"[1] فالاشتقاق وسيلة من وسائل توليد المفردات وإثراء اللغة وتوسيع منظومتها المفهومية، وإذا رجعنا إلى المعجم نجد الأمثلة عديدة، نذكر البعض منها وفق ما ذكره ج. ملتون كوان في القاموس الذي ترجمه عن هانز فير في الجدول"[2] الآتي:

المفردة العربية	المفردة العربية بالحرف اللاتيني	مقابل المفردة باللغة الانجليزية
أب، ج: آباء	Ab, pl. : ãbã	Father
يا أبت	Yã abati	O May father !
الأبوان	Al- abawãn	The parents, father and mather.

[1]– خالد حسين أحمد أبو عمشة، دور المعجم في تعليم اللغة العربية وتعلّمها للناطقين بغيرها، معهد قاصد– الأردن .https://learning.aljazeera.

[2] – Ibid. p 18.

Reverend father.	Abûnû	أبونا
Handed down from father te son.	Aban an jaddin	أبا عن جد
Marabou	Abû su'n	أبو سعن
Poppy	Abû n-naum	أبو النوم
The Sphinx.	Abû l-haul	أبو الهول
Rooster,cock	Abû l.yaqzãn	أبو اليقظان
Fatherhood, paternity	Ubûwa	أبوة
Paternal, fatherly.	Abawi	أبوى
Abonite	/	أبونيت
T subscription ; subscription card (e.g.for public convey- ances,a concert season, ets)	(Fr. abonne) abûnèh.pl	أبونيه
To refuse. Decline; to turn down, reject scorn dis-dain	Abã aأباه (ibãأباءة ibã'a)	أبي
He in-sisted on doing it.	illã an yaf'alahû	أبى إلا أن يفعله
God willed that ...V to refuse, Decline.	/	أبى الله إلا أن
Rejection : dislike, aversion, disdnin : pride.	Ibã/ ibã'a	أباء، أباءة
Disdainful, scornful : proud ,lofty, lofty-minded	Abiy	أبي

آب، أباة	ã bin.pl/ ubãh	Reserved, standofresh, unwilling,reluctant, Grudging.
أبيب	Abib	The eleventh, mouth, of the Coptic calendar.

فمن خلال هذا الجدول السابق تتبين لنا أنّ مدونة هذا المعجم مدونة لغوية معاصرة بالدرجة الأولى، وأنّ المعتمد الأول الذي اعتمد عليه هانز، هي مادة استند فيها إلى الكلام الدارج الشائع عند عامة الناس وخاصتهم، دون ذكر المصدر الذي أخذ منه مادته المعجمية، حتى الإشارة إلى الجماعة التي استقى منها ألفاظ معجمه، وعلى الرغم من تعدد اللهجات الدارجة في البلد الواحد، فإنّ العامية في حقيقة الأمر عاميات لكل ناحية أو منطقة أو بلد أو إقليم في العالم العربي على امتداده الشاسع والواسع بشرقه وغربه وهي عامية خاصة به.

وما يلاحظ أيضا على الكلمات أنها مرتبة ترتيبا ألفبائيا، مع أنه لم يلتزم الترتيب الداخلي لها إلا نادرا، فهو يكتفى بذكر الكلمة مرتبة وفق حرفها الأول فقط، أما الثاني والثالث والرابع فلم يراع ترتيبها، فوردت كلمة: أب وآباء والأبوان، ثم انتقل إلى الأسماء المركبة فالعبارات الشائعة المعاصرة، ثم ما يقابلها باللغة الأجنبية مع تعدد المرادفات التي تقابلها.

إنّ وجود اللهجات واختلافها وتعددها يعد أمرا طبيعيا مسلما به، لا شك فيه ولا سبيل إلى إنكاره، على صعيد العربية وغيرها من اللغات الأصيلة ذات الجذور الضاربة في القدم والتاريخ الحافل الطويل، الماضي العريق، والصيت البعيد، جانب اتصال هذه اللغة بلهجاتها خاصة في مختلف المستويات وعلى مر العصور والأزمنة، ولما كانت "اللغة ظاهرة نفسية اجتماعية فإنّ التباين لا بّد من حدوثه وإلا فكيف لنا أن نحول دون أن تنعكس الفروق البيئية والمستويات الحضارية، بين سكان المدن والصحاري والأرياف والمهن المتعددة على اتساع أصقاع واسعة- على اللغة؟ وقد لا يكون في وسع الباحث إنكار الفروق الفردية في استخدام اللغة؛ بل الفروق

اللغوية في عمر الفرد الواحد"[1] فإذا كانت هذه النتيجة حاصلة لا محالة، فإنّ افتعال أي نزاع بين الفصحى والعامية لن يضيف الازدواج اللغوي إلا سوءا على سوء.

فالتاريخ الطويل للغة العربية الفصحى، أمَدَّنا بعدة بحوث ودراسات أجريت عليها حتى الآن في مختلف مستوياتها ومجالاتها العديدة والمتشعبة على مدار القرون الماضية، وجميعها أثبت أنّ هذه اللغة حافظت على أصولها وخصوصياتها ومعاييرها عبر القرون والأجيال، ولم تتغير إلا بمقدار ما تطلّبه التطور التاريخي الثقافي والحضاري الذي يخضع لقوانين عامة ثابتة في جميع اللغات البشرية، على غرار اللهجات العامية، شأنها شأن اللهجات الدارجة في مختلف الأقطار العربية؛ بل والعالمية، التي تتغير بسرعة فائقة.

وحسب تعريف إبراهيم أنيس للهجة، فاللهجة عنده: هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة، وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض"[2] هذا إلا أن الظروف الاجتماعية والثقافية والحضارية لها تأثير كبير في هذه البيئة، فتولد أحيانا أنماطا كلامية جديدة في حياتها اليومية حسب ما يقتضيه التطور في جميع ميادينه، حيث أفقد هذا التطور الكثير من سماتها مع هذا الزخم العلمي التكنولوجي الصارخ، ومما سبق نلحظ أن للهجات العامية خصائص وللفصحى خصائص وميزات، وكأن العاميات أو الكلام الدارج لا يرقى إلى القيمة العظمى التي تتمتع بها اللغة الفصحى، وإن كانت هناك ظواهر جديدة في اللغة المعاصرة لم تكن معروفة قبل قرنين أو أكثر حسب المستشرق الألماني فولف ديتريش فيشر.

والجدير بالذكر هنا ونحن نتحدث عن المستشرق الألماني فولف ديتريش فيشر أن نشير إلى أهمّ أعماله في مجال الدراسات النحوية للغة العربية، التي تتمثل بالتحديد في "دراسة الظواهر

---

[1]– إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية، ص 116.

[2]– إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، دط. القاهرة: 2003، مكتبة الأنجلو المصرية، ص15.

النحوية في اللغة العربية المعاصرة، ورصد الاستعمالات الجديدة فيها"[1] عبر العصور وتقسيم هذه الدراسة إلى مراحل تاريخية، لوصف بعض الظواهر النحوية للغة العربية المعاصرة وتحليلها معتمدا في ذلك على المناهج العلمية الحديثة، ويعني فيشر باللغة العربية المعاصرة اللغة المكتوبة والمنشورة في مختلف المصنفات النثرية بصفة عامة، من جريدة أو كتاب أو مجلة وهلم جرا، عبر مختلف المراحل التاريخية للغة، انطلاقا من اللغة التي تستخدم في الصحافة والكتابات اليومية والحياة الثقافية، حتى اللغة التي ينظم بها الشعر المعاصر، ويكتب بها الأدب الحديث، وتنشر بها المقالات الثقافية والعلمية الحديثة، حيث جعل من هذه النصوص اللغوية المختلفة والمتنوعة مدونة مشروعه، ويصرح الأستاذ فيشر أن هذا المشروع عمل مشترك –جماعي– بينه وبين جماعة من الباحثين أمثال: الدكتور هاشم الأيوبي من لبنان، والسيد لنغر من جامعة لايبزيغ، وعدد من المساعدين الآخرين، ويضيف فيشر قائلا: "لا بّد للتغيّرات التاريخية والاجتماعية والثقافية أن تؤثر في الواقع اللغوي تأثيرا مباشرا. فمن نافلة القول إن اللغة يجب أن تلبي حاجة أبنائها، وأن تواكب التطوّرات على الصعيدين التاريخي والاجتماعي، انطلاقا من وظيفتها في التعبير عن أفكار الناس وحاجتهم اليومية"[2] لذا كان الهدف الأساس من مشروعه اللغوي هو الوصول إلى وصف دقيق لنحو اللغة العربية المعاصرة، محاولا وضع كتاب عام يحتوي على مختلف الاستخدامات الأسلوبية للكتابات المعاصرة لبيان معانيها الدلالية، ويشمل أيضا مختلف التراكيب اللغوية والظواهر النحوية الجديدة المستعملة في مختلف أقطار البلدان العربية.

ويضيف فيشر معترفا بأنّه لا يمكنه أنّ يؤكد دخول "أساليب أو تركيبات نحوية جديدة إلى اللغة العربية المعاصرة، لأن الناس بوجه عام ما زالوا حتى الآن يراعون في كتاباتهم القواعد النحوية الواردة في كتب التراث النحوي كما هي بحذافيرها"[3] فقواعد اللغة بقيت ثابتة لم تتغير ضوابطها ونظمها الإعرابية بمرور الزمن، وضرب على ذلك أمثلة من الواقع حيث يرى: "أن ليس

[1]– فولف ديتريش فيشر "في تطور أساليب الكتابة العربية ومسائل لغوية شتى" حوار وتقديم: ظافر يوسف، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، 2001، مج 77، ج3، ص 2.

[2]– المرجع نفسه، ص 505.

[3]– نفسه، ص 497.

هناك من ينصب فاعلا أو يرفع مفعولا أو يجر منصوبا، وقواعد العدد وأسمائه هي نفسها منذ الأزل"[1] وأن الشيء الوحيد الذي لاحظه على هذه اللغة؛ هو دخول بعض الاستعمالات والعبارات الجديدة عليها، وذلك عن طريق الترجمة من اللغات الأوروبية، وأن هذا التغيير الذي حصل مس الجانب المعجمي للغة لا الجانب النحوي لها لأنّ الأشياء الجديدة تحتاج بالضرورة إلى ألفاظ جديدة تعبر عنها، وهذه ظاهرة طبيعية تحدث في مختلف اللغات العالمية، ونفى فيشر جازما تطور النحو العربي، وإنّما الشيء الوحيدة الذي أثبت تغيره في اللغة العربية هو أساليب الكتابة أو أنماط التعبير ليس إلا، فمثلا "تختلف أساليب النصوص التي كتبت في أوائل العصر العباسي عن أساليب النصوص التي كتبت في العصر العثماني ... وعن نصوص النثر المعاصرة تماما"[2] وهذا ما تثبته المقارنة بين النصوص اللغوية عبر مختلف الحقبات التاريخية على مر الزمن.

نلحظ ممّا سبق؛ أن موضوع اللغة العربية المعاصرة لقي اهتماما واسعا من قبل المستشرقين منذ أن بدأ هؤلاء التخلي شيئا فشيئا عن المنهج اللغوي العربي القديم، وحازت متسعا من البحث والتحليل، واكتست صفة الجدل بين ما تفرضه القاعدة اللغوية العربية القديمة، وما يفرضه الواقع اللغوي؛ أي ما ينص عليه الاستعمال والتداول اللغوي اليومي، ووصل الأمر بهم إلى منطق التحيز والانتصار لموقف معين، والأستاذ فولف ديتريش فيشر من المنتصرين لثبات القواعد النحوية للغة العربية وأن التغيير الذي يصيبها ما هو إلا تغيير في الجانب المعجمي للغة لا أكثر وهذا ما أثبته من خلال دراساته اللغوية العربية الحديثة، وما صرح به لمجلة مجمع اللغة العربية الدمشقي في حوار معها قائلا: "إنّ ما يجب ألا يغيب عن الأذهان أن النحو العربي استند في نشأته على القرآن الكريم والشعر العربي القديم، وقد كان لهذا الأمر فضل أساس في المحافظة على المعايير النحوية التي وضعت لضبط الاستخدامات اللغوية وتوجيهها، فبقيت القواعد لذلك ثابتة ولم تتغير على مر الزمن وتعاقب الأجيال"[3] ومن ثنايا هذا التصريح نستشف أن موقف فيشر هو موقف المعترفين بالثابتة وهي قواعد النظرية اللغوية النحوية القديمة على مر العصور منذ

---

[1]– فولف ديتريش فيشر "في تطور أساليب الكتابة العربية ومسائل لغوية شتى"، ص 507.

[2]– المرجع نفسه، ص 511، بتصرّف.

[3]– نفسه ص 510، بتصرّف.

نشأتها في القرن الأول الهجري إلى يومنا هذا، وأن التغيير إنّما يصيب جانبا من جوانب اللغة؛ وهو الجانب المعجمي، وهذا الشأن؛ شأن جميع اللغات الحية المستعملة المتداولة بين العامة والخاصة على حد سواء، التي تبحث دائما عن الألفاظ الجديدة لتساير مستجدات الثورة الإلكترونية السريعة والمتسارعة في العصر الحديث وفق ناموس نموها وقاموس حياتها.

وما دامت العلاقة بين اللغة ونحوها قوية، تربطهما وشائج متينة لا سبيل إلى إنكارها، فهي صلة جلية على قدر من القوة والضرورة، لأنّ اللغة مادة النحو وميدانه، لا غنى لها عنه، وإذا كان هذا التواشج والتزاوج جليا في أصول النظرية اللغوية العربية القديمة ومبادئها، فهذا يعني أن الدعوة إلى إسقاط بعض الظواهر النحوية، ثم هدم أسس وقواعد النحو العربي اللهم إلا إذا كان ذلك الإسقاط يمس المسائل الفرعية الخلافية، كمسألة إلغاء العلل الثواني والثوالث وإسقاطها التي نادى بها ابن مضاء القرطبي في القرن السادس الهجري ومسألة التنازع والاشتغال، وقضية التقدير والتأويل التي ذكرها أبو جعفر النحاس 338-416هـ في كتابه: التفاحة في النحو، وغيرها من المسائل النحوية التي تعرض لها النحاة العرب الذين حاولوا تيسير المادة النحوية، كل حسب نظرته التيسيرية، الذي يُعدّ ضربة لازبة للعربية الفصحى في صميمها، وهو من باب تحصيل حاصل، وأن أي خلل يصيبها في نحوها وتركيبيها، فمثلا ككسر للإعراب من تقديم وتأخير في عمدة الجملة يحرفها عن صورتها وينزل بها من مستواها الفصيح إلى المستوى العامي، وبذلك يكون فولف فيشر بهذا التفكير قريبا جدا من نمط التفكير العربي القديم، ويستقيم رأيه مع آراء كثرة جاءت في المصنفات القديمة وبعض الدراسات الحديثة، ويجسد بتصريحه المقولة العربية التي تقول: أن لا كتاب بعد كتاب سيبويه ولم يأت أحد بمثله من قبل ومن بعد، ولا نحو بعد النظرية الخليلية القديمة، حتى بلغ درجة سامية، ومرتبة عالية، إلى أن أطلقت عليه تسمية قرآن النحو وغيرها من الأمثال الشائعة والحكم المؤثرة التي قيلت في الكتاب وصاحبه حتى ملأت الدنيا وشغلت فكر العامة والخاصة على حد سواء قديما وحديثا.

وهناك ثلة من الدارسين العرب المحدثين ترى أن العامية تحريف للفصحى، ومن بين هؤلاء الدارسين من حاول وما زال يحاول تخليص الفصحى من كل ما دخل عليها من تحريف أو تحويل

أو تحوير فأبعدها عن صورتها الحقيقية، وما شابها من لحنٍ، ويعنون عناية بالغة بالتأليف في هذا الموضوع، ومن أهمّ هذه المؤلفات القيمة الحديثة نجد كلّا من كتاب: أصول الكلمات العربية لحسن توفيق، وكتاب: تهذيب الألفاظ العامية لمحمد علي الدسوقى، وكتاب: تحريفات العامية للفصحى في القواعد والبنيات والحروف والحركات للدكتور شوقي ضيف حيث يقول: "يعنى بعض أئمة العربية بتبين وجوه الصواب فيما يظن أن العامية لحنت فيه وحرّفته عن صورته العربية"[1] وإذا عدنا إلى الوراء، إلى القرون الأولى بالتحديد، وتفحصنا مؤلفاتها القديمة، ونظرنا بتمعن فيها نرى بوضوح تطرقها إلى هذا الموضوع بإسهاب واستفاضة، وجدنا أربابها من علماء العربية وأئمة اللغة بذلوا جهدا كبيرا في معالجة موضوعات اللحن والخطأ، أو ما اصطلحوا عليه بلحن العامة، منذ القرن الثالث الهجري، لا يمكن انكار هذا العمل العلمي الأكاديمي الجليل لصون الفصحى من زيغ وتحريف، ثم توالت بعدها كتب أخرى تناولت موضوعات المادة إفرادا وتركيبا إلى يومنا هذا.

ومن هؤلاء الأعلام، نجد كلا من الكسائي 737-805م، بكتابه الذائع الصيت: ما تلحن به العوام، وابن السكيت بمصنفه: إصلاح المنطق، ومن أئمة اللغة والنحو، الزبيدي الأندلسي 316هـ-379هـ بكتابه: لحن العوام، والجواليقي 1073-1144م بكتابه: تكملة إصلاح ما تخلط فيه العامة، ومن الأعلام الكبار في اللغة وفن المقامات الحريري 1054-1112م بمصنفه: درّة الغوّاص في أوهام الخواص، وغيرهم.

مع الإشارة إلى أن القدماء من علماء العربية كانوا يعبرون عما نسميه أو نصطلح عليه نحن في العصر الحديث: باللهجة (اللحن) فلفظ أو اصطلاح لهجة مرادف للفظ اللحن، نرى هذا واضحا جليا في المعاجم العربية القديمة، وبعض الروايات الأدبية "وقد يروى لنا أنّ إعرابيا يقول في معرض الحديث عن المسألة النحوية: ليس هذا لحني ولا لحن قومي، وكثيرا ما يشير أصحاب

---

[1]- شوقي ضيف، تحريفات العاميّة للفصحى في القواعد والبنيات والحروف والحركات، ط1. القاهرة- مصر: 1994، دار المعارف، ص 4.

المعاجم إلى لغة طيء ولغة هذيل، ولا يردون بمثل هذا التعبير سوى ما نعنيه نحن الآن بكلمة لهجة"[1] حسب ما أورده الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه: في اللهجات العربية.

ومهما يكن من أمر الاختلاف بين الآراء التي تعرضت لدراسة اللهجات العامية المختلفة والمتنوعة حسب تنوع البيئات والمجتمعات البشرية، فإنّنا نرى فمنهم من داعا إلى دراساتها واعتمادها وإحلالها محل الفصحى، ومنهم من دعا إلى هجرها وتركها، لأنها لا ترقى إلى منزلة اللغة، يراها تحريفا للفصحى، أو يراها تتعايش مع الفصحى جنبا إلى جنب، لأغراض متعددة، كل موقف لحاجة في نفسه، وبنيات مختلفة، فنحن نصرح بأننا لسنا من هؤلاء ولا من هؤلاء؛ بل نحن نقول إنّ هدفنا أن تحظى دراساتها دراسة عميقة مستفيضة في كل البيئات العربية الكثيرة المختلفة والمتعددة، وذلك بالاعتناء بشرحها، وتحليل خصائصها، لكشف أسرارها، ومعرفة واقعها اللغوي ووصفه حسب ما هو عليه لا كما ينبغي عليه أن يكون، ولا يكون ذلك إلا لأغراض وأهداف علمية بحتة في إطار المنهج العلمي الدقيق، وشريطة أن يكون ذلك كلّه بنية خدمة الفصحى وإثراء محتواها بألفاظ حضارية جديدة، وما استجد من ألفاظ اللغة واستعمالاتها، للنهوض بها لتواكب روح العصر وتساير الثورة الإلكترونية الحديثة لا أكثر "كون اللغة كائنا حيا، يتطور بتطور الحياة"[2] كإغنائها في مجال المفردات والدلالات والمعاني وفي مجال الأخيلة أيضا، وأن تمدها بالألفاظ الحضارية المتداولة، وغيرها من مجالات اللغة الواسعة من تنوع أساليبها واختلاف عباراتها وتشعّب اتجاهاتها، ولا ندعو مطلقا إلى المساس بقواعدها وأصولها "وإنّها أساسا دعوة غربية تبعتها أقلام شرقية"[3] ودون شك أنّ المستوى النحوي يأتي في المقام الأول نظرا لأسبقيته على بقية المستويات التي تأتي تبعا له، ولاعتباره المنطلق الأساس لكل فروع الدراسات اللسانية والأدبية والبلاغية والدلالية والنقدية وهلم جرا، وبه تتجلي اللغة ويتضح المقصود منها، وأن مسألة التيسير النحوي ليست وليدة عصرنا هذا، بل هي قديمة قدم الدراسات النحوية، حيث كان " أئمة العربية

---

[1]– إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص 15.

[2]– ميمونة عوني، الدرس اللغوي في النصف الأول في القرن العشرين، ط1. عمان– الأردن: 2016، دار غيداء للنشر والتوزيع ص 280.

[3]– المرجع نفسه، ص 278.

يعنون بالتأليف في هذا الموضوع"[1] وتوالت مؤلفاتهم في القرون التالية، إذ المطلب الأساسي أن تكون هذه المسألة وسيلة لا غاية في حد ذاتها، ولا بأس أن تقدم المادة النحوية للناشئة والمتعلمين الناطقين بالعربية أو لغير الناطقين بها، وفق المناهج الحديثة، يتناسب محتواها مع الواقع التعليمي في العصر الحديث وتراعي المستوى الذهني للفئة المقصودة والمستهدفة، وأن نخلصها من كل التأويلات الفلسفية والمنطقية المعقدة، والمسائل الدقيقة المتشعبة، التي لا تزيد المتعلمين إلا اشمئزازا ونفورا، لترسيخها في أذهان المتعلمين والسعي إلى تطبيقها وتوظيفها في خطاباتهم اليومية، وفي تواصلاتهم الاجتماعية مع غيرهم في جميع الأحوال والظروف، بما يعود بالنفع على المتعلمين بتصويب ألسنتهم وتقويمها وتبرئتها من اللحن المشين بها، وإبعاد أقلامهم عن الأخطاء المشوهة لها.

3 – 1- كارل بروكلمان

ومن أشهر المستشرقين الألمان المبرزين، تلميذ تيودور نولدكه المتوفى سنة 1930م، كارل بروكلمان Carl Brockelmann 1868-1956م، الذي برز في النصف الأول من القرن العشرين في مجال دراسات اللغات السامية مقارنة بالألمانية، و في مجال فقه اللغات الغربية منها والشرقية بكتاب: فقه اللغات السامية الذي ترجمه إلى العربية الدكتور رمضان عبد التواب، وبكتابه الذائع الصيت في التراث العربي الإسلامي بكتابه: تاريخ الأدب العربي Geschichte der arabischen Litteratur في حدود عشرة مجلدات حسب ما تذكر بعض المصادر الحديثة و"يختصر بـ: GAL[2] ومنذ ظهور الطبعة الأولى في سنة 1898-1902م، وبروكلمان لا يزال يصحح ويضيف ويستدرك عليها طوال أربعين سنة، وخصص بهذه الإضافات ثلاثة أجزاء ضخمة ملحقة، ظهر الجزء الأول في حدود سنة 1937م، والثاني في 1938، والثالث في سنة 1942م غير أنه في الملحق الثالث لم يقتصر على سرد عناوين الكتب؛ بل فصل القول في مضمونها وأبدى أحكاما وملاحظات عميقة على اللغة والأسلوب على حد قول عبد الرحمن بدوي.

---

[1]- شوقي ضيف، تحريفات العاميّة للفصحى في القواعد والبنيات والحروف والحركات، ص3، بتصرّف.

[2]- عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 98.

وقد ركز بروكلمان في هذا المؤلَف على دراسة تاريخ الأدب العربي دراسة شاملة، وذلك برصد مختلف عصوره وأمكنته وفنونه المتنوعة من وجهة نظرة غربية بحتة في إطار الحضارة العربية الإسلامية انطلاقا من فجر الإسلام، مرورا بالعصر العباسي، وانتهاءً بالعصر العثماني حتى العصر الحديث، وبذلك جاء الكتاب أوفى الكتب الغربية في تاريخ التراث العربي الإسلامي الذي ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور عبد الحليم النجار.

وأورد الدكتور عبد الحليم النجار في مقدمة ترجمته أن تعريب هذا المؤلف كان يُعدّ "أملا يراود كلّ قارئ بالعربية حينما يبحث في علوم العرب وآدابهم، أو يحاول سبر جهود العلم العربي ومتابعة خطواته في تأسيس ثقافة العالم الجديد وتنمية حضارته، أو يريد حصر ما تشتت وإحصاء ما تفرق من تراث الفكر العربي في مكتبات العالم وخزائن الكتب، ليتخذ من ذلك آيات بينات للفخر والاعتزاز، أو عدة ومددا للبعث والحياة، أو يتطلع أخيرا إلى معرفة ما ترجم إلى لغات العالم في ذلك التراث الخالد، وما أثير حوله من بحوث، وصنف من دراسات قدمت خطا العلم والأدب ودفعتهما إلى الأمام في الشرق والغرب"[1] وربما أراد بروكلمان بكتابه هذا أن يصور حياة الشعوب العربية في ظل الحضارة الإسلامية عبر عصورها المختلفة دون إقصاء أي مرحلة من مراحلها بإفادة من دراسات أدبية أخرى على نحو أعمق وأحدث.

وترجع الأغراض الأولى لتأليف هذا الكتاب، إلى مقاصد مهمة في نفس مؤلفه، فقد سعى إلى تحقيقها وتجسيدها من خلاله حسبما أورده عبد الحليم النجار في ترجمته له: ومن المقاصد الكبرى التي وضعها كارل بروكلمان نصب عينيه أن يسجل الدور العالمي الذي اضطلع بها أدب العرب بأوسع معانيه في دفع مواكبة العلم، وحث ركاب الثقافة والحضارة، وهداية المجتمع الإنساني إلى غايات الحق، والخير، والجمال.

وقال فيه – أيضا– الدكتور عبد الرحمن: من ذا الذي يمكن أن يستغني عن تاريخ الأدب العربي بأجزائه الخمسة... إنّه لا يزال المرجع الأساس الوحيد في كل ما يتعلق بالمخطوطات

---

[1]– كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله: عبد الحليم النجار، ط 5. جامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار المعارف، ج1، ص 11.

العربية وأماكن وجودها، حيث ذكر بروكلمان مكان وجود هذه المخطوطات"[1] التي بها تمكنا من المحافظة على كيان الأمة العربية الإسلامية وتاريخها، مشيرا إلى أرقامها في مختلف المكتبات العالمية التي تحويها، ومسهلا بذلك عملية البحث عنها للباحثين والدارسين الراغبين في الاطلاع عليها ودراستها.

حاول بروكلمان معالجة كتابه بأسلوب علمي دقيق، ينم عن سعة علمه وتمكنه من اللغة العربية، وإحاطته الواسعة بآدابها إحاطة شاملة، عبر مختلف عصورها التاريخية ودقة معرفته بالتاريخ الإسلامي وأعلامه بصفة عامة، حيث يعد هذا المستشرق علما من أعلام المستشرقين الألمان نظرا لمكانته العلمية بين أقرانه ومعاصريه، ولإرثه الضخم الذي خلفه من بعده حيث أسهم في إثراء المكتبات الشرقية والغربية على حد سواء بكتب نفيسة معتبرة نذكر منها: نحو السريانية وآدابها، ونحو اللغة العربية، وموجز النحو المقارن للغات السامية، وباب اللغات الشرقية، وتاريخ الشعوب والدول الإسلامية، وقواعد السريانية، وغيرها من الكتب القيمة في مجالات دراسية مختلفة متنوعة.

وقد اتجه الدرس اللغوي مع بروكلمان إلى التخفيف من حدة التأثر بالدرس اللغوي العربي القديم، وذلك لظهور المؤلفات العلمية الموجهة للتعليم، مع هذا الجيل من المستشرقين، فظهرت مع كتب هذا المستشرق فروق تميزه عن مؤلفات هذا الجيل، حيث برز معه التخصص العميق والوصف الدقيق سواء في مجال المادة المأخوذة أو العصر المدروس أو الشخصيات المعروضة بالإضافة إلى الجانب التعليمي في مؤلفاته النحوية.

لم تقتصر دراسات بروكلمان على الدراسات الأدبية وحسب؛ بل توسعت لتتعدى وتمس دراسة قواعد اللغات السامية المقارنة، وبذلك شق طرق الدرس المقارن للعربية أمام الباحثين العرب المحدثين الذين ترسموا خطواته، فوضعوا أغلب مؤلفاتهم، انطلاقا مما قرّره في دراساته، وكانت بذلك كتب بروكلمان أكثر حظوة في الاستعمال من قبل الشرقيين والمستشرقين على حد سواء وعدت كتبه مراجع أساسية لا غنى عنها أبدا في البحوث الاستشراقية، تاركة أثرا بالغا في مجال

[1]– عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 98، بتصرف.

الدراسات المقارنة للغات السامية، وكلّ من جاء بعد بروكلمان عالة عليه، من أمثال: "أوليري" الذي نشر سنة 1929م، كتابا سماه: النحو المقارن للغات السامية، و"برجيستراسر" الذي ألف سنة 1928م، كتابا سماه: المدخل إلى اللغات السامية"[1] كما ألقى في الجامعة المصرية القديمة محاضرات عن التطور النحوي، مقارنا العربية باللغات السامية، وقد طبعت هذه المحاضرات سنة 1929 بعنوان: "التطور النحوي" "وموسكاتي الذي نشر في روما سنة 1960 كتابا بالإيطالية عنوانه: محاضرات في اللغات السامية، وترجمه بعد تنقيح إلى الإنجليزية، بالاشتراك مع أنطون شبيتالز وإدوارد ألندروف وفولفرام فون سودن"[2] ونشر في ألمانيا عام 1964 تحت عنوان مقدمة في النحو المقارن للغات السامية[3] وغيرهم من المستشرقين الذين جعلوا مؤلفات بروكلمان مراجع أساسية في تأليف كتبهم كما أكد ذلك الدكتور رمضان عبد التواب، في حين يعترف بروكلمان في مقدمة كتابه، أنّ الفصل الأول منه يعتمد اعتمادا كبيرا على التخطيط العام لتاريخ اللغات السامية لأستاذه ثيودور نولدكه، ومهد لهذا العمل كثيرا من البحوث المتخصصة القيمة؛ إذ لخصت هذه البحوث السابقة نتائج الدراسات التي كانت في عصرها، غير أنها اقتصرت على الناحية التاريخية للغات السامية، ولم تتجاوزها إلى مقارنة قواعدها.

ولا يمكن لنا أن ننكر أنّ معظم الدراسات الاستشراقية التي اهتمت باللغة العربية في إطار الدراسات المقارنة وعلى أثر المنهج التاريخي المقارن، كانت في حدود ما يخدم اللغة العبرية واللهجات الآرامية الأخرى؛ كالآرامية اليهودية أو التوراتية، وكل هذه اللهجات يمكن أن تفيد الكتاب المقدس الذي يسعى اللاهوتيون إلى خدمته والمحافظة على مكوناته، وفي حدود خدمة هدفهم الأسمى الذي يتمثل في "الوصول إلى تأصيل للغة العبرية لغة مستقلة بين اللغات التي تسمى اللغات السامية، وكأن هؤلاء الكبار أدركوا استحالة تمييز النحو العبري بميزة تختلف عن ميزات نحو اللغة الكنعانية إلا بما يميز البعد القرائي لتلاوة التوراة، أو القرائي المتعلق بنظام الحركات

[1]– عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 86.

[2]– كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، تر: رمضان عبد التواب، دط، المملكة العربية السعودية: 1977، جامعة الرياض، ص 7.

[3]– المرجع نفسه، ص7.

الذي وضع بعد قرون من وجود التوراة نفسها"[1] فالملاحظ على هذه الدراسات أنّها كانت دراسات ذات بعد صوتي وظيفي متعلق بفنولوجيا اللغة العبرية ليس إلا.

هذا فيما يخص المستشرقين، أما فيما يخص الدارسين العرب المحدثين الذي اقتفوا أثر بروكلمان في التأليف وفق العصور الأدبية، فنجد من ضمنهم الأديب الأزهري المصري ورائد تاريخ الأدب العربي حسن توفيق العدل 1862-1904م، بمؤلفه: تاريخ آداب اللغة العربية، واللغوي والأديب شوقي ضيف 1910-2005م، بسلسلته الضخمة: تاريخ الأدب العربي، ورائد النهضة الثقافية المصرية أحمد حسن الزيات باشا 1885-1968م، بكتابه: تاريخ الأدب العربي، ورائد المدرسة الكلاسيكية محمد صادق الرافعي 1880-1937م، بمصنفه: تاريخ أداب العرب في ثلاثة أجزاء، ظهرت طبعة الجزء الأول والثاني سنة 1911، في حين ظهر الجزء الثالث بعد وفاته سنة 1940 تحقيق محمد سعيد العريان، والأديب اللبناني عمر فروخ 1906-1987م، بكتابه: تاريخ الأدب العربي، وغيرهم، ممن تأثر بالتفكير الأدبي البروكلماني –إن صح التعبير– وأتبع منهجه في التأليف الأدبي وفق العصور الأدبية، وكل هؤلاء ممتنون لرائد المستشرقين بروكلمان لظاهرة التجديد التي أدخلها على التفكير الأدبي العربي الحديث.

أما فيما يخص كتابه: "فقه اللغة السامية" فقد خصص بروكلمان فصله الأول للحديث عن اللغات السامية والصلات القائمة بينها، وكذلك العلاقات الموجودة بين فروعها المختلفة، وفي الفصل الثاني تطرق إلى أصل الكتابة السامية، بدءا بالخط المسماري الذي نسبه للسومريين حيث اعتبره معظم الدارسين في هذا الميدان أصل الخطوط التي انتشرت فيما بعد، ويؤدي هذا الاعتراف إلى الاعتقاد أنّ الكتابة الحرفية المعروفة فيما بعد اشتقت منه، وأجرى في الفصل الثالث الذي يُعد أطول فصل في هذا الكتاب ذي الحجم الصغير المؤلف من 173 صحيفة على وجه التقريب، من هذا الكتاب مقارنة بين قواعد اللغات السامية، ويبحث في العوامل المؤثرة في تطوراتها، سواء العوامل الخارجية أو المؤثرات الداخلية، كالتغييرات أو التحويرات التي تحدثها فيها

[1]- يحي عبابنة، النحو العربي في ضوء اللغات السامية واللهجات العربية القديمة دراسات مقارنة، دط. الأردن: 2015 دار الكتاب الثقافي للنشر، ص12.

الأصوات عند قلبها أو مماثلتها أو مخالفتها في معنى الكلمة، وتطرق في أبوابه إلى الحركات وأنواعها، وصيغ الأسماء وصيغ الأفعال وأبنيتها وأزمنتها، وخلص في النهاية إلى أنّ اللغات السامية التي اشتركت يوما ما في الأصوات، ومن خصائص هذه الأصوات: "ذكر الصوت الشفوي: Labiale – ب- وصوت أسناني: Dentale – ت- و- د- والصوت الغاري الذي يتكون من سقف الحنك الصلب: Palatale – ك- والثاني مجهور وهو: حرف – ج- والصوت الرخوي الذي يتكون بين الأسنان: Interdentale الذي يتمثل حسبه في حرفي – ث- والثاني مجهور وهو: حرف – ذ- وصوتان رخويان يتكونان كالسابقين، مع رفع مؤخرة اللسان نحو اللثة ونطق مهموز أحدهما مهموس وهو – ظ- والثاني مجهور وهو – ض- "[1] وغيرها من خصائص الأصوات العربية التي لا يستطيع القارئ أن يعيها، إلا بعد تأمل هادئ عميق، ومعاناة طويلة.

ولا شك أنّ لهذا الكتاب فوائد كثيرة "تعود على الدرس اللغوي، من معرفة الدارس باللغات السامية، فإنّه فضلا عما تفيده هذه المعرفة في الإلمام بتاريخ الشعوب السامية وحضاراتها ودياناتها وعاداتها وتقاليدها تؤدي مقارنة هذه اللغات باللغة العربية، إلى استنتاج أحكام لغوية، لم نكن لنصل إليها، لو اقتصرت دراستنا على العربية وحسب، ونفسر بهذا الأمر سر تقدم المستشرقين في دراستهم اللغة العربية، ووصولهم فيها إلى أحكام لم يسبقوا إليها، لأنّهم لا يدرسون العربية، من داخل العربية وحدها؛ بل يدرسونها في إطار اللغات السامية، على أسس المنهج المقارن"[2] الذي انعكس بالإيجاب على الدراسات اللغوية العربية في مختلف مجالاتها المتشعبة المتعددة. وفتح ذلك كلّه بابا واسعا للبحث العلمي في ميدان خدمة اللغة العربية وآدابها على مر العصور، وفتح لها آفاقا معرفية جديدة أمام النظريات اللغوية العربية والغربية خاصة.

4- الجيل الثالث: المستشرقون ومنهج البحث اللغوي الحديث

بدأت الدراسات الاستشراقية مع هذا الجيل من المستشرقين تتطور شيئا فشيئا، وتبتعد كليا عن أسس التفكير اللغوي العربي القديم، وتتجرد من أصول النموذج النحوي العربي القديم، وأصبح

1- كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص 39 – 40، بتصرّف.

2- المرجع نفسه، ص 5.

هؤلاء يقعدون وينظرون للدرس اللغوي العربي على أسس النظرية الغربية القديمة– اليونانية التقليدية، واحتلت دراساتهم حيزا واسعا في مجال الدراسات اللغوية العربية خصوصا، ولعبوا بهذا الإسهام الجبار دورا بارزا في صياغة التصورات السلبية الغربية، التي لم تراع خصائص الدرس اللغوي العربي وقواعده ومميزاته ومنطلقاته الأوّلى بالأخص، عن أصالة النظرية اللغوية العربية القديمة، والعمل على بلورتها أكثر فأكثر لدحض قواعدها والتشكيك في أصالتها، معبرين بذلك عن الخلفية الثقافية الغربية في مختلف قوالبها الفكرية، ولم يتغير شيء من هذه الصورة على مدى تاريخ الفكر الغربي منذ القرون الوسطى، وما زالت مستمرة بصورة عينية ملموسة حتى يومنا هذا برغم كل الخبرات اللغوية التي ظهرت في العصر الحديث.

لقد طرق هؤلاء إلى موضوع اللغة في جوانبها كافة بالبحث والتمحيص والدرس والتحليل والنقد فقد كان لهذا الاتجاه أثر بالغ لا مثيل له في الدراسات اللغوية العربية الحديثة، وتأثير جم على بعض الدارسين العرب المحدثين حتى المعاصرين، من خلال تبنيهم أفكارهم وتطبيقهم مناهجهم في بحوثهم ودراساتهم اللغوية، حيث كان لهؤلاء المستشرقين وزن ثقيل في الفكر اللغوي العربي الحديث.

انطلق هؤلاء في دراساتهم للتراث النحوي العربي من ثقافاتهم الخاصة، ومن منطلق بيئتهم الأصلية التي ترعرعوا فيها، بالنظر إلى الدور الفعال الذي تلعبه البيئة في نشأة المناهج الفكرية المختلفة، لأن الإنسان ابن بيئته ومجتمعه حسب ما تؤكد النظريات العلمية الحديثة المختلقة المتنوعة: "وأنّ لها إسهاما كبيرا في تشكل ونشأة الثقافة والقيم والنظم الاجتماعية وحتى الطباع والأخلاق، وأن الاختلافات القائمة بين المجتمعات البشرية مردها إلى الاختلافات المتباينة في الظروف البيئية "[1] لذا انطلق هؤلاء من إسقاطات واهية غير عادلة عند تناولهم للتراث النحوي العربي القديم، رغم التباين القائم بين الفكرين؛ الغربي والشرقي، وعلى رغم الاختلاف البين بين خصائص اللغتين، اللغة العربية واللغة اليونانية، وظهر هذا في مؤلفات بعض المستشرقين على

[1]– ساعد هماش "سوسيولوجيا البيئة في ظل المدارس النظرية والاتجاهات المفسرة" مجلة الباحث الاجتماعي، الجزائر: 2017، ع13، ص 182.

وجه التحديد وفي مقالاتهم وبحوثهم العديدة والمتنوعة في مجال الدراسات اللغوية عامة، والعربية خاصة.

ومن منطلقات الفكر الأوروبي البحت، وفي ظل المناهج اللغوية الغربية الحديثة التي لحقها تطور كبير عبر العصور التاريخية التي مضت، وازدادت نشاطا وتطورا مستمرا في عصرنا الحاضر التي هي الآن في أوج مراحل تفوّقها، وفي أوج عصور ازدهارها، حاولوا دراسة التراث الشرقي والحكم عليه، وإصدار أحكام قيمية تجافي كلّ شروط البحث العلمي الرصين، وتطرح المنهج العلمي المجرد الدقيق بقواعده الصارمة جانبا، إذ لا مناص لنا من مواجهة الإشكالات العديدة التي تواجهنا، لتمحيصها وتحليلها ومناقشاتها، وذلك بالتطرق والتعرض لمختلف جوانبها لاستخلاص نتائجها، وإدراك مدى انعكاساتها السلبية والإنجابية على الدرس اللغوي العربي الحديث.

اعتمد هذا الجيل من المستشرقين في دراساته اللغوية على مناهج غربية بحتة عديدة ومختلفة، ومن أهم هذه المناهج التي طبقها وحاول تجسيدها بإلحاح شديد على الدراسات اللغوية العربية القديمة، منهج التأثير والتأثر، فحكموا بالتأثر في كل تشابه، وحكموا بمقتضى هذا التشابه على النظرية اللغوية العربية القديمة على أنّها من إفرازات الحضارات السابقة، يونانية إغريقية كانت أو رومانية، وبهذا المنظور جردوها من سمتها الأصيلة العريقة؛ ألا وهي سمة الإبداع وابتكار العلوم، والحق في الأسبقية؛ أسبقية النشأة في أرقى مظاهرها الفعلية، التي لا تزال لحد الآن تحتاج إلى بحث وكشف دقيق وتقصٍ عميق، ودراسة جدية وافية في هذا الجانب بالذات، وجعلوا هذه السمات وَقفا وحكرا على الحضارات الغربية القديمة فقط، ومن هذا المنطلق غدا عندهم النحو العربي نسخة من المنطق الأرسطي، وغدا أعلامه ذوي خلفية معرفية غربية بحتة، ومجرد نقلة ومقلدين لأفكار الحضارات القديمة كاليونانية والسريانية والهندية واللاتينية لا أكثر.

مع أنّ البحث العلمي النزيه يرفض تطبيق هذه القاعدة وتعميمها على كلّ الظواهر الإنسانية عند كلّ تشابه لأنّ "العقل البشري قد يصل إلى نتائج مشابهة إذا تماثلت الوقائع

والظروف"[1] وهذا ما يتنافى مع أسس ومبادئ ومعطيات البحث العلمي الدقيق، ولا وزن له في منطق العلم، وهذه هي معضلة بعض المستشرقين عند تعاملهم مع كلّ ما يخص العالم الشرقي والدراسات اللغوية خاصة، ففيها يسمحون لمخيلتهم أن تنسج إجابات عن كل تساؤلاتهم التي بنيت على رؤية سطحية وأفكار مسبقة، حيث حولوا غاية كلّ دراسة "إلى أداة سطوٍ فكري يتم بواسطتها إفراغ كل دراسة من مضمونها"[2] وتجريدها من كل السمات التي تتميز بها، والخصائص التي تتفرد بها عن غيرها من الدراسات الإنسانية العديدة المختلفة.

على الرغم من أنّ معظم المستشرقين يذهبون إلى القول بتأثير يوناني في فترة متأخرة من فترات النحو العربي، باعتبار أن لهذا العلم طورين: طور النشأة والتكوين وطور النضج والاستقامة لا تشمل فترة النشأة مطلقا سواء كان هذا التأثير مباشرا أو غير مباشر، وكان التأثير عن طريق النحو اليوناني أو عن طريق منطقه، إلا أنّ هذه الإشكالية حظيت باهتمام كبير في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة على حد سواء، غربية كانت أو شرقية، وكثر الحديث عنها قديما وحديثا وانقسم الدارسون بين مؤيد لها وثائر عليها جملة وتفصيلا.

ومن المستشرقين المؤيدين لهذه النظرية المستشرق الألماني: ثيودور نولدكه 1836- 1930م ويوهان فك Johann Fuck 1894-1974م، وكارل بروكلمان والمستشرق الألماني ت.ج. دي بور 1866-1942م، ريجي بلاشير Régis Blachère 1900-1973م والمستشرق أدلبرتوس ميركس وغيرهم كثر، ممن طعن في أصالة النحو العربي القديم واتهم رواده وأعلامه بالنقل من تراث الحضارات الأخرى السابقة لها بمختلف توجهاتها.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد الرحمن سليمان في مقال له بعنوان: قضية تأثر النحو العربي بنحو الأمم الأخرى، يزعم المستشرق أدلبرتوس ميركس سنة 1889 أنّ النحو العربي مؤسس وفق منطق أرسطو، ولم يأخذ أحد من المستشرقين كلام ميركس بعين الاعتبار لسببين اثنين:

---

[1]- ثائر الحلاق مناهج المستشرقين في دراسة الإسلام: دراسة وصفية تحليلية، مجلة الجامعة الأسمرية، ليبيا: 2017 مركز البحوث والدراسات العلمية، ع24، ص 278.

[2]- المرجع نفسه، ص 279، بتصرف.

* الأوّل: وفاة الخليل وسيبويه قبل نقل منطق أرسطو إلى العربية.

* الثاني: قلة التشابه؛ بل انعدامه بين النحو العربي والنحو اليوناني.

واستدل على ذلك بأقسام الكلام، فأقسام الكلم عند العرب ثلاثة (اسم وفعل وحرف) وعند اليونان ثمانية، ولا يوجد أدنى تشابه في علم الصرف وسائر علوم اللغة بين اللغتين، وقد صور كارل بروكلمان: "العلاقة بين النحو العربي ومنطق أرسطو في كتابه مبينا الأثر الأرسطوطالسي فيه"[1] سواء في اللغة العربية أو في نحوها، وأن العلاقة بين النحو العربي والمنطق الأرسطي تكمن في التشابه بين المصطلحات النحوية العربية ومصطلحات المنطق الأرسطي ليس إلا.

ويعترف يوهان فك بأنّ أبا الأسود الدؤلي ت 69هـ من أوائل النحاة العرب القدامى، ويقر له بوضع أسس علم النحو العربي، ويرجع ذلك لأسباب مختلفة ودوافع عديدة دفعت به إلى وضع أوليات هذا العلم "إما بدافع من نفسه، أو بأمر من الوالي الأموي زياد بن أبيه أو بإرشاد من الخليفة على نفسه، لحفظ لغة القرآن من الفساد على ألسنة الداخلين الحديثين في الإسلام"[2] غير أنه يعود ويشكك في تاريخ النحو العربي قائلا: "وعلى الرغم من أن هذه الروايات المتفرقة المتضاربة غير تاريخية بالمعنى الصحيح، فإنّها تحتوي على إدراك عميق، لأنّ اتخاذ المسلمين الجدد لغة العرب لسانا لهم، هو الدافع الأول للملاحظات النحوية"[3] وعلى ضوء هذا القول يمكننا أن ندرك تماما أنّ هؤلاء المستشرقين لا يؤمنون مطلقا بأن علم النحو من نتاج العقلية العربية المحضة، وأن بداياته الأولى يشوبها كثير من الغموض والضبابية، لاعتبارات عديدة ولغايات يَرونَها، افترضوها أو رسموها منذ البداية، على الرغم من صحة الروايات العديدة والآثار الواردة في هذا المجال.

---

[1]– محمد عزيز نظمي سالم، تاريخ المنطق عند العرب، دط. الاسكندرية: 1983م، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، 90.

[2]– يوهان فك، العربية: دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، تر: عبد الحليم النجار، تصدير: أحمد أمين بك، تقديم: محمد يوسف موسى ومحمد حسن عبد العزيز، دط. القاهرة: 2014م، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ص 10– 11.

[3]– المرجع نفسه، ص 11.

ويذهب بعض المستشرقين في بعض الحالات إلى حد إنكار المجهودات الجبارة التي بذلها كلّ من أبي الأسود الدؤلي وتلاميذه في تأسيس أصول هذا العلم وقواعده، ووقفوا حياتهم لدراسة اللغة العربية في جوانبها كافة، وأن كلّ ما يردد على ألسنة علمائهم ودارسيهم عبر العقود والأزمنة مجرد أساطير ليس إلا، وهذه الآراء تأتي منسجمة تمام الانسجام مع توجه الفكر الغربي الاستشراقي نحو التعصب المسرف والتحيز الجائر والتعسف المطلق لكل ما يتصل بلغاتهم وفكرهم وثقافاتهم والثقافة اليونانية القديمة خاصة، برد كل العلوم إليها على حساب الأمم الأخرى ذات الحضارات القديمة على اختلاف اتجاهاتها الفكرية، والحضارة العربية الإسلامية خاصة.

وذهب المستشرقون في أصالة النحو العربي، نقدا وتشكيكا ووضعا، محاولين رده إلى تأثره بالفكر الأجنبي من الأمم الأخرى ذات الحضارات القديمة على نحو ما ذهب إليه المستشرق الألماني ت.ج دي بور de Boer قائلا: "وقد أثر منطق أرسطو في علوم اللسان"[1] ويؤكد نولدكه بقوله: "إن التأثير اليوناني الأرسطي في نشأة النحو العربي يجب أن لا ينكر"[2] وسار في هذا الفلك نفر من الدارسين العرب المحدثين أمثال الدكتور إبراهيم بيومي الذي صرح بأنّ النحو العربي "أثر فيه المنطق الأرسطي من جانبين: أحدهما موضوعي والآخر منهجي، فتأثر النحو العربي عن قرب أو عن بعد بما ورد على لسان أرسطو في كتبه المنطقية من قوعد نحوية"[3] وعلى العموم فإنّ المستشرقين يجحدون فضل علماء العرب على إبداعهم، ويؤكدون ذلك في مؤلفاتهم ففي نظرهم أنّ العلوم المسماة علوم العرب ليست من مبتكرات العرب الخالصة، فقد نشأ نموّها وتكامل في نواح من الإمبراطورية الإسلامية، حيث اختلط العرب فيها بغيرهم على حد تعبير الدكتور وليد عاطف الأنصاري.

ويفند محمد ابن سلام الجمحي 139-231هـ كلّ هذه الادعاءات والشبهات بقوله: "وكان لأهل البصرة قدْمة بالنحو وبلغات العرب والغريب عناية، وكان أوّل من أسّس العربية وفتح بابها

---

[1]- وليد عاطف الأنصاري، نظرية العامل في النحو العربي عرضا ونقدا، ط2. الأردن: 2014م، دار الكتاب الثقافي ص9.

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- نفسه، الصفحة نفسها، بتصرف.

وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤليُّ وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل"[1] فبهذه الشهادة الحقة ينصف ابن سلام الجمحي هذه الشخصية النحوية الفذة في تاريخ اللغة العربية ونحوها ويرد على كلّ الشبهات التي لحقت به، وهذه حقيقة ناصعة مشرقة لا تخفى إلا على من اعتاد أن يراها بعين الحقيقة.

ويعضد ما ذهب إليه ابن سلام الجمحي نفر من اللغويين العرب القدامى العارفين بعلوم العربية وأسرارها – من الثقات الذين جاءت أخبارهم صحيحة موثوقا بها، تاركين لنا مؤلفات قيمة تُعدّ مراجع أساسية للبحث في موضوعات اللغة بمختلف فنونها، مثل أبي الطيب اللغوي 290؟ – 351هـ في كتابه: مراتب النحويين، وابن نديم ت 385هـ بكتابه: الفهرست، وابن الأنباري 513- 577هـ، بمصنفه: نزهة الألباء في طبقات الأدباء حيث روى لنا هذا الأخير عدة روايات تذكر الأسباب التي دفعت بأبي الأسود الدؤلي إلى وضع اللبنة الأولى لعلم النحو نذكر منها: "روى عاصم قال: جاء أبو الأسود الدؤلي إلى زياد وهو أمير البصرة فقال: إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وفسدت ألسنتها، أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم؟ فقال له زياد: لا تفعل قال فجاء رجل إلى زياد فقال: أصلح الله الأمير توفي أبانا وترك بنون فقال له زياد: توفي أبانا وترك بنون؟ أدع لي أبا الأسود، فلما جاءه قال له ضع للناس ما كنت نهيتك عنه، ففعل"[2] وغيرها من الروايات العديدة المختلفة التي أكدت ريادة أبي الأسود الدؤلي وأسبقيته في هذا الفن من فنون العربية تاريخها، وعدته المؤسس الحقيقي الذي أرسى المنهجية النحوية العربية بلا منازع.

5- المستشرقون وصناعة المعاجم ووضعها

ومن القضايا التي كانت ولا تزال محط عناية من قبل المستشرقين عبر عصور كثيرة حيث أفردوا لها كتبا كثيرة تندّ عن الحصر، ألا وهي قضية التأثير الهندي على فن من فنون العربية، ألا وهو فن المعاجم العربية، ومن المستشرقين الذين فندوا هذه المقولة في حق المعاجم العربية وفي

---

[1]- محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دط. بيروت – لبنان: 2001، دار الكتب العلمية، ص29.

[2]- أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السامرائي ط3. الأردن: 1985م، مكتبة المنار، ص 21.

حق روادها المستشرق هايوود Haywood بقوله: "ومن العدل أن نقول إن فترة النشاط المعجمي الكبير في الهند كانت في القرن الثاني عشر، وهو وقت كان العرب فيه قد أنتجوا بعضا من المعاجم العظيمة، والنظام المثالي لم يوجد مطلقا في معاجم الهنود، ربما بسبب الصياغة الشعرية أو ربما لأن المعاجم كانت تهدف عندهم إلى تيسير حفظها عن ظهر قلب"[1] ويتساءل هايوود قائلا: "هل الأعمال المعجمية عند الهنود تسمى معاجم؟ فهذه النقطة عند هايوود لا تزال محل مناقشة وجدال يستدعيان المعالجة المتأنية، والتحليل الموضوعي العميق المتبصر.

ويضيف هايوود قائلا: "الحقيقة أن العرب في مجال المعاجم يحتلون مكان المركز سواء في الزمان أو المكان بالنسبة للعالم القديم والحديث، وبالنسبة للشرق والغرب"[2] ونلحظ ممّا سبق أن ما قاله هايوود يعد بمثابة شهادة منصفة حقة ردت الحق لأهله، وأقرت بأسبقية العرب مكانا وزمانا وريادتهم في فن المعاجم ليس بالنسبة للأمّة الهندية وحسب ؛ بل بالنسبة للأمم الأخرى جمعاء.

ويعضد هذه الآراء المستشرق ويبر Weber ويؤكدها بتصريحه: "إن المعاجم السنسكريتية بالمعنى العلمي لم تظهر إلا في وقت متأخر"[3]، ومعنى هذا أنّ المعاجم الهندية العلمية أو المتخصصة ظهرت في عصور متأخرة، في حين يعود ظهور أوّل معجم عربي إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي في القرن الأول الهجري، في حدود 100هـ؛ أي ما يوافق القرن الثامن الميلادي بالضبط 718م، وهذا الفارق الزمني دليل قاطع حسب ويبر على أسبقية العرب إلى هذا الفن من الفنون اللغوية دون منازع.

ومن المناهج الحديثة التي حاول المستشرقون تطبيقها على التراث اللغوي العربي، ولجأوا إليها المنهج الإسقاطي، وذلك "بإسقاط الواقع المعاصر على الواقع التاريخي القديم "فتفسر اعتمادا على خبرة المستشرق ومشاعره الخاصة، وما يعرفه من واقع حياته ومجتمعه، وهكذا لا يرى الباحث إلا صورته الذهنية دون غيرها من الصور الفكرية التي ربما تخالف ما يذهب إليه، وهنا يحاول

---

[1]- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب: مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، ط6. القاهر: 1988م، عالم الكتب ص343.

[2]- المرجع نفسه، ص 344.

[3]- نفسه، ص 343.

جاهدا إخضاع جميع الصور إلى ما ارتضاه لنفسه ولو جانب الموضوعية"[1] فانطلاق المستشرقين من هذا المنهج وهم متأثرون بمزاجهم وثقافاتهم ومعتقداتهم وبيئتهم التي نشأوا فيها، وكتحصيل حاصل أكيد؛ فإنهم سيصلون بالضرورة في دراساتهم إلى نتائج غير سليمة، ولا تمت للتحليل العلمي بصلة، لأن الإنسان نتاج بيئته ومجتمعه لا محالة "كون عملية تشكيل السلوك الاجتماعي للفرد عملية ادخال ثقافة المجتمع في بناء الشخصية وتطبيع المادة الخام للطبيعة البشرية في النمط الاجتماعي والثقافي، وبمعنى آخر هي عملية تشكيل الاجتماعي الخاص بالشخصية"[2] وهذا ما تشير إليه معظم الدراسات الحديثة وتؤكده.

وإذا ما انتقلنا إلى منهج الشك والافتراض أو الشك المنهجي عند المستشرقين ، فإنّنا نراه يتمثل عندهم بالتحديد في التركيز على عنصر الشك في كل ما هو قديم أصيل منبعث من الحضارة الشرقية، ولا سيما المعارف المؤكدة كنظريات مسبقة عند هذه الحضارة على العديد من مستوياتها، لنفي أصالتها الشرقية البحتة، وقد برعوا في هذا الجانب وبالغوا فيه كثيرا، وأجادوا فيه إجادة لا يستطيع أحد أن ينكرها في هذا المجال، وطبقوه كما ورثوه عن ديكارت René Descartes 1596-1650م، وعن أبي الفلسفة الحديثة، وإمام عصر العقل كما لقبه معظم الباحثين المحدثين والمعاصرين العارفين بتاريخ أوروبا وبأوضاعها قبل ديكارت، حيث جاء هذا ديكارت بأفكار جديدة قلبت الفكر الأوروبي رأسا على عقب.

أحدث رينيه ديكارت بآرائه النيِّرة ثورة على المناهج والمعتقدات الفلسفية السائدة في تلك الحقبة الزمنية من تاريخ أوروبا، حيث توقف في هذه المرحلة بالتحديد، مرحلة ما قبل ديكارت كلّ جهد عقلي- كونه مهّد لظهور التيار العقلي الغربي، الذي كان بدوره نقطة انطلاق للمنهج التجريبي على يد المستشرق الهولندي باروخ سبينوزا Baruch Spinoza 1632-1677م، وغيره من علماء هذه الحقبة، وقضى بآرائه على الفكر اللاهوتي الغيبي الخرافي، وحلّ محله الفكر

---

[1]- ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي: الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ط1. ليبيا: 2001 دار الكتب الوطنية، ج1، ص 170، بتصرّف.

[2]- منير محمد جواد الصميدعي "أثر البيئة في التنشئة الاجتماعية للطفل" مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية الكوفة: 2017، ع 20، ص 391.

المادي الطبيعي العقلي في تفسيره للظواهر الطبيعية وسنّ قوانينها، وكان التنوير نتاجه، وامتدّ تأثيره إلى الفكر الغربي كلّه، وإلى كافة الشعوب المتأثرة بالثقافة الأوروبية فيما بعد، حيث شكك أتباعه الذين تبنوا الفكر التشكيكي في كل شيء، في كل الوقائع التاريخية المتعلقة بالشعر الجاهلي وحاولوا نفيها دون تقديم أي دليل أو برهان على ما افترضوه، أو ما ذهبوا إليه، يقول المستشرق الإنجليزي وليام مونتغمري واط Montgomery Watt 1909-2006م، في هذا الصدد: "إن الباحثين الغربيين قد شككوا في كل المراجع القديمة"[1] وتبعهم في ذلك نفر من مفكري العرب المحدثين رؤية ومنهجا واعتقادا، حيث "أصبح المكيال بروافده المنهجية محددا لموقع التراث ودرجة الأهمية في العصر الحاضر"[2] وهو تأثير سلبي أودى بمطامح أصحاب المثاقفة الإيجابية حسب نظرهم إلى ضرب من الاستعراب المقلوب حسب الدارس حسن حنفي، لأنّ المفكر العربي عوض أن يرى صورة الآخر في ذهنه رأى صورته في ذهن الآخر، وبدل أن يرى الآخر في مرآة الأنا رأى الأنا في مرآة الآخر، ولما كان الآخر متعدد المرايا ظهر الأنا متعدد الأوجه على حد قول الباحث الدارس عبد الله إبراهيم.

ومن أشهر رواد هذا الاتجاه وأبرزهم – الطائفة المقلدة للفكر الغربي بامتياز الذين مثلوا هذا التيار حق التمثيل في الوطن العربي، وفي المشرق العربي خاصة، يبرز كل من؛ الأديب اللبناني جورجي زيدان 1861-1914م، والمفكر المصري لويس عوض 1915-1990م، واليسوعي اللبناني الأب لويس شيخو 1859-1927م، وطه حسين 1889-1973م، الذي يلقبه الباحث العراقي عبد الله إبراهيم "بممثل حركة التنوير في الثقافة العربية"[3] وصاحب مشروع تنويري من خلال إجرائه لمقايسة بينه من جهة، وبين مفكري عصر التنوير من جهة أخرى، فاعتبر مشروعه الفكري الذي أدخله إلى العالم العربي قمة عصر التنوير في عالمنا العربي المعاصر بامتياز أو ثورة ذات صبغة أو طبيعة تنويرية.

---

[1]- ثائر الحلاق، مناهج المستشرقين، ص297.

[2]- أحمد رحيم كريم الخفاجي، التراث النقدي العربي والتقويل الحداثي المعاصر، العراق: 2009م، جامعة بابل، ص 13.

[3]- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ط1. المغرب: 2010م، دار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان للرباط، ص 16.

تشرب الباحث عبد الله إبراهيم صبغة طه حسين التنويرية من خلال قراءته لمؤلفاته قراءة في ضوء المقولات التي شاعت في العالم الغربي في أواخر القرن السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثامن عشر الميلادي إبان عصر التنوير Siècle des Lumières في بداية النهضة الأوروبية. مع الإشارة إلى أن مصطلح التنوير مصطلح أوروبي محض النشأة والمضمون بإيحاءاته ودلالاته الكثيرة.

وامتدّت رياح التنوير إلى الأدب واللّغة وغيرهما من الفنون الإنسانية في أوروبا، ومنها إلى مختلف أرجاء المعمورة؛ الغربية منها والشرقية، وصُدِرَتْ أعمال أدبية نقدية ترجمت أمهات الكتب القديمة، وأدت إلى صدور عدد من المجلات اللغوية والعلمية والفلسفية وهلم جرا، حيث أسهم هذا النشاط العالمي الثقافي الفكري في بروز تيارات فكرية كاسحة، ومذاهب سياسية عديدة، ونظريات علمية واجتماعية وفلسفية وتاريخية ونقدية شتى، وغيرها من إنتاج عصر التنوير الذي وثّق وطبع تاريخ الفكر الحديث في أوروبا، وفي العالم أجمع، ومن منطلق الحرص يجب "التعامل مع حقائقه بموضوعية شديدة"[1] لأنّه لا يزال يؤدي إلى حالات من المواجهة الفكرية التي تقتضي أن توضّح فيها المسائل، وتقوّم المناهج، وتصحّح المفاهيم على حد قول بعض الدارسين المحدثين؛ ألا وهو الباحث عبد العزيز بن عثمان التوجيري في مقاله المنشور في: مجلة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة –إيسيسكو– المسمّى مفهوم التنوير في التصور الإسلامي، وغيرها من إنتاجاته الفكرية الحديثة.

وقف طه حسين موقف الشك والرجحان على غرار بعض المستشرقين في أصالة الأدب العربي الجاهلي ورواده، وصحة الأنساب الواردة في جل المصادر القديمة المتعلقة به مؤكدا ذلك في كتابه: في الشعر الجاهلي "أريد أن لا نقبل شيئا مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبيت إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان"[2] مدعيا أن الله سبحانه وتعالى وهبه

---

[1]– عبد العزيز بن عثمان التوجيري، العالم الإسلامي في عصر العولمة، ط1. المملكة العربية السعودية: 2004، دار الشروق، ص 9، بتصرّف.

[2]– طه حسين، في الشعر الجاهلي، دط. تونس: 1997م، دار المعارف للطباعة والنشر سوسة تونس، ص 14.

عقلا يجد "من الشك لذة وفي القلق والاضطراب رضا"[1] ثم يضيف قائلا: "شككت في قيمة الشعر الجاهلي وألححت في الشك فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينا فهو قريب من اليقين. ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، إنّما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام"[2] ليس لأمر إلا متخذا بحجة التشكيك في قيمة الحفظ وقوته، وفي الرواية الشفوية وإمكاناتها، وذهب في ذلك مذهب المستشرقين في ادعاءاتهم المغرضة الباطلة، بتشكيكهم في هذا المصدر الموثوق والمؤكد بشهادة جل علماء العربية القدامى بالعربية وأسرارها، وفي نظر أشهر المحققين المحدثين منهم والمعاصرين.

يأتي على رأس المشككين الغربيين في أصالة التراث اللغوي العربي بشكل عام المستشرق الإنجليزي، والذي يعد أكبر ممثل لهذا الاتجاه، رينولد ألين نيكلسون Nicholson Reynold Alleyne 1868-1945م، والمستشرق اليهودي صمويل ديفيد مرجوليوث 1858-1940م دون أن ننسى شيخ المستشرقين الألمان المبرز ثيودور نولدكه الذي وقف على رأس هذا الاتجاه التشكيكي في أصالة الأدب العربي الجاهلي خاصة أنّه يُعدُّ ديوان العرب، وعنوان تاريخها إلى حد القول المعروف: إنّ الشعر مرآه المجتمع يعكس ما فيه بكلّ صدق وواقعية، وهذا باتفاق أئمتها وبإجماع مؤرخيها ودارسيها القدامى منهم والمحدثين، وكذا المعاصرين، فماذا عسى يبقى لهذه الأمة إذا شك وطمس ماضيها؟ في ظلال هذا الادعاء "في العهد الذري الذي يسيطر عليه الفكر الصناعي العلمي سيطرة شديدة"[3] لا لحبنا للاستكشاف والتجريب والعلم والتكنولوجيا، ولكل ما جديد مستحدث عصري؛ بل رغبة منا في التقليد ليس إلا.

وعلى الرغم من أنّ هناك جملة من الباحثين المحدثين غربيين كانوا أو شرقيين من اعتبر المنهج الشكي خارج مجال الدراسات الإنسانية عموما، وفي مجال الدراسات اللغوية خصوصا، ولا يمكن الأخذ به مطلقا في هذا الميدان، لأنه منهج يصلح أكثر في الأمور العلمية البحتة، ولا يتحقق إلا بالملاحظة والتجربة.

1- طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص15.

2- نفسه، ص 19.

3- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي مشكلات الحضارة، تر: عبد الصابور شاهين، ط1. سوريا: 2002م، دار الفكر بدمشق، ص12.

ويُعدّ المنهج الشكي Methodic doubt من أهم المناهج والقضايا التي انشغل بها الفكر الاستشراقي منذ عهد قديم، ولا يزال موضوع التشكيك غير المنهجي في كل ما هو تراثي قديم مستمرا إلى عصرنا الحالي، ويظهر ذلك بشكل واضح في مختلف الدراسات الإنسانية ومجالات المعرفة اللغوية والأدبية والفكرية ، نظرا لأهمية التراث العربي الإسلامي بكل محتوياته في تكوين الفكر العربي ووجوده، لأنّه يمثل كلّ ما وصلنا من الماضي في الحضارة المعاصرة السائدة في الوقت الحالي، والشك فيه يعني محاولة طمس للهوية العربية الإسلامية حتما، وهدم لكيان أمّة كانت قائمة منذ عهد بعيد، وانحلال لحضارة كانت بالأمس مركز إشعاع العالمين دون استثناء.

وإذا أتينا إلى المنهج الانتقائي، وجدناه منهجا يتم من خلاله على "اعتماد رأي أو فكرة أياً كان مصدرها ولو كانت شاذة وضعيفة، بشرط أن تخدم وجهة نظر المستشرق ومبدأه الذي يسعى لتقريره"[1] وفي هذا الصدد يقول المستشرق الفرنسي المعاصر مكسم رودنسون Maxime Rodinson 1915-2004م: "ينتقدون ما يرونه بعناية، ويتجاهلون كل ما لا ينسجم مع الصورة التي كوّنوها"[2] ولعل أبرز ما وصلت إليه الانتقائية في الفكر الغربي الذي حاول المستشرقون تطبيقه على الفكر اللغوي العربي، هو الأخذ بالشاذ الضعيف والقياس عليه، والحكم عليه بالموجب، وتقديمه في الثوب المعروف المشهور، بما يخدم أغراضهم في إثارة الشكوك حول أصالة التراث اللغوي العربي بكلّ مكوناته، وفي هذه الحالة يصبح المنهج نوعا من التضليل والخداع والانطباعات الساذجة، وكلّ هذا ينكب على وظيفة وجوهر المنهج النقدي مهما كان نوعه، وبعبارة أخرى يصبح المنهج فاقدا للوظيفة المنوطة به، لأنه لم تتوفر فيه الثوابت الأساسية التي تقتضيها الممارسة النقدية الهادفة البناءة.

ويضيف الباحث ثائر الحلاق أن أخطر ما في هذا المنهج التركيز، على غرار المناهج الأخرى، على السلبيات وإسقاط الإيجابيات، فقد انصرفت الدراسات الاستشراقية انصرافا تاما عن نهضة الشعوب الشرقية في العصر الحاضر، وركزت جهودها على تاريخها القديم فقط، وذلك

1- ثائر الحلاق، مناهج المستشرقين في دراسة الإسلام، ص 290.

2- المرجع نفسه، ص191.

بتمحيصه ونقده واستكناه سلبياته حسب اعتقادهم ليس إلا، كما أشار إلى المناهج النقدية كالمنهج العكسي والعلمي والمادي والشمولي والتعميمي والتفكيكي، والبناء والهدم، والمطابقة والمقابلة وغيرها من الاصطلاحات العديدة المختلفة.

بل يكاد محمد خليفة حسن أحمد يجزم على غرار كثير من الدارسين العرب المحدثين منهم والمعاصرين على أن الثقافة العربية لم تعرف منهجا، اكتسب الشرعية المنهجية الحقة، إلا تأثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بالموجّهات والإجراءات التي اتصفت بها الثقافة الغربية في حقل البحث اللغوي والأدبي ونقده، "بل والأخطر من هذا كله خضوع علوم الدين الإسلامي للمناهج الاستشراقية في الدراسة والتحليل"[1] ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل تعداه إلى التطبيق الآلي لكثير من الرؤى والطرائق والنظريات التي أنتجتها الثقافة الغربية في ظرف معرفي وتاريخي مغاير وقد نجح الفكر الغربي: "في تكوين قاعدة علمية وثقافية له من أبناء المسلمين الذين يقومون بترويج آراء المستشرقين ونظرياتهم وأفكارهم في بلادهم الإسلامية"[2] ممّا جعل أمر تطبيقها حسب ما ذهبوا إليه رأيا لا معنى له، إلا في كونها ممارسة تفتقر في كثير من الأحيان إلى الوعي العميق بأهمية وضع أسس متينة لهذا الضرب من النشاط الفكري المعرفي الحديث.

ويكشف لنا هذا الإقرار عن عدّة أمور منها:

أولا- اتجاه معظم المستشرقين المعاصرين صوب المناهج الغربية بحثا عن أدوات التحليل والتفسير للتراث اللغوي العربي القديم؛ حتى عندما حاولوا إعادة قراءته قراءة جديدة في ضوء الدراسات الغربية، فإنهم لم يفلحوا، اللهم إلا في إبراز إمكاناتهم وقوتهم في تطبيق تلك المناهج على مختلف جوانبها، مستندين في ذلك على مقاييس مقتبسة من ثقافتهم وفكرهم الذي يتنافى تماما مع مقاييس الفكر الشرقي.

---

[1]- محمد خليفة حسن أحمد، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، ط1. القاهرة: 1997، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ص 92، بتصرف.

[2]- المرجع نفسه، ص 88، بتصرّف.

ثانيا– محاولة بعض المستشرقين تطبيق هذه المناهج تطبيقا غير كفء على نصوص التراث الشرقي عموما، سواء على مستوى المفاهيم الأساسية، أو على مستوى الإجراءات المنهجية بما تمليه عليهم تلك المناهج من تحليلات وتفسيرات ورؤى منبثقة من الثقافة الغربية المحضة، وقد انعكس ذلك سلبا على الدراسات العربية الحديثة والمعاصرة عامة، من تبعات فكرية وإيديولوجية بات الواقع اللغوي يفرضها علينا فرضا، حيث تركت أثرا بالغا في المنهج اللغوي والأدبي والنقدي في العالم العربي برمته وفي مشرقه خاصة، باعتبار الأمر أصداء لتيارات فكرية غربية بحتة ثمَّ لمّا كانت وراء هذه التيارات من ايديولوجيات أوروبية بمختلف اتجاهاتها، سعت هذه الأيديولوجيات إلى التخلص من كل القيود المرجعية والتاريخية التي من شأنها أن تحفظ للتراث اللغوي القديم هويته العربية الإسلامية.

وواضح من خلال ما تعرضنا إليه ما يرمي له منهج هؤلاء المستشرقين من تمرد على قواعد الفكر العربي القديم وقضم لأسسه وتعسف لحقيقة نشأته، حيث ترجمت مؤلفاتهم مختلف توجهاتهم في الفكر الغربي الحديث، وتجلت تلك التوجهات عبر مختلف المناهج التي طبقوها على التراث العربي القديم والنتائج التي توصلوا إليها من خلال تطبيقاتهم، التي أدخلت الفكر الغربي والشرقي في حالة أزمة عميقة وسعت الفجوة بين الطرفين أكثر فأكثر، وعبرت بصدق عن حقيقة الصراع القائم بين الحضارتين، وعلى العموم فإن هذا الجيل من المستشرقين استطاع أن يترك بصمته في الساحة الفكرية الإنسانية بصفة عامة، وبسط نفوذه وهيمنته على الساحة الفكرية العربية بصفة خاصة، وأن ينشط الساحة الفكرية لعقود طويلة من الزمن، رغم الانتقادات الكثيرة والعديدة التي تعرضوا لها.

خلاصة الفصل:

تلكم هي أهم ما جاء به المستشرقون من أفكار استشراقية في مختلف مجالاتها المذكورة التي كانت وليدة الفكر الغربي بامتياز، الذي من خلاله استمدوا منظورهم وطرائقهم في التحليل لمختلف البنى الفكرية واللغوية والثقافية للعالم الشرقي، فهم بشكل أو بآخر حاولوا تجسيد الفكر الغربي بكل خلفياته ومرجعياته وايديولوجياته المتشعبة، حيث أسقط ا لفكر الغربي ومطامعه كلّ

الأعراف العلمية والمنهجية التي استند عليها المستشرقون في دراساتهم وتحاليلهم الظاهرية للتراث الشرقي كافة.

وبذلك احتل المستشرقون بمختلف توجهاتهم في المشهد الفكري الحديث مكانة متميزة حيث كانت موضوعاتهم غير محددة في مجال بعينه، فهم اهتموا بكل مجالات التراث الشرقي وحضاراته، وكانوا بمثابة أداة لقراءته وتحليله وتفسيره وفهرسته وتمحيصه ونقده نقدا سلبيا من أجل استكناه أسراره واكتشاف خباياه، لتحقيق مطامعهم وأغراضهم الكثيرة المتنوعة، وبلوغ أهدافهم الاستراتيجية التي سبقت بتخطيط محكم دقيق جدا.

وعلى حد زعم جملة من الباحثين المحدثين عربا وغيرَ عرب أنّ تاريخ الاستشراق يعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي القرن السابع الهجري حين اشتدت الحملة الصليبية على المسلمين وما قبل ذلك كانت بمثابة جهود فردية لا تذكر، قام بها بعض الرهبان والقساوسة بدافع عقائدي ابتغاء البحث في علوم المسلمين وحضارتهم.

مع الإشارة إلى أن هناك بعض المصادر التاريخية التي أرخت لهذه الظاهرة التاريخية أرجعت البدايات الأولى للاستشراق إلى عهد النبي ﷺ أي؛ في القرن الأوّل الهجري؛ أي ما يوافق القرن السادس الميلادي، في حين تذكر بعض المراجع أن بدايته الأولى وبصفة رسمية تعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي – بالضبط 1312م– عند إنشاء عدد من الكراسي للغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية في مختلف العواصم الأوروبية.

وأما البداية الرسمية لهذا النشاط الفكري الغربي عندنا فقد ظهرت دوافعه الأولية مع بزوغ فجر الإسلام، وبالذات عند الانطلاقة الأولى للمسلمين خارج الجزيرة العربية، والتقائهم مع النصارى الصلبيين في حدود مطلع السنة الثامنة للهجرة مع "سرية مؤتة" حيث بدأ العالم الغربي يبحث ويدرس هذا الدين الجديد ومواطن القوة فيه، ليحدد موقفه إزاء هذه العقيدة الجديدة في تاريخ البشرية عامة، فكان لهذا الاتصال الغربي بالشرق أثره العميق في بعث الحركة الفكرية في أوروبا وازداد أفق أوروبا العلمي اتساعا كبيرا مع الحروب الصليبية خلال القرنين الحادي عشر والقرن الثالث عشر، حتى وصلت الحركة الفكرية الأوروبية في أوج نشاطها وإنتاجها في نهاية القرن

الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، حيث تمكن العالم الغربي من بسط نفوذه وهيمنته الثقافية والاقتصادية خاصة على العالم الشرقي برمته.

ثم استمر هذا النشاط وتوسع أكثر فأكثر مع توسع المد الإسلامي، ممّا يوحي بالاستمرارية في هذا النشاط الفكري الغربي، لأنّ هذا الدين خالد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩] أما قضية الاختلاف فيه فتكمن في آلياته وطرقه ووسائله المتجددة المتطورة، لأنّ لكلّ عصر إمكانياته ووسائله وطرقه يفرضها عليه التقدم العصري والعلمي والتكنولوجي فرضا، في حين تبقى الدوافع والأغراض والأهداف ثابتة على مرور الأزمنة والأمّم، ومهما تعددت وتنوعت واختلفت فإنها لا تخرج عن غايتين حسب ما أكده التاريخ الاستشراقي الوظيفي الموثق:

*- فالغاية لأولى تكمن في وضع حاجز متين قوي أمام الفرد الغربي يمنعه من رؤية نور الإسلام، خوفا عليه من اتباع هذا الدين وحمل رايته.

*- والغاية الثانية تتمثل في معرفة الشرق حق المعرفة ودراسته للكشف عن كلّ الثروات التي يزخر بها والإمكانيات العظيمة التي يتمتع بها، من قدرات بشرية وثقافية ومادية بكلّ مكوناتها وكلّ ما يحتويه باطن الأرض والجغرافية للوصول إليها واستغلالها لصالحه قصد التحكم في شعوبه واستعبادها وتطويعها لخدمته ليس إلا.

ثم بدأ الاستشراق بصفة رسمية مع ظهور المؤسسات العلمية التي رعته وسخرت له كلّ الإمكانيات البشرية والمادية، وعملت على خدمته وتوسعه أكثر فأكثر، من معاهد وجامعات ومراكز رئيسية، حتى المجلات الثقافية والموسوعات العلمية منها دائرة المعارف الإسلامية، وغيرها من الهيئات الرسمية والعلمية التي جندت كل طاقاتها وقدراتها في سبيل خدمة هذه الظاهرة الفكرية والسهر على تحقيق جميع متطلباتها، حتى جعلت منها علما قائما بذاته يدرس في كبريات المؤسسات الرسمية العالمية.

ميزت ظاهرة الاستشراق مراحل عدة، تحكمت فيها الظروف المحيطة بها من كلّ جانب ومعطيات الواقع المَعِيش خلال كل فترة من فتراته، فقد انتقلت من موقع التأثر والتقليد إلى موقع الثورة الجذرية مرورا بالابتعاد عن أسلوب التأثر والتقليد شيئا فشيئا، حسب ما تؤكده الكتب التاريخية والنصوص الجغرافيا وكتب الأسفار وغيرها من الوثائق التي وثقت وطبعت تاريخ هذه الظاهرة الفكرية في تاريخ الفكر الغربي الحديث، انطلاقا من القرون الوسطى، مرورا بعصر التنوير وما نتج عنه، وانتهاءً بالعصر الحديث بنوعيه، وصل فيه فن الاستشراق إلى ذروته الحديث والجديد المؤسس على العولمة، المرتكز على الثقافة واللغة بالدرجة الأولى، باعتبارها مفتاح التراث الشرقي وحضاراته بجميع فنونها وأجناس علومها المتفرعة عنها: كالأدب والفلسفة والدراسات القرآنية والفقه وأصوله والحديث وعلوم اللسان من النحو والصرف وفقه اللغة وعلم الدلالة وعلم المعاجم والبلاغة والعلوم أخرى، كالتاريخ والجغرافيا وعلم الرحلات وغيرها...

وما نخلص إليه أو ما ننتهي إليه، أن الاستشراق فكر غربي أيديولوجي كان بمثابة وعاء حامل لكل من ظاهرة الاستشراق والاستعمار، حيث كانت بوصلته التراث الشرقي بكل ما فيه من محتويات فكرية وثقافية عديدة، وأحقابه التاريخية خير دليل على ذلك كله، وما أفرزه من معضلات عصرية راهنة على العالم الشرقي لدليل قاطع على جذوره وتوجهاته وأهدافه وإفرازاته إلى حد القول المعروف: "النهاية تكشف النوايا".

ووَفَقَ على هذه الظاهرة الاستشراقية مفكرون غربيون أو أعلام الفكر الأوروبي الذين أدركوا بحسهم المرهف أن التراث الشرقي يشكل تحديا عظيما للفكر الغربي برمته، ويشمل هذا التحدي الجوانب العقيدية واللغوية والثقافية والحضارية، ممّا حملهم على محاربته بكل الطرق المتاحة لهم لا المسموحة لهم التي تنص عليها الأعراف الدولية لتسويد صورته، وما زالت هذه الطريقة الممنهجة بدقة قائمة إلى يومنا هذا لكن بآليات جديدة وصيغ علمية وبرؤى عصرية مستحدثة كفيلة بتحقيق مصالحهم الحيوية في العالم الشرقي برمته، والتي تتماشى مع متطلبات العصر الراهن لإخضاع شعوبه وإذلاله وارتهانه للثقافة الغربية العلمانية، وبهذه الخطوات المحكمة غاية الإحكام والدقة تحققت المعادلة الاستشراقية الحية بقوانينها الثابتة على مر العصور، ولا زالت تبحث في

الأوضاع الراهنة للعالم الشرقي وتدرسها، وذلك بإجراء دراسات مستقبلية، ورهاناتها حول العالم الشرقي بكامله في مختبرات خاصة- حيث يعتمد على الدراسات في اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية والعسكرية منها خاصة.

تبنى أعلام الفكر الاستشراقي مناهج البحث الحديثة في قراءة التراث الشرقي عموما والتراث اللغوي العربي خصوصا، ومن الطبيعي أن نجد رد الفعل الذي أبداه الدارسون العرب المحدثون إزاء تلك الدراسات الغربية كان متباينا مختلفا، بين رافض لها جملة وتفصيلا، وهو رفض شبه تام خصوصا بالأعمال التي تمس الجانب العقيدي مثل السيرة النبوية والقرآن الكريم ومصدر الوحي وغيرها من الموضوعات الحساسة وبين منقاد ومقلد لها دون أدنى تحفظ، أو رعاية لهويته وقوميته وعقيدته، وبين معتدل يدعي الوسطية في كل شيء، وكل فريق كوّن صورة لنفسه في سياق أيدولوجياته، ومفاهيمه، ومعتقداته، وثقافته الفكرية في حدود البيئة التي نشأ فيها.

ومهما يكن من أمر؛ فإنّ ما قدمه هؤلاء المستشرقون على اختلاف مشاربهم وتكوينهم الثقافي الغربي العميق والدقيق واتجاهاتهم وأيديولوجياتهم منذ بزوغ الفكر الاستشراقي الغربي بكونه علما قائما بذاته له رجالاته ومؤسساته الخاصة به، في حدود القرن الثامن عشر الميلادي ثم بدأ نشاطه يشتد ويتوسع حتى بلغ ذروته مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فكلّ ما قدم من ثنايا هذين الفرقين من أعمال جليلة، على قدر كبير من الأهمية في تاريخ الفكر الإنساني عامة، لا يمكن لأحد إنكارها إطلاقا، لأنّها صوّرت وعبرت بصدق عن مرحلتها الزمنية كما أسهمت في كتابة التاريخ العام للبشرية عامة.

الفصل الثالث

المستشرقون والموسوعات.

1- المستشرقون والموسوعات

تُعدّ الموسوعات العلمية ودوائر المعارف بمختلف أنواعها من أهمّ ما أنتجه المستشرقون حول الشرق وحضاراته خلال القرن العشرين، فظفر هذا الفن بنصيب وافر من جهود المستشرقين المهتمين بالتراث الشرقي وحضارته، فبدأت حركة التأليف في هذا الحقل يتسارع نسقها شيئا فشيئا محاولة الإلمام بكلّ ما قد نشر في الموضوع، ولا شّك أنّ هذه المؤلفات المطولة بأنواعها قد أسهمت إسهاما كبيرا في تعميق معرفتنا بالفكر الاستشراقي وأعلامه أكثر فأكثر في العصر الحديث، نظرا لأهمية هذه المؤلفات وأثرها البالغ في الفكر الشرقي المعاصر، وفي الفكر العربي الإسلامي خاصة، اقتضى منا البحث والوقوف على كلّ ما يتعلق بهذا الحقل من الدراسات الحديثة انطلاقا من وظيفتها والغاية من تأليفها، مرورا بالأهداف والغايات التي رسمتها المؤسسات القائمة عليها وانتهاء بانعكاساتها على الفكر الشرقي المعاصر عامة.

فقد مس هذا الحقل من الدراسات المطولة المسهبة، المعروفة باسم: الموسوعات ودوائر المعارف معظم جوانب التراث العربي الإسلامي خاصة، فخصص هذا الحقل قسما منه لتبيين مسائله الكبرى، وذلك بالاهتمام بأبرز موضوعاته، وخصص قسما آخر للتعريف بأعلامه والكشف عن مساهماتهم في بلورة أوجه النشاط الفكري عامة، وتأسيسا على ذلك كلّه؛ سنحاول التطرق في هذا الفصل- إن شاء الله- إلى مفاهيم هذه المصطلحات كلّها، وإلى تاريخ ظهورها، والموضوعات التي تطرقت إليها بالبحث والدرس والتحليل والتفسير، كما سنتعرض إلى تاريخ إدخال هذا الفن إلى حقل الدراسات العربية المعاصرة، باعتبارها ذات أصول غربية بحتة، وإلى رواد هذا الفن وجهودهم الكبيرة المبذولة في هذا الميدان، ومدى تأثيرها في حقل الدراسات الشرقية المعاصرة عامة.

كما نروم أيضا في هذا الفصل تبيان أهمية الموسوعات بأنواعها توثيقا وجمعا وطباعة من حيث المعرفة الإنسانية في مختلف مجالات الحياة وفنون المعرفة، من ثقافات وآداب وعادات وتقاليد وتاريخ وأساطير وغيرها من الفنون بكلّ ما يحتويه التراث الشرقي عامة، هذه الفنون التي أُسِست من قبل علماء أوروبيين كبار أو أئمة المستشرقين الذين يمثلون مشارب مختلفة، من قساوسة ورهبان ومنصرين وعسكريين وعلماء اللاهوت وغيرهم من ممثلي العقل الاستشراقي الغربي الذي خرج من رحم الكنيسة، وشبّ في أحضان السلطة السياسية والعسكرية، وترعرع في أحضانها

على اختلاف أنواعها، وهي عبارة عن مؤسسات علمية أكاديمية بحثية غربية بمختلف توجهاتها الفكرية والأيديولوجية، التي يقع مقرها في مختلف العواصم الأوروبية.

عرفت هذه المؤسسات الاستشراقية شهرة وصيتا لا نظير لهما بين المؤسسات العلمية الحديثة، ليس في العالم الغربي وحسب؛ بل على الصعيد العالمي، أسستها ثلة من كبار المستشرقين الأوروبيين، ومن أبرز هذه الموسوعات: دائرة المعارف الإسلامية Encyclopédie de L'Islam حيث تعنى هذه الموسوعة بكلّ ما يتعلق بالحضارة الإسلامية بمختلف جوانبها الدينية والأدبية والعلمية واللغوية والتاريخية وغيرها من مجالات المعرفة على مر القرون الماضية التي تُعدّ من أضخم الدوائر في المعرفة الإسلامية على الصعيد العالمي، فهي تعبر بحق في نظر جملة من الباحثين المحدثين منهم والمعاصرين عن المفهوم الغربي للحضارة الإسلامية، التي تمثل عصارة الجهد الاستشراقي في مختلف الموضوعات التي تتعلق بالإسلام والعرب معا على مر العصور.

ومن أبرز هذه المؤسسات العلمية البحثية للدراسات الشرقية في أوروبا المجلة الآسيوية بفرنسا Journal Asiatique، التي بدأت في إصدار العدد الأول سنة 1822؛ أي منذ تاريخ إنشائها، وهي مجلة تصدر عن: الجمعية الآسيوية الفرنسية، التي "أصدرت سلسلة من كراسات الجمعية الأسيوية Cahiers de la Société Asiatique"[1] منذ سنة 1933، وغيرها من الجمعيات العلمية الأوروبية التي اهتمت بالدراسات الشرقية مثل: الجمعية الشرقية الأمريكية والجمعية الشرقية الألمانية وجمعية البنغال الآسيوية الملكية وهلم جرا.

وما يلاحظ أيضا على صعيد عناوين هذه المؤسسات العلمية، أنّها تحمل أسماء القارات الأربع، نذكر منها: المجلة الإفريقية Revue Africaine، التي تدل دلالة واضحة على اهتمامات فرنسا بالمخطوطات الإفريقية الإسلامية المحلية، حيث تعدّ مصدرا من مصادر البحث في الجذور التاريخية والحضارية والفكرية والاجتماعية وغيرها من التخصصات والجوانب المعرفية العديدة للشعوب الأفريقية.

---

[1]– عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 188.

ومن أقدم هذه الجمعيات التي اهتمت بالدراسات الاستشراقية ونشرها الجمعية الشرقية الأمريكية Journal of American Oriental Society التي أنشئت سنة 1843، حيث تصدر هذه الجمعية مجلة بعنوان: مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية، في موضوعات علمية وتاريخية ولغوية وغيرها من التخصصات وجوانب المعرفة الإنسانية عامة.

تأسيسا على ما سبق؛ فإنّنا نستشف أنّ هذه المؤسسات الاستشراقية الغربية بمختلف تخصصاتها أعطت لنا نظرة دقيقة مفصلة عن الاهتمامات العميقة التي أولتها الدول الأوروبية لمختلف مجالات الحياة للشعوب الشرقية، حيث سلطت الضوء على مختلف جوانبها العديدة، سواء من الناحية الدينية أو الثقافية أو السياسية أو العسكرية أو العلمية والناحية الاجتماعية خاصة بالبحث والدراسة والحفر والتنقيب، ورأت أنّ هناك ضرورة قصوى ملحة لدراسة هذه الجوانب التي تشكل مجموعها عماد حضارة الشعوب الشرقية وقيامها، فعكفت على البحث فيها تنقيبا وحفرا وتدقيقا في مسائلها، لأجل الكشف عن مضامينها، والغوص في دقائقها، بهدف التعرف عليها أكثر لاكتشاف أسرارها، لتتمكن في آخر مخططاتها من إخضاعها لسلطتها والتحكم فيها، فالاستشراق أكد الرغبة الغربية الجامحة في تحويل هذه المعرفة المكونة عن الشرق عامة، للهيمنة عليه وعلى كلّ ممتلكاته أكثر فأكثر إلى حد القول المعروف السيطرة على مجال ما، يقتضي أوّلا السيطرة على الذهنيات، لأنّ الاستشراق – بوصفه علما وظيفيا ومنهجا تطبيقيا عمليا– هو اكتناه للمعرفة[1] والسلطة والطغيان الذي يمارسه الإنشاء بتعبير إدوارد سعيد، "وسوف تكون ثمة حاجة لابتكار أشكال جديدة ... لتضمن بقدر كبير التحكم"[2] بهذه الذهنيات لتعزيز السيطرة وتسويغها في إطار معطيات لغوية فكرية ثقافية تتأثر بالظروف المحيطة بها وتتجدد بمستجداتها، بل إنّنا نستطيع أن

[1]– سواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة خاصة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة، وهذا ما يزعمه الاستشراق في صورته الأكاديمية أو البحثية، وقد استثمرت فيه استثمارات مادية كبيرة، وقد أدى ذلك إلى تكوين شبكة مقبولة تسمح منافذها بتسريب سورة الشرق إلى وعي الغربيين. ينظر: إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، ط1. القاهرة– مصر: 2006، رؤية للنشر والتوزيع، ص44 بتصرّف.

[2]– إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، ط4، بيروت–لبنان: 2014، دار الآداب للنشر والتوزيع ص340.

نقول إنّ العلاقة بين المعرفة والقوة علاقة وطيدة كون "المعرفة تمنح القوة، ومزيد من القوة يتطلّب مزيدا من المعرفة، والمعرفة في نظر إدوارد سعيد تعني المسح الكامل لحضارة ما من أصولها الأوّلى إلى ذروتها"[1] لذلك انكب المستشرقون منذ عصور سحيقة على دراسة الشرق وعلومه ولغته وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وما إلى ذلك، وهذا ما رسخ الاعتقاد لديهم بأنّ الشرق موضوع أكاديمي وحقل استكشاف بكلّ ما يحمل في طياته من مضامين.

2- دائرة المعارف والموسوعات

جاء مفهوم دائرة المعارف في "معجم المعاني الجامع معجم عربي عربي" على أنّها مؤلَّف يتضمن كلّ ما توصلت إليه المعرفة عند نشره في فنّ أو علم معيّن، وترتّب مواده عادة ترتيبا منهجيا ألفبائيا وغيره من الطرق، فهذا المفهوم العام لدائرة المعارف بصفة عامة، أما العالم الإيراني "دخهدا" وهو عالم اللغة الفارسية الكبير ورائد من روادها، ومصنف أوسع وأكبر قاموس في اللغة الفارسية فقد قال "بشأن مفردة دائرة المعارف ما يلي: حاوي العلوم: كتاب يشمل على مجموع المعارف الإنسانية، والفنون والثقافات والعلوم، وخلاصة مبسطة للمعارف البشرية، المشتملة على مختلف المجالات العلمية، ويتم ترتيبها في الغالب طبقا للتسلسل الهجائي، من قبل دائرة المعارف البريطانية، التي طبعت للمرّة الأولى عام 1768، في ثلاثة مجلدات وطبعت للمرة العشرين سنة 1911، في 29 مجلدا، وبعد سنة 1922، ضمت إليها ثلاثة مجلدات الأولى ليصبح العدد الإجمالي لها 32 مجلدا، وقد تقتصر دائرة المعارف على علم بعينه كما هو الحال بالنسبة إلى دائرة المعارف الكاثوليكية، وما إلى ذلك"[2] أما مفهوم الموسوعة بصفة عامة فقد جاء في الموسوعة العربية العالمية Global Arabic Encyclopedia "أن كلمة موسوعة من الكلمات المحدثة في اللغة العربية، وهي مشتقة من الفعل وسع الذي يدل علة الشمول والكثرة، ويقال فلان موسوعي

---

[1]- فايز ترحيني "الاستشراق إدوارد سعيد" مجلة الانماء العربي للعلوم الإنسانية، بيروت: 1983، ع32، ص 153.

[2]- محمد علي رضائي إصفهاني "جولة في دائرة معارف ليدن القرآنية" مجلة الدراسات الاستشراقية، 2014، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية في العتبة العباسية المقدسة، ع1، ص 199، بتصرّف.

المعرفة: إذا كان واسع العلم متنوع الثقافة، ومن معنى الشمول والكثرة والتنوع جاءت كلمة موسوعة لتعني الكتاب الذي يسع معلومات في كل ميادين المعرفة"[1] وقد شاع استعمال هذا المفهوم بمنظور حديث في العالم الغربي في القرن الثامن عشر الميلادي، ومنه انتقل إلى سائر البلدان الغربية الأخرى، ومنها إلى مختلف أصقاع العالم.

ويذكر الدارس الباحث محمد علي رضائي إصفهاني في مقاله: جولة في دائرة معارف ليدن القرآنية أن من أدخل مصطلح دائرة المعارف Encyclopdia انسكلوبيديا إلى اللغة العربية وحقل الدراسات الإسلامية هو: بطرس البستاني النصراني اللبناني Boutros al-Boustani 1819-1883م، حوالي 1876، وبذلك يُعدُّ رائدا في هذا الميدان بتأليفه: دائرة المعارف العربية الحديثة والشاملة "التي تقع في 11 جزءا، والتي تعدُّ أول إسهام عربي في مجال تأليف الموسوعات، وهي موسوعة ضخمة جاءت في أكثر من 8800 صحيفة، وقد صدر عن دار المعرفة ببيروت عام 1900، وهي مرتبة حسب الترتيب الألفبائي، لكنّها غير كاملة فهي تقف عند حرف العين، وآخر مادة في جزئها الحادي عشر هي مادة عثمان باشا الغازي، وطبيعي أن تكون مخرجة على الطريقة القديمة"[2] حيث إنّها قليلة الرسومات والوسائل الإيضاحية حسب ما ورد في الموسوعة العربية العالمية، فعُبِدَّ الطريق لتأليف دوائر معارف عربية حديثة ثم جاءت من بعده أجيال سارت على منهجه وتوسعوا أكثر فأكثر في مجال التأليف الموسوعاتي الحديث في العالم العربي.

ونلحظ ممّا سبق؛ أن محمد علي رضائي إصفهاني استخدم مصطلح: دائرة المعارف مقابل مصطلح الموسوعات، الأنسكلوبيديا على غرار نفر من الباحثين المتخصصين، في حين هناك ثلة من الباحثين لم تتفق على جوهر هذين الاصطلاحين، حتى أنهم يكادون يتفقون في الألفاظ التي استخدموها في التفرقة بينها، وأقرّوا بوجود فرق شاسع بين المصطلحين في مختلف المعاجم العلمية واللغوية الحديثة، حتى ولو كانت الموسوعة الكتاب الأقرب شبها منها؛ أي من دائرة المعارف.

---

[1]- الموسوعة العربية العالمية، ط2. الرياض-المملكة العربية المتحدة: 1999، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ج 24، ص 430 بتصرّف.

[2]- المرجع نفسه، ص435، بتصرّف.

فالأنسكلوبيديا لفظة عن Eiyleus يونانية متعددة الاستخدامات والتعريفات، يختلف مفهوم استعمالها بين القديم والحديث، شأنها شأن المفردات اللغوية عامة، ففي الأصل اليوناني القديم معناها دائرة التعليم العام أو التعليم المتنوع، وهي في استعمالاتها الأولى القديمة أطلقت لمجموع الفنون والعلوم التعليمية السبعة، التي كانت تعد أس العلوم في ذلك العصر، أي عصر الحضارة اليونانية القديمة، وهي: النحو والصرف والبلاغة والحساب والهندسة والموسيقى والهيئة والمنطق في حين أطلق هذا المفهوم حديثا بما له من معنى اليوم على القاموس الشامل لمختلف ضروب الفنون والعلوم.

فإذا كانت الموسوعة هي القاموس الشامل أو العام، فمن باب تحصيل الحاصل، أنّ القاموس هو كذلك دائرة المعارف، في حين أنّ الموسوعة تختلف اختلافا كبيرا عن القاموس في عدة نقاط منها: منهج البحث وضبط المادة وتقديمها، فإذا كان القاموس يكتفي في التقديم التعريف اللغوي فقط وفي معظم الأحيان للكلمة؛ فإنّ دائرة المعارف تتعدى ذلك إلى التعريف الاصطلاحي وتقديم نبذة عن تاريخ الفكرة المعالجة وأنواعها وأقسامها وكلّ ما يتصل بها من بحوث ودراسات حتى ولو كان ذلك عبارة عن إشارات خفيفة، مرارا تتحدث المعلومة عن فكرة ما بشكل مكثف موسع ومبسط وفي الوقت نفسه موضحة بصور ورسومات متنوعة، ومدعمة في بعض الأحيان بخرائط وأشكال ومجسمات وغيرها من الوسائل الإيضاحية لتوضيح الفكرة.

والموسوعة: "تختلف عن المعجم القاموس اللغوي، إذ إنّه يكتفي غالبا بالكشف عن مدلول المادة الكلمة المعنية، أما الموسوعة على أنواعها فتقدم دراسة كاملة ولو موجزة عن موضوع المادة"[1] فهي تتسع للكون كلّه، وللزمان على امتداده، في حين أنّ القاموس مجاله محدد ضيق كلّ الضيق.

أمّا الفرق بين الموسوعة ودائرة المعارف فيكمن في منهجية التأليف المنهج الألفبائي، فإذا كان منهج الثانية قائما على الحروف الهجائية مبتدئا بحرف الألف ومنتهيا بحرف الياء على غرار القاموس والمعجم، فإن الأولى لا تلتزم بالنظام الهجائي؛ بل تقدم مادتها في شكل موضوعات

[1] – محمد نصار، الموسوعة العربية الميسرة، بيروت – لبنان: 2010م، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع صيدا ص7، بتصرف.

ومقالات تكون قصيرة ومبسطة، وللمؤلف حرية الاختيار في ترتيب موضوعاتها حسب مقتضيات بحثه، مع الإشارة إلى أنّ هناك موسوعات حديثة عربية مرتبة ترتيبا ألفبائيا؛ فكانت بذلك قاموسية ذات بنية هجائية كالموسوعة العربية الميسرة، التي تقع في مجلد واحد، بالإضافة إلى ملحق فيه معلومات عن الموسوعة وطريقة استخدامها وبعض المختصرات، وقد نشرت الطبعة الأوّلى منها سنة 1965، والطبعة الثانية 2001، والطبعة الثالثة 2009، محينة ومحدثة في كل طبعة حتى تتفق مع الواقع الجديد وتساير عصر المعلومات والاتصالات الحديثة، التي أشرف عليها الدارس والباحث محمد شغيف غربال، وشارك في تأليفها مجموعة من الدارسين والباحثين من مختلف التخصصات الحديثة، وهي عمل موسوعي ثقافي عربي شامل، قائم على النظام الهجائي ملحق في نهاياته بمجموعة من التقنيات التوضيحية الحديثة من صور ورسومات وخرائط وغيرها من الوسائل العصرية التوضيحية الدقيقة، إلا أنّها موسوعة "صغيرة الحجم في مجلد واحد وإنّ كانت في ألفي صفحة ونيف، والعهد بدوائر المعارف والموسوعات الأجنبية أن تكون في عدة أجزاء وفي حجم يفوق حجم هذه الموسوعة أضعافا مضاعفة"[1] وقد تمّ إخراجها في أوضح أسلوب وأشده اختصارا، وبذلك عدت هذه الموسوعة، رغم صغر حجمها أول موسوعة عربية حديثة بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى، في أحدث الأساليب والنظم في عمل الموسوعات العصرية منها:

2-1- دائرة المعارف القرن العشرين:

لمحمد فريد وجدي 1878-1954م التي تمَّ اصدارها سنة 1910 بمصر، طُبعت في عشرة أجزاء ضخمة، مرتبة ترتيبا ألفبائيا على هذا النحو: الجزء الأول: يبدأ من حرف الألف والجزء الثاني: يبدأ من حرف الباء إلى حرف الثاء، والجزء الثالث: من حرف الجيم إلى آخر حرف الخاء، والرابع من حرف الدال إلى حرف الزاي، والخامس: من حرف السين إلى آخر حرف الظاء والسادس: من حرف العين، والسابع: من حرف الغين إلى آخر حرف القاف، والثامن: من حرف الكاف إلى حرف الميم والتاسع: يبدأ بإتمام حرف الميم إلى حرف النون، والعاشر: يبدأ بإتمام حرف النون إلى آخر حرف الياء وكل جزء يَحْوي: 800 صحيفة، وقد بلغ عدد صحفها ثمانية آلاف – 8000- صحيفة.

---

[1]- محمد نصار، الموسوعة العربية الميسرة، ص6.

والجدير بالذكر، أنّ هذه الموسوعة خالية من الوسائل التوضيحية الحديثة من خرائط ورسومات وغيرها من الوسائل المتوفرة في القرن العشرين، مقارنة بعنوانها: القرن العشرين، بما فيه من التكنولوجية الحديثة وتقنياتها، ويكمن إبداع هذا المرجع المهم أنّه يحمل بين دفتيه خلاصة معلومات الثقافة البشرية كلها، وهي "قاموس عام مطول للغة العربية والعلوم النقلية والعقلية والكونية بجميع أصولها وفروعها، ففيه النحو والصرف والبلاغة والمسائل الدينية وتاريخ الفرق والمذاهب والتفسير والحديث والأصول والتاريخ العام والخاص وتراجم مشهوري الشرق والغرب والجغرافيا الطبيعية والسياسية والكيمياء والفلك والفلسفة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والروحية والطب والعلاج وقانون الصحة والفوائد المنزلية وخواص العقاقير والإحصاءات"[1] وسائر ما يطلبه الباحث في مختلف ضروب العلوم والفنون، مكيفة ومسايرة للحاجة العصرية؛ في الوقت نفسه كنا نود أن تتضمن هذه الموسوعة النصف الثاني من القرن العشرين، والربع الأخير منه خاصة، وهو الذي شهد تطورا كبيرا للعلوم في مختلف مجالاتها، ولو كانت كذلك لاستفاد الباحث العربي والإسلامي وغيرهما أيّما استفادة.

الموسوعة الإسلامية العربية Islamic Encyclopedia in Arabi للمفكر الإسلامي المصري أنور الجندي Anwar al Jindi 1917-2002م، التي تقع في ثلاثة عشر جزءا والجزء الأوّل سماه: الإسلام والعالم المعاصر: بحث تاريخي حضاري تناول فيه بصفة عامة الإسلام وقضية الأديان، والجزء الثاني: سقوط العلمانية تعرض فيه إلى مسألة العلمانية بين الفكرين الغربي والإسلامي، وتطرق فيه إلى المفهوم الغربي لمصطلح علمانية: "هو ترجمة للكلمة اللاتينية Secular: ومعناها في اللغات الأوروبية لا ديني، وقد صدق جان ريفرو حين قال: إن العلمانية كلمة لها رائحة البارود لما تثير من استجابات متضاربة متناقضة"[2] ولهذا السبب حاول مترجموها عن اللغات الغربية إخفاء حقيقتها حتى لا تصدم الحس العربي وتبقى في نطاق العلم فقط على حد قول صاحب الموسوعة أنور الجندي، الجزء الثالث: الإسلام والدّعوات الهدامة

[1]- محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ط3. بيروت – لبنان: 1981م، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ج1 ص 1.

[2]- أنور الجندي، الموسوعة العربية الإسلامية، ط2. بيروت – لبنان : 1980، دار الكتاب اللبناني، ج2، ص7.

وناقش فيه مصادر المذاهب الهدامة وأثرها على المجتمعات ككلّ، والجزء الرابع: العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، حيث ذكر فيه واقع بعض الدول الإسلامية ومقاومتها الغزوَ الغربي بمختلف أشكاله وأنواعه، والجزء الخامس: الإسلام وحركة التاريخ: رؤيا جديدة في فلسفة تاريخ الإسلام ذكر فيه الإسلام وتوسعاته عبر عدّة مراحل، انطلاقا من مرحلة الانصهار والبلورة، مرورا بمرحلة الغزو الخارجي، وانتهاءً بمرحلة الوحدة الإسلامية العثمانية واليقظة العربية الإسلامية، والجزء السادس: أخطاء المنهج الغربي الوافد، تناول فيه وجوه التباين والاختلاف بين مختلف المناهج الغربية محاولا تبيان أثر ذلك كلّه على مختلف قضايا الفكر الإسلامي وعلومه بشقيها العلمي والإنساني، والجزء السابع: خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، والجزء الثامن: التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام، والجزء التاسع: الثقافة العربية: الإسلامية أصولها وانتماءاتها، عالج فيه قضية المصطلحات الحديثة ومحاولة تصحيح مفاهيمها في ضوء الحقائق التي كشفت عنها في السنوات الأخيرة، حيث تُعدّ هذه المصطلحات مشكلة عصرية تحتاج بحق الوقوف عليها، للتعرف على أبعاد حملة الغزو والتغريب التي تشنها القوى الغربية من القضاء على الهوية العربية الإسلامية ومقوماتها الفكرية المستمدة من الدين الإسلامي الحنيف، وغيرها من الأجزاء المتبقية من هذه الموسوعة الثرية بمواضيعها العديدة المتنوعة الغنية برؤاها العصرية الراهنة، التي عالج فيها صاحب الموسوعة قضية اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم، وقضية الإسلام وتحدياته في مواجهة الفلسفات القديمة.

2-2- الموسوعة الفلسفية المختصرة

التي ترجمها فؤاد كامل، وجلال العشري، وعبد الرشيد الصادق محمودي، وراجعها وأشرف عليها زكي نجيب محمود، من تأليف جوناثان ري، وج.أو. أرمسون، وهي موسوعة موجزة متخصصة، موضوعها الرئيس: "البحث في الميادين الرئيسية للبحث الفلسفي، وذلك بمقالات تكتب عن المنطق والميتافيزيقا ونظرية المعرفة والأخلاق وعلم الجمال، تحاول أن تبين ما هي المشكلات

الفلسفية التي يعالجها الفلاسفة في نطاق هذه الميادين"[1] والاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة مثل: الواقعية والمثالية والعقلية والتجريبية وغيرها من التوجهات الفكرية.

3-2- الموسوعة العربية في الوثائق والمكتبات

لعبد التواب عبد السلام شرف الدين المنشورة سنة 1986، يدور فحواها حول علم المكتبات والمعلومات، والموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية للدكتورة فاطمة محجوب وهي موسوعة ضخمة تقع في واحد وعشرين -21- جزءا، تهدف من ورائها إلى تعريف الأمّة الإسلامية بتراثها الغني الثري المتنوع، الذي خلفه علماء أجلاء على مدى الدهر، ولها أيضا عدد من دوائر المعارف من بينها: دائرة معارف الناشئين، كانت تهدف "إلى تقديم قدر من المعلومات العامة في العلوم مثل الجغرافيا والتاريخ والرياضيات والفنون والهوايات وغير ذلك"[2] وموسوعة المعرفة وغيرها من الموسوعات الحديثة العديدة المختلفة والمبسطة المفهومة والمصورة على اختلاف أنواعها العامة منها والخاصة، ولهذه الثانية خاصيتان: خاصية قاموسية وخاصية موضوعية.

ولا يزال المؤلفون الموسوعيون والمعجميون المتخصصون في هذا المجال العلمي بصفة عامة يستدركون بين الفينة والأخرى كلّ ما قد فاتهم، ويضيفون كل ما هو حديث جديد في مجال العلم والفنون والتكنولوجيا والتقنيات الحديثة وفي مجال المعلومات والاتصال إلى تلكم الموسوعات والقواميس والدوائر المعرفية، لتحديثها في كلّ مرة وجعلها مساندة روح العصر وتتكيف معه ومتطلباته الحديثة المتسارعة سرعة العصر بتقنياته الحديثة.

3- مفهوم دائرة المعارف الإسلامية (Ei)

إنّ دائرة المعارف الإسلامية هي موسوعة قاموسية أكاديمية خاصة، مرتبة ترتيبا ألفبائيا تعنى بكل ما يخص الحضارة العربية الإسلامية بجميع جوانبها، من دين ولغات وآداب وثقافة وتاريخ وفكر وفلسفة، واقتصاد، وسياسة، وغيرها من الموضوعات التي تتعلق بالعرب والمسلمين

---

[1]- جوناثان ري، وج.أو. أرمسون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، تر: فؤاد كامل وآخرون، ط1. مصر: 2013م، المركز القومي للترجمة، ص7.

[2]- فاطمة محجوب، الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية، دط. القاهرة: دس، دار الغد العربي، ص13.

وأعلامهم وتاريخهم ودينهم وحضارتهم، فهي جامعة مختلفَ الموضوعات المتعلقة بالإسلام والمسلمين والمدونة في مراجع مختلفة متناثرة هنا وهناك، وتُعدُّ من أكبر المراكز الاستشراقية الغربية للدراسات الإسلامية في القرن العشرين، وقد تمّ إصدارها لأوّل مرة في مطلع هذا القرن وبالتحديد سنة 1913 من قبل دار بريل Bril الهولندية بإشراف المستشرق تيودور هوستمان Martinus Theodorus Houtsma (1851-1943م) وقد ظهرت هذه الموسوعة الشاملة والجامعة لمختلف جوانب التراث الإسلامي بأكثر من لغة منها: الإنجليزية والفرنسية، والألمانية في طبعاتها الأولى ثم ترجمت إلى اللغات العالمية الأخرى منها: اللغة الفارسية وغيرها من اللغات العالمية تحت مسمًّى: دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، وترجمت إلى اللغة العربية وصدرت أوّل نسخة لها ببعض الأجزاء منها في الستينات من القرن الماضي مع الإشارة إلى أنّ الطبعة الأولى منها جاءت بعنوان كامل حسب طبعتها الأولى: دائرة المعارف الإسلامية: ثقافية جغرافية انتروبولوجيا رجالية، في أربعة أجزاء ضخام، وكلّ جزء في ألف -1000- صحيفة أو تزيد، وهي بمثابة ذخيرة معرفية إسلامية ضخمة كاملة، وقد شارك في إنجاز هذا العمل الجبار ثلة من كبار المستشرقين المحررين والمؤلفين المتخصصين بالميدان من مختلف البلدان الغربية، بالتعاون والتآزر مع صفوة علماء الشرق والغرب، في إتمام هذا المشروع التأليفي الكبير، الذي اكتمل بفضل جهدهم المبذول حيث لم يكن هذا الإنجاز الضخم وليد صدفة؛ بل نتيجة جهود متكاتفة ومستمرة طيلة عقدين من الزمن أو أكثر حسب بعض المصادر التي أرخت تاريخ هذه الموسوعة الإسلامية الاستشراقية ذات المنظور الغربي البحت.

3- 1- ترجمتها إلى اللغة العربية

يرجع تاريخ المحاولة الأولى لترجمة: دائرة المعارف الإسلامية إلى الثلاثينات من القرن الماضي، ففي عام 1933: "اجتمعت كلمة نخبة من الباحثين الشباب وهم الأستاذ إبراهيم زكي خورشيد والأستاذ أحمد الشنتناوي والدكتور عبد الحميد يونس والأستاذ محمد ثابت الفندي، على الاضطلاع بهذا المشروع الضخم رغم المصاعب والعقبات الجمة التي صادفتهم، عاكفين على ترجمة مواد الموسوعة، وأنجزوا جزءا كبيرا منها، حتى وصلوا إلى بداية حرف العين ولكن لم يقدر

لهذه المحاولة الاستمرار"[1] في حين تمكن المترجمون العرب من ترجمة: موجز دائرة المعارف الإسلامية Shorte Encyclopedia of Islam، بعد قليل من تاريخ صدورها بفترة عند الغربيين وكانت بتحرير كلّ من أ. جي. بريل، دائرة المعارف الإسلامية، تحرير: م. ت. هوتسمان، ت . و . أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان الأجزاء الأولى من –أ– إلى – ع– إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، وترجمة كلّ من الأساتذة: أ.د. حسن حبشي، وأ.د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، وأ.د. محمد عناني، وهي تنقسم إلى قسمين: قسم يحتوي على الأجزاء الأولى من – أ– إلى –ع– وقسم آخر يحوي الأجزاء الباقية، ، تبدأ من –ع– إلى – ي– وكلا القسمين جُمع في جزء واحد ضخم، بلغت صحفه – 10518– صحيفة أو تزيد، طبعت ونشرت بمركز الشارقة للإبداع الفكري، برعاية سلطان بن محمد القاسمي، دون إغفال ذكر عدد طبعات الدائرة المترجمة إلى اللغة العربية وهما: طبعتان:

- **الطبعة الأولى:** اشتملت على خمسة عشر جزءا فيه المواد من حرف – الألف– حتى حرف – العين– وحسب.

- **الطبعة الثانية:** اشتملت على ستة عشر جزءا من حرف – الألف– حتى حرف – الخاء– أعادت طبعة الأجزاء الثمانية الأولى في الطبعة الأولى، المواد التي أعيد طبعها بالضبط في ع2 وهي المواد التي تبدأ من حرف – الألف– حتى حرف – الحاء– أعيدت في الطبعة الثانية وأضافت إضافات كثيرة حسب ما ذكره الباحث خالد بن عبد الله القاسم في مؤلفه الضخم، المؤلف من –1215– صحيفة، والمسمى: مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية المنشور في جزئين سنة 2010.

ويجب أن نشير إلى أنّ: موجز دائرة المعارف الإسلامية، عبارة عن ملخص لدائرة المعارف الإسلامية، ركز فيه هؤلاء المستشرقون على الموضوعات التي تعنى الحضارة العربية الإسلامية وأعلامها، وهذا ما ذهب إليه الباحث إبراهيم عوض في كتابه: دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، فقال في مقدمته: بعد صدورها بمدة "بدا لهم أن ينتحلوا من بين موادها التي تغطي

[1]– موجز دائرة المعارف الإسلامية، ط1. 1998، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ج1، ص (ز).

كلّ أوجه الحضارة الإسلامية الموادّ الخاصة بالدين وعلومه وأعلامه"[1] وطبعوها في مجلد واحد تحت عنوان Shorte Encyclopedia of Islam، وفي هذا الكتاب يجد القارئ العربي خلاصة الفكر الغربي الاستشراقي بمختلف أيدولوجياته عن الدين الإسلامي وتاريخه ورموزه وقادته وعظمائه وعلمائه من هذه الأمة العربية والإسلامية عامة، لأهداف وأغراض مختلفة شتى.

وفي عام 1969 أعادوا المحاولة من جديد وبدأوا بإخراج الطبعة الثانية من المواد المترجمة مضيفين إليها المواد المستحدثة في الطبعة الثانية من الموسوعة الأصلية التي صدرت عن دار بريل Brill السالفة الذكر، ولكن للأسف الشديد لم يقدر لهذه المحاولة الاكتمال فتوقفت بعد صدور ستة عشر جزءا، وقد انضم إلى ترجمة هذه الطبعة ثلة من علماء الأزهر وبعض الأساتذة من الجامعات المصرية ودار العلوم ، وتمت خلالها ترجمة مواد الموسوعة في طبعتها الثانية الموسعة من حرف – الألف– إلى بداية حرف – الخاء– حسب ما أورده الباحث سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب والمشرف العام على الدائرة في المقدمة التي أوردها في الموسوعة، مع كل من الباحث سلطان بن محمد القاسمي والعلامة الجليل محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر الشريف، ولم ينشر منها إلا 16 جزءا من حرف – الألف– إلى – الحاء– حيث لا زالت حتى يومنا هذا دائرة المعارف الإسلامية العمل الموسوعي الوحيد المكتمل عن الإسلام في العصر الحديث بشهادة القائمين على ترجمتها، حيث تعتبر: "ذخيرة حقيقية للمعارف الإسلامية إذ تحتوي على أكثر من تسعة آلاف مادة مرتبة ترتيبا ألفبائيا، تتراوح في الطول ما بين خمسين إلى خمسين ألف كلمة للمادة الواحدة حسب أهميتها في سياق الحضارة الإسلامية، وتمثل هذه المواد في مجموعها تغطية شاملة لكلّ جوانب الحضارة الإسلامية، بدءا من أصول الدين الحنيف ومرورا بالأدب الإسلامي وتراجم حياة الشخصيات الإسلامية الكبرى"[2] وانتهاءً بمعارف مختلفة تضم كلاً من العلوم والفنون والفلسفة والفلك واللاهوت والترجمة والسياسة والاقتصاد، وغيرها ممّا ابتكره أعلام العرب وغيرهم قبل ظهور الإسلام وبعده، كما كتبها أشهر مستشرقي القرن العشرين الذين أوفوها حقها، في ضوء ما أتيح لهم

---

[1]– إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل، ط1. مصر: 1998، مكتبة البلد الأمين ص5.

[2]– موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج1، ص (ي).

من إمكانات لغوية، بغض النظر عن نوعية هذه المادة التي تناولوها بالبحث والدراسة والوصف والتحليل.

ونشير إلى أنّ الترجمة التي قام بها المترجمون العرب وإن "لم يكملوها بعد، ولم تكن نقلا من لغة إلى لغة وحسب؛ وإنّما كانت ملاحظاتهم وملاحظات غيرهم من علماء العرب إضافة جديدة إلى دائرة المعارف الإسلامية، مما زاد في قيمتها ورفع من شأنها وصقل جوهرها"[1] ونالت نصيبا وافرا من الدرس والتحليل والنقد والتنقيح، ولعل السبب في ذلك أن هذه الموسوعة أكثر الموسوعات شيوعا ونشرا في شتى أقطار العالم الإسلامي؛ بل لعل شيوعها هذا رفع من قيمتها وأهميتها بين المؤلفات الموسوعتية الحديثة.

فضلا عما سبق؛ فإنّ هذه الترجمة التي قام بها هؤلاء المترجمون العرب أسهمت إسهاما فعالا في تنشيط الحركة الفكرية والثقافية العربية الحديثة، ومن هذا المنطلق نعتبر أن حركة التأليف الواسعة التي ظهرت حول هذه الموسوعة، كانت بمثابة حملة تصدٍ لمزاعم المستشرقين لدحض حججهم الواهية التي نشروها هنا وهناك من خلال كتابهم: دائرة المعارف، وكانت هذه الترجمة بمثابة خدمة علمية جليلة لا تنكر، قدمها هؤلاء المترجمون إلى لغتهم ودينهم وأمّتهم وعقيدتهم وقومتيهم وكان لهم أعظم الفضل في إحياء الوعي القومي العربي الإسلامي للرد على مزاعم بعض المستشرقين ومحاولة دحض آرائهم السامة، فكان ذلك حافزا قويا لتناول مادة الموسوعة بالبحث اللغوي بضروبه المختلفة، حيث مهدوا بذلك لدراساتها في الوسط العربي والإسلامي عامة قلما نجد مؤلفا مادحا أو قادحا لموضوعاتها من كتب العرب المحدثين وغيرهم سواء في الموضوعات المتعلقة بالإسلام أو تاريخه أو أعلامه وكذا المتعلقة بالأدب واللغة وغيرها من الموضوعات؛ إلا رجع إليها بكونها مصدرا أساسيا في استقاء معلوماته منها، وبدأ الانتعاش يدب في شرايين الحركة الفكرية اللغوية الحديثة، ونشأت معها حركة لغوية جديدة تمحورت أساسا حول

---

[1]– أحمد سمايلوفيش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دط. القاهرة: 1998م، دار الفكر العربي ص 569.

الرد على الشبهات التي نشرها بعض المستشرقين في إطار الجهود الاستشراقية العالمية، من خلال هذه الموسوعة في مختلف الأقطار العربية والإسلامية عامة.

3-2- موضوعاتها

تنبه المستشرقون إلى أن المعلومات التي جمعوها حول الحضارة العربية الإسلامية ومختلف أطوارها التاريخية متفرقة وموزعة ومتناثرة هنا وهناك في كتب ومقالات وبحوث كبيرة وفي أماكن مختلفة من العالم، فقرر بعض هؤلاء المستشرقين "أن يجمعوا معلوماتهم وأبحاثهم وأفكارهم في مؤلف واحد شامل يحيط بكل ما يتعلق بالإسلام والعرب والقرآن"[1] وكان من ضمنهم المستشرق الألماني بروكلمان والفرنسي لويس ماسنوس واليهودي المجري قولدزيهر Goldziher 1850-1921م، والانجليزي رينولد ألين نيكلسون 1868-1945م، Reynold Alleyne Nicholson وغيرهم، وقد بلغ عددهم خمسين مستشرقا أو يزيدون، بإشراف المستشرق الهولندي مارتين تيودور هوتسمان Martijn Theodoor Houtsman 1851-1943م، ثم تولى الإشراف من بعده المستشرق الهولندي أرند جان فِينْسينْك A.J.Wensink 1882-1939م.

وهكذا كللت الجهود الجبارة التي بذلتها صفوة من مستشرقي القرن العشرين: "بنتيجة ضخمة حيث بدأت تظهر دائرتهم الإسلامية تباعا من عام 1913 إلى عام 1934، وأصبح الكتاب في جملته من أهم الكتب التي تفيد الباحث وترشده إلى أهم ما قيل في الموضوع، وتدل على خير الكتب العربية والأفرنجية التي يصح أن يرجع الباحث إليها للاستزادة منها"[2] ونظرا لأهمية هذا الكتاب الجليل ومكانته في حقل الدراسات الاستشراقية، حيث عده أحمد سمايلوفتش خزانة عربية إسلامية شاملة تشهد لأصحابها بالاطلاع الواسع على كلّ ما يتعلق بالعرب والمسلمين اضطر الباحثون عامة من عرب وغير العرب إلى الرجوع إليها، لأنّها تحتوي على كل ما يحتاج الوقوف عليه ويتجلى أثر ذلك بوضوح في الأفكار التي تبنوها، وفي المؤلفات العديدة الحديثة والمعاصرة التي ألفوها.

1- أحمد سمايلوفيش، فلسفة الاستشراق، ص567.

2- المرجع نفسه، ص 567، بتصرّف.

وقد تضمنت الموسوعة في قائمة مداخلها عددا من الأعلام التي لها بعد ديني وتاريخي وسياسي، مثل أسماء بعض الأنبياء عليهم السلام، وبعض الصحابة، وأشهر علماء الدين واللغة والأدب، كأئمة المذاهب الفقهية والطوائف الدينية، وأعلام اللغة وروادها، وأشهر الشعراء والأدباء وأبرزهم عبر التاريخ، وخلفاء المسلمين وقادتهم، وغيرهم من الأعلام الخالدين في التاريخ الإسلامي الطويل.

أمّا المباحث والقضايا التي عالجتها بإسهاب؛ فنستطيع أنّ نلاحظ أنّها تعالج جميع الموضوعات التي تتعلق بالحضارة العربية الإسلامية عامة، ومن هنا: "فهي بحق تعدّ مجموعة ضخمة من المباحث تضم كنوزا من المعارف عن البلاد العربية الإسلامية وشعوبها، وأديانها ولغاتها، وأعلامها، وأحداثها التاريخية، وأحوالها الاجتماعية، وأمورها الاقتصادية، ومسائلها الفكرية والثقافية، والأدبية وغيرها"[1] وكانت طريقتهم في تبويب هذه المواد الكثيرة والمتنوعة التي تغطي كلّ جوانب الحضارة العربية الإسلامية تنم عن براعتهم في التصنيف وعبقرتيهم في التأليف، والدقة في المنهج، والجلد على البحث والتنقيب، على الرغم من ما يسودها من: "انحراف عن منهج البحث العلمي وعداوة بارزة للإسلام ورسوله وكتابه وعقائده وشرائعه، ورغبة حارقة في تلطيخ كلّ شيء فيه"[2] ويضيف الباحث إبراهيم عوض إلى شهادته؛ أنّه لم يجد أثناء اطلاعه على هذا المؤلف الاستشراقي الغربي المحض، أحدا من المستشرقين من بين كتاب هذه الموسوعة الضخمة تحدث عن ديننا ورسولنا وقرآننا بشيء من رحابة الصدر وسعة الأفق "بل دائما ما تقدّم أسوأ التفسيرات وتعزى الأعمال العظيمة إلى أحطّ البواعث، وتنثر بذور التشكيك في مصادر التاريخ الإسلامي اللهم إلا إذا كان فيها ما يمكن أن يوظّف للإساءة إلى الإسلام وتاريخه وأعلامه"[3] والشخصيات الإسلامية المشهورة في التاريخ العربي الإسلامي خاصة.

---

[1]– أحمد سمايلوفيش، فلسفة الاستشراق، ص567.

[2]– إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل، ط1. مصر: 1998م، مكتبة البلد الأمين درب الأتراك خلف الجامع الأزهر، ص 5.

[3]– المرجع نفسه، ص5، بتصرّف.

3- 3- منهجها

تضم دائرة المعارف الإسلامية عدة مداخل، وكل مدخل متخصص بمجال من المجالات الكبرى للفكر العربي الإسلامي وتاريخه وأهم أعلامه ورموزه الدينية بخاصة، مثل علوم القرآن الكريم والفقه وكل ما يتصل بأركان التشريع الإسلامي وفروعه، والحديث النبوي الشريف، والفرق الإسلامية على اختلاف اتجاهاتها، سواء الفرق المذهبية، أو المذاهب الكلامية، والتاريخ بمختلف ضروبه المتشعبة؛ انطلاقا من التاريخ السياسي والاجتماعي، مرورا بالتاريخ الاقتصادي وتاريخ العلوم الطبيعية والرياضية، وانتهاءً بالتاريخ الجغرافي والبشري لمختلف الدول الشرقية والدول الإسلامية خاصة، بالإضافة إلى مختلف الفنون المعروفة في الدول الإسلامية عبر تاريخها الطويل؛ من الفن المعماري، وفن الرسم إلى غير ذلك من الفنون، دون أن ننسى تطرقها إلى سيرة الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي من أعلام وقادة ومفكرين وغيرهم.

وعلى الرغم من تنوع هذه المادة المذكورة وغزارتها، إلا أنّ المستشرقين توصلوا أن يضعوا ببراعة منهجا ألفبائيا محكما دقيقا في تنظيم هذه المواد المتعددة المختلفة، إذ "عنى أصحابها بتوزيع كتابة مادتها على المتخصصين فيها الذين لهم خبرة طويلة في بحثها، وسبر أغوارها والنظر إليها"[1] فكلّ مستشرق كتب فيما تخصص به من علم وفن، حتى صارت كل مادة من مواد هذا الأثر الاستشراقي نموذجا من نماذج البحث والتحليل والتدقيق والتحقيق ينم عن مدى القدرة على استيعاب مادة الموضوع المعنية بالبحث وهضمها جيدا، حيث سمح هذا المنهج الهجائي المحكم والمرتب ترتيبا ألفبائيا حسب منطوق الكلمة بكاملها، لأنه الترتيب المعروف الشائع ربما يناسب ترتيب مواد هذا الأثر الموسوعي وشرحها شرحا يزيل غموضها، بتوضيح معانيها، مضيفا إلى ذلك كل ما يناسب الموضوع من معلومات تعين الباحث على معرفة كل ما يتعلق بمادة الموضوع في مختلف جوانبها.

ولا بّد أن نضيف إلى كلّ ما تقدم من أثر الاستشراق في دائرة المعارف الإسلامية مزية تنظيمها وترتيب موضوعاتها، حيث تُمكن الباحث من سهولة البحث عن أي مادة من مواد هذا الكتاب الضخم، لأنّها مرتبة وفق منهج معين في إخراجها، يعيدنا إلى أصل الألفبائية العربية، ييسر لأي باحث عملية البحث بأيسر

---

[1]- أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق، ص 568.

الطرق وأسهلها، حيث نجد فيها المعلومة تمس مختلف جوانب المادة المعروضة، سواء الجانب اللغوي أو الاصطلاحي أو الديني، وحتى الإطار التاريخي لها، حسب الروايات العديدة المختلفة التي ورد ذكرها فيها.

3- 4- إبداع دائرة المعارف الإسلامية

يتمثل إبداع هذا الكتاب الشامل والجامع لعدة مجالات معرفية متعلقة بالإسلام وفكره وثقافته وشعوبه في مدى التزام محرريها بضوابط اختيار مادتها، وفقا لموضوعاتها المحددة بدقة حيث أدت الدور المنوط بها؛ ألا وهو العمل على نشر الثقافة الإسلامية ذات الرؤية الاستشراقية والبعد الغربي، عبر مختلف أصقاع المعمورة، أنّها كانت تعوزها السهولة والوضوح في مداخلها المعرفية، ونقصد ههنا باستعمال مصطلح مدخل الدلالة على العبارات التي تكتب ببند أسود عريض أو شبه أسود أو توضع بين شولتين أو معقوفتين تمييزا لها عن لغة الشرح، وتأتي فيها المادة المتناولة مرتبة وفق منهج معين، بما يلحقها من معانٍ وتفسيرات موسعة في شرح موضوعاتها، وطريقة معالجتها لها شرحا وترتيبا وإخراجا، وتم هذا الأخير وفقا لعدد من المعايير المنهجية، بالإضافة إلى معيار الشيوع المنتهج منذ أول فكرة راودت أذهان المستشرقين، حيث كان هذا الأمر بمثابة مهمة اطلع عليها المستشرقون منذ أن أخذوا على عاتقهم تلك المهمة خاتمة تحقيق الأهداف النهائية للحملات والحروب الصليبية والصهيونية، انتقوها وخططوا بدقة لتكفل لهم تحقيق مجموعة من الأهداف المرجوة من هذا الكتاب الضخم، وهم عازمون على إبداع مصدر يحقق أكبر نجاح ممكن يجمع مختلف البحوث والدراسات الإسلامية بصفة عامة، بنية أن يجعلوا هذه الموسوعة في متناول طبقة واسعة من الباحثين والدارسين الكبار، أرباب التخصص عربا كانوا أو عجما، إذ يجدر بنا أن ندرج بعض الأمثلة منها، لإبراز الضوابط والخصائص الفنية والعلمية التي تتميز بها هذه الموسوعة، ويمكننا من خلال هذه الأمثلة توضيح ما ذهبنا إليه آنفا، مع الإشارة إلى أنّنا سنقتصر في أمثلتنا على الجوانب اللغوية، فمثلا عندما نبحث عن المصطلح النحوي إدغام[1] المأخوذ من مادة دغم نجده في مدخل الألف – أ– وفق هذا الجدول:

---

[1]– أرند جان فنسنك، دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى اللغة العربية: محمد ثابت أفندي وآخرون، ط1. مصر: 1934 مطبعة مصر – شركة مساهمة مصرية، ص 282.

المدخل الرئسي	المدخل الثانوي	المادة	الشرح	مصدر المادة
[أ] [أ]	الإدريسية– إدغام الإدريسية– إدغام	«إدِّغام» «إدِّغام»	بالتشديد عبارة البصريين و«إدغام» بالتخفيف عبارة الكوفيين، اصطلاح نحوي يدل على اتحاد وثيق في النطق بين حرفين متجانسين وقد يكون غير توحيد تام من الحرفين، ولكن الغالب أن يدمج الحرفان ويدخل أحدهما في الآخر حتى يكون في الرسم والنطق كحرف مشدد، هاك ملخص قواعد الإدغام مما حرره **الزمخشري:** 1) يكون الإدغام والحرفان المتجانسان متحركين. كما في الردّ وأصلها ردد، أو الحرف الأول ساكن والثاني متحرك. كما في ألم أقل لك. ولكن يمتنع إذا كان الحرف الأول ساكنا والثاني متحركا. كما في فررت وظللت. وكما يقع الإدغام في المتماثلين كالأمثلة السابقة يقع في الحرفين المتقاربين نطقا: ففي الحروف الحلقية تدغم الهاء في الحاء مثل: «أذبحّاذه» في النطق اذبح هذه والكاف في القاف مثل «لما رآ قال» في نطق لما رآك قال، والعين في الحاء مثل: أرفحّاتما في ارفع حاتما. ويحدث في مثل هذا الإدغام بين الحروف اللثوية والشفوية	**1)الزمخشري:** المفصل، ص 188– 197. **2) ابن يعيش**، طبعة **Jahn**، ص 1456– 1496 **(3) سيبويه**، طبعة درنبورج ، ج2، ص 452، س3 وما بعده (4) محمد علي: Dict. of Tech. Term A rbcic Grammar : Wright (5) a67, b66 d64,c16, d13. طبعة سبرنجر ج1 ص 501. وغير ذلك من المواضع. Volkssprache and Schriftsprache,

			وحروف الصفير مثل «زضحكا» في زد ضحكا وعمير وعنبر وغير هذا. وقد تدغم الحروف اللثوية في حروف الصفير مثل «أصابشربا» في أصبت شربا. والأصل أن يدغم الحرف الضعيف النطق في الحرف القوي وقد يشذ عن ذلك مثل «خلكلا» في خلق كلا. ولا تكون الالف اللينة موضع إدغام. وتدغم الهمزة في مثلها في صيغة فعال فقط مثل رآس وسآل. ولا تدغم الراء والشين والضاد والفاء والياء عادة في غيرها وإنما يدغم كل منها في مثله. 2) ويكثر الإدغام في صيغتي تفعل وتفاعل، فإذا كانت الفاء حرفا لثويا أدغمت في التاء فيقال في تطير «اطَيّر» مع زيادة همزة الوصل، وفي صيغة افتعل تقلب تا الافتعال طاءً بعد ط، ظ، ص، ض مثل اطلب وأصله «اطتلب» [لأنه افتعل من الطلب] مثل اضطرب بالقلب فقط أو اضرب بالقلب والإدغام والأصل «اضترب» [افتعل من الضرب] كما تقلب دلا مع الدال، والذال والزاي كما في ازدان وأصله «ازتان» [افتعل من زان] وقد تذكر هنا الأفعال التي تكون فاؤها أو عينها من حروف اللثة مثل اثار اثأر والأصل ائتأر	im(7) 36- 23, alten, Arabien, Sibawaihi,s ليدن Lautlehre: Schaade ص 23، 49- 53. [Robert Stevenso روبرت ستيفنسن]

			ويندر أن يقع الإدغام في مثل اقتتل فتدغم التاء أن وتحرك القاف تخلصا من التقاء الساكنين. ويستغني عن همزة الوصل فيقال «قتّل» وتدغم لام التعريف في الحرف الذي يليها إذا كان من الحروف الآتية وتسمى حينئذ شمسية[1]: ت، ث، د، ذ، ر، ز، س، ش ص، ض، ط، ظ، ل، ن، مثل الرسول؟	

والملاحظ على الدائرة Ei التي مضت عليها مدة مديدة من الزمن، وهي محل التداول والدراسة والنقاش من لدن العرب وغير العرب، بوصفها مرجعا استشراقيا طغى عليها الاهتمام بالمادة الموسوعية الإسلامية، كما هو الأمر بالنسبة إلى الموسوعات العالمية المعاصرة التي يطغى عليها معيار التوسع في المادة المقدمة، وهو معيار من معايير الموسوعة بصفة عامة ويتجلى ذلك في المادة الموسوعية الخاصة، سواءً الأعلام منها أو البلدان أو الجوانب الأخرى للعلوم الإسلامية بمختلف مجالاتها، وغيرها من الجوانب المعرفية الإسلامية التي تطرقت إليها حيث جاءت المعلومات فيها منتظمة في إطار مقالات ذات بنية هجائية.

كما نلاحظ أيضا أنّ مداخلها رتبت ترتيبا هجائيا، وأنّ كلّ مدخل من هذه المداخل يستوعب تقريبا كل الجوانب المعرفية والثقافية والتاريخية للمادة المعالجة استيعابا شاملا ومفصلا معتمدين في ذلك على المصادر المختلفة والمتنوعة لتوثيق المعلومة وتأكيدها.

بهذا كلّه؛ كانت هذه الموسوعة ولا زالت عمدة في بابها، حيت سجلت وأرخت لمرحلة حاسمة من مراحل التاريخ الاستشراقي، وحظيت بتخطيط واضح، سواء من ناحية المعلومات

---

[1]– إنّ اصطلاح الحروف الشمسية والحروف القمرية، اصطلاح متأخر، ربّما يرجع عهده أو تاريخ أقدميته إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ولا يستبعد أنّه من وضع بعض المتعلمين المبتدئين، الذين لا خبرة لهم بعلم العربية أو لأن إلمامهم به كان بسيطا، تسهيلا للمتعلمين من التلامذة في المرحلة الابتدائية، حتى يفرقوا بين الحروف المضعفة وغير المضعفة وهو مرفوض أكاديميا، لم يقل به أحد من علماء العربية سابقيهم ولاحقيهم وخالفيهم.

المقدمة أو من ناحية الإخراج لهذه الميزات وغيرها وقد أفادت هذه الدائرة كل الإفادة الباحثين في تاريخ المسلمين وحضارتهم وتراثهم، وأضحت عملا مرجعيا ضخما لا بّد من العودة إليه في كل بحث يتعلق بهذه الموضوعات الإسلامية.

زد على هذا؛ أنّ هذه الدائرة نالت تقديرا عظيما عند المثقفين عامة، وعدت حجة في المعرفة الإسلامية في مختلف جوانبها ومجالاتها، وأصبح هذا المؤلف الشامل Supreme Authority يضارع مجمعا لغويا أو أكاديمية لغوية، وبذلك أصبحت الخبرة الاستشراقية في الصناعة الموسوعتية ذات فائدة كبيرة بإعداد مختلف الدوائر المعرفية وظهورها في مختلف الأقطار العربية بصفة عامة ظلت فكرة إعدادها تتوسع أكثر فأكثر، باعتبارها هدفا من أهداف العمل الموسوعي الذي ينص على أنّ هدفه الأساس هو إحصاء مختلف المعارف الإنسانية وجمعها في مؤلف ضخم واحد لتسهيل البحث وتعميم الفائدة.

3- 5- قيمتها العلمية

دائرة المعارف الإسلامية ثريّة ذات قيمة كبيرة، فهي كنز من كنوز المعرفة الإنسانية وهويّتها عالمية، حيث كُتب لها الذيوع والانتشار العالميين، لما تحمله بين طياتها من تاريخ وثقافة وفكر وتراث يعكس حياة الشعوب الإسلامية خاصة في مختلف صورها وبواعثها عبر العصور التاريخية المختلفة، وتثبت الدراسات والبحوث العديدة التي أجريت حولها أنّ هذه الدائرة تحتوي على "أعظم ما أنتجته المعرفة الإنسانية والاطلاع على ثمار القريحة العربية قديما وحديثا في أعمال فكرية وإبداعية تمثل خلاصة الحضارة الإسلامية في شتى أوجهها: الدينية والعلمية والأدبية والفنية والفلسفية، تلك التي تشف عن ضمير هذه الأمّة ومخزونها الثقافي"[1] ممّا يجعل لها وزنا ثقيلا في ميزان العمل الثقافي الحضاري العالمي بصفة عامة؛ وللمستشرقين قصب السبق في هذا النوع من التأليف الخاص بالمعرفة الإسلامية البحتة، وذلك من خلال جمعهم مختلف البحوث والدراسات المتعلقة بالحضارة العربية الإسلامية وروادها على مدى العصور والأمصار، ثم توالت من بعدهم جهود وتنوعت، وسرعان ما أصبح هذا النوع من التأليف مستقلا بذاته، رسم حدوده

[1]- موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج33، ص 10247.

الخاصة به ووضع فواصله التي تفصله عن أقرب المؤلفات الشبيهة به، كما تكمن قيمتها الأساسية في إغناء الباحث عن مئات الكتب الحديثة والمراجع القديمة، وتهديه إلى مصادر الثقافة الإسلامية عامة حيث تشتمل على كل ما يحتاج إليه الباحث في مجال الثقافة العربية الإسلامية عامة وتغنيه عن المصادر الثانوية المنتشر هنا وهناك.

وتتلخص قيمة هذا المؤلَّف في نظر جل الباحثين بقولهم: إنّ هذا المؤلف العام والشامل للموضوعات الحضارة الإسلامية المختلفة يحمل بين طياته مختلف مظاهر الحياة عند المسلمين في مختلف العصور والأمصار، ويصورها بدقة في مختلف جوانبها المتعددة، ويمد الباحث بمعلومات موثقة في مختلف المصادر والمراجع العربية الإسلامية التي تزخر بها مختلف المكتبات في مختلف أنحاء المنطقة الشرقية، حتى الغربية منها موسعة جدا ليست في اختصاص معين؛ بل في الاختصاصات الأخرى بمختلف ضروبها، مع توثيق المعلومة في آخر كل موضوع معالج وذلك بالإشارة إلى المصادر التي أخذت منها المادة المتناولة، علاوة على ذلك فإنّ كل مدخل من مداخل هذه الدائرة الفذة تمنح الواقفين عليها فرصة الاطلاع على مختلف المجلدات في هذا المصدر الأصيل من هذا الجانب، فضلا على تحفير الباحثين في إنجاز أثر مشابه في مختلف المعارف الإنسانية، ليكون مرجعا للباحثين عن المعرفة بمختلف تخصصاتها تستفيد منه البشرية عامة والشرق خاصة.

3- 6- تطبيقات دائرة المعارف الإسلامية

لقد تمّ إيراد المداخل في دائرة المعارف الإسلامية، سواء المداخل الرئيسة أو المداخل الثانوية وفقا للنظام الموضوعات ذات الترتيب الألفبائي الصرف؛ أي ذات النظام الألفبائي المعروف عالميا حسب القواعد العلمية المرعية في هذا الترتيب، إلا أنّ هذه المداخل تحدثت أكثر عن المسائل المتعلقة بالمفاهيم الإسلامية، وبأسماء ذات دلالة دينية على حساب الشخصيات التاريخية العربية بصفة عامة، كالرموز الإسلامية من أنبياء الله عليهم السلام، ومن الخلفاء الراشدين والصحابة رضوان الله عليهم، ومن أعلام مذهبية وطائفية وفرق شيعية، ومن أعلام الأدب واللغة من مختلف العصور، ومن أسماء الكتب السماوية وأسماء الملائكة كإسرافيل، وغيرها

من الموضوعات الإسلامية العديدة والمتشعبة، مثل: آدم[1] وإدريس ونوح[2] وصالح وهود وإبراهيم وأيوب وذي الكفل ويحي وعيسى ومحمد وغيرهم من أنبياء الله صلوات الله عليهم، والأسماء الجغرافية: مثلا ذكر المواقع الحربية ذات البعد التاريخي الإسلامي، ومن أهم الأماكن التي ذكرت فيها، نجد كلّا من: الأندلس والقادسية وآيا صوفية والأردن واريتريا وأفغانستان والأنبار وإندونيسيا والبحرين والبوسنة والهرسك ووادي النون[3] ووان[4] وبار[5] وغيرها من الأماكن التي تركت بصمتها جلية واضحة في التاريخ الإسلامي العربي وحضارته.

أما فيما يخص طريقة البحث في هذا الكتاب الموسوعي الضخم، فقد جاء في الجزء الثالث والثلاثين منه المعنون بالفهارس والكشافات تصريحا كاملا لفريق العمل لهذا الإصدار عن تطبيقات هذه الدائرة، ففي مقدمة هذا الجزء وردت "مفاتح البحث في كشاف دائرة المعارف الإسلامية حتى يسهل على الباحث الوصول إلى المعلومة المطلوبة"[6] وذلك باتباع عدة خطوات نذكر منها:

- تضمنت الموسوعة بأجزائها المختلفة المؤلفة من اثنين وثلاثين -32- جزءا، بالإضافة إلى الجزء الثالث والثلاثين -33- الذي يشمل الفهارس العامة والكشافات عناوين المقالات والدراسات التي وردت بها مرتبة ترتيبا ألفبائيا حسب ورودها في الأجزاء، وقد اعترف محرروها من مترجميها بوضع عنوان المقال في كشاف الكلمات الدالة ضمن المتن أو المدخل الأساس للكشاف مع تمييز عنوان المقال عن الكلمات الدالة بالرموز، حيث إنّه يبدأ من ص من ص مكررا، أن الصاد الأولى تدل على بداية صفحة المقال والصاد الثانية تدل على الصفحة النهائية للمقال، وكلّ مدخل من مداخل هذه الموسوعة معنون بخط عريض، نذكر بعض الأمثلة على سبيل الذكر لا الحصر:

1- موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج33، ص7.

2- المرجع نفسه، ص 9990.

3- وادي النون: سهل واسع في جنوب غرب مراكش، ص10099.

4- وان: مدينة تركية على الشاطئ الشرقي لبحيرة فوق الهضبة الأرمينية، ص 10117.

5- اسم قبيلة من قبائل جنوب شبه الجزيرة العربية في الأزمنة الغابرة، كما أنّه اسم للمنطقة التي تسكنها، ص 10118.

6- موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج33، ص 10249.

- ✓ الآثار العلوية– أبو بكر، الأنباري– بحر القلزم[1]

المثال1: فالمثال المذكور أعلاه، يقع في الجزء الأول من الموسوعة ويبدأ من الصفحة الثالثة إلى غاية الصفحة السادسة على هذا النحو:

ج1، ص ص 3 – 6

المثال2: الآخر[2].

ج1، ص ص 6 – 8

المثال3: سبحان الله[3].

ج18، ص ص 5529 – 5532

أما بالنسبة إلى الكلمات الدالة التي تمّ استخلاصها من أجزاء الموسوعة عند تحليل مضمون هذه الكلمات، فمثل مختلف أنواع الأسماء الشخصية والجغرافية، من أعلام وأماكن ذات دلالة دينية أو تاريخية...إلخ، رتبت ترتيبا ألفبائيا مع حذف أداة التعريف أل.

- ✓ <u>**فمثلا:**</u>

المثال1: أبو الأسود الدؤلي[4].

ج1، ص ص 289–291، ع1

المثال2: الجرجاني عبد القاهر[5].

ج9، ص ص 2690–2697، ع1

1– موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج1– ج51، ص – ص 3 – 1253.

2– المرجع نفسه، ج1، ص 6.

3– نفسه، ج 18، ص 5530.

4– نفسه، ج1، ص 289.

5– نفسه، ج9، ص 2691.

المثال3: الخليل بن أحمد الفراهيدي[1].

ج15، ص ص 4742- 4744، ع1

المثال4: الزمخشري[2].

ج17، ص- ص 5321- 5330، ع1

المثال5: السكاكي[3].

ج18، ص- ص 5698- 5700، ع1

وغيرها من الأعلام النحوية، والمصطلحات اللغوية التي وردت في هذه الموسوعة ذات البعد الحضاري الإسلامي، الذي جسد بالفعل خلاصة الفكر الاستشراقي فيما يخص الإسلام وعلومه وأعلامه، الذي حمل بين دفتيه كل ما يتصل بالتراث الحضاري العربي الإسلامي من منظور غربي بحت.

مع الإشارة إلى أن خطة العمل في كشاف دائرة المعارف الإسلامية اعتمدت على كل من المدخل العام والمدخل الفرعي، فالثاني كشاف كلّ من المُؤَلَّف والمترجم والمحقق والمعلق، في حين المدخل العام أو الرئيسي كشاف للكلمات الدالة حسب ما ورد فيها على لسان فريق محرريها من المترجمين.

أمّا بالنسبة لأسماء الأعلام العربية، فقد استخدم محرروها الجزء الأشهر من الاسم واعتمدوا في تحقيقها على مصدرين، إما على دائرة المعارف الإسلامية، وإما بالرجوع إلى كتب التراث، وفي حالة تعدد الْكُنَا والأسماء لعدة مرات، فقد ميزوا بينها بالإشارة إلى التواريخ؛ إما بتاريخ الميلاد وإما بتاريخ الوفاة على هذا النحو:

---

[1]- موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج15، ص 4742.

[2]- المرجع نفسه، ج17، ص 5321.

[3]- نفسه، 18، 5698

المثال التطبيقي:

* مصطفى الأول، السلطان العثماني[1]، الخامس عشر 1026/1028هـ/ 1617- 1618م

و1000- 1559م

ج30، ص – ص 9353- 9353.

* مصطفى الثالث، السلطان العثماني[2]، السادس والعشرون 1171- 1187هـ.

ت 1774م

ج30، ص – ص 9353- 9354.

* مصطفى الرابع، السلطان العثماني[3]، التاسع والعشرون 1222/1223هـ/ 1807- 1808م.

و[4] 1778م

ج30، ص – ص 9354- 9354.

مع مراعاة الإشارة إلى التواريخ، بحرف الواو لتاريخ الميلاد، وبحرف التاء في مختلف أجزاء الموسوعة، سواء للأعلام العربية أو الإسلامية، مع استخدام إشارة المطة: -، للتفرقة بين التاريخ الهجري والتاريخ الميلادي للدلالة على التوافق بين التاريخين الهجري والميلادي.

أما فيما يخص الإحالات فهي تربط بين الصيغ المختلفة: "المستخدمة للدلالة على موضوع واحد، ولأن جزئيات المعرفة قد رتبت في الموسوعة ترتيبا هجائيا صرفا، فقد أدى ذلك إلى انفصال العلاقات الطبيعية بين الموضوعات، ولذلك تطلب الأمر استخدام الإحالات لتحويل القارئ من الصيغ غير المستخدمة إلى الصيغ المستخدمة لتفادي مشكلات الترتيب الهجائي الذي شتت جزئيات وقطع العلاقات بينها، وقد تطلب الربط بين كلمتين دالتين مستخدمتين بينهما صلة موضوعية منطقية استخدام شبكة من إحالة "أنظر أيضا" مثال: كلمة دالة ذكرت أكثر من مرة

---

[1]- موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج30، ص 9353.

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- نفسه، ج30، ص 9354.

[4]- حرف الواو: تاريخ الميلاد.

بصيغ مختلفة وهجائية مختلفة، وللربط بينها استخدمت شبكة الإحالات لتكتمل المعلومة لدى الباحث"[1] فمن الأمثلة التي وردت في هذا المؤلف نجد مثلا:

محمد ص أنظر أيضا النبي ص المذكور في ج29، ص 91، ع1[2]

وذكرت في هامش الدائرة كلمات دالة يرمز لها بالحرف هـ ص وكل من رقم الصفحة والعمود في مختلف أجزاء الموسوعة الاثنين والثلاثين[3] حسب ما ذكر فيها.

المثال التطبيقي:

أبو الطيب المتنبي: ج10، هـ- ص، 3100، ع1.

في حين إذا ورد عنوان المقال وامتد إلى الجزء الذي يليه يكتب مرة أخرى على هذا النحو: سبأ، الدجال.

جـ 23، ص – ص 2450- 2490 جـ 15، ص- ص 4854- 4900

وذكرت أيضا في موجز دائرة المعارف الإسلامية الحواشي الحَدِّيَّة[4] لتحدد المجال الذي يستخدم فيه الرأس أو تشير إلى إمكانية تقسيمه الجغرافي، وبالتالي تدل على أكثر من موضوع ومن ثمة يجب "التفريق بين هذه المعاني أو الموضوعات المختلفة للفظ الواحد بإضافة المعنى الذي ينتمي إليه اللفظ بعد الكلمة الدالة ووضعها بين قوسين على شكل حاشية حديَّة"[5] وسنورد بعض الأمثلة لتوضيح المسألة أكثر:

* [6] الشافعي إمام، الأهرام جريدة

جـ5.- ص 1700، ع1 جـ1.- ص320، ع2

* [7]الحنفي مذهب، أزل مصطلح

---

[1]- موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج33، ص 10250.

[*]- ع = العمود، ع1 = العمود1، ع2 = العمود2.

[3]- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[4]- نفسه، ص 10251.

[5]- نفسه، ص 10251.

[6]- نفسه، الصفحة نفسها.

[7]- نفسه، الصفحة نفسها.

جـ10.- ص 3700، ع2 جـ26.- ص 3136، ع2

وغيرها من تطبيقات الدائرة التي تساعد الباحث بصفة خاصة على البحث السريع في هذا المرجع الاستشراقي الحضاري، وتسهل عملية البحث على القارئ العربي وغير العربي، وعلى المثقفين بصفة عامة، وتيسرها بأسرع وقت، وأقل جهد ممكن، وقد أشار مترجمو الدائرة إلى أنّ العمل في هذا الكشاف قد تم تحليله وتنظيمه وترتيبه بالاستعانة بمدخلات وبرامج الحاسب الآلي وبكفاءة ومهارة المتخصصين بمركز المعلومات بالهيئة المصرية العامة للكتاب.

3- 7- الهيكلية العلمية

تحوي هذه الموسوعة الضخمة اثنين وثلاثين -32- مدخلا رئيسا/ عاما، وتحتوي على حوالي ألفي -2000- مدخل ثانوي/ فرعي أو أكثر، وهي على نوعين:

أ- **المداخل** المتعلقة بالأشخاص والمفاهيم والأماكن، والوقائع التي يمكن العثور عليها في مختلف المصادر التراثية العربية الإسلامية، التي لها ارتباط وثيق بالنص القرآني والحديث النبوي الشريف.

ب- **المداخل** ذات الصلة بموضوعات مهمة في مجال الدراسات والبحوث الإسلامية، من قبيل الفن المعماري، والعلم والتاريخ العربي الإسلامي، وغيرها من الموضوعات الإسلامية العديدة والمتشعبة.

إنّ هذه الموسوعة، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية تستخدم في مداخلها الكلمات والألفاظ العربية مكتوبة بأحرف لاتينية، ويمكن لنا استعراض بعض عناوين المداخل، ابتغاء تعريف القارئ بها:

الجزء الأول: الآثار العلوية- أبو بكر، ويبلغ مجموع مداخل هذا الجزء حوالي ثلاثة وستين مدخلا، وهي على هذا النحو:

الآثار العلوية[1]، الآخر، آدم عليه السلام، آذار/ أو آدار، آذربيجان، آسية، أكادير آغر، آل الأسرة أو بمعنى أوسع الأقارب الآمدي، الآمر بأحكام الله، آمنة، آمين، آيا صوفيا، الآية الإباضية أبجد/

[1]- موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج1، ص 3.

أو أبوجد، أبخاز/ أو أفخاز، أبد، إبراهيم عليه السلام، إبراهيم بن الأغلب، إبراهيم باشا إبراهيم بك، إبراهيم الموصلي، أبرهة، إبليس، ابن الأبار، ابن أبي أصيبعة، ابن الأثير، ابن الأحنف/ أبو الفضل العباسي، ابن إسحاق، ابن إياس، ابن بطوطة، ابن البيطار، ابن تيمية، ابن الجوزي (أبو الفضائل)، ابن الجوزي، ابن الحاجب، ابن حجر العسقلاني، ابن الخطيب، ابن خلدون، ابن خلكان، ابن رشد، ابن الرشيد، ابن الرومي، ابن زيدون، ابن سعود، ابن سينا، ابن طفيل، ابن عبد الحكم، ابن العربي، ابن عساكر، ابن قتيبة، ابن قزمان، ابن مسعود، ابن مسكويه، ابن المقفع، ابن النفيس، ابن هشام، ابن الهيثم، أبها «وادي أبها» أبو الأسود الدؤلي، أبو البركات، أبو بكر أول خليفة، وغيرها من المداخل الثانوية/ الفرعية الموزعة على الاثنين والثلاثين جزءا المكونة لهذا الكتاب الاستشراقي الضخم.

3- 8- توجّهات دائرة المعارف الإسلامية

إنّ بنية دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية قائمة على أساس رؤية غربية ذات اتجاهين: نظرة ماضوية وجهت عينها إلى الماضي، ونظرة مستقبلية بعيدة المدى، وهي ترصّد معطيات القرون الماضية، وتحللها وتعمل على ترويج النجاح المحقق في القرون الأخيرة، من هنا فإنّها اعتبرت علما في مجالها ونموذجا يقتدى بها، حيث "لا تكاد تخلو منها مكتبة عامة داخل البلاد الإسلامية وخارجها، حتى أنّها تتوفر في المكتبات الأوروبية أكثر من كتب علمية أخرى"[1] وأصبحت من أكبر منارات الإشعاع العلمي الحديث التي عنيت بمختلف القضايا الإسلامية مستقصية ومستثمرة في آن واحد مختلف الآراء الواردة في مختلف المصادر التراثية، وحاولت تسجيلها بصورة انتقائية وفقا لأغراضها الاستشراقية المحددة بدقة، والمصممة بوعي أيديولوجي غربي بحت، حيث عمدت إلى تقديم مختلف تلك المعارف الإسلامية المنتقاة بدقة تقديما منهجيا منظما موحدا في صياغتها وشاملة في رؤيتها، فعُدت بذلك قاموسا شاملا للمعرفة التراثية الإسلامية، يشرح كل موضوع من موضوعاته وفق ما اتفق عليه فريق من كبار العلماء والمتخصصين الغربيين كلّا في ميدانه

---

[1]- خالد عبد الله لقاسم، مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، الرياض: 1431هـ، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ج1، ص 10.

وكلّ بتوجهاته، وبخلفياته الفكرية والعقائدية، ولكلّ منهم أهداف معينة على اختلاف أوطانهم ولغاتهم ومعتقداتهم وتوجهاتهم السياسية ومطامعهم الاقتصادية؛ ولكن الشيء الوحيد الذي جمعهم ولمّ شملهم هي الأهداف المنشودة والغايات المتعددة المرسومة بدقة والمخطط لها ببراعة في حد ذاتها؛ على الرغم من اختلافها وتعددها وتباينها وتمايزها؛ لكن تصب كلّها في الإطار الذي رسمه الفكر الغربي وحدده منذ جاهليته في الحقبة اليونانية (من القرن الخامس قبل الميلاد) حتى عصر نهضته الحديثة.

3- 9- الأهداف والغايات

اهتم الغربيون عامة، والمستشرقون خاصة بكل ما يتعلق بالعالم الشرقي الإسلامي، من تراث وثقافة وعقيدة وحضارة وتاريخ وقيم وغير ذلك من الجوانب الحضارية، ودراسته دراسة علمية دقيقة وحاولوا تقديم صورة له بعيون غربية لا تخلو كثيرتها من الريب والشك في مصادره التراثية ومراجعه التاريخية بمختلف أنواعها، وكان الهدف الرئيسي الظاهري المعلن من تأسيس الدائرة الاستشراقية هو جمع وتدوين مختلف البحوث والدراسات التي أنجزت عبر القرون الماضية في جوانب مختلفة من الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، ووضعها في مجلد واحد لتوضع تحت تصرف الباحثين باللغات الثلاث: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ثم ترجمت إلى مختلف اللغات العالمية الحية منها اللغة العربية، وضمت هذه الموسوعة مداخل كبرى لمختلف المجالات للحضارة العربية الإسلامية وثقافاتها، وفلسفاتها، ونظرياتها، ومذاهبها، وتقاليدها، وأعرافها، وفنونها، وعلومها ومختلف قضاياها، من هنا نلاحظ أن الوظيفة الأولى المنوطة بالدائرة –Ei– حسب المصادر الغربية المعروفة هي وظيفة معرفية بحتة بالدرجة الأولى.

ومن أهمّ المحاور الكبرى التي تعرضت لها بنوع من الدقة والتحليل والتعمق والتوسع: القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقه الإسلامي والتاريخ الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي وغيرها من الجوانب التي تتعلق بالإسلام من علوم ومعارف، وكتبت هذه الموسوعة بأيدي علماء غربيين متخصصين بالدراسات الإسلامية، كل في مجال تخصصه، حيث عبر هؤلاء بحق عن النظرة الأوروبية للحضارة العربية الإسلامية، وعن الخلفية الفكرية لمفهوم العقيدة

الإسلامية عند الغربيين بصفة عامة، حيث تختلف هذه النظرة الغربية عن المفاهيم التي يؤمن بها ويقرها ويجلها ويتبعها المسلمون أنفسهم في مختلف أصقاع المعمورة.

نظرا للمادة الثرية والمتنوعة التي تزخر بها هذه الموسوعة، وأهلتها بأنّ تنال حظوة وقبولا في أوساط المثقفين والباحثين في سائر أرجاء العالم عامة، وفي أوساط المنشغلين بالدراسات الإسلامية والشرقية خاصة، كما: "تتميز بالتأثير البالغ في توجيه أفكار الناشئة والشباب، غير أنّها تحفل بالكثير من الشبهات والأخطاء حول القرآن الكريم، وكذلك حول الرسول ﷺ وسائر دعائم الدين الحنيف، ممّا يسهم في تقديم صورة مغلوطة ومشوهة عن الإسلام"[1] بهدف تشويه معالم الفكر الإسلامي الروحي الأصيل، الذي "يمتاز ويتميز بالعراقة والعمق والشمول"[2] حيث تكاد تجمع جل الدراسات التي أجريت حول هذا الكتاب الذي كثر حوله الجدل؛ بأن القائمين عليه نعني طائفة أو جملة منهم وليس كلّ المستشرقين من أشد المتعصبين الغربيين للإسلام والمسلمين، حيث ووحدت جهودهم نظرتهم الغربية الموحدة إلى المفاهيم الإسلامية الأصيلة وجمعهم هدف واحد، وإن تغيرت الوسائل وتباينت الأشكال، وهو تشويه الإسلام ومعالمه الروحية في أعين الغرب والشرق على حد سواء.

ومن أمثال هؤلاء المستشرقين، المستشرق الفرنسي لويس ماسينيوس 1883-1962م والمشرف على الطبعة الأولى لدائرة المستشرق الهولندي أ. ج. فينسك 1882-1939م والانجليزي دافيد صموئيل مرجليوث 1858-1940م، والأمريكي أدوين كالفرلي 1882م/ ت؟ والبريطاني توماس إدوارد لورنس 1888-1935م، وغيرهم كثر من المتحاملين على الإسلام والمتعصبين ضده وكتبهم وبحوثهم ودراساتهم المبنية على أسس غير علمية بشهادة بعضهم، أمثال: فريدهيلم هوفمان Friedhelm Hoffmann 1931م- ت؟ الذي صرح قائلا: "لكن الحق الذي ينبغي الإشارة إليه أنّ عددا قليلا وحسب من المستشرقين الأوروبيين كان قادرا على التمييز بمنهجية

[1]- محمد السّعيد بن السيّد جمال الدين، الشبهات المزعومة حول القرآن الكريم في دائرة المعارف الإسلاميّة والبريطانية ط1. المملكة العربية المتحدة: 2013، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ص 505.

[2]- محمد عمارة، الغزو الفكري وهم.. أم حقيقة؟ مصر: 2003م، قضايا إسلامية معاصرة تصدرها الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، ص33.

منطقية مدركة لخفايا الموضوع المعالج، أو دراسته دراسة متعمقة أصيلة مستوفاة، ولا ريب أن العكس كان صحيحا، فقد نظر البعض إلى الإسلام بأعين القساوسة المبشرين بالمسيحية مثلما فعل سير هاملتون جب، وتناوله بعضهم بأعين علماء الاجتماع الماركسيين مثل مكسيم رودنسون وغيره..."[1] ويضيف بعض الدارسين مؤكدا محاولة البعض دس السم في الدسم بكل دهاء وأخذ الآخر يلقي بالسموم الظاهرة المشحونة بالحسد والحقد دون أي مراعاة للقواعد العلمية التي طالما تشبثوا بها في غير ذلك الموطن.

3- 10- التعريف بمآخذ البحوث والنقد على دائرة المعارف الإسلامية

حظيت دائرة المعارف الإسلامية بإشادة وانتقاد واسع في الوقت نفسه من قبل أقلام النقاد ونقاد العرب المحدثين خاصة، بعد صدورها بفترة من الزمن بنصف قرن أو أكثر من تاريخ صدورها، بحكم الظروف العالمية السائدة على تلك الفترة، باعتبار أن تاريخ صدورها يتزامن والحركة الاستعمارية التي انتشرت في مختلف الدول الشرقية، حيث كانت هذه الأخيرة تعاني من وطأة الاستدمار الغاشم بمفهومه الواسع بمختلف أشكاله، وبتعدد ترسانته، وتنوع أساليبه القمعية التي مارسها عليها على مدى عقود من الزمن؛ والذي حاول حتى يومنا هذا أن يتأقلم مع مختلف المستجدات الحديثة العصرية، من استعمار مباشر إلى استعمار غير مباشر، ومن استعمار سياسي إلى استعمار اقتصادي، وإعلامي وغيرها من أشكاله وسياساته وألوانه التي يتطلبها الظرف والوقت معا، فعلى الرغم من تباين أشكاله وممارساته التي تضع دائما في الحسبان المعطيات الحديثة؛ إلا أن أهدافه وغاياته دائما ثابتة لا تتغير ولا تتحول رغم تعاقب الأجيال، ومرور الأزمنة والعصور.

حيث حاول جاهدا المستدمر الغربي بمفهومه الواسع قطع الطريق أمام كل محاولتها الانعتاقية والتحررية، وابقائها أكبر قدر ممكن تحت نفوذه، وإحكام سيطرته عليها بكل الوسائل الممكنة والمتاحة، فأزمع على طمس شخصياتها بكل مقوماتها، ومن بين هذه المقومات: اللغة التي

---

[1]- خالد بن عبد الله القاسم، مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، ط1. المملكة العربية السعودية: 2010، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ج2، ص 40 - 41.

تُعدّ بابا يتسلل عبرها المستدمر إلى الشرق ومعالمه وتدمير بنيته، وجعله إمبراطورية تابعة له على مدى تاريخه الطويل، سواء البعيد منه أو القريب، وكلّما استطاع إلى ذلك سبيلا.

واللافت للانتباه في هذه الدائرة هي الشهرة الواسعة التي عرفتها منذ صدورها الأول سنة 1913، بين أوساط الباحثين والمثقفين بصفة عامة، ثم توسعت وانتشرت أكثر تزامنا مع صدورها الثاني سنة 1954، وشهدت أيضا صدورا إلكترونيا سنة 2007، باعتبارها موسوعة محررة بدقة عالية وبنشاط فعال قادر على إبراز الدائرة كوسيلة إعلامية لها تأثير كبير في توجيه الفكر عامة والتأثير فيه بقوة، والفكر العربي الإسلامي خاصة خلال تلك الحقبة الزمنية، وفي الوقت نفسه قد استقطبت أكبر المستشرقين المتخصصين المعروفين بالمادة خلال تلك الفترة على اختلاف لغاتهم وأجناسهم، كما عمل محرروها على تحريرها بطريقة واضحة سهلة على الباحثين فيها والمطلعين عليها.

كلّ هذه العوامل والمكتسبات وغيرها؛ أسهمت اسهاما فعالا في اكتسابها مكانة مرموقة بين الموسوعات العالمية منذ تاريخ صدورها إلى يومنا هذا، وجعلتها من أكثر الكتب انتشارا في الشرق حتى أقصى الغرب، وجذبت المزيد من المناقشات الكثيرة، والدراسات العديدة، والبحوث المتنوعة التي تعرضت لمحتوى الدائرة وفحواها من مختلف الأقطاب والأقطار، والحديث عنها لا ينضب أبدا، وستظل محل الدراسة والتحليل والانتقاد والمقارنة، دون إغفال الجانب الذي نال مدحا بهذا الكتاب الاستشراقي العلمي الضخم لما يزخر به من قضايا إسلامية عميقة، لغناه بمختلف الموضوعات المتعلقة بالحضارة العربية الإسلامية وتاريخها ورموزها والصدام بين الحضارتين قديم قدم البشرية، فالصدام بين الحضارتين القديمتين قديم بقدم البشرية ضارب بجذوره عمقا في تراث الحضارة الإنسانية، وحل هذه المعادلة المعقدة بين الجانبين لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الحوار المنطقي بين الأديان السماوية، والفكر البشري الوضعي النزيه والثقافات البشرية المتداولة عن طريق المناظرة العلمية السليمة، المبنية على التسامح الإنساني وتآزره.

ومن أهمّ الكتب وأبرزها الصادرة في أواخر القرن العشرين، التي حاولت إجلاء حقيقة هذا الكتاب الاستشراقي بامتياز وكشف الدوافع والأهداف من وراء تأليفه، التي عمدت إلى التكشيف الذي يبين أسماء مؤلفيها، مع التوسع في سيرتهم وأيديولوجياتهم ومشاربهم الفكرية لإجلاء نواياهم

حيث توسعت هذه الأخيرة في دراسة مختلف نماذج هذا الكتاب، وتحليل مضمونها، سعيا منها للوصول إلى نتائج علمية دقيقة تسهم في وضع الدائرة الاستشراقية في موضعها المناسب.

ومن بين أشهر هذه المؤلَّفات وأبرزها كتاب الدكتور إبراهيم عوض: "دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل" وكتاب الدكتور خالد بن عبد الله القاسم: "مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية" وغيرهما من الكتب التي تناولت هذه الدائرة الاستشراقية بالنقد والتحليل والتمحيص. دون إغفال الكتب الأخرى التي تعرضت لمضمون هذه الدائرة، حتى لو بإشارة خاطفة إلى عناوينها، مثل كتاب: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر للدكتور أحمد سمايلوفتش وغيره، ومن المجلات الدولية المحكمة نذكر منها: مجلة التمدن الإسلامي، وكذلك مجلة الرسالة، والمجلة الكويتية الوعي الإسلامي.. عطاء يتجدد، ومعين لا ينضب، الصادرة عن وزارة الأوقاف الكويتية بأعدادها المختلفة وغيرها من المجلات.

ولأنّ مسألة وجودها وانبعاثها بكونها مرجعا للعلوم الإسلامية بنظرة غربية إن صح التعبير حسب مختلف المصادر التي اطلعت عليها، المؤرخة لها، تؤكد أنّ هذا الكتاب الذي صدر من الفكر الاستشراقي قد جسد الفكر الغربي أيّما تجسيد، وكوّن الصورة الحقيقية عن النظرة الاستشراقية إلى معالم الدين الإسلامي الأصيل، وإلى رموزه وقادته، وأعلامه لم يؤلَّف بشكل تلقائي، ولا بمحض الصدفة، ولا لأجل أهداف علمية بحتة كما يروج لها البعض؛ وإنّما كان له دور فعال وبارز في توجيه الأفكار في العالم الشرقي بمختلف أطيافه، وذلك بممارسة المستشرقين تمويه المعلومات بالاستناد إلى المصادر الإسلامية الموثوقة؛ لإغراء الباحثين للاعتماد على المعلومات المذكورة فيها، وجعلها مصدرا أساسيا في التعرف على الإسلام وتاريخه وأهله.

كما كانت لها مسببات ودوافع وأهداف بكلّ أبعادها، سواء كانت صريحة أو ضمنية مدروسة من قبل مؤلفيها ومحرريها حتى منتجيها وداعميها فلا يمكن لأحد إنكارها مهما كانت مشاربه الفكرية لأنّ التلازم بين الدائرة والاستشراق مُقر به على لسان جل الدارسين العرب المحدثين، كذا على لسان بعض الدارسين الغربيين المعاصرين المنصفين للقضايا الإسلامية، وشهدت ببذلك مختلف الدراسات كتبا كانت أو مجلات، وكثير من الدراسات الحديثة والمعاصرة التي تفطنت إلى التشويه المتعمد من لدن كاتبيها والبحوث اللغوية التي أجريت حولها، غربية كانت أو شرقية على حد سواء.

3- 11- أخطاء الدائرة في المسائل اللغوية

لقد بلغ اهتمام المستشرقين باللغات الشرقية بصفة عامة، وباللغة العربية بصفة خاصة ذروته في مختلف إصداراتهم التي تُعدّ من أكبر الدراسات الاستشراقية العالمية في العصر الحديث، وفي دائرة المعارف الإسلامية خاصة وهي التي تتجلى فيها قِمَّة الاهتمام بموضوع اللغة بوضوح من لدن المستشرقين على اختلاف مشاربهم، فاهتموا باللغة العربية أولا لاعتبارات دينية بحتة، حيث "تحقق لهم معرفتهم بالعربية القدرة على حل كثير من المشكلات التي تواجههم في دراساتهم اللاهوتية التي كتبت بها النصوص القديمة بلغات سامية ميتة، لذا كان تعلمهم للعربية بوصفها لغة سامية حيّة مفيدا في حل المشكلات التي تواجههم"[1] ثم توسعوا بعد ذلك أكثر فأكثر ليشمل اهتمامهم كل ما يتعلق باللغات الشرقية عامة، فدرسوا اللغة السنسكريتية الهندية، واللغة الصينية، وغيرهما من لغات الشرق الأقصى.

ولما كانت اللغة هي الركيزة الأساسية الأولى في فهم مختلف العلوم الشرقية وإدراكها فقد عَني بها المستشرقون عناية منقطعة النظير، وتأتي اللغة العربية في المرتبة الأولى من ناحية الاهتمام والدراسة، حيث "ازدادت حاجة أوروبا في القرن السابع عشر خاصة إلى أن تَعْرف العربية معرفة أوثق، تتناسب ومصالحها في الشرق"[2] فجعل منها المستشرقون بابا ليتسللوا منه إلى الشعوب العربية الإسلامية ومعتقداتهم وأفكارهم وتاريخهم وثقافاتهم وغيرها من المكونات التي تعدّ من الثوابت الأساسية لكلّ أمّة من الأمّم الحضارية على اختلاف أنواعها "وليتمكنوا بها من التفاهم مع أهل المنطقة"[3] فقد احتاجوا إلى العربية للوقوف على واقع الشرق، وبحث السُّبل لإدخال الثقافة البديلة إليه، ولذا فقد كان لزاما أن تُجرى الدراسات اللغوية الجادة في جميع المجالات، حتى غدت اللغات الشرقية عامة والعربية خاصة سلاحا أساسيا لجل المتخصصين بالدراسات الاستشراقية ونلمس مظاهر هذه الحاجة في المشاريع اللغوية المنجزة، كتأليف المعاجم العربية الأوروبية التي

---

[1]- اسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية بحث في الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية، ط2. عمان- الأردن: 1996، دار حنين، ص 61.

[2]- المرجع نفسه، ص 44.

[3]- نفسه، ص 54.

تتجزها المعاهد اللغوية المختلفة، ومراكز العناية بالتراث الشرقي جمعا وفهرسة وتحقيقا، والمؤتمرات الدورية التي تستقطب المستشرقين من كلّ مكان على فترات زمنية محدودة تعقد هنا وهناك في أوروبا وغيرها.

ولعلّ من أهمّ الدّراسات التي تعرضت للأخطاء الواردة في هذا الكتاب الاستشراقي المحض Ei وبالذات الأخطاء الواردة في المسائل اللغوية، كتاب الدكتور إبراهيم عوض المعنون: بدائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل، فقد أفرد لها مبحثا سماه: المسائل اللغوية حيث أدرج فيها بعض الملاحظات التي لاحظها على كُتَّاب الموسوعة: "أنهم يكثرون من إرجاع الكلمات العربية القرآنية؛ بل الإسلامية بوجه عام، فهذه الكلمة مأخوذة من الآرامية، وهذه مستعارة من العبرية، وتلك منقولة من الإثيوبية، رغم أنها ترجع إلى جذر عربي له اشتقاقاته المختلفة المستعملة في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم"[1] وللرد على هذه المزاعم استشهد الدكتور إبراهيم عوض بأقوال بعض المستشرقين في هذا المضمار التي أوردها المؤرخ والمفكر الإسلامي العراقي الدكتور: جواد علي Jawad Ali 1907–1987م في موسوعته الضخمة المفصلة، المعنونة: بالمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام في عشرة أجزاء، وأكثر من –7000– صحيفة، جمعت الأحداث التاريخية المهمة ذكرا خلال هذه الحقبة التاريخية للعرب، وهي فترة ما قبل مجيء الإسلام، والتي اصطلح عليها المؤرخون بفترة العصر الجاهلي الأوّل، زمن عاد وثمود، حيث تؤكد تصريحات هؤلاء المستشرقين التي أوردها جواد علي تحت عنوان: اللغات السامية، عالج فيه قضية دراسة المستشرقين للساميات Semitistik وتناولهم في هذا المجال بالدرس والتحليل وحتى المقارنة وبإسهاب كلّ اللغات التي يدرجها علماء الساميات في مجموعة اللغات السامية لمعرفة مميزات كل لغة، للوصول إلى ما بينها من فروق أو تطابق أو تشابه، وذلك باعتمادهم على الأساليب العلمية الحديثة والتقنيات العصرية، من ملاحظة وتجربة ونقد وغيرها من وسائل البحث وتقنياته الدقيقة.

ويعقب جواد علي على ما تقدم مؤكدا أنّ: "لا معنى لإرجاع هذه الكلمات إلى أصل سامي غير عربي، وما دامت العربية لغة سامية، فهي أيضا كتلك اللغات المذكورة، وكون هذه اللغات

[1]– إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، ص187.

متفرعة من أصل واحد حقيقي أو متخيل هو اللسان السامي"[1] فإنّ كل هذه اللغات يجمعها ارتباط وثيق، وتعود كلها إلى اللغة السامية الأم، أو بمصطلح آخر السامية الأوّلى، وهي أمٌ لجميع هذه اللغات البنات، حيث يؤكد جواد علي بهذه اللغة المجازية فكرة تقارب تلك اللغات وتشابهها.

ثم في الأخير يدرج العناصر التي تقوم عليها نظرية اللغات السامية وأصل هذه التسمية حيث أرجعها إلى التسمية التي أطلقها شلوتزر Schlozer على العبريين والفينيقيين، والعرب والشعوب المذكورة في التوراة، ويقصد بها الساميين أو الشعوب السامية على أنّهم من نسل سام بن نوح، التي تقوم على أساس عرقي محض.

بالإضافة إلى أنّ مزاعم هؤلاء المستشرقين لا تستند إلى أي دليل علمي حقيقي أو واقع تاريخي منطقي سليم، إنّ الغاية من هذه الادعاءات وغيرها، هو الطعن في الإسلام بالدرجة الأولى وربطه بمصادر أخرى مهما كانت نوعها، تاريخية كانت أو لغوية.

في حين تثبت مختلف الدراسات الحديثة تأثير العربية في سائر اللغات السامية وفي مجال المفردات اللغوية خاصة القرابة اللسانية إفرادا وتركيبا؛ بل هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك، وهو أنّ العديد من اللغات العالمية تحتوى على عدد لا بأس به من الكلمات المستمدة من العربية، وإذا نظرنا إلى المسألة نظرة علمية، فلا نجد أدنى حرج في ذلك، لأن: "البحث فيها علم، والعلوم تبتغي المعرفة دون قيد بزمان أو مكان"[2] والبحث فيها واضح جدا، حيث أثبت البحث العلمي النزيه بالدلائل العلمية القوية، وبالقرائن الدامغة القرابة الموجودة بين هذه اللغات السامية، وأكد أيضا وجود خصائص لغوية مشتركة بين تلك الألسن البشرية، وهذا ما ذهب إليه وأكده أستاذ اللغات السامية في مؤلفاته، المستشرق الألماني ثيودور نولدكه بقوله: "أن القرابة بين اللغات السامية واضحة لا تحتاج إلى برهان أو دليل مادي، فهذه القرابة أوضح وأمتن وأوثق من الروابط التي تربط بين فروع طائفة اللغات المسماة: باللغات الهند وأوروبية Indoeurpaichen أو الهند وجرمانية Indogermanischen Sprachen"[3] حسب ما ذكره الباحث الكبير جواد علي، وأقره تلميذ

---

[1]- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2. بغداد: 1993م، جامعة بغداد، ج8، ص 525، بتصرّف.

[2]- المرجع نفسه، ص525.

[3] -Theodore Noldeke, Die Semitischen Sprachen, Leipzig, 1899, C.H. Tauchnitz, p1.

نولدكه، كارل بروكلمان في كتابه الضخم النحو المقارن للغات السامية Grammatik Der semitischen sprachen vergleichende، وكذا ثلة من العلماء في العصر الحديث.

أما فيما يخص بمسألة الصفاء اللغوي فيؤكد ثيودور نولدكه أنّه "ليس بين اللغات السامية لغة واحدة تستطيع أن تدعي أنّها سامية صافية نقية، أو أنّها لم تتأثر قط باللغات الأخرى التي تنتمي إلى مجموعات لغوية غير سامية، وقضية صفاء لغة ما من لغات العالم وخلوها من الألفاظ والكلمات الغريبة، قضية لا يمكن أن يقولها رجل له إلمام بعلوم اللغات، ولو يسيرا جدا"[1] بحكم اختلاط الشعوب، واتصال ألسنتها بعضها ببعض.

استنادا على ما سبق نلحظ أن منطق الصفاء اللغوي مستحيل، بحكم البحث العلمي النزيه الذي يؤكد اتصال الألسنة السامية بعضها ببعض، والعربية اليوم، شأنها شأن اللغات الحية العالمية، فيها كلمات مقترضة من اللغات الأخرى، ولا سيما في هذا العصر، عصر التكنولوجيا والإعلام والتقنيات الحديثة، لمسايرة متطلبات العصر الحديث، ومواكبة التطورات العلمية ومستجدات الحضارة الجديدة، وهذا عمل جبار يقوم به لغويون متخصصون في هذا المجال، على جانب كبير من العلم والذكاء والإحاطة بالقواعد اللغوية عامة.

وفي دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل مفردات كثيرة وردت في مختلف مؤلفات المستشرقين، بمزاعم باطلة، وافتراءات واهية، لبث روح الشك في كل ما بين أيديهم ليسهل عليهم تشديد وطأتهم على المسلمين ونشر ثقافاتهم فيما بينهم، وقد حاول إحصاؤها الباحث إبراهيم عوض: "ليبرهن على أصالتها العربية بالإثبات العلمي، والمنطق اللغوي"[2] للرد على هؤلاء المستشرقين، ودحض مزاعمهم الواهية، وعلى رأسهم المستشرق الألماني رودي باريت Rudi Paret 1901-1983م، الذي ادعى أن بعض الكلمات في اللغة العربية، الواردة في النص القرآني خاصة ليست عربية الأصل؛ بل هي مستعارة من لغات سامية أخرى، كالعبرية والآرامية

---

[1]- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 529.

[2]- إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، ص 188، بتصرّف.

وغيرها من اللغات السامية ذات الفصيلة الواحدة، ومن المفردات الواردة في هذا الكتاب على سبيل المثال[1]:

الكلمة	معناها الاستشراقي	تفسيرها حسب المستشرقين	مصدرها حسب المزاعم الاستشراقية
أمّة	بمعنى الشعب	ليست من أ م م ولا علاقة لها بأمّة وهي بمعنى: فترة من الزمن	إما من اللغة العبرية وإما من اللغة الآرامية.

يتساءل الباحث الكبير جواد علي عن سبب طعن هؤلاء المستشرقين في اللسان العربي دون دليل يستندون إليه، أو حجة يدعمون بها ادعاؤهم، ولا أدنى برهان لما يذهبون إليه من أضاليل وأباطيل؛ بل الدافع الوحيد القائم وراء هذا التنطع، هو العداوة والبغضاء لبني إسماعيل أو للعرب لنزعة عصبيتهم الدينية الإسرائيلية.

ويرصد جواد علي مجموعة من الإثباتات المنطقية والقرائن المادية للرد على هؤلاء المستشرقين وعلى مزاعمهم، نذكر منها:

1- قول باريت ومزاعمه لا يستند إلى أي دليل علمي ولا إلى برهان منطقي فهو مجرد كلام[2] ليس إلا.

2- باعتبار أن اللغة العربية من المجموعة السامية، وكلتا اللغتين العبرية والآرامية من فصيلة اللغة السامية، كان من الأجدر لباريت "إرجاع هذه الكلمات إلى الأصل السامي الذي تفرعت منه"[3] خير له من اختلاق شبهات غير مقبولة علميا، وتشكيكه في غنى اللغة العربية المعروفة بثرائها اللغوي على غرار اللغات الأخرى، ومحاولة إظهارها مجدبة فقيرة لأغراض وأهداف غير علمية بكل أبعادها، التي يعمل لها أكثرهم، أو جمهرتهم الساحقة على مدى العصور السابقة، وإلى يومنا هذا.

---

[1]- إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، ص 187.

[2]- نفسه، ص 188.

[3]- نفسه، الصفحة نفسها.

3– إذا كان ولا بّد "من القول بالاستعارة، فلماذا لا تكون تلك اللغات هي التي أخذت من اللغة العربية"[1]ولماذا يزعم المستشرقون دائما أنّها هي الآخذة، وليست المعطاءة على غرار اللغات الأخرى.

4– محاولة باريت تشكيك المسلمين بقيمة لغتهم، بادعائه أن بعض مفردات اللغة العربية منقولة عن اللغات الأخرى، وذلك بادعائه وجود معنى واحد فقط للفظة أمّة في اللغة العربية، بيد أنّها موجودة في لغة «الضاد» عامة، وفي القرآن خاصة، بمعان أُخَر، دون أن تتقيد بمعنى: فترة من الزمن، كما يدعي باريت، وهذا دليل على اطلاعه الضيق المحدود على لغة القرآن، لأن هذه الكلمة وردت في القرآن الكريم بمعان شتى منها:

– كما جاء في قوله تعَالَىٰ:﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ [هود: ٨]

– وعلى معنى: جماعة، حيث تواتر اللفظ أربع مرات في سورة البقرة، وبدلالات مختلفة، في قوله تعَالَىٰ:﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٨]

– الطريقة قَالَ تعَالَىٰ:﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٢]

– وعلى معنى: فئة من الناس مصداقا لقوله تعَالَىٰ:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤]

– وكذا بمعنى: الإمام في قوله تعَالَىٰ:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠]

– وبمعنى: مضت وسلفت كقوله تعَالَىٰ:﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [البقرة: ١٤١]

– وعلى معنى: خيار– عدول في قوله تعَالَىٰ:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣]

– وبمعنى أمّم الأنبياء الأولين، وأمّة خاتمتهم محمد ﷺ، كقوله تعَالَىٰ:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١]

[1]– إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، ص188.

وغيرها من الآيات المتواترة ثماني وأربعين مرة، بدلالات مختلفة، وتأويلات عديدة، وهذا دليل قاطع يخالف ما ذهب إليه المستشرق باريت وأمثاله من المستشرقين المغرضين، إما عن قصد أو عن غير قصد، بحسب ما ينزعون من منازع العصبية الجنسية والعرقية والدينية، دون أن ننكر النزهاء منهم المخلصين، وإن هم قليلون.

ومن نماذج هذه الدراسة، نجد دراسة المستشرق الدانيماركي فرانتس بوهل Frants Buhl 1810–1932م، الذي ادعى أن كلمة: بُور التي وردت في سورة الفرقان الآية: 18 يقول تعالى: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفرقان: ١٨] بُورًا معناه: الهالكين والبور: الهالك والفاسد، وأصل كلمة بُور وجذرها كلمة عبرانية، لم تذكر في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، وهي ص الآحاد، دون تقديم أدنى دليل على ذلك، في حين الواقف على كتاب الله يجد أنها قد وردت بهذه الصيغة مرتين، في كلّ من سورة: الفرقان والفتح كما في قوله تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفتح: ١٢] وجاءت "بصيغة الفعل المضارع مرتين، كما أتت بصيغة المصدر مرة واحدة، وجميعها من الوحي المكي، أي قبل أن يتصل محمد ﷺ باليهود في المدينة"[1] ويمكن لنا أن نبين ذلك من خلال هذا الشكل، مؤكدينه بالسور التي تليه:

الجذر	المصدر	الفعل المضارع
بور	بَوَار	يَبُور – تَبُور

1– المصدر بوار مصدقا يقوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨] البوار : الهلاك.

[1]– إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، ص 189، بتصرّف.

2- الفعل المضارع يبُور كما ورد في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر: ١٠] يبور: يفسد أو يبطل.

3- الفعل المضارع تبُور كما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩] لن تبُور: لن تفسد.

وهذا كلّه حسب الباحث إبراهيم عوض: "يدل على أن الكلمة عربية، ثم لو تمادى لجوج في لجاجه، وادعى مع ذلك أنها ليست عربية، فالرد هو أنه ليس من السهل أن يُشتق منها كل ذلك في هذه الفترة القصيرة، لأن الكلمة المستعارة من أية لغة تحتاج إلى أزمان طويلة قبل أن تعامل معاملة الكلمات الأصيلة في اللغة، فتؤخذ منها الاشتقاقات المختلفة"[1] وقدم إبراهيم عوض هذه الاشتقاقات المختلفة لهذه اللفظة كتفسير مميز، أثبت من خلالها بطلان هذه الادعاءات وزيغها بوجود هذه المفردة في الشعر الذي هو ديوان العرب.

كذلك نجده يضيف سلسلة من النماذج الشعرية ليبرهن على أن كلمة بور قد تواترت في نصوص الشعر الجاهلي، حيث ساق هذا الأخير مجموعة من الأبيات الشعرية لأعلام وفحول الشعر الجاهلي وبخاصة شعراء الطبقة الأولى الذين برزوا في فترة ما قبل الإسلام.

وعلى رأس من ذكرهم في كتابه، سائقا إليه جملة من أبيات أشعار الجاهليين: امرؤ القيس وطرفة والنابغة الذبياني والأعشى وقيس بن الخطيم وهو من شعراء الطبقة الثانية.

وتجدر بنا الإشارة إلى أنّ ديوان قيس بن الخطيم عني به المستشرقون، ترجمة وشرحا وتحقيقا، وقد ترجمه إلى الألمانية المستشرق تداوس كوالسكي Thaddaus Kowalski 1889-1948م، مع طبعته لأوّل مرة في لايبزك -Leipzg- 1914 وتعليقات عليه وملاحظات لم تخرج عما ذكرته المصادر القديمة.

---

[1] - إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، ص 189.

والشاعر الجاهلي: درهم بن زيد الأوسي ت...م؟/ ...هـ؟ الذي لم نجد له أثرا في المصادر ولا تاريخ ولادته ووفاته كذلك في المصادر العربية القديمة، ، دون أن تذكر عنه شيئا غير أنّه كان شاعرا يهوديا مترددا على الملوك ليس إلا.

والشاعر زيد بن عمرو بن نُفَيل ت 605م- قبل البعثة وغيرهم من شعراء العصر الجاهلي، ووردت أيضا في شعر الشاعر المخضرم، أمية بن أبي الصلت الثقفي ت 8-9هـ.

والشاعر أمية بن أبي الصلت مع الإشارة إلى أن الرواة لم تتفق: "على سنة وفاته؛ بل نجد آراء مختلفة متشعبة، ومعظمها تذهب إلى أنّه مات في السنة الثامنة أو التاسعة للهجرة، هذا ما قال به معظم القدماء، ثم تبعهم عليه بعض المحدثين، إلا أننا نجد رأيا آخر أقرب إلى الصواب يجعل وفاة أمية في السنة الثانية للهجرة في أعقاب غزوة بدر، ودراسة الأحداث التي امتدت بين السنة الثانية والسنة الثامنة أو التاسعة، تجعل المرجح أن تكون وفاة أمية في السنة الثانية للهجرة"[1] ورجح الباحث المحقق عبد الحفيظ سطلي أن يكون غياب أمية عن مسرح الأحداث منذ أن قال قصيدته الشهيرة في رثاء قتلى قريش يوم بدر، لأن الأحداث التي أعقبت السنة الثانية للهجرة كانت في غاية الأهمية، وكذلك أحداث السنتين الثامنة والتاسعة للهجرة خاصة، حيث لا يمكن لأمية أن يلتزم الصمت فيها، يضاف إلى ذلك كلّه وقوع غزوة الطائف حيث انطوت على كثير من الأحداث المروعة التي تدفع بأمية إلى الإنشاد مدحا وفخرا بعزة ثقيف ومنعتها، لو كان حيا يرزق، وهذا كلّه يؤكد وفاة أمية قبل السنتين الثامنة والتاسعة للهجرة.

فصاحب الأضاليل والأباطيل ذكر كل هذه الأسماء البارزة في الشعر الجاهلي؛ ليدحض بذلك الادعاءات الزائفة والواهية للمستشرق بوهل، ويبين الأغراض الخفية القائمة وراء هذه المزاعم الباطلة، ويفضح المؤامرات الدنيئة الممعنة في الادعاء والتضليل والايهام والتهويل، ويؤكد في الوقت نفسه على أن هذه اللفظة، هي لفظة عربية أصيلة أصالة الشعر الجاهلي وأعلامه ورواده بصفة دقيقة ثابتة، وفق ما أكدته جل الدراسات الشرقية طُرًّا، وحتى الغربية منها التي سارت في هذا المضمار، وأجمعت عليه كتب الأدب والسيرة والتاريخ الحديثة منها والمعاصرة.

---

[1]- عبد الحفيظ سطلي، ديوان أمية بن أبي الصّلت، دط. سوريا: 1974م، المطبعة التعاونية بدمشق، ص 40 – 41، بتصرّف.

ومن أهمّ هذه المؤلّفات التي أكدت صحة الشعر الجاهلي وصدق رواته، من قبل أبرز أساتذة الاستشراق في القرن العشرين، وكذا من لدن رواد الاستشراق وأعلامهم عبر تاريخ الاستشراق، قبل رواد الأدب العربي في هذا المجال، كتاب: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي Studies of Orientalists on Pre- Islamic Poetry الذي ترجمه الباحث الكبير عبد الرحمن بدوي 1917/ 2002م محاولا أن يجمع ملخصا فيه "أهم الأبحاث في موضوع الشعر الجاهلي"[1] أي بحوث المستشرقين، ويبين أن موضوعات صحة الشعر الجاهلي، ومسألة البحث في نشأته، وترجمة رواته ورواده، التي شغلت الباحثين الأوروبيين منذ سنة 1861 على أقل تقدير، ثم نمت في القرون القليلة الماضية وتوسعت، حتى بلغت ذروتها في القرن العشرين.

ومن المستشرقين الذين شاركهم بوهل في آرائهم، مستشهدا بأقوالهم، المستشرق هيرمان فرديناند فرانكل Hermann Frankel 1888-1953م، الذي ادعى أيضا أن مادة: ختم أصلها أعجمية، منكرا اشتقاقاتها من العربية الأصيلة، مرجعا إياها إلى خاتم الآرامية، مع أنّها شريكة من حيث الأصالة، في أخواتها المتفرعة من اللسان السامي القديم؛ بل بحر أقوال، لا تستند إلى البحث العلمي الأكاديمي السليم.

استند الدكتور إبراهيم عوض في حججه على تتبع ورود اللفظة في الشعر الجاهلي، وبحث عن معناها فيه، وتبين له أن هذه الكلمة: خاتم موجودة بين ثناياه، حيث كانت من الصيغ الكثيرة الاستعمال فيه، مستعرضا نماذج من شواهد العربية لشعراء الجاهلية على أنّ الكلمة عربية أصيلة تؤكد ما ذهب إليه، لنقض الشبهات الاستشراقية على هذا النحو من الاستشهاد تبيانا:

- قال **امرؤ القيس**:

تَرىَ أَثَرَ القُرحِ في جِلْـــدِهِ كَنَقْشِ الْخَـوَاتِمِ في الجِـــــــــرْجِسِ

ولفظة الجِرْجِسِ: تعني الصحيفة

2- قال **لبيد**:

أَوْ مُذْهَبٌ جَدَدٌ على أَلْوَاحِـــ ـهِنَّ النَّاطِقُ الْمُـــبْرُوزُ وَالْمَخْتُـــومُ

[1]- عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ط1. مصر: 1979، دار العالمين للملايين، ص 14.

3- قال **الأعشى:**

كَأَنَّ شُعَاعَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِيهَا إِذَا ما فَتَّ عَنْ فِيَها الخِتَامَــــــــا

4- وقال أيضا:

وَصَهْبَاءَ طَافَ يَهُودِيُّــــهَا وَأَبْرَزَهَـــــا، وَعَلَيْـــهَا خُتُـــــمٌ

5- قال **دريد بن الصمة:**

وَإنّي دَعَوْتُ الله لَمَّا كَفَّرْتَنِي دُعَاءً فَأَعْطَانِي عَلَى مَا قِطٍ خُتْمِــي

ومن الكلمات العربية الأصيلة التي ادعى المستشرق الهولندي ثيودور يونبول Theodoor Willem Juynboll 1866-1948م، أنّها مأخوذة من اللغات السامية الأخرى، كلمة: خراج المشتقة من مادة: خرج حسب ما تؤكده سائر المعاجم العربية القديمة، حيث أرجعها إلى halak: هلاك الآرامية، وأنّها دخيلة في العربية عن طريق اللغة الفارسية، على الرغم من أنه يعترف بأنّ: "الرأي الذي كان سائدا بين المستشرقين قبل ذلك هو القول بعروبة مصطلح الخراج"[1] ويعلل عدوله عن هذا الرأي هو محاولة الإساءة إلى العربية من لدن هؤلاء المستشرقين، لأن القول بآرامية الكلمة يحقق ذلك، فقالوا به وحسب.

والمدقق في قول المستشرق ثيودور يونبول يتساءل عن العلاقة الموجودة بين اللفظتين اللفظة العربية: خراج واللفظة الآرامية: هلاك وما الذي دفع به إلى هذا الطرح؟ أو إلى هذا الاعتقاد؟ وما الذي يمنع بأن تكون هذه الكلمة عربية صريحة؟ ويرجع الدكتور إبراهيم عوض إدخال الفرس في هذه القضية، معناه أن العرب لم يكونوا يعرفون اللفظة قبل فتحهم بلاد فارس ومعرفتهم بهذا النوع من الضرائب التي تفرض على الأرض، فهل هذا قول صحيح؟

وبالرجوع إلى النص القرآني، نجد أن هذه اللفظة قد وردت فيه قبل غزو المسلمين لبلاد فارس بمدة طويلة، متواترة مرتين، بحجة قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٧٢﴾ [المؤمنون: ٧٢] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤﴾ [الكهف: ٩٤] نخلص إلى أن ادعاءات يونبول تفتقر إلى بيان أكثر

[1]- إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، ص 192.

وإلى بحث أعمق، وخطى أدق في أصول الألفاظ العربية وأوضاعها الأولى قبل ابداء الرأي والحكم في هذه المسائل وأمثالها.

ومن الألفاظ العربية الأصيلة التي مستها المزاعم الاستشراقية والتشكيك في أصولها، لفظة الزكاة التي ادعى المستشرق الألماني تلميذ جولد تسيهر الذي كان له أبلغ الأثر في توجيه الدراسات الاستشراقية المتعلقة بالسنة النبوية ومسألة نشأة الفقه الإسلامي ومراحل تطوره، خاصة على يد الباحث والمتخصص في الدراسات العربية والعلوم الإسلامية، وأحد المشرفين على الطبعة الثانية لدائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية سنة 1959، جوزيف شاخت Joseph Schacht 1902– 1969م، حيث أرجع أصولها إلى اللغة الآرامية زاكوت مدعيا أن الرسول ﷺ أخذها من اليهود بمفهومها الواسع، نافيا معناها الشرعي وهو إخراج نصيب معلوم من مال الأغنياء الذي أقره المولى ﷻ للفقراء وغيرهم، في حين ينفي القرآن الكريم هذا الافتراء بنص صريح في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ ﴾ [الليل: ١٨] ويقول تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ٣٩ ﴾ [الروم: ٣٩] فهذه السور المكية رد واضح على هذه المزاعم الاستشراقية، وتفنيد صريح – لا شك فيه– لمطاعن جوزيف شاخث فهي نزلت في مكة المكرمة قبل احتكاك الرسول ﷺ باليهود في المدينة المنورة.

وينفي المستشرق قيرا ما جاء به اللغويون العرب حول لفظة صدقة واشتقاقها من مادة: صدق مؤكدا كذلك لأنّ هذه الكلمة أخذت أصلا من صِداقا العبرية مكتوبة بأحرف عربية، في حين يفند الدكتور إبراهيم عوض هذا الافتراء من ملاحظته على حرف الصاد في اللفظ العبري جاء مكسورا بينما جاء في العربية مفتوحا، والألف التي فيها بعد الدال وتلك التي بعد القاف لا وجود لهما في اللفظ العربي، إلى جانب أن تاء التأنيث في اللفظة العربية لا توجد في الكلمة العبرية.

ويضيف صاحب كتاب: "أضاليل وأكاذيب" بعض الأدلة والحجج لتفنيد مزاعم قيرا وذلك بالرجوع إلى اللغة العبرية نفسها، فهذه الكلمة في العبرية أصلا تعني: Honesty: الأمانة والصدق وهذا ما ذهب إليه الدكتور جواد علي، وأكده في الجزء السابع من كتابه: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، إنّ عَزْوَ هذه الألفاظ إلى أخوات العربية المتفرعة من الفصيلة السامية، سواء العبرية

منها والآرامية أو غيرهما، يحتاج إلى إعادة النظر الدقيق في أصول مسائلها، بالنزاهة العلمية الأكاديمية دون استعمال الوجدان المشرب بروح العصبية الجنسية والدينية والثقافية.

والأمر نفسه في كلمة أخرى ذات بعد ديني تعبدي لدى المسلمين؛ ألا وهي كلمة: **عيد** التي ادعى المستشرق اليهودي الألماني أوجين متفوخ 1876-1943م، أنّها مستعارة كغيرها من الألفاظ الدينية الآرامية، مفندا ما ذكره علماء العربية في دلالة اللفظة، وإنّ ما ذهبوا إلي أنّها مشتقة من مادة -ع و د- باعتبار أن: العيد يعود ويتكرر كل سنة لا أساس له من الصحة.

فإذا نظرنا في الاستعمالات اللغوية للفظة **عيد** حسب ما تؤكده جملة من الكتب الدينية واللغوية حتى المعجمية منها، فإنّها لا تدل على البعد الديني: بل لها دلالات أخرى في مجال الاستعمالات اللغوية، كما أنّها لا تنحصر فقط في الوظيفة الدينية؛ بل لها كذلك استعمالات عديدة متنوعة، ومن دلالاتها الأخرى غير الدينية نذكر منها: الأعياد الوطنية العديدة، كعيد الاستقلال وعيد الثورة ... وغيرهما، فمن أيامنا كعيد الشجرة، وعيد العمال، وهلم جرا، فكل يوم احتفال يجتمع الناس فيه بفرح وسرور هو عيد بالنسبة لهم، وإذا بحثنا في أشعار الجاهليين وجدنا شواهد العربية، تثبت وجود استعمال هذه الكلمة قبل الإسلام، كقول **امرئ القيس**[1]:

فَآنَسْتُ سِرْبًا مِنْ بَعِيدٍ كَأَنّهُ   رَوَاهِبُ عِيدٍ في مُلاءٍ مُهَدَّبِ

وعند الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، **كقول قيس بن الأسلت**[2]:

وَلَهُ شَمْسُ النَّصَارَى وَقَامُوا   كُلَّ عِيدٍ لِرَّبِهِمْ بِاحْتِفَالِ

ويذكر صاحب دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، الباحث الدارس إبراهيم عوض: أنّ العرب في الجاهلية يستعملون أيضا كلمة: يوم، كيوم السباسب، ويوم الفِصح، وأحيانا أخرى يذكرون اسم العيد مباشرة مجردا من هاتين الكلمتين.

من خلال البيتين السالفي الذكر أثبت الكاتب وجود هذه اللفظة في اللغة العربية وضعا واستعمالا من لدن عرب الجاهلية، حتى ولو كانوا لا يستخدمون المعنى الذي نستخدمه اليوم

[1]- امرئ القيس، ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2. مصر: 1964، دار المعارف، ص 386.

[2]- أبو قيس صيفي بن الأسلت الأوسي الجاهلي، ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت الأوسي الجاهلي، تح: حسن محمد باجودة، ط1، القاهرة – مصر: 1973، دار التراث، ص 86.

حسب ما أكدته المعطيات التاريخية واللغوية ولا يحق لأحد أن يزعم أن هذه الكلمة القرآنية مأخوذة من لغة أخرى، دون دليل ساطع يستند إليه، ولا حجة قاطعة يقيم عليها مزاعمه.

ومن جملة المزاعم اللغوية التي ذكرها المستشرقون والألفاظ القرآنية خاصة، التي أدرجها الدكتور إبراهيم عوض في كتابه: دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل الكلمات المذكورة في الجدول على هذا النحو:

الكلمة[1]	معناها الاستشراقي	تفسيرها حسب المستشرقين	مصدرها حسب المزاعم الاستشراقية
فطرة	بمعنى خِلقة		مستعارة من اللغة الحبشية.
قربان		الجسر الذي مرت عليه إلى العربية هي الآرامية.	مأخوذة من اللغة العبرية.
المدينة	مدينتا بمعنى: يثرب	الجسر الذي مرت عليه العربية هي العبرية.	مستعارة من اللغة الأرامية.
المنافق	مشتقة من نافقاء اليربوع[2] بمعنى: زنديق		مأخوذة من الحبشية Manafek
نبي			مستعارة من العبرية أو الآرامية.

[1]- إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية أضاليل وأباطيل، ص 199- 213.

[2]- ذلك أنّ نافقاء اليربوع: هي جُحْر من الجحور في باطن الأرض يخفيه ذلك الحيوان ويظهر غيره، ونافق اليربوع: معناه دخل في نافقائه، وهل النفاق الإنساني إلا هذا؟ إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية أضاليل وأباطيل، ص 208.

الجن	Genuis		مأخوذة من اللغة اللاتينية.

هذه أوهام لغوية، وقع فيها بعض المستشرقين، وهي لم تذكر اعتباطا؛ بل ذكرت عن قصد، لأهداف معينة كبرى، وغايات مقصودة عظمى، حيث جسدوها على أرض الواقع، وقد ظهر أمرها جليا في مواد موسوعاتهم الاستشراقية، كما مرّ بيانه.

3 - 12- عدم توظيف أخصائيين في القرآن الكريم

عنيت دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية عناية منقطعة النظير بالقرآن الكريم، حيث أفردت له بين طياتها مقالات عديدة، ومواد مستقلة في مختلف طبعاتها، وفي كل طبعة من طبعاتها تعاد كتابة موادها لتشمل على أحدث ما توصل إليه العلم والمعرفة في كل مادة من موادها، وإضافة كل جديد ومستحدث إليها، لتتضمن خلاصة الفكر الاستشراقي الحديث من أراء ونتائج في مختلف الموضوعات القرآنية عامة.

وقد تعرضت مواد الدائرة للقرآن الكريم بالتفسير الشامل، والشرح المفصل والتحليل العميق لمختلف مسائله وقضاياه العديدة، وقد اشتملت على معلومات وافية " عن المعارف الإسلامية عامة حيث تحتوي على أكثر من تسعة آلاف مادة علمية مرتبة ترتيبا ألفبائيا، تتراوح في الطول ما بين خمسين ألف كلمة للمادة الواحدة، حسب أهميتها في سياق الحضارة الإسلامية، بدءًا من أصول الدين الحنيف ومرورا بالأدب الإسلامي وتراجم حياة الشخصيات الإسلامية الكبرى"[1] فقد تحدثت عن مصادر القرآن الكريم وعن طريقة جمعه، وتحليلها لمختلف قراءاته، وتساؤلها عن طريقة ترتيب آياته، وتطرقت إلى مختلف موضوعاته، وترجماته إلى اللغات العالمية الحية الأخرى، وغير ذلك من معارف يصعب حصرها، والتي تطرق لها المستشرقون في هذا المؤلف الثقيل الوزن في ميزان الثقافة الإسلامية، أو قل في ميزان الثقافة العالمية، التي أسهمت وبدور فعال في نشر الشبهات حول الإسلام وتقديم صورة خاطئة عن مبادئه ومعالمه الحقة.

---

[1]- موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج1، ص13، بتصرّف.

ومن المعلوم أنّ دائرة المعارف الإسلامية وظفت مختلف المؤلفين من مختلف أنحاء العالم وهي من الإيجابيات التي تحسب لها، ولكن لم تسع إلى توظيف المختصين في الدراسات القرآنية والكثير من مشاهير الباحثين والمختصين في الشأن القرآني، ممن لديهم كتابات موسعة في مختلف العلوم القرآنية، فلم تطرق الدائرة أبوابهم، وقد أشار كثير من الباحثين إلى أنّ إصدار الدائرة لم يكن: "عملا فرديا يشرف عليه بعض المستشرقين المنتمين إلى قطر واحد؛ بل كان عملا جماعيا دوليا عقدت له المؤتمرات، وتنادى له المستشرقون من شتى دول أوروبا"[1] وقد طرحت فكرة إنشاء الدائرة حسب مختلف التقارير التي وقفنا عليها في مؤتمر المستشرقين التاسع.

وممّا تجدر الإشارة إليه: "أنّ أغلب كتاب دائرة المعارف قسس مبشرون يهمهم أن يخنقوا الإسلام لا أن ينصفوه، وقليل منهم يتصف بالشجاعة العلمية فيتغلب على عناصر التعصب وضيق الأفق"[2] وقد كان هؤلاء القسس من أوائل المترجمين للقرآن الكريم، حيث ساهموا في إخراج مئات الترجمات التي واكبت حقبا عدّة من تاريخ الحركة الاستشراقية، بدأت تقريبا منذ القرن الحادي عشر الميلادي، ثم تتابعت الترجمات بعد عدة قرون، وقد تميزت بترجمة النص دون المعنى وهذا باعتراف المستشرقين أنفسهم، يقول المستشرق فيشر في الندوة العالمية حول ترجمات معاني القرآن الكريم: "المترجمون مستعربون من الطبقة الثانية؛ بل منهم من هم من الطبقة الثالثة أو الرابعة والقرآن هو المصدر الأول لمعرفة الدين، والترجمة هي الطريقة الوحيدة لإيصال الإسلام إلى العامة"[3] ويقول الدكتور حميد بن ناصر الحميد بأنّ هؤلاء المستشرقين كانوا يقدمون الإسلام كما يريدون له، وليس كما هو على حقيقته، ومن ثمة يترجمون معاني القرآن الكريم بطريقة تخدم هذا الغرض بالدرجة الأولى، وتخدم ملتهم ودولهم المستعمرة للبلدان الإسلامية، بهدم معاقل الإسلام وحصونه، ويمكن لنا أن نتبين هذه الرغبة منهم في إخفائهم بعض المعاني، أو التعمد في تغيير بعض المعاني حتى يوافق النص مع وجهة نظرهم الشخصية، وتصوراتهم الغربية البحتة.

[1]– حميد بن ناصر الحميد، القرآن الكريم في دائرة المعارف الإسلامية، ص 6.

[2]– سيد بن حسين العفّاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ص 1152.

[3]– حميد بن ناصر الحميد، القرآن الكريم في دائرة المعارف الإسلامية، ص 12.

خلاصة الفصل:

الملاحظ على معظم الموضوعات التي تعرضت لها الدائرة تستند إلى دراسات استشراقية بالدرجة الأولى، وقلما تستند على المصادر العربية الإسلامية.

– نشير إلى أنّ هذا الكتاب الموسوعي باللغة العربية كما كتبه واضعوه دون تعليق على ما فيه من الأخطاء ومخالفة الحقائق، وأنّ أكثر ما نقل فيها إلى مصادر المسلمين لم يتعرض بالتحليل والإيضاح لما فيها من شبهات ومفتريات لجل القضايا التي ذُكِرَتْ فيها.

ولأمر ما؛ نتساءل عن مدى صدق ومصداقية الدراسات والبحوث التي اعتمدت على الدائرة بكونها مرجعا أساسيا في إصدار أحكامها، أو قيام آرائها، أو بناء نظرياتها، بما فيها من أخطاء ومغالطات وتهم باطلة عن الإسلام ورسوله ورجالاته وغير ذلك من رموز الحضارة العربية الإسلامية.

– وبناءً على ما سبق؛ علينا أن نتساءل دائما: هل كان بإمكان المستشرقين الذين كتبوا عن مادة القرآن الكريم – وغيرها من المواد الإسلامية– في هذا المؤلف الاستشراقي الضخم التجرد من هذه الضغوطات السياسية والمؤثرات الثقافية والفكرية الغربية، وهل عرفوا حقا كيف يميزون بين اهتماماتهم العلمية وبين الأهداف والغايات الاستشراقية بكلّ أبعادها لبلدانهم؟ وهل بحثوا ودرسوا وكتبوا وحققوا وحللوا التراث الشرقي بكلّ مكوناته بتجرد وصدق وأمانة علمية بحتة؟ وهل حققت المنظومة الاستشراقية بعدا مهما من أبعاد الثقافة الفكرية العالمية الحديثة؟ وهل حمل الاستشراق في داخله بمختلف حقباته التاريخية سمة موقف غربي واضح إزاء الإسلام والمسلمين؟ بدون شك شكل الإسلام استفزازا حقيقيا بطرق متعددة، ولم يكن ممكنا أن يغيب عن أي ذهن غربي ماضيا وحاضرا، كون الإسلام قد بزغ نجمه في أوروبا بحدودها إلى مختلف أصقاع المعمورة قاطبة.

– وما يلاحظ على بعض كتاب هذا المؤلف، إن لم نقل جلهم، غير متمكنين من اللغة العربية بشكل كامل وفقا لبعض المصادر الاستشراقية، على الرغم من معرفتهم بالمصادر الأصيلة، علاوة على استعانة الدائرة ببعض المستشرقين السائرين خلاف الاتجاه العام للدراسات القرآنية النزيهة، بل هناك كثيرٌ من علامات الاستفهام عليهم، أمثال: توماس باترك هيور، وجولد

تسيهر، وماكدونلد، وجوزيف شاخث، لويس ماسينيوس، وبرون، ومارجليوث، ونيكلسون، وفون كريمر، وغيرهم.

– على الرغم من أن المنهجية العلمية السائدة في الدائرة التي تبتعد عن البحوث السابقة للمستشرقين إلى حد كبير، وأن الروح العلمية هي الغالبة على كثير من مقالاتها، إلا أن هذه الموسوعة شملت العديد من الأمور المتناقضة، بما يتعلق بالمسائل العقائدية خاصة، وغيرها من المسائل التاريخية التي تنسب إلى السنة ورموزها، وإلى الشعر ورواته، وإلى اللغة وأئمتها.

– اهتمام كتاب الدائرة بمسألة التناقضات المزعومة، كانت ذات رؤية قاصرة تفتقر إلى المنهج العلمي اليقين، ممّا يستوجب منا تغيير وجهة النظر في تناولنا موضوعات الدائرة، بحيث تكون نظرة فاحصة ومدعمة بأدوات البحث العلمي، متوخين في ذلك المنهج المناسب في التحقيق والتحري عن حقائق هذا الكتاب، ليتسنى لنا الوقوف على المنطلقات الأساسية لكلّ موضوعاته.

وعلى الباحث أن يتساءل دائما: ما الغرض الحقيقي من وراء ادراج هذه التناقضات المزعومة الباطلة المزيفة في هذا المؤلف الاستشراقي الضخم، الذي يدعي محرروه الموضوعية العلمية في مقالاتهم؟ ومن يقف وراء ذلك؟ وما الغاية والأهداف المرجوة منها؟ وما مدى تأثيرها على القارئ الغربي والشرقي المسلم خاصة؟

– لقد رسمت الدائرة للتراث الشرقي عامة والتراث اللغوي خاصة صورة غير صورته الحقيقية في بعض مقوماته، حيث جعلته تراثا مستعارا من الحضارات القديمة والأمم الماضية تارة وشككت في مصادره، ورواياته، ورواته، وأعلامه، ورموزه تارة أخرى، وزعمت أحيانا أن فكره مستمد من الفلسفة اليونانية القديمة والقانون الروماني القديم، وهذه المواد التي أوردها المستشرقون في دائرتهم الاستشراقية الحديثة التي نشروها باللغات المختلفة، جاء تحليلها من وجهة نظر غربية بحتة تختلف اختلافا عميقا عن المفاهيم الإسلامية الأصيلة.

– ظهور هذا المؤلف الاستشراقي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كانت معظم الدول الشرقية تحت وطأة الاستعمار الأوروبي، فكانت هذه الموسوعة الثمرة الأولى لما غرسه المستشرقون من معارف شتى حول الشرق عامة، وحول العرب والمسلمين خاصة، وكانت

أيضا بمثابة مقدمة لعملية الغزو الفكري والسياسي والاقتصادي الذي قاده الغرب على العالم الشرقي عامة، وعلى العالم الإسلامي خاصة، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، عندما أضحى الغزو العسكري في نظرهم لا جدوى منه، وأيقن أخيرا هؤلاء الغربيون استحالة مواصلة العمل العسكري، بحكم التاريخ الاستعماري الذي مارسوه على الدول الشرقية قاطبة.

الفصل الرابـع

المستشرقون وترجمة القرآن الكريم

1- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم

نقصد من هذا الفصل تسليط الضوء على أبرز ما يساعد الانطلاقة الحقيقية للنشاط الاستشراقي على العموم، وما يساعد كذلك هذا التوجه للاستشراق الذي غلب عليه الاهتمام بالنص القرآني على وجه الخصوص، ولعل أبرز ما في هذا الاتجاه أنه حاول إضفاء السلبية على المفاهيم الإسلامية عامة، وعلى المفاهيم القرآنية خاصة، ولعل هذه السمة؛ أي السمة السلبية هي التي دفعت مفكري الغرب إلى إثارة صدام عنيف بين الحضارتين، الحضارة الشرقية والحضارة الغربية؛ بل إن هذا الصراع سيبقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وها هو المستشرق لورانس باروان Lawrance Brown يؤكد ما ذهبنا إليه بقوله: "إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم، وخطرا ... أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير يذكر، حسب ما أورده الدكتور محمد البهّي المدير العام للثقافة الإسلامية في مؤلفه: المبشّرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، وهذا ما نقله الأستاذ الدكتور محمد عمارة المفكر الإسلامي المعاصر على لسان المفكر اليهودي، والخبير الاستراتيجي هنتنجون: "الذي أكد أن العلاقة بين الغرب والإسلام علاقة دموية وصراعية أزلية لا أكثر"[1] ففكرة صراع الحضارات فكرة حقيقية قائمة في المجتمع الغربي، وفكرة الصراع فيها فكرة جوهرية موجودة في الحضارة الغربية منذ الأزل ومهيمنة على فكرها، والصراع الفكري المهيمن ملمح من ملامحها البارزة المعلن عنها والمعترف بها من قبل مفكريها.

لقد قام المستشرقون بدراسات ضخمة ومتعددة عن العالم الشرقي وشعوبه على اختلاف مكوناته، من لغة وتاريخ وحضارة وعادات وتقاليد، كما قاموا بدراسات عن الإسلام وكتابه ولغته ورسوله خاصة، موظفين فيها؛ أي في هذه الدراسات خلفياتهم الفكرية والعقدية والثقافية، فصدر منهم ما لا يقبله البحث العلمي النزيه من مغالطات وتحريفات، سواء عن قصد أو غير قصد ولهذا نظن أنّنا مخطئون حين نزعم أنّهم منصفون، وأنّهم توجهوا نحو الشرق، لإجراء دراسات مختلفة عن الشرق الإسلامي خاصة، لأهداف علمية بحتة، أو لأجل خدمة الثقافة الإنسانية عامة.

---

[1]- محمد عمارة، رؤية نقدية للحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، القاهرة: 2002، مركز الدراسات المعرفية، ص7 بتصرّف.

لم يقف الأمر على كثرة الدراسات الاستشراقية وتنوعها؛ وإنّما تعدّاه إلى الإجراء الآلي لكثير من الرؤى والتوجهات التي أنتجتها الثقافة الغربية، في غضون حركية هذا النشاط الفكري والمعرفي الموغل في القدم كما أشرنا إلى ذلك سابقا، ممّا جعل أمر عدّها أو إحصائها لا معنى له؛ بل يتعذر علينا حصر الآثار التي خلفها المستشرقون في الحقل المعرفي عامة، وإنّما الأمر كلّه يكمن في الوقوف على محتواها ومضمونها وأهدافها، وفي رؤاها وتوجهاتها، لنخلص في الأخير على مدى تأثير ذلك كلّه بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الثقافة العربية الحديثة، حتى المعاصرة بصفة عامة، وفي الثقافية الإسلامية بصفة خاصة.

ومهما يكن من أمر؛ كفى بالمستشرقين فخرا أن تكون جهودهم الاستشراقية هي الأساس الذي بنى عليه علماء الشرق المحدثون دراساتهم، وإنّ لم نقل كلّهم؛ بل معظمهم في مختلف المجالات الثقافية العديدة والفنون والعلوم في العصر الحديث، والدراسات الإسلامية الحديثة خاصة حيث أصبحت مؤلفاتهم بالنسبة لسائر البحاثة في مختلف أصقاع المعمورة مراجع أساسية لا غنى عنها في انتاجهم الفكري، وأعمالهم الأدبية، وأبحاثهم اللغوية، ناهيك عن دراساتهم الإسلامية.

حيث أسهمت ترجمات المستشرقين ودراساتهم القرآنية، أعني آثارهم بشكل عام؛ مساهمة فعالة في رسم صورة الإسلام والمسلمين في الذهنية الغربية عموما، التي تُعدُّ مفتاح التصور الغربي للإسلام ومقاصده وأهداف رسالته السامية، التي كانت في كثير من الأحيان تهدف بالدرجة الأولى إلى تشويه القرآن الكريم، والطعن في قدسيته، وإفراغه منها وإغفال أيسر قواعده اللغوية، وكسر نظام تراكيبه البليغة، لإفراغه من قداسته النصية؛ كي لا يتمكن القارئ العادي من إدراك معانيه وفهم مقاصده.

إن المتتبع للحركة الثقافية في أوساط الساحة الفكرية الغربية عموما، وللساحة الثقافية الأوروبية خصوصا، يلاحظ في القرن السابع عشر، وفي الربع الأخير خاصة، وليس معنى هذا أن ترجمات معاني القرآن لم تظهر قبل هذا التاريخ، إذْ أنّ منها ما يعود إلى القرن الثالث عشر كما سبق بيانها "حيث لم تظهر أول ترجمة إلا بعد حوالي خمسة قرون من ظهور الإسلام، وبعد تدخُّل مارتن لوثر ونشر أوّل ترجمة لاتينية لمعاني القرآن الكريم... في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي سنة 1130، بأمر وتوجيه من رهبان دير كلوني بطرس... وتتميز هذه الترجمة أنّها أول

ترجمة استشراقية للقرآن الكريم على الإطلاق"[1] بعد ذلك كثرت ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغات الغربية، فظهرت الترجمات؛ "الكامل منها والجزئي، وفي بعض الأحيان كانت مع الأسف شعرا، نخص بالذكر منها ترجمة أولمان في كريفلد سنة 1840، وهينتغ في ليبزغ سنة 1901 وهي باللغة الألمانية وترجمات سافاري 1783، وكازيمرسكي 1840، ومونتيه في باريس باللغة الفرنسية، وترجمات رودويل في لندن 1861، وبالمر في أوكسفورد 1880، وهي باللغة الإنجليزية. أما الترجمات البارعة الشرح حسبما ذكره بلاشير، لكلّ من بوزاني في فلورنسا 1955 وهي بالإيطالية، ور. بيل في أيدمبورغ 1939 بالإنجليزية، وج. فرينه في برشلونة 1963 بالإسبانية، فإنّها تفوقت ولا شك على كافة الترجمات السالفة الذكر"[2] وغيرها من الترجمات التي لا يتسع المقام لذكرها كلّها في هذا الفصل "إذ لا توجد اليوم لغة أوروبية أو شرقية إلا وفيها ترجمة أو ترجمات عدّة لمعاني القرآن الكريم، والمهم أن نعلم أنّ حركة ترجمة القرآن الكريم من قبل المستشرقين عرفت مدارس متخصصة عنيت بالموضوع أشهرها وأهمها: المدرسة الإسبانية والمدرسة الألمانية والمدرسة الإنجليزية"[3] وسنكتفي هنا باستعراض بعضها، وسنحاول الوقوف على أبرزها وأكثرها شهرة وصيتا في الأوساط الثقافية الغربية عامة، والتي أصبحت مصدرا مهما للعديد من الترجمات الأوروبية.

أولا- ترجمة أندري دي ريور باللغة الفرنسية، لتي ظهرت في حدود القرن السابع عشر؛ أي في سنة 1647، وكانت بمثابة النواة الأولى لسائر الترجمات الأوروبية لفترة طويلة من الزمن.

ثانيا- ترجمة الإيطالي لودفيك مركي في 1698م من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية حيث تعدّ عمدة كثير من الترجمات المعاصرة حسب ما ذكرته بعض المصادر المتخصصة بالدراسات الإسلامية.

---

[1]- محمد حمادي الفقير التمسماني، تاريخ حركة ترجمة معاني القرآن الكريم من قبل المستشرقين ودوافعها وخطرها، دط. المغرب: 2007، ص 13.

[2]- بلاشير، القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، نقله: رضا سعادة، دط1. بيروت- لبنان: 1974م، دار الكتاب اللبناني ص 19- 20، بتصرّف.

[3]- محمد حمادي الفقير التمسماني تاريخ حركة ترجمة معاني القرآن الكريم من قبل المستشرقين ودوافعها، وخطرها، ص 13.

ثالثا– ترجمة الإنجليزي جورج سال في سنة 1734 من العربية مباشرة إلى الإنجليزية طبعت عدة مرات، وتعتبر من أشهر الترجمات الإنجليزية على الإطلاق وأكثرها تداولا واستعمالا بين الناطقين باللغة الإنجليزية "ويُعدّ صاحبها شيخ المترجمين الإنجليز"[1] في هذه المرحلة.

رابعا– ترجمة المستشرق الفرنسي ريجي بلاشير Régis Blachère 1900–1973م التي ظهرت في باريس؛ في حدود سنة 1947، وكانت من أشهر الترجمات باللغة الفرنسية.

وهناك عدد من الترجمات الأوروبية التي نالت قدرا من الصيت والشهرة، كترجمة سافار وترجمة كازيمرسكي بالفرنسية التي سماها بلاشير بالترجمات المغلوطة اللذيذة، وترجمة دوربيه وترجمة مونتيه وترجمة جاك بير، وترجمة رودي بارت باللغة الألمانية، وغير ذلك من الترجمات التي تعد بالمئات، ومن خلالها ترك الإسلام بصماته على جميع مستويات المعرفة الغربية، وعلى جميع الصُعد، وأسهمت بقدر كبير في تنوير القارة الأوروبية عامة.

وعلى الباحث أن يتساءل دائما؛ عن هذه القضايا التي تثير اشكالات عدّة وتساؤلات في عمق هذه القضايا، والمتطرق للنص القرآني بإعجازه البلاغي خاصة، الذي لا يضاهيه كتاب، وما السبب الدافع لترجمة معاني هذا الخطاب القدسي؟ وما الحكمة منه؟ وهل يمكن للترجمة أن تحل محلّ النص القرآني الأصلي المعجز والمنزه عن كلّ عيب ونقص، الموحى به من عند الله ﷻ في أمور توحيده وعبادته ومقاصد شريعته؟ وإن تقرّر ذلك، فما هي ضوابطها الفنيّة والعلمية؟ وما هي شروطها؟ وما الطرق التي سلكها المترجمون في إنجاز ترجماتهم؟ هل هي طرق علمية بحتة تلتزم المنهجية والأمانة والدقة والموضوعية؟ أم هي طرق طغت عليها النزعات الذاتية الوجدانية أو العاطفية؟ وما الآثار التي ترتبت عن ذلك؟ وما الذي يمكن أن يترتب عن ذلك كلّه؟ إذا كانت الترجمة تُعدُّ ضربا من ضروب التفسير ليس إلا، مهما كانت الغاية من ورائها، سواء كانت للاطلاع علي القرآن الكريم ومقاصده الكبرى والاستفادة منه قدر المستطاع، وإما بغرض الوقوف على مضامينه وأهدافه وغاياته لمحاربته أو بهدف تزويره وتشويهه والطعن فيه.

---

[1]– محمد حمادي الفقير التمسماني، تاريخ حركة ترجمة معاني القرآن الكريم من قبل المستشرقين ودوافعها، وخطرها، ص 20.

2- ترجمة معاني القرآن الكريم من وجهة نظر علماء الإسلام ومفكريه

تضاربت الآراء وتباينت وتعددت واختلفت عند علماء القرآن ومفسريه في قضية ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، شرقية كانت أو غربية، لاعتبارات عدّة: منها إشكالية الترجمة في حد ذاتها، فكيف إذا كانت الترجمة ترجمة النص المقدس؟ كلام الله المنزه عن الخطأ والسهو، وفي هذا الصدد يقول الزركشي 1344م-745هـ/1392م-794هـ، وهو علماء والتفسير وأهل النظر الذي بزغ نجمه في القرن الثامن الهجري، في كتابه: البرهان في علوم القرآن لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه، لأنّه كلام الله وكلام صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنّما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه، وهذا بالنسبة للمفسرين العرب الأقحاح، سادة البلاغة وفنونها، وأهل الفصاحة والبيان الذين تحداهم الله ﷻ في كتابه العزيز، فوقفوا عاجزين عن تحدي القرآن الكريم لهم، فما بال الإفرنجي البعيد كلّ البعد عن ثقافة هذه اللغة؛ أي اللغة العربية وأساليبها التعبيرية المعجزة لأهلها - وأهلها هم العرب- وخصائصها التركيبية، وبلاغتها في الدلالة عن معانيها، أن يفقه مضامينها ويدرك القواعد الخاصة بطرق تفسير معاني القرآن الكريم ويستوعبها.

احتدمت المناقشات والمطارحات حول هذه القضية وتشعبت وتعقدت، فذهبوا في ذلك مذاهب شتى، واعتمد كل مذهب على حجج وبراهين عدة تؤيد رأيه وتدعم ما ذهب إليه، فظهر نفر من الفقهاء حرم ذلك تحريما مطلقا لاستحالة أن تحل الترجمة محل النص الأصلي استحالة مطلقة؛ وأن تعكس المعاني الصحيحة والدقيقة للقرآن الكريم، باعتبارها ناقلة لأفكاره ومعانيه؛ بل هناك من ذهب إلى القول بأن الترجمة تغير معانيه في بعض الأحيان قصدا أو دونه، لما تحمله هذه الترجمات من تحريف وتبديل وتزوير وقطع، ومن إضافات أيضا في الوقت نفسه.

وانطلاقا من هذه الأهمية الكبيرة لترجمة معاني القرآن الكريم، ولصعوبة ترجمتها وثقلها على عاتق المترجمين عامة "يزداد الأمر صعوبة مع النص القرآني"[1] سواء بالنسبة للقائمين بها أساسا أو للمقوّمين لما قام به غيرهم، نجد أنّ المجال لا ينبغي يُتقبَل من كل من هب ودب؛ بل لا

---

[1]- عبد الرزاق عبد المجيد ألارو، تاريخ تطوّر ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة اليوربا، ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، مجمع الملك فهد، 2001، ص5.

بّد من أوصاف يجب توفرها في المترجم، وضوابط صارمة يجب أن تتقيّد بها الترجمة ذاتها حسب ما ذهب إليه الباحث عبد الرزاق عبد المجيد ألارو من الشروط الواجبة توفرها في المترجم والترجمان على حد سواء، في كتابه الموسوم: "تاريخ تطوّر ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة اليوربا".

في حين نجد نفرا آخر من الفقهاء والمفسرين، ممن أباح ذلك لاعتبارات جليلة لا يستهان بها، كنشر تعاليم هذا الدين ومقاصده الكبرى، ونشر هذه الرسالة السماوية المقدسة في مختلف أرجاء المعمورة، تسهيلا لفهمه على المسلمين غير الناطقين باللغة العربية، وهذا واجب، وفرض كفاية على كل من يحمل هذا الكتاب في قلبه أين ما حلّ وارتحل، لغرض تبليغ الدعوة الإسلامية وتعاليمها ومبادئها وقيمها، وغيرها من الاعتبارات الدينية والتعليمية.

ومن أشهر من ذهب مذهب الإيجاز، العلامة المغربي، شيخ الحديث محمد الحجوي الثعالبي الفاسي 1874–1956م وكتابه: حكم ترجمة القرآن الكريم مستدلا على ذلك، بأن الإسلام لا يلزم الأمّم الأخرى تعلم العربية قبل دخولها في الإسلام، ومستشهدا بقول النبي محمد ﷺ: ﴿ بلِّغوا عنِّي ولو آية[1]﴾ فكيف يكون التبليغ لجميع الأمّم دون استثناء؟ إن لم يكن بالترجمة إلى ألسنتها، لأنّ الترجمة تعدّ بمثابة جسر للتواصل وباب من أبواب التعريف بالآخر، وسبيل من سبل نقل العلوم والمعارف والخبرات بين الحضارات المختلفة لغة وعقيدة وثقافة وغيرها من المقومات الحضارية.

ولا بّد لنا من الإشارة إلى استحالة ترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية لفظية استحالة قطعية وإمكانية ترجمة معانيه ترجمة معنوية تفسيرية إمكانية محدودة؛ لأنّ الترجمة لا يمكن أن تعتبر قرآنا بإجماع علماء الفكر الإسلامي وفقهائه على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وباتفاق أهل العلم المتخصصين والمهتمين بالترجمة منذ القدم، مهما بلغت هذه الترجمة درجة الاتقان والبيان والأمانة العلمية، لأن القرآن الكريم معجز في نظمه ومفرداته ومعانيه وأسلوبه وأحكامه وتشريعاته فلا يمكن لأي لغة مهما كانت أنّ تحاكيه أو أن تأتي بمثل ما جاء به مطلقا.

[1]– محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ط1. دمشق: 2002، دار ابن كثير، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رح 3461، ص 857.

مع الإشارة إلى أنّ الترجمة ضربان[1]: ترجمة لفظية تتمثل في نقل الكلام من لغة إلى أخرى مع رعاية التوافق في الترتيب والنظم والحفاظ على جميع معاني الأصل المترجم، فهي تشبه وضع المرادف مكان مرادف، في حين المعنوية تتمثل في شرح الكلام وتوضيحه وبيان معناه بلغة أخرى دون رعاية لترتيب الأصل ونظمه، من غير الحفاظ على جميع المعاني المرادة منه على حد تعبير الباحث شاكر عالم شوق في مقاله المعنون: "ترجمة معاني القرآن الكريم ودور المستشرقين فيها".

لأنّ الترجمة المطلقة تكاد تنعدم تماما، حيث تحل مفردات الترجمة محل مفردات القرآن الكريم، وأسلوبها محل أسلوبه وهذا أمر مستحيل بإجماع الفقهاء وباتفاق المتخصصين في ميدان الترجمة، شرقيين كانوا أو غربيين وهو أمر مقيد بشروط، كون الترجمة نسبية، كما أنّ للدارس السالف الذكر رأيا، في أنّ الترجمة لها شروط لا بّد من توفرها في المترجم؛ ألا وهي:

1– معرفة المترجم لأوضاع اللغتين، لغة المترجم ولغة المترجم إليه.

2– معرفته بخصائص اللغتين وأساليبهما.

3– وفاء الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده على وجه مرض.

4– أن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل.

وعليه؛ فإنّ هذه الشروط أو هذه القيود التي تقيد عملية الترجمة وتصعبها – صعوبة جمة– تثير العديد من التساؤلات حول ترجمات المستشرقين خاصة:

هل تتوفر هذه الشروط في المترجمين أثناء انجاز ترجماتهم؟ وما الآثار المترتبة عن تلك الترجمات في حال انعدام هذه الشروط في أصحابها؟ أو ما يمكن أن يترتب عن ذلك كله؟ وهل يستطيع المترجم – أيا كان– نقل معاني القرآن الكريم بكلّ أبعادها اللغوية والروحية إلى لغة أخرى؟ مع العلم أن معاني القرآن الكريم مقيدة، بأبعاد بلاغية وأحكام تشريعية، وأن القرآن الكريم معجز في نظمه ومعانيه، وفي جميع جوانبه، فهل يمكن للغة ما أن تحاكيه وأن تأتي بالمثل له أو أن تأتي بما يقاربه حتى مع وجود فروق لغوية بين اللغة العربية واللغات الأعجمية المعترف بها من جلّ المختصين في المجال اللغوي، كاختلافها في التراكيب اللغوية من حيث الضمائر والتذكير

[1]– شاكر عالم شوق، ترجمة معاني القرآن الكريم ودور المستشرقين فيها، بنجلادش: 2007، دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ، مج4، ص 59– 60، بتصرّف.

والتأنيث والإفراد والجمع، مع غناها بالمفردات والمترادفات التي ليس لها مثيل في اللغات الأخرى ناهيك بالأساليب البلاغية والخصائص التعبيرية التي تتفرد بها لغة الضاد عن غيرها من اللغات الأعجمية، وهل يراعي المترجم الغربي فهم ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه في زمن نزول القرآن (مراعاة السياق الزمني للألفاظ) وأسباب التنزيل وما إلى ذلك من الأسئلة الحيوية التي تتبادر إلى الذهن حين نتطرق إلى قضية ترجمة معاني القرآن الكريم، التي تعتبر من الترجمات العويصة، إن لم نقل المستحيلة لتعلقها بالخطاب القدسي المعجز والمحكم والبليغ لما يتميز به من خصوصية وبلاغة مطلقة، والخوض في هذا المضمار يصدم لا محالة بترجمة مصطلحات ومفاهيم دينية يجب أن تكون ترجمتها ترجمة دقيقة دقة متناهية بعيدة كلّ البعد عن الغموض، لتكون مفهومة واضحة في اللغة المنقولة إليها، للحيلولة دون اختلاط المفاهيم الدينية لدى متلقيها، كونها مرتبطة بقضايا تعبدية محضة.

أجاب عن هذه الأسئلة الخطيرة المستشرق الفرنسي المعاصر جاك بيرك Jacques Augustin Berque 1910-1995م بالاعتراف القاطع الدامغ؛ قائلا: "إنّ محاولته ترجمة معاني القرآن الكريم، لم تكن إلا محاولة لتفسير معاني القرآن الكريم، لأنّ الترجمة الحقيقية للنصّ القرآني مستحيلة، فألفاظ وعبارات القرآن الكريم لها مدلولات ومؤشّرات عميقة ولا تستطيع اللغة القابلة أن تنقلها بكل ما تحتويه من معان ظاهرة وخافية"[1] فجاك بيرك هنا كغيره من المترجمين الذي اعترفوا باستحالة ترجمة معاني القرآن الكريم استحالة قطعية، لعدة سمات تسهم -وإن يكن بشكل غير مباشر- في توجيه دلالاته، وتفسير النصّ بأي حال من الأحوال، ومن المعاني العويصة لدرجة الاستحالة نذكر مسألة الحروف المقطعة في أوائل السور، ومسألة التأنيث والتثنية في اللغة العربية وغيرها من المسائل.

وأضاف بيرك عاملا آخر يُصعب من مهمة الترجمة أكثر فأكثر، والذي يتمثل في المرجعية الفكرية المهيمنة على وعيه، رغم تخلصه -ولو بنسبية- من الفكر الغربي، حسب ما أشار إليه بعض الدارسين العرب المحدثين، حيث أخرجوه من دائرة الاستشراق التقليدي الإمبريالي

---

[1]- علي بن إبراهيم الحمد النملة، جهود العلماء المسلمين في دراسات الكتابات الاستشراقية حول القرآن الكريم رصد ورقي ببليوجرافي، دط. 2013، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ص2، بتصرّف.

القديم أمثال الدكتور مصطفى عبد الغني، حيث أخرج جاك بيرك من خانة الاستشراق التقليدي قائلا: "يختلف – كمستشرق أو باحث في الاستشراق– عن جيل آخر سابق له يربط بين الاستشراق والإمبريالية أو الاستشراق التقليدي والاستشراق الجديد"[1] واستطاع بيرك كغيره من الجيل الجديد أن يفلت من الاستشراق القديم، وإن لم يستطيع حسب عبد الغني أن يفلت من هذه النسبية التي تعفي الباحث الغربي من أية مسؤولية عن التشويه لصورة الشرق.

وأجاب أيضا عن السؤال المذكور سلفا المستشرق الفرنسي ريجي بلاشير بقوله: "إن ترجمة للقرآن مهما كانت وافية ومزودة بالشروح والتفسير، لا تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها" ولا تستطيع أن تحيط بجميع جوانب القرآن الكريم على اختلاف جوانبه، فضلا عن ذلك فإنّ: "اللغة العربية تضفي على الرواية ميزة غريبة بسياقها المكثف، واهتمامها بالإيحاء أكثر من اهتمامها بالوصف"[2] وهذه تُصعب من مهمة الترجمة في نقل كلّ كبيرة وصغيرة من خصائص هذه اللغة وميزاتها.

وعلى الرغم من هذه الآراء وتلك؛ مساندة كانت أو معارضة؛ فقد ظهرت ترجمات عدّة لمعاني القرآن الكريم إلى لغات أخرى، ولقد ترجمت معانيه إلى أكثر اللغات العالمية الحية، من لدن المستشرقين ومن سار في فلكهم، بداية بالترجمة اللاتينية ثم توالت الترجمات إلى مختلف اللغات الأوروبية المنحدرة من اللغات اللاتينية مباشرة، ومن ثمّ ظهرت ترجمات من العربية إلى مختلف اللغات الأوروبية التي كانت بوصية من الكنيسة، وبإيعاز من الرهبان والقساوسة وبإشراف المستشرقين، وانتهاء بدخول المسلمين ميدان ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات العالمية المختلفة.

3- اتجاهات المستشرقين في دراسة لغة القرآن الكريم

لم تكن الدراسات القرآنية وقفا على علماء الإسلام فقط؛ بل تعدت إلى غيرهم، وقد ظهرت العناية بالنص القرآني من قبل الشرق والغرب على حد سواء، وإن كانت دراسة المستشرقين الغربيين أسبق وأوسع مع الإشارة إلى أنّ هناك بعض المصادر اللغوية والتاريخية تذكر أسبقية

---

[1]– مصطفى عبد الغني "ترجمة جاك بيرك للقرآن: من القراءة إلى التفسير" دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر بيروت: 2001، ع49، س12، ص 126.

[2]– بلاشير، القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ص56.

الفرس في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية عن بقية الأمّم الأخرى، حتى وإن كانت هذه الترجمات قد طواها الزمن واندثرت، فلم تصل إلينا، وظهر ذلك جليا في إصداراتهم المتنوعة والمتعددة التي تُعدّ من أكبر وأضخم الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم ترجمة وتحليلا وتفسيرا وانتقادا، وتتميز هذه الدراسات بأنّها ذات اتجاهات شتى:

وقد عُرفت هذه الاتجاهات على نطاق واسع جدا، وشاعت كثيرا مع ازدهار الظاهرة الاستشراقية، وتجلّت بأفضل صورها منذ ترسيم هذه الظاهرة، واكتسابها شرعيتها المنهجيّة، مع إنشاء عدد من كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الأوروبية الكبرى: كباريس، وأكسفورد لايبتزغ/ ليبزج Leipzig.

ظهرت أوّل ترجمة لمعاني القرآن الكريم في العالم الغربي في حدود القرن الثاني عشر الميلادي، من قبل الراهب الفرنسي رئيس دير كلوني Clugny الملقب ببطرس المحترم/ المبجّل/ المكرم/ الموقر Pierre le Vénérable 1092-1156م، وهي ترجمة إلى اللغة اللاتينية – مع أنّها لغة ميتة، وانحصرت دراساتها في مختصين قلائل كما تشير إلى ذلك بعض الدراسات الغربية، وحتى العربية أمثال: موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، والدكتور محمد صالح البنداق، وغيرهم.

ثم ظهرت ترجمات غربية عدّة لمعاني القرآن الكريم، وقد ترجمت معانيه إلى أكثر اللغات الأوروبية والآسيوية والإفريقية والأمريكية بترجمتين، سواء بترجمة لفظية حرفية أو بترجمة معنوية تفسيرية، اتخذوها سبيلا أو طريقا للولوج إلى العالم الشرقي الإسلامي خاصة لتكون لهم رافدا مُهِما في فهم الفكر الإسلامي ومقاصده وتعاليمه الكبرى، وإن كان يشوبها كثير من الطعن والافتراء والشك، وعدم إيضاح المعاني والمضامين المعتمدة في هذه الترجمات، فضلا عن عدم مراعاتها للأمانة العلمية، وذلك بما شابها من تزوير وحذف وإضافة في بعض الأحيان وبتر للجمل والكلمات من الآيات، وإسقاط بعض الآيات أو تحريفها، وحتى قطع السور القرآنية، سواء بقصد أو بغير قصد، حسب ما أشارت إليه بعض الدراسات الحديثة المتخصصة في الميدان.

وهذا ما أكده الدكتور العراقي عادل عباس النصراوي في مقال له موسوم: بـ "أساسيات فهم النص القرآني ومصادر دراسته عند المستشرقين" وكانت الترجمة ممّا توافق أهواءهم أو تنسجم مع

أهدافهم التي رسمتها لهم المؤسسات التبشيرية آنذاك، بوصفها – أي هذه الأهداف– مجموعة من دوافع واستراتيجيات ورؤى غربية متحقّقة في الواقع الثقافي والحضاري لتفسيرها وفقا لأهوائهم وثقافاتهم وبيئتهم وعقيدتهم، تكشف مظهرا من مظاهر العقل الغربي وخلفياته الثقافية، ومرجعياته الفكرية، العقل الذي يخطط لكلّ شيء وينظمه ويرتبه ويسيره ويحلله ويفسره وفق منظوره الفكري الخاص، ووفق مصالحه الخاصة أيضا، لإدراج كلّ هدف من أهدافه ولَيِّها وتطويعها ضمن منظوماته ومؤسساته الموجّهة.

4- المنهج الاستشراقي المتبع في دراسة القرآن الكريم

لم يتعاط المستشرقون مع القرآن الكريم ككتاب مقدس، بصفته وحيا منزلا من الله ﷻ على خاتم الأنبياء محمد ﷺ؛ بل تعاملوا معه كإنتاج بشري، وكنص عادي كبقية النصوص الأدبية واسقطوا عنه جميع الخصوصيات الإلاهية التي يتميز بها عن بقية النصوص العادية، على الرغم من اعتراف جل العلماء الشرقيين، وحتى بعض المستشرقين الغربيين المنصفين بأنّ الترجمة الحقيقية للنصّ القرآني مستحيلة استحالة مطلقة، لأنّ ألفاظه وعباراته لها مدلولات خاصة ومؤشرات عميقة لا تستطيع اللغة المقابلة أن تحويها وتنقلها بأمانة، لما تحمله ألفاظه وعباراته من معان ظاهرة وأخرى خفية، بغض النظر عن السياق والموضوع، بالإضافة إلى الإيقاع الذي ينفرد به النص الأصلي العربي، الذي لا يمكن أبدا تذوقه إلا به، والذي يستحيل نقله إلى لغة أخرى، حيث بيّنت جل الدراسات التي أجريت حول الترجمات المتداولة التي تمّ إنجازها من لدن المستشرقين أو غيرهم، بأن عامل النقص والتقصير والخلل يعتريها، وهذه طبيعة جُبِلَتْ عليها البشرية كافة، كما أثبتتها البراهين العلمية.

وهذا ما شهد به شاهد من أهلهم المستشرق الإنجليزي الشهير، أستاذ الدراسات الإسلامية والشمال الإفريقية روم لاندو Rom Landau بعباراته التي تنفي مزاعم بعض المستشرقين التي تدعي إنجاز ترجمات قرآنية دقيقة، والتي تقتضي في حقيقة الأمر الأمانة العلمية في المنهج والنقل، من لغة إلى أخرى، حين قال: "إنّنا لم نعرف إلى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقّف من روح الوحي المحمدي. والواقع أن كثيرا من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل وحسب؛ بل كانوا في ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام، إلى درجة جعلت ترجماتهم

تنوء بالتحامل والتغرض. ولكن حتى أفضل ترجمة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السّور الموسيقي الآسر، على الوجه الذي يرتلها بها المسلم، وليس يستطيع الغربي أن يدرك شيئا من روعة كلمات القرآن وقوّتها إلا عندما يسمع مقاطع (آيات) منه مرتّلة بلغته الأصلية"[1] بسبب أن القرآن الكريم مفعم بطاقات إيقاعية قوية جدا ومؤثرة على السامع يستحيل ترجمتها أو نقلها إلى لغة أخرى أبدا، ولا يتمتع بها السامع و لا يتذوقها؛ إلا إذا رتّلت بلغتها الأصلية.

ولا شك أن المناهج التي اعتمد عليها المستشرقون في ترجماتهم لمعاني القرآن الكريم، هي مناهج تتسم بالخلل والنقص والقصور، وينقصها الكثير من الصقل والدقة العلمية حسب ما ذهبت إليه معظم الدراسات المتخصصة في المجال- ومن سماتها ومعالمها الكبرى نذكر – على سبيل المثال لا الحصر في جل الترجمات الاستشراقية لمعاني القرآن الكريم:

- إخضاع ترجماتهم لسلطان التكهن والتخيل والهوى، والبعد كلّ البعد عن العلمية والموضوعية، والأمانة العلمية في نقل المعاني القرآنية وعباراتها الدقيقة الواضحة.

- محاولاتهم إعطاء معنى واحد لكلّ لفظة لا أكثر بمفهوم التضييق اللغوي بصرف النظر عن السياق الذي وردت فيه، أو الموضوع الذي تحاكيه.

- اعتمادهم على المنهج الانتقائي، وتجاوز كلّ ما شأنه أن يثبت أن الوحي مصدر إلهي وليس من صنع بشري محمدي، وبعث كل ما من شأنه أن يبعث الشك والريب في القرآن الكريم وفي مصدريته، وفي اللسان الذي أتى به، اللسان العربي المبين.

- تصيد النصوص الملائمة وأغراضهم التشككية، التي توافق أهواءهم، وتخدم بالدرجة الأولى مآربهم وخططهم الاستشراقية المدروسة بإحكام، واعتمادهم أيضا على القراءات الشاذة لإثارة الشكوك في المعطيات القرآنية.

- إغفالهم المصطلحات العربية عن قصد أو الخلط بينها، نتيجة جهلهم المعاني الدقيقة واللجوء إلى استعمال مصطلحاتها البائدة أو الميتة وكذا مصطلحاتها النصرانية واليهودية في ترجماتهم، مع محاولاتهم نسبة الألفاظ العربية إلى جذور أجنبية كلّما استطاعوا إلى ذلك سبيلا

[1]- روم لاندو، الإسلام والعرب، نقله: منير البعلبكي، ط2. بيروت: 1977، دار العلم للملايين، ص 36 – 37.

بزعمهم أنّ هذه الألفاظ مستعارة من لغات ذات صلة بأخواتها السامية الأخرى كالسريانية والعبرية وكأنّ هاتين اللغتين هما اللغة العربية، ومن ثم فهما أصل القرآن الكريم.

– تحريف النصوص والتلاعب بها، من حيث التقديم والتأخير وغيرها عن قصد والانحراف بها عن معانيها الحقيقية.

ولتأكيد ما ذهبنا إليه نشير إلى الدارسة التي قامت بها الدكتورة زينب عبد العزيز والموسومة بفضائح الحضارة الصليبية: "ترجمات القرآن إلى أين؟" وجهان لجاك بيرك" قائلة: "لا أزعم أنني قرأت كل ترجمته لمعاني القرآن، وإنّما قرأت بروّية المقدمة التي كتبها وتقع في اثنين وثمانين صفحة"[1] يكفيها الحكم على ترجمة جاك بيرك وأغنتها عن الاطلاع عن بقية الصفحات التي تبلغ حوالي 800 صحيفة أو تزيد فضلا عن الفهارس أو الكشافات في نهاية الترجمة للشخصيات والآيات الكريمة، وما إلى ذلك.

وليست الدكتورة زينب عبد العزيز وحدها التي علّلت ذلك، بل نجد جملة من الدارسين مثل: الدكتور حسن بن إدريس عزوزي في دراسته الموسومة: بملاحظات على ترجمة معاني القرآن الكريم للمستشرق الفرنسي جاك بيرك وقد صرح قائلا: "عُرف جاك بيرك لدى المهتمين والمتتبعين باعتداله وموضوعيته وعدم تهجمه على الإسلام بصفة مباشرة، فهو يُعدّ نفسه أخا العرب بالرغم من أنّ حقيقة الأمر تدل على أنّ مواقف الرجل من الإسلام لا تخلو من انتقاد وتهجم واستهتار أحيانا ببعض القضايا القرآنية والمبادئ الإسلامية وأسسها"[2] كما عبر عن ذلك في مقدمة ترجمته حيث كشفت دراسة بيرك عن أخطاء فظيعة، ونواقص كثيرة احتوت عليها ترجمة بيرك تجعل من الصورة الرائجة عنها أمرا غير صحيح، لما تحمله بين طياتها من تحريف للمعاني القرآنية وتشويه لمقاصدها، وتصحيف لأهدافها.

وهذا ما أشار إليه المستشرق الألماني المعاصر رودي بارت Rudi Parit 1901–1983 بقوله: "فنحن معشر المستشرقين، عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسلامية؛

---

[1]– زينب عبد العزيز، فضائح الحضارة الصليبية: ترجمات القرآن إلى أين؟ وجهان لجاك بيرك، ط1. القاهرة: 2005 مكتبة وهبة، ص11.

[2]– حسن بن إدريس عزوزي، ملاحظات على ترجمة معاني القرآن للمستشرق الفرنسي جاك بيرك، ندوة "ترجمة معاني القرآن الكريم تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل" مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف: 1422هـ، ص4.

لا نقوم بها لكي نبرهن على ضعة العالم العربي الإسلامي؛ بل على العكس، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام ومظاهره المختلفة، والذي عبّر عنه الأدب العربي كتابة ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كلّ شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر؛ بل نقيم وزنا وحسب لما يثبته أمامنا النقد التاريخي أو يبدو وكأنّه يثبت أمامه، ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا، وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن"[1] وبذلك حدد رودي بارت المنهج الذي يتبناه في دراسته على العموم، وبحوثه في العلوم الإسلامية خاصة، فمن الوجهة العلمية؛ فمنهج التدليل العقلي الذي وظفه، منهج علمي سليم، ودراساته علمية لا غبار عليها، ولكن إذا خضنا في حيثيات هذا الادعاء، ونظرنا إليه نظرة تحليلية متفحصة عميقة، باستعمال مبادئ المنهج العقلي المجرد الذي يتغنون به في البحث والتقصي والدراسة، لتكشف لنا عن عدّة أخطاء منهجية، وقع فيها المستشرقون على العموم، مرجعها إلى خطأ منهجي أساسي هو تحكم الآراء المسبقة في جل أعمالهم، وإذا تناولنا دراساتهم وأبحاثهم بالفحص الدقيق، والتحليل العميق، نجد أن الكثير منها كانت بدافع الرغبة في التجريح، والتوهين، والطعن والتشويه في العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية بأفرعها المختلفة ليس إلا.

وأضاف رودي بارت في موضع آخر من هذا الكتاب: "إنّنا في دراساتنا لا نسعى إلى نوايا جانبيّة غير صافية؛ بل نسعى إلى البحث عن الحقيقة الخالصة"[2] منتقدا بشدة المخالفين لهذا الرأي، وبخاصة الرأي المضاد الذي صرح به عالم الأزهر الدكتور الأستاذ محمد البهي في كتيبه المسمّى: "المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام" بقوله في مؤلفه الشهير: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: فنحيط به علمّا، ونحن هادئو البال "إنّ المستشرقين جميعا فيهم قدر مشترك في هذا الجانب والتفاوت –إن وجد بينهم– إنّما هو في الدرجة فقط؛

---

[1]– محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط1. القاهرة– مصر:1989، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، ص 81.

[2]– رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، تر: مصطفى ماهر، دط. القاهرة: 2011م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص16.

فبعضهم أكثر تعصبا ... وعداوة من الآخر، ولكن يصدق عليهم جميعا وصف أعداء"[1] وبذلك دافع رودي بارت عن براءة المدرسة الاستشراقية الألمانية على وجه الخصوص، ووضح نواياها الصادقة اتجاه الدراسات الإسلامية على حد زعمه.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنّ رودي بارت كرّس حياته لخدمة علم العربية والعلوم الإسلامية وصنّف فيها عددا كبيرا من الدراسات العميقة، سدّ بها ركنا مهما في مكتبة الاستشراق عامة وحسبنا أن نذكر ترجمته للقرآن الكريم التي عكف عليها عشرات السنين، وأخرجها في غضون سنوات 1963 و1966 تلك الترجمة التي تشهد بتبحره في اللسان العربي وبفهمه الواسع لمعاني الكتاب الكريم.

فترجمة رودي بارت لمعاني القرآن الكريم جديرة بالاهتمام في حد ذاتها، لما تميزت به من الموضوعية والدقة العلمية النسبية، حيث شهدت هذه الترجمة عند صدورها لأول مرة في سنة 1962 صدى عالميا واسعا، حظيت بتجديد نشرها باستمرار في كثير من البلدان الإسلامية والغربية على حد سواء، وعدت إحدى أهم الترجمات العلمية الموثوقة التي صدرت باللغة الألمانية لمعاني القرآن الكريم في العصر الحديث، وأكثرها شهرة وانتشارا بين الغربيين، وبين المواكبين للفكر الإسلامي عامة، وذلك "بالتزامه فيها الموضوعية والدقة والأمانة العلمية... بقدر ما تسمح به الطاقة، حتى أنّه كان كثيرا ما يُعيد النظر في دراساته، مصححا ومنقحا، ممّا يشهد له بطول النفس في البحث، وعدم الاستنكاف عن الاعتراف بالخطأ والتقصير إذ ما اقتضت الضرورة"[2] وهذا بشهادة نقاد وعلماء – غربيين كانوا أو شرقيين– ممن وقفوا على هذا العمل، وتعرضوا له بالدرس العميق، والتحليل الدقيق، والنقد البناء، والتقويم السليم، فقد أثنى عليه المستشرق ويليام جراهام والباحث مسعود منصوري، وأحمد سمايلوفيتش وتعرض لآرائه بالنقد والتحليل، والدارس فريد قطاط وساسي سالم الحاج، وعمر فروخ، وسامي الصقار، وغيرهم كثر من باحثي الدراسات الإسلامية وخير دليل على الشهادات الإيجابية التي ذُكرت في حق هذا المترجم وترجمته، وهذا ما ذكره

---

[1]– محمد البهي، المبشّرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، مطبعة الأزهر، ص 15، بتصرّف.

[2]– قطاط فريد "ترجمة رودي بارت لمعاني القرآن: دراسة تقويمية، مجلة التنوير، المعهد العالي لأصول الدين بجامعة الزيتونة – تونس، دار المنظومة، ع11، ص 106.

رودي بارت في مقدمة ترجمته "من أنّه لم يستفد مطلقا من التّرجمات السّابقة له"[1] ولم يتأثر بالأحكام الاستشراقية السابقة قط، فتصريح رودي بارت دليل قطعي على استقلاله العلمي، وعدم نهج منهج أسلافه من المستشرقين الذين لم يعودوا إلى النص الأصلي باللغة العربية؛ بل أخذوا مباشرة من ترجمات المستشرقين السابقين لهم.

وقد عبّر ويليام جراهام عن إعجابه بمؤلفات رودي بارت عامة، وبترجمته لمعاني القرآن الكريم خاصة، بقوله: "ومن الطريف أنّه لم يظهر إلى الآن أي بحث في هذا الشأن بمثل هذا الاتساع والشمول"[2] وفي موضع آخر نجده يشيد باهتمام رودي بارت بالدراسات القرآنية، وتحقيق المصادر ذات الصلة بعلوم القرآن، وبالسيرة النبوية الشريفة، وبقضايا الصدر الأول من الإسلام ألا وهو صوت ويليام جراهام الذي رأى أنّه لم يكن يوجد أي باحث بإمكانه الوقوف على سر عظمة القرآن الكريم، والتصدي لمهمة ترجمة هذا الكتاب العظيم بالمستوى الذي ظهر على يدي رودي بارت"[3] فمن خلال هذا القول نستشف محاولة ويليام جراهام تبرئة المدرسة الاستشراقية الألمانية من النوايا السيئة اتجاه القرآن الكريم، واتجاه السنة النبوية، والمصادر الإسلامية، ووصفها بالاعتدال والانصاف والاتزان في جل دراساتها القرآنية عامة.

ورغم ما قيل في ترجمة رودي بارت من مدح وثناء، وتبجيل وتكريم، وذكر للمحاسن، وعدّ لنقاط القوة، ومن التزام صارم بالمعايير العلمية الدقيقة؛ إلا أنها تبقي كغيرها - بلا جدال ولا نقاش- من الترجمات الاستشراقية الغربية التي يتخللها النقص والقصور، مهما بذل فيها من جهد ودقة، ومهما كان صاحبها موضوعيا دقيقا، وهذا ما استشعره هو بنفسه، فحاول على إثر ذلك تدارك مشاكل الترجمة التي واجهته بشتى السبل والآليات، حتى بلغت به الحيرة في مواطن كثيرة إلى أن يَعْمَد إلى إضافة جمل توضيحية للآيات القرآنية، وهذا ما لا تقره المناهج العلمية الدقيقة ولا تثبته المعطيات العلمية، وتنأى عنه الأمانة العلمية في نقل المعاني القرآنية من العربية إلى الألمانية جملة وتفصيلا؛ بل توخى طريقة ثانية تتمثل في ترجمة بعض الآيات مرتين، ويظهر ذلك

---

[1]- قطاط فريد "ترجمة رودي بارت لمعاني القرآن: دراسة تقويمية" ص 138.

[2]- المرجع نفسه، ص 118.

[3]- نفسه، ص 114.

جليا في عجزه عن الاهتداء إلى ترجيح المعاني الصحيحة في بعض الأحيان، ويكتفي في ذلك بوضع نقاط استفهام تدل وبجلاء على عجزه وتيهه، وفي هذا الموقف دليل واضح على عجز الإنسان ومحدودية طاقاته الفكرية مهما بذل من جهد، ومهما حاز من تقدير، ومهما بلغ من علم ومهما انتهج من أسلوب علمي دقيق، عندما يجد نفسه وجها لوجه مع القرآن الكريم، الذي تحدى به المولى ﷻ البشرية كافة، في الإتيان بمثله إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا؛ بل تحدى الإنس والجن معا، مصداقا لقوله تعالى:﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨] ويقول تعالى في موضع آخر:﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود: ١٣] جفت الصحف، ورفعت الأقلام، وتحقق الوعد الإلاهي، وصدق ما جاء به محمد ﷺ وثبت وبقي هذا التحدي برهانا ساطعا، ودليلا قاطعا، وإعجازا قائما ثابتا في كلّ عصر وزمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعليه؛ فالترجمة مهما كان صاحبها علميا، موفور النصيب، دقيق المنهج، واسع الأفق عميق البحث، سليم المنطق، غزير المعرفة، واسع الاطلاع، ملتزما بالموضوعية العلمية، وبالنظرة المتفحصة الثاقبة لا تعرف غير العدل والانصاف؛ فلن تبلغ درجة الكمال – ولو بشكل نسبي– لأنّ عملية ترجمة معاني القرآن الكريم عملية معقدة جدا، ولا شك أنّها تقتضي من صاحبها "بذل أضعاف مضاعفة من الجهود سعيا إلى بلوغ أقصى قدر من الدقة في نقل المباني والمعاني"[1] ومع ذلك لم تسلم أي ترجمة إلى اليوم من الأخطاء والعثرات – كثيرة كانت أو قليلة، دون الحديث عن الترجمات المقصودة التي كانت بدافع التحريف والتصحيف والطعن والتشويه، وبنية مبيّتة مسبقة يقصد بها– بالدرجة الأولى– بث سموم الحقد الذي يثير الفتن، والإساءة إلى قدسية القرآن الكريم وهذا ما يدفعنا إلى الطعن في نزاهة المترجم من هذا النوع، والانتقاص من دراساته عامة– لأن السكوت عنها تسليم ضمني بها– لأن الترجمة من هذا النوع غير مطلوبة، ولا مرغوبة فيها أصلا وإنما المراد بها هو التعريف بالإسلام وبتعاليمه الحقة، ومقاصده الكبرى، وإيصاله إلى الناس

[1]– قطاط فريد، ترجمة رودي بارت لمعاني القرآن، ص 130.

كافة، بصدق، وأمانة علمية لا مراء فيها فهذا واجب على عاتقنا، ولا ريب في أنّ الأمم قاطبة بحاجة إلى وسيط – باعتبار أن الترجمة كذلك– من هذا القبيل؛ لكي تعطى ترجمة معاني القرآن الكريم حق قدرها، وتحقق الأهداف المسطرة لها بدقة لامتناهية، من نجاح وتوفيق وفلاح، ولتكون بذلك منارة للحق والحقيقة لتهتدي بها البشرية كافة.

وصعوبة ترجمة معاني القرآن الكريم – لا شك في ذلك– معترف بها حتى من المستشرقين أنفسهم، وهذا ما صرح به المستشرق الإنجليزي تي. بي. إيروينج T.B.Irving في مقاله الموسوم: بمشاكل ترجمة المصطلحات والمفاهيم القرآنية في الترجمات الإنجليزية، وهذا دليل على أن معاني القرآن الكريم قد بلغت الغاية القصوى في الإتقان، من جهة التراكيب والمضامين والمعاني والبراهين، وأنه يبقى فوق طاقة البشر، لأنّ الطاقة البشرية محدودة لا قدرة لديها على تجاوزه فليس من المعقول أن يحيط المحدود (محدود العقل والفكر والبصر والبصيرة) باللامحدود أبدا.

وفي موضع آخر، نجد رأيا آخر يتحدث عن صعوبة مهمة ترجمة معاني القرآن الكريم وهو رأي المستشرقة الألمانية آن ماري شميل Anne- Marie Shimmel 1922-2003م الذي ذكرته الأستاذة الجامعية بجامعة ستانفورد (و.م.أ) كاترينا مومزن Katharina Mommsen تبين فيه "صعوبة ترجمة النصوص ذات المضامين الباطنية، التي تكمن في البنية المتميزة للغة العربية لأنّ التجاوب الذي يضفي على الجملة العربية روعتها يضيع في سياق الترجمة، كما تضيع أيضا الإيحاءات الكثيرة المستتيرة التي تكمن في كل جذر عربي، وتثير لدى العارفين مختلف التداعيات والتجارب التاريخية والدينية والبلاغية"[1] واستنادا إلى رأي آن ماري شميل تعد ظاهرة ترجمة معاني القرآن الكريم مهمة صعبة على المترجم مهما أوتي من علم ومعرفة؛ ولن يستطيع إدراك المضامين الباطنية بدقة، ولا يفهم الإيحاءات التعبيرية في سياقاتها الزمنية المتداولة، وهذا يرجع بالأساس إلى بنية اللغة العربية، ونظامها التركيبي، ومميزاتها الأسلوبية صرفية كانت أو نحوية، وخصائصها الصوتية، وعاداتها النطقية، ومقوماتها اللغوية على غرار اللغات العالمية الأخرى.

[1]– كاتارينا مومزن، جوته والعالم العربي، تر: عدنان عباس علي، إشراف: عبد الغفار مكاوي، كويت: 1995م، عالم المعرفة، س194، ص297.

أمّا فيما يخص نظرة المستشرقين إلى ترتيب نزول القرآن الكريم، فقد حاولوا ترتيبه ترتيبا زمنيا معتمدين في ذلك على التدليل العقلي، والاجتهاد الفردي كلّ حسب خلفيتة الفكرية، ومرجعيته الدينية، وثوابته القومية، متسترين وراء حجاب الحيادية، والموضوعية، والدقة العلمية ضمن نظريات وجدت في هؤلاء ضالتها، فقد كثرت فيه الآراء، وتعدّدت حوله الاتجاهات، وتنوعت فيه المسالك، باختلاف الأهداف والتطلعات، وفي هذا "السياق تصب المحاولة التي قام بها ثيودور نولدكه معتمدا في ذلك على إشارات ومحاولات إسلامية واستشراقية سابقة"[1] اتخذت عبر الزمن أشكالا وصيغا مختلفة في ترتيبها لسور القرآن الكريم، وبيان الترتيب الزمني لنزول آياته، والنظر في مسائله الفنية المتعلقة بمكية السور أو مدنيتها، بالإضافة إلى سبب نزولها، وفي هذا الترتيب يقول المستشرق الألماني يوهان فوك Johan Fuck مهللا ومبجلا ومعظما: "لقد أحدث الكتاب هزة مدوية Epochemachend حيث عولجت فيه بذكاء مسألة نشأة الكتاب وجمعه وروايته، ولقد أسست المناقشة النقدية فيه للترتيب الزمني لسور القرآن قاعدة راسخة لكل البحوث التاريخية حول القرآن"[2] في هذا الميدان حتى الآن في الدول الغربية قاطبة.

ونتيجة لذلك؛ فقد أغرى هذا المؤلف ثلة من الباحثين العرب والمسلمين المحدثين، وحتى المعاصرين منهم، بأن يثنوا عليه بشكل مطلق، ويأخذوا بمنهجه، ويستدلوا بآرائه في مؤلفاتهم ودراساتهم القرآنية خاصة، فلهذا الأخير أشباه ونظائر وموالون وأنصار منتشرون انتشارا واسعا على المستوى العالمي، وعلى نطاق واسع؛ بالأخص بين الطبقة المثقفة المسْتغربة في العالم الإسلامي، وفي العالم الغربي على السواء، ليسوا أشد بأسا وألحن حجة من سابقيهم، تتراوح أعمالهم بين مؤيد ومعارض حينا وبين ناقد ومرجح أحيانا أخرى.

ولا يخفى على أحد الدور الذي لعبته نظرية نولدكه الشهيرة التي حاول فيها هذا الأخير التأريخ للنص القرآني، وتوثيقه من منطلق وثائق التاريخ الإنساني البحت، ومعاملته معاملة النص البشري- فالقرآن بالنسبة له لا يعدو أن يكون مصدرا من مصادر المعرفة فقط- مُخْضعا إياه للنقد والتحليل، جاهلا أو متجاهلا أن القرآن الكريم جمع ووثق ورتب وفق منهج علمي دقيق قوامه التوثيق والدقة والتثبت القطعي، الذي لا يدع مجالا لشك والريب والمراء أبدا.

---

[1]- حسن علي حسن مطر الهاشمي، قراءة نقدية في تاريخ (القرآن الكريم) للمستشرقين ثيودور نولدكه، ص10.

[2]- المرجع نفسه، ص 34.

وبالإضافة إلى هذا كلّه؛ فإنّ المشاع عن هذه النظرة النولدكية أن مسائلها متعلقة بشكل عام بجمع القرآن الكريم وترتيب سوره، وبخاصة نظرته إلى ظاهرة الوحي المنزل، ومسألة جمعه ورواياته، وترتيب نزول السور القرآنية وتركيبها عنده بشكل عام، والتي أقامها على أساس المنهج اللغوي المقارن أو فقه اللغة المقارن Philologie comparée – Philologie المسيطر في ذلك الحين كمنهج على دراسة الحضارات القديمة والشرقية، والتي تم فيها السعي إلى استكشافها بواسطة فهم النصوص التي أنتجتها هذه الحضارات على اختلاف ثقافاتها، محاولة منه تحليل الوقائع القرآنية، وإقامة صلة سببية بين الحدث وبين النص القرآني، وبالإضافة إلى اعتماده على المنهج الفيلولوجي، اعتمد أيضا الأحداث التاريخية التي تشير إليها بعض السور والآيات القرآنية، محاولا ربطها ببعضها البعض، بهدف تشكيل ركيزة تاريخية موثوق بها، يمكن من خلالها إعداد ترتيب زمني لها، سعيا منه لمعرفة المعاني الصحيحة والدقيقة للآيات القرآنية الكريمة.

تُبرز هذه النظرية النولدكية كيفية تعامل نولدكه مع مصدر الوحي الإلهي للإسلام بشكل خاص، وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالعقيدة الإسلامية في مؤلفه الشهير: تاريخ القرآن وبالأخص مسألة الترتيب الزمني للقرآن الكريم، معالجا فيه "مسألة نشوء النص القرآني الكريم وجمعه وروايته، كما ناقش في هذا الإطار مسألة التسلسل التاريخي للسور، واقترح ترتيبا لها يختلف عن ترتيبها بحسب زمن نزولها، كما هو معهود في الإسلام"[1] والذي يتنافى ومعطيات الإيمان وأركانه وشروطه، ولا يتفق وجوهر العقيدة الإسلامية، ولا يلتقي مع المسلمات الغيبية للاعتقاد الإسلامي جملة وتفصيلا، وهذا ما أكده نودلكه في كتابه: تاريخ القرآن باعترافه البيّن الصريح الواضح وضوحا قاطعا غير مُتَلَجْلج؛ أن الترتيب الذي يقترحه ليس إلا ترتيبا تخمينيّا وذلك بسبب فقدان الدلائل التاريخية الصلبة، فالترتيب في مجمله لم يحز على ثقة نودلكه نفسه.

فثيودور نولدكه يقدم نفسه عبر الحجج التي كان يقدمها، والآراء التي كان يستدل بها والمواقف التي كان يقترحها أو يفترضها أو قل التي كان يختلقها اختلاقا كباحث في العلوم الإسلامية وفي الشريعة المحمدية، يبحث في نصوصها المختلفة "بحثا حرّا غير ملتزم برأي

---

[1]– تيودور نولدكه، تاريخ القرآن، تعديل: فريديريش شفالي، نقله: جورج تامر وآخرون، ط1. بيروت: 2004م، دار النشر جورج ألمز هيلدسهايم – زوريخ– نيويورك، ج1، ص12.

العقائديين المسلمين الذين فرضوا على النص ما ليس فيه، وحمّلوه ما لا يمكن أن يتحمله عبر القراءة النزيهة العلمية المجردة التي باتت حكرا عليهم"[1] معتمدا في تفسيراته على الروايات الصحيحة الثابتة، ليكسب تفسيره المرجعية الإسلامية، رافضا في نفس الوقت ومشككا في معظم الروايات الثابتة التي وردت فيها كيفية تلقي محمد ﷺ الوحي من ربه ﷻ عجب، وفوق العجب! غريب عجيب أمر هذا المستشرق لا محالة.

والجدير بالذكر هنا، أن معظم آراء ثيودور نولدكه التي جاءت في هذا المؤلف كانت غريبة، وما أكثر ما يطرحه من غرائب، مختلقة خاطئة تماما بإجماع المتخصصين المنصفين في الميدان، بالإضافة إلى السلبيات الفكرية التي شحن بها، وهذا ما انعكس سلبا على الأحكام التي أصدرها، ودفعت به إلى التهور في ترجيح الأحكام في كثير من الأحيان، وهذا ما أقره نودلكه بقوله: إنّ كثيرا من المسائل التي اعتقدت وقتئذ صحتها – بكثير الجزم أو قليله– بدت لي فيما بعد غير مؤكدة الصحة، وأضاف قائلا في موضع آخر نقلا عن المستشرق الهولندي كرستيان سنوك هورجرونيه Christiaan Snouck Hurrgronje 1857-1936م: "إنّ كان من ندم فلأنني درست علوما لم أظفر منها في النهاية بنتائج حاسمة قاطعة"[2] وأنّه عاش طول حياته خادما لعلم لم يخرج به من دائرة التخمين والشك والحذر والتردد، وحين سئل عن مصير النتائج التي توصل إليها أجاب بشكل عام: لقد كان عملا غير ناضج وكفى.

ونشير إلى أنّ هذا المنجز لم يكن عملا فرديا؛ بل هو عمل تعهدته مؤسسة استشراقية بأكملها تسمى مدرسة نولدكه الاستشراقية، حيث تعاقبت على إنجازه ثلاثة أجيال كاملة من أبرز وأشهر المتخصصين الألمان في الدراسات القرآنية خاصة، كلّ بنسبة معينة، والدراسات الإسلامية عامة منطلقة من مؤسسها ثيودور نولدكه 1836-1930م مرورا بتلميذه فريديرش شفاللي Fridrich Schwally 1863 -1919م وأوغوست فيشر ت1934 انتهاء بجوتهلف براجسترسير Gothelf Bergstraser 1866-1933م، وتلميذه أوتو بريتسل Otto Pretzl 1893 -1941م، حيث عمل

---

[1]- رضا محمد الدقيقي، الوحي إلى محمد بين الإنكار والتفسير النفسي، ط1. قطر: 2009م، دار الميمان، ص 87.

[2]- عمر لطفي العالم، المستشرقون والقرآن الكريم: دراسة نقدية لمناهج القرآن الكريم، ط1. مالطا: 1991م، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي، ص7.

هؤلاء على تحقيقه ومعالجته ونشره، ورأى هذا المنجز النور بعد اصلاحه اصلاحا شاملا من الآخرين براجسترسير وبريتسل في حدود سنة 1938؛ أي بعد وفاة ثيودور نولدكه بسنوات، ولا تكاد تجد باحثا في الغرب متخصصا في مجال الدراسات الإسلامية عامة، والدراسات القرآنية خاصة، إلا ورجع إليه وأخذ من مادته، واستدل بآرائه، وهذا ما ذكره الدكتور رضا محمد الدقيقي على لسان المستشرق البريطاني آرثر جفري 1892- 1959م حين قال: إنّه أساس كل بحث في علوم القرآن في أوروبا قاطبة، ويعد بحق أدق ما أنتجه الغرب في هذا التخصص على مر العصور وفي كافة الأمصار حتى يومنا هذا.

ومن هذه المنطلقات المختلقة الزائفة، والمعتقدات الباطلة، التي شق بها ثيودور نولدكه منهجه في دراساته القرآنية، وتبعه في ذلك معاونوه في هذا المؤلف واحدا تلو الآخر، جاءت نتائجهم مخالفة تماما لحقيقة العقيدة الإسلامية، ولا تتفق مع أصولها، ومؤكدة أيضا –للادعاءات الاستشراقية المغرضة، ومفندة للمناهج العلمية المتبعة فيها، وكاشفة في نفس الوقت عن مواقف وخبايا مؤلفيها وأهدافهم المنشودة من وراء جهدهم الجهيد في الدراسات القرآنية، والذين كانوا يضمرون وراء كل دراسة من دراساتهم ذلك الضرب من الحقد الدفين، والضغينة الباطنية؛ فلم يسلم عمل قدمه هؤلاء من سموم زرعوها وأباطيل دسوها، والتي كانت ترمي بالأساس إلى إدراك المفاهيم الإسلامية، وفهم مضمون الظاهرة القرآنية، ومقاصدها العظمى، وأهدافها الكبرى، لا لبحث علمي نزيه، ولا لدراسة موضوعية دقيقة، أو لإظهار حقيقة الرسالة المحمدية، ومقاصدها الإنسانية العظمى؛ بل لإنكارها تارة، أو لتفسيرها تفسيرا نفسيا تارة أخرى، أو لإلصاق كلّ نقيصة بها وإسقاط عنها كلّ مزية حينا، أو لتضليل وتدليس مفاهيمها، وطمس معالمها الكبرى أحيانا أخرى بغية الوصول إلى أهدافها ومآربها ومراميها الخفية بكل أبعاد الحركة الاستشراقية ليس إلا، والتي عكست –بالفعل وبدقة– الأفكار الغربية عن الإسلام، والحضارة العربية الإسلامية بمختلف جوانبها العديدة، ومكمن الخطورة كل الخطورة أن ما يقدمه هؤلاء من أعمال يأخذ "الطابع العلمي الذي يمكن أن يتقبله القارئ غربيا كان أو شرقيا على أنّه من الأمور العلمية المسلم بها على حين أن الأمر مخالف تماما، فليس حقيقة التغليف العلمي إلا السم الذي يبتلعه القارئ في المحيط

الإسلامي، لا سيما إذا صدر العمل على هيئة كتاب يحمل الطابع العلمي الأكاديمي"[1] وألبسته ثوب البحث العلمي المحكم الصارم، وصبغته الصبغة العلمية الدقيقة، في حين نجد هذه المؤلفات تنقض ما جاء في أصول البحث العلمي النزيه ومناهجه، من مزاعم باطلة، ومفتريات مغرضة تحت شعارات براقة، ومسميات مغرية ضاعت معها الحقائق، وأخفت بين طياتها الكثير من المقاصد السيئة، والأهداف الخفية، من تدليل عقلي، ودفاع علمي، وحياد فكري، على حد المزاعم التي يروجون لها، إلا أنّه على الرغم من هذه أو تلك؛ ومن هذا أو ذاك؛ فإنّ بين سطورها ما يفضح زيف ادعاءاتها، وينير وجهة الحقيقة بصياغة أو بأخرى، بشكل أو بآخر، مهما كانت مضمرة خفية؛ بل بالأحرى تبزغ شمس الحقيقة وتسطع، ويطلع فجر الحق من فتحة ما بطريقة أو بأخرى، تعمل على تبديد دياجير الظلام، وتجعل أصحاب الباطل يتوارون من القوم بسوء ما يحملون على حد قول الدكتور البدراوي عبد الوهاب زهران.

5- اعتمادهم على الدراسات الأوروبية

اعتمد جل المستشرقين في دراساتهم الإسلامية عامة، وفي دراساتهم القرآنية خاصة على ما جاء في مؤلفات أسلافهم من المستشرقين، وبخاصة الذين كانت لهم يد معروفة، ولمؤلفاتهم شهرة معرفية واسعة لدى معظم الدول، شرقية كانت أو غربية، وبمفهوم أوسع؛ ذات صبغة عالمية واسعة في هذا المجال، من نحو المستشرق الألماني ثيودور نولدكه، المجري/الصهيوني جولد تسيهر والبلجكي هنري لامنس، وغيرهم كثر من أعلام القرن الماضي.

حيث كانت ولا زالت مؤلفات هؤلاء القوم – المنشورة منها– تعد بمثابة مراجع أساسية لكلّ دراسة غربية حديثة أو معاصرة تجرى حول المعارف الإسلامية المختلفة، ومصادرها الأساسية وفي مقدمتها القرآن الكريم، حيث جعلوا منها مقياسا مرجّحا للخطأ والصواب فيما كتبه ويكتبه غيرهم من المستشرقين، لما تمثله من مصدر لمعلوماتهم عن الإسلام والمسلمين وحضارتهم، ولما تتميز به من دقة في المنهج، وثقة بين أوساط المتلقين الغربين خاصة، وبين مختلف شرائح المجتمع الإسلامي أيضا تاركة عليهم آثارا جمة، للدور البالغ الذي تلعبه في توجيه الفكر الإنساني

---

[1]– البدراوي عبد الوهاب زهران، دحض مفتريات ضدّ إعجاز القرآن ولغته– وأباطيل أخرى اختلقها الصليبي المستغرب الدكتور لويس عوض، رابطة العالم الإسلامي سلسلة كتاب دعوى الحق، 1985، ع48، ص9.

عامة، وصناعة العقل المستقبلي، وتحديد مصير الأمم قاطبة، وبخاصة الأمّة الإسلامية بهدف استغلال كل ذلك، وتوجيهه في سبيل تجسيد خططهم، واستخدامه في تحقيق أهدافهم الأيديولوجية ومطامعهم الاقتصادية، وحتى مآربهم الذاتية والشخصية على اختلاف أنواعها.

وفي مقابل ذلك؛ نجد هؤلاء القوم وأشياعهم وأذنابهم، وإن اختلفت صورهم وأشكالهم وتباينت أفكارهم، وتباعدت أعصارهم وأمصارهم، فإنّهم يشتركون ويجتمعون في توجيه كلّ ما استطاعوا من انتقادات إلى مصادر التراث الإسلامي بجميع جوانبه، وعناصره ومكوّناته، وإلقاء ما يمكنهم من ظلال الظن والريب والشك عليه، وعلى معظم أصوله ومصدريته، من عدم الدقة وسوء التحليل، وضعف التنظير... وهلم جرا، وبخاصة الروايات التأريخية – فضلا عن الأخبار المصاحبة لها– التي تروي لنا تاريخ الإسلام ورموزه، متهمين أصحاب تلك المصادر بعدم الدراية وبقلة المعرفة في مجال اختصاصهم، مفندين تارة، ومشككين تارة أخرى، ومنكرين حينا، طاعنين أحيانا أخرى في كل ما يقولونه، ويقترحونه، ويستنتجونه وينظرون له، ويفترضونه من فرضيات فكرية، وفي كل ما توصلوا إليه من نتائج موضوعية على مختلف المستويات، لأهداف كثيرة ومتفاوتة من حيث الأولوية والأهمية.

وعلى رأس أولى أولويات هؤلاء القوم دفع بأبناء الإسلام، وأهله كافة إلى التشكيك في أمر دينهم، ومصدر سنتهم، وتاريخ رموزهم وحضارتهم، ويحاولون بكل الطرق وبجميع الوسائل، إثبات تعرضها للضياع تارة، وللزيادة والنقصان تارة أخرى، وللتحريف والتبديل حينا، وللخطأ والنسيان أحيانا أخرى، وغيرها من الأهداف الغربية المسطرة والمحددة بدقة، بحجة تدوينها في العصور المتأخرة، ممّا يوجب الظن والشك في مصادرها وموثوقيتها، وعدم الأخذ بها، ونبذها كلية، على حد زعمهم، وهذا ما أكده الباحث الألماني في الدراسات العربية والإسلامية، والمتخصص في الفقه الإسلامي؛ وصاحب كتاب: بداية الفقه المحمدي جوزيف شاخت Joseph Schacht 1902–1969م بقوله المشهور: لا صحة لأي حديث منسوب للنبي ﷺ وإن أقدم ما بين أيدينا من أحاديث الأحكام لا يرجع إلا إلى السنة 100هـ ليس إلا، حسب ما أورده الأستاذ الباحث فالح بن محمد بن فالح الصغير في كتابه: الاستشراق وموقفه من السنة النبوية، فهذا القول يثبت ويؤكد الشبهة الاستشراقية القائلة بتأخير تدوين السنة النبوية الشريفة، ويشكك في صحة أحاديث المدونة بين

القرنين الثاني والثالث الهجري، وزعيم هذه الفرية الاستشراقية هو جولدتسيهر وتبعه في ذلك تلامذته، ومن بينهم جوزيف شاخت، وغيره كثر.

في حين تكمن الغاية القصوى، والمآرب العظمي بالنسبة لهم، في جعل هذا الدين؛ الدين الإسلامي بمختلف مصادره، وعلى رأسها القرآن الكريم، والسنة النبوية مجرد أساطير خيالية عابرة وقصص شعبية وهمية، وعده من باب الأساطير والخرافات الساذجة- التي أكل عليها الدهر وشرب- ليس لها حقيقة ربانية، وإنّما هي مزيج من الآراء والأفكار التي اقتبست أحيانا من بعض الأشخاص المسيحيين أو اليهوديين أو الجاهليين: كبحيرى الراهب، وورقة بن نوفل، والحبر اليهودي، أمية بن أبي الصلت ... وغيرهم كثر، وأحيانا أخرى من الأديان الأخرى السابقة على الإسلام كاليهودية والنصرانية.

ففي الادعاء الأوّل؛ الاقتباس من الأشخاص، يقول المستشرق بروي: "والآراء الدينية في كلام أمية مطابقة لما جاء في القرآن إلى حد كبير، ويكاد الاتفاق يقع كلمة كلمة في كثير من الأقوال"[1] ويضيف قائلا في نفس المادة: "ويمكن أن نعلل مشابهة قصائد أمية لما جاء في القرآن بحقيقة لا تحتمل شكا هي: أنه في أيام البعثة المحمدية، وقبلها بقليل من الزمان انتشرت نزعات فكرية شبيهة بآراء الحنيفية، واستهوت الكثير من أهل الحضر، وخصوصا في مكة والطائف"[2] في حين نفت كتب التاريخ هذه المزاعم، وأثبتت العكس تماما.

وفي الادعاء الثاني، فالحديث فيه يكمن في الاقتباس من الديانات السابقة على الإسلام كالنصرانية واليهودية، وهذا ما أورده المستشرق الإنجليزي رونالد فيكتور بودلي 1892- 1970م R.V.C.Bodley في كتابه المعنون: بـ "الرسول حياة محمد" حين قال: "إنّ النبي كان يجالس بحيرا الراهب ويتعلم منه طويلا، فقد ظل الراهب يحادث العربي الصغير، وكأنما يحادث رفيقا من رفقائه فأخبره بعقيدة عيسى وسفه عبادة الأصنام، وأرهف محمد ﷺ السمع إلى ما ينطق الرجل به"[3] وهذه الشبهة لا تنسجم مع تاريخ حياة محمد ﷺ الذي كان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة باتّفاق

[1]- أنور محمد الزناتي، موقع نصره رسول الله، معجم افتراءات الغرب على الإسلام، ص 38.

[2]- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3]- نفسه، ص 40.

جميع المؤرّخين، وقد ساق أنور محمد الزناتي تساؤلا عقلانيا دقيقا محكما مجيبا عن هذه الشبهة والفرية الاستشراقية بقوله: إذا كان راهب بصرى بهذه الدرجة من الاطّلاع بالعلم والدين، بحيث أنّ النبي ﷺ استطاع أن يغيّر بهذه المعلومات التي اكتسبها منه مجتمع الجزيرة العربية، فذاع صيته في الشرق والغرب فلماذا لم يشتهر هذا الراهب مثله، وهو معلّمه الأوّل كما يدّعون ويزعمون؟! فجل الدعائم التي اتكأ عليها المستشرقون لإثبات تأثر القرآن الكريم بهذه الديانات تم دحضها من قِبل المعطيات التاريخية، والحقائق العلمية، حتى بعض المصادر الاستشراقية ذاتها التي تعترف بهذه الحقائق بطريقة مباشرة.

وتبقى ادعاءات وافتراءات المستشرقين مشوبة بافتراضات لا أدلة لها، ولا إثبات لها يعضدها، فهي مجرد ادعاءات من أجل الادعاء لا غير؛ وإن كانت قد تركت وراءها رواسب فكرية وثقافية، وأحدثت نوعا من البلبلة والتشكيك في عقول الأجيال الناشئة من أبناء الأمّة الإسلامية الذين لم تتح لهم فرصة التزود بالثقافة الإسلامية الأصيلة خاصة.

خلاصة الفصل:

حظي القرآن الكريم، باهتمام بالغ من قبل العجم عامة باعتباره الأثر الأهم في التراث الإسلامي العربي، ليس بوصفه كتابا إلهيا وحسب؛ بل كتابا للعلم والمعرفة والشريعة الإنسانية الخالدة، وغيرها من العناصر المكونة له، وبدأ القرآن الكريم يكتسب لدى المستشرقين طابعا مميزا خاصا به، سواء من حيث الترجمة، والبحث، والدراسة، والتحليل والفحص والتمحيص، والنقد وغيرها من فنون البحث والدراسة، نزيهة كانت أو مغرضة، إذ قام الإنجليزي روبرت الكتوني Robertus Ketenensis 1142 -1143م بطلب من بطرس المبجّل Petrus Venerabilis رئيس دير كلوني، بأول ترجمة لاتينية كاملة لمعاني القرآن الكريم رغم نواقصها، وعدم دقتها في كثير من المواضع، حسب ما ذكره الباحث جورج تامر في مقدمة الترجمة العربية لكتاب: تاريخ القرآن للمستشرق الألماني ثيودور نولدكه، إلا أنها حظيت بانتشار واسع، وصبغة عالمية، وطبعت عدّة مرات، بعد طبعها في مدينة بازل عام 1543 خاصة على يد اللاهوتي ثيودور ببلياندر Théodore Bibliander وبعدها توالت ترجمات عديدة لمعاني القرآن الكريم إلى مختلف اللغات الأوروبية، كالإنجليزية، والإيطالية، والفرنسية... وغيرها من اللغات العالمية المختلفة.

وابتداء من أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر؛ عرفت أوروبا ومختلف الأوساط الغربية ترجمات لمعاني القرآن الكريم بمفهومها الواسع، حيث نظر مؤلفوها إلى القرآن من منظار الكتاب المقدّس، ومقارنته به في عهديه القديم والجديد، والتهجّم على الإسلام بمنظار تَهَجُّمِي بحت والطعن في معالمه، وتشويه مبادئه، والدفاع عن النصرانية ضدّ المسلمين، ومدى تأثر القرآن الكريم بديني التوحيد اللذين سبقاه، محاولين في الوقت نفسه استكشاف الوقائع التاريخية المرتبطة به وبمحيطه، وكيفية حدوثها (العلاقة السببية المطلقة) وعلاقته بها، وبسبب نشوئه، ومصدره، ومقاصده ومصيره بعد ذلك، ومعالجته كوثيقة من وثائق التاريخ.

لذلك؛ فإنّ ترجمات المستشرقين لمعاني القرآن الكريم كانت إفرازات مازالت تؤثر في تشكيل صورة الإسلام في الدول الغربية قاطبة إلى يومنا هذا، فإذا نظرنا إليها نظرة ثاقبة متفحصة ندرك تماما مدى انعكاس أفكار مؤلفيها بشأن القرآن على مؤرخي الغرب وكُتَّابه ومثقفيه بجميع صورها الذين لم يتمكنوا بسبب أو بآخر في معظم الحالات بسبب العجز اللغوي من التعرف المباشر على القرآن الكريم، وفهم تعاليمه العظمى، وإدراك مقاصده الكبرى، عبر نصوصه الأصلية، فلم يبق لهم ثمَّ إلا الولوج إليه عبر بوابة الاستشراق، وهذا ما ذهب إليه الدكتور محمود محمد شاكر وأكده بقوله: إن المستشرق في موضوع مأمون عند كلّ أوروبيّ، من أوّل طبقة الرّهبان والسّاسة إلى آخر رجلٍ من جماهير الناس من بني جلدته، مأموم على ما يقولُه، مصدّق فيما يقوله، في أمور لا سبيل لأحد منهم إلى معرفتها، لأنها تتعلّق بأقوام لسانُهم غير لسانِهم، ولا يقوم بها إلاّ دارسٌ صابرٌ ذو معرفة بهذا اللّسان الغريب، متّصف بصفتين لا بدّ منهما حتّى يكون مأمونا مصدّقًا:

– **الصّفة الأولى:** أنّ في قلبه كلّ الحمية التي آثارها الصراع بين النصرانية المحصورة في الشمال، وبين دار الإسلام الممتنعة على الاختراق على مدى عشرة قرون على الأقلّ، وأن في صميم قلبه كلّ ما تكنّه النصرانية الشمالية من البغضاء النافذة في غور العظام، والتي أورثتها الحروب المتطاولة.

– **الصّفة الثانية:** أن في صميم قلبه كلّ ما تحمله قلوب خاصّة الأوروبيين وعامّتهم وملوكهم وسُوقَتِهم، من الأحلام البهيجة والأشواق الملتهبة إلى حيازة كل ما درَّ الإسلام من كنوز العلم والثروة والرفاهية والحضارة، أحلام وأشواق أورثهم إياها الاحتكاك المستمر قرونا بهذه

الحضارة الزاهية الغنيّة التي كانت يومئذ في دار الإسلام"[1] وهذا ما ينذر بالطامة الكبرى، ويلقي بظلاله السلبية على المتلقي الأوروبي في مختلف الأوساط الغربية، وبخاصة في ظل الإعلام الغربي الصهيوني المتحامل على الإسلام والمسلمين على السواء.

وأما ترجمات المستشرقين لمعاني القرآن الكريم بمختلف مستوياتها، وبجميع مضامينها ومحتوياتها، وبمختلف أساليبها، وتعدد تراكيبها، ألمت إلمامة ثاقبة متفحصة بخبايا الفكر الغربي وعكست بقوة مرجعيته الدينية، وخلفياته السياسية، بحكم البيئة والمنشأ والثقافة وهذه القيود الثلاثة وغيرها تتمازج وتتلاقح وتتداخل تداخلا لا انفكاك له.

وعليه؛ فالملاحظ على ترجمات معاني القرآن الكريم للمستشرقين خاصة، وجل دراساتهم في علوم الإسلام بمختلف مصادره على العموم، أنّها ذات صبغة ذاتية محضة، بحكم الانطباعات الشخصية التي طغت عليها، وما يعتريها من اشكاليات فهم حقيقة معاني القرآن، ومضامينها المختلفة، نتيجة عدد من الأسباب والعوامل المختلفة، وهذه الأسباب تتبدى في عدة مظاهر، وتبرز وتتجلى، وعلى رأسها، الدوافع الشخصية، والخلفية الفكرية، والمرجعية الدينية، التي كانت لها آثار سلبية هزت صورة ترجماتهم، وجل دراساتهم في مختلف المعارف الإسلامية، أثارت الشكوك حول مدى موضوعيتها ومصداقيتها، إذ بدا المستشرق بشكل عام خاضعا لقوى خارجية، ولا يتمتع بالاستقلالية الفكرية التي تتمتع بها مختلف الحركات الفكرية الأخرى، أو مختلف البحوث العلمية بوصفها علوما مجردة محدودة المعالم والمبادئ.

وذلك ما جسده مؤلفوها في ترجماتهم المختلفة، حيث حاول هؤلاء أن يقدموا مضمونها في شكل صورة حية متحركة مقنعة للقارئ الأوروبي خاصة، حتى يصدقه المتلقي الغربي عامة، ويثق فيما يقول ويكتب ويحقق ويترجم وينقد، ولذلك حاول المستشرق تحريرها بأسلوب مُنمَّق محكم دقيق فكانت ترجمته بالفعل إحسَاسَه، تعكس بحق أهواءَه، ومزاجَهُ، إذ ينعكس ذلك كلّه بشكل واضح في مختلف المواقف التي تبناها، والتي حاول تقديمها بصورة شكلية علمية، تدل دلالة قاطعة على أنّه قد عرف، ودرس، وخبر الإسلام ومجتمعه جيدا، وبذل كلّ جهد في استقصاء الحقيقة، كلّ الحقيقة وأن كل ما يقدمه فيها هو اللباب المصفى، والحق المبين والصراط المستقيم لا غير، وأن كلّ ما

[1]– محمود محمد شاكر، رسالة في الطرق إلى ثقافتنا، دط. مصر: 1997م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص57 – 58.

تناوله في ترجماته، وفي بحوثه، وفي مقالاته، وفي دراساته أيضا على تعددها واختلافها عن علوم أهل الإسلام، وشريعتهم، وفنونهم، وآثارهم، وحضارتهم وتاريخهم، هو ما عاصره عن قرب، وخبره جيدا، ودرسه بجهد وإخلاص، وأنه المبرّأ من كلّ زيف على حد زعمه، وتمكن من أن يبث فيها بمهارة وحِذق وخبث كلّ ما تمليه عليه قيمه ومصالحه، ويحقق كل ما يتماشى مع أهوائه ويساير أفكاره، ويجسد خططه، ويحقق مطامعه، ومآربه على اختلافها وتنوعها وتعددها، وكلّ ما يراد الوصول إليه، في وقت معيّن، بأسلوب دقيق مضبوط، وحركة منظمة ومنتظمة، ومخطط مدروس وهدف منصوب بعينه، مقصود بذاته.

وتأسيسا على ما سبق؛ فترجمات الإفرنج أو العجم بشكل عام ارتبطت بشكل وثيق بالمجهودات الاستشراقية، إذ إنّ تشويه المصادر الأساسية للإسلام، ومختلف معارفه، من قرآن كريم، وسنة نبوية، ومغازٍ، وسير وتراجم، وتاريخ، والتشكيك فيها، من خلال بعض ما يتوافر لديهم من أحداث مفتعلة، ومن قصص مصطنعة، ومن وقائع تاريخية مزيفة، وروايات غير أصيلة وأحاديث موضوعة متفرقة ومتناثرة هنا وهناك، حدثت بالتحديد في التاريخ الإسلامي الأول في القرون الأولى للحضارة الإسلامية، نتيجة لصراعات طائفية أو مذهبية، أو خلافات تاريخية وقعت وما إلى ذلك بين المسلمين، مستغلين كلّ ذلك، ليجعلوا منه هدفا أساسيا ومحوريا من أهداف الحركة الفكرية الغربية والحركة الصهيونية خاصة في تشويه القرآن الكريم، والتشكيك في مصادره المختلفة بالدرجة الأولى، وهدم أركان الإسلام، ودعائمه الأساسية وكانت أكبر رهاناتها في ذلك إعداد بحوث، ومقالات، وموسوعات، وترجمات، ودراسات، ووضعها في قوالب علمية لجلب الانتباه أكثر بمناهج وصفية بحتة، وتزويدها بحواشٍ عديدة، وهوامش موسعة، وتعليقات نقدية ترد المادة القرآنية لمصادر غير أصيلة يهودية (مقتبسة من فقرات توراتية وإسرائيليات وعبارات المِشنا والغَمَارا المعروفة في التلمود...) أو نصرانية (بعهديها: القديم والجديد).

الفصل الخامس

المستشرقون وصلتهم بالدارسين العرب المحدثين.

1- المستشرقون وصلتهم بالدارسين العرب المحدثين

نقيم دعائم هذا الفصل – بحول الله– على فكرة مركزية مفادها دور الدراسات الاستشراقية في تحديد وتوجيه مسار الدراسات الإسلامية الحديثة بمختلف مجالاتها، وتِبيان مدى تأثر الدارسين العرب المحدثين بالفكر الاستشراقي وتوجهاته، وأثر ذلك كلّه على أعلام الفكر العربي الإسلامي الحديث حصرا في مجال الفكر اللغوي العربي الحديث ممن تتلمذ على أيدي المستشرقين، أو ترجم لهم، أو اطلع على آثارهم، إذ كانت لأفكارهم وآرائهم في الدراسات الإسلامية عامة أكبر الأثر في مسار الفكر العربي الحديث، وتجلى ذلك بوضوح في مؤلفاتهم وبحوثهم ودراساتهم التي أنجزوها ووقفوا حياتهم عليها، على الرغم من أن الدراسات الاستشراقية لها مرجعيتها التاريخية والفكرية والسياسية والحضارية والثقافية الخاصة بها، فهي تخضع لتصورات عقيدية واجتماعية وبيئية لا مناص منها، وهذا كلّه يرجع لارتباط المستشرق ارتباطا وثيقا بثقافاته وحضاراته ولغته، حيث تعبر هذه التصورات بصدق عن النظم الاجتماعية والثقافية والحضارية لأمّة ما وما إلى ذلك.

فمن البديهي أن يرتبط المستشرق بالحياة السياسية والاجتماعية والعقيدية والفكرية والتاريخية لبني جلدته، لما لذلك كلّه من دور فعال في بناء شخصيته بناءً حقيقيا شاملا بجوانبها المختلفة فأي خلل في جانب من جوانبها ينعكس حتما سلبا على نتائج دراساتهم، مهما كان نوعها، ومهما كان منهجها، ومهما كانت علميتها وموثوقيتها، حيث تمكن المستشرقون أن يعبروا بكل يسر وصدق عن مكنونات أمّمهم، وأن يواكبوا تطلعاتها وآفاقها، ويسايروا خططها، ويجسدوا أهدافها ويعبّروا بعمق عن خلفية الصراع الحضاري القديم والحديث بين العالم الغربي والعالم الشرقي، وهذا ما يؤكده التاريخ الطويل للأمّم والحضارات على مر العصور المتعاقبة، وما يؤكده قوله تعالى:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩] ومصداقا لقوله تعالى:﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠] وهذا ما جسدته بحق الكتابات المتنوعة لكثير من المستشرقين: "الذين مهدت أعمالهم السبيل لطلائع الغزاة

والمستعمرين والصهاينة، ليدخلوا البلاد الشرقية، ويحكموا الشعوب ويزوروا الحقائق"[1] وهو ما يلاحظه كلّ من يقف على دراسات هؤلاء القوم بالبحث والتمحيص، وما أكدته جل الدراسات الحديثة المتخصصة بالميدان، كما أشار إليه الباحث مصطفى السباعي في كتابه: الاستشراق والمستشرقون: "إلى أن جمهور المستشرقين لا يخلو أحدهم من قسيس أو استعماري أو يهودي وقد يشذ عن ذلك أفراد... وأنّ الاستشراق بصورة عامة ينبعث من الكنيسة... ويسير مع الكنيسة جنبا إلى جنب، يلقى منها كل تأييد"[2] وأنّ الاستشراق ينبعث من الدول الغربية ذات الفكر الاستعماري "غطت العالم الإسلامي و العربي خاصة بمبشرين يزعمون أنّهم يدعون إلى حياة روحية وسلام ديني"[3] من منطلق تصور عقلي منطقي، لأنّهم متحررون، ومحبون للسلام وقادرون على اكتساب مختلف القيم الحضارية علي غرار الشرقيين، فهم على خلاف ذلك كله على حد قول الباحث الكبير عمر فروخ ومصطفى خالدي، في حين تدين معظم المعطيات التاريخية والسياسية والدينية والأدبية الحركة الاستشراقية وأهدافها المشبوهة، وتربطها بالمواقف الغربية التي لم تتوان يوما في استخدام كل الوسائل المسموحة والمحظورة في الوصول إلى غاياتها الاستدمارية، ويؤمن لها مقومات السيطرة والتحكم، ويضمن لها عملية نشر مبادئها والسهر على خدمة مصالحها في كل مكان كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا، ومهما كلفها ذلك من أمر.

حيث عدت حركة الاستشراق من أبرز العوامل المهمّة التي أثّرت ولا تزال في الفكر العربي الإسلامي قديما وحديثا، وعلى مر العصور حتى الآن، ولعبت دورا بارزا في صياغة معظم التصوّرات الفكرية الغربية والشرقية المعاصرة عن الإسلام والمسلمين، وعن لغاتهم، وثقافاتهم وحضاراتهم، وتاريخهم، فقلّ أن تجد مجالا لم يتأثر بالفكر الغربي عامة، وبالفكر الاستشراقي خاصة، وكوّن عبر مختلف الحقب والأزمنة معلما رئيسيا في مجال الفكر العربي الحديث وثقافته

[1]– منذر معاليقي، الاستشراق في الميزان، ط1. بيروت– لبنان: 1997، المكتب الإسلامي، ص8.

[2]– مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص 73، بتصرّف.

[3]– مصطفى خالدي، عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية: عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي، ط3. صيدا– بيروت: 1953م، منشورات المكتبة العصرية، ص 24، بتصرّف.

ولغته وآدابه، فوقف لفيف من كتّابه على خدمة المطامع الاستشراقية عن قصد أو دون قصد وتجسيد مخططاتها على أرض الواقع، وتحقيق أهدافها في شتى دروب الحياة المتشبعة.

وفي الجملة فقد كان للفكر الاستشراقي أثر كبير في التوجهات الفكرية والعلمية للدارسين العرب المحدثين، سواءً من خلال تطبيق مناهجهم العلمية، أو عن طريق مجموعة من الطّلبة الذين تلقّوا تعليمهم في المدارس الغربية بلغاتها الرسمية، أو "تتلمذوا على يد ثلة من المستشرقين البارزين وتأثروا بنظرياتهم، وأعجبوا بآرائهم"[1] وما انتهوا إليه من نتائج حول الإسلام وكتابه ونبيه ولسانه، ومصادره المتنوعة على اختلافها وتعددها، منطلقين في دراساتهم من منطلقات الفكر الاستشراقي البحت بإسقاطات واهية خاطئة غير عادلة عند دراستهم الإسلام ومصادره التشريعية المختلفة والمتنوعة، آخذين عنهم كلّ شيء دون قيد أو تحفظ، أو مراعاة للخصوصيات الثقافية والمميزات اللغوية، والأصول التاريخية، وغيرها من الفوارق الحضارية التي تميز أمّة بعينها عن غيرها من الأمّم.

وقد يسأل السائل عدّة أسئلة إزاء مؤلفات هؤلاء المؤلفين، وإزاء مواقفهم الخفية والمعلنة والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة، ويثير النقاش عند الطبقة المثقفة خاصة، ما مدي عِلمية الأعمال التي أنتجتها هذه الزمرة من الباحثين إذا ما اقتبست من أعمال المستشرقين أو استشهدت بآرائهم؟ ودائرة المعارف الإسلامية خاصة، بعدما تبين للدارسين وللباحثين أخطاء كثيرة وهفوات متعمدة وقع فيها مؤلفوها، وهل يصل هذا المؤلف إلى درجة من الثقة يمكن معها الاستشهاد بها في دراساتنا؟ ومدى موثوقية القارئ العربي فيها؟ وهل يمكننا الاعتماد على هذا المؤلف مصدرا موثوقا من مصادر المعلومات عن الإسلام ومعالمه ورموزه وتاريخه، وعن التراث الإسلامي، بكلّ ما يحمله من لغة وعادات وتقاليد وهوية وهلم جرا في ظل الانتقادات الواسعة الموجهة إليه؟ وهل بإمكاننا قبول مناهج المستشرقين، والاقتباس من مؤلفاتهم، والاستشهاد بآرائهم في أمهات الكتب العربية؟ وما هو الحكم الذي ينتظر المؤلفات المنتجة بأقلام عربية بتأثيرات شرقية بحتة؟ وما هو مصير مسار التأليف العربي في ظل سرعة التلقي للمثقف العربي للأفكار الغربية الحديثة؟ وما أثر ذلك

---

[1]– مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص 81، بتصرّف.

كلّه على الفكر العربي المعاصر لما قد تقود إليه هذه المؤلفات من تداعيات خطيرة على الناشئة التي تعد القلب النابض للأمة ومحركها؟

1- 1- تأثير المستشرقين في البحث اللغوي الحديث، والوسط الثقافي العربي

لقد حظيت دراسات المستشرقين وبحوثهم باهتمام كبير من قبل الدارسين العرب المحدثين وكثر الحديث عنها في مؤلفاتهم ودورياتهم وملتقياتهم ومؤتمراتهم ومجلاتهم، وبالأخص في الحقبة الأخيرة، فمع بدايات القرن المنصرم على وجه التحديد، انقسموا في ذلك زمرا عديدة، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، بين مؤيد لها، وثائر عليها، ومنهم من حذف منها، ومنهم من تركها على أصولها وتوجهاتها، وحافظ على استراتيجياتها، ومنهم من أضاف لما جاءت به، وكان لمناهجهم تأثيرات قوية في الفكر العربي الإسلامي الحديث وحتى المعاصر منه وهكذا وجد الفكر الإسلامي العربي نفسه وجها لوجه مع الفكر الاستشراقي، ومرجعياته الفكرية الغربية، والمناقضة له في أسسه ومبادئه، والمخالفة له في كثير من توجهاته وتصوراته ومعتقداته إلا قليلا، وكان الفكر وراء أغلب الأفكار الحديثة الرائجة في الآونة الأخيرة في ميادين فكرية شتى، أحدثت تحولا عميقا في مسار الفكر العربي الإسلامي المعاصر بمجالاته المختلفة والمتنوعة، وفي مجال الفكر اللغوي العربي الحديث خاصة، بما طرحوه من أفكار لغوية جديدة، ومناهج بحثية حديثة، ونظريات عصرية في أفق العالم الشرقي وفي رحاب العالم العربي الإسلامي خاصة، وقد تلقفها عنهم بعض مفكري العرب ودارسيهم، وسعوا إلى تطبيقها في دراساتهم اللغوية والأدبية، وفي مختلف المجالات العلمية الحديثة، وتغنوا بدقتها وعِلميتها، وأشادوا بأصحابها، وبالغوا في ذلك أشد المبالغة.

تجدر الإشارة إلى أنّ تأثير الحضارات واحتكاكها، وتلاقح العلوم وتفاعلها ظاهرة طبيعية عادية مسلم بها نشأت بحكم اتصال الشعوب فيما بينها منذ أقدم العصور "فاضطلع الاحتكاك بدور كبير في تطوير المنظومة الفكرية والثقافية في العالم ... فانتقال الطرق المكتسبة في التفكير والشعور والعمل التي تكوّن المسار الثقافي، وهو السمة الخاصة بالحياة الاجتماعية البشرية كافة"[1]

[1]- بسام بركة "الترجمة إلى العربية: دورها في تعزيز الثقافة وبناء الهويّة" مجلة تبين، الدّوحة- قطر: 2012، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ع1، ص 16.

وهذا ما نلاحظه على مر العصور المتعاقبة، وعلى مدى التاريخ البشري الطويل الذي أثبت عدم وجود حضارة نشأت من عدم، أو من تلقاء نفسها، أو بمعزل عن الحضارات الأخرى، وأكد في نفس الوقت استحالة عزل حضارة عن الأخرى، فالتفاعل الحضاري، واللغوي منه والثقافي خاصة أمر مفروغ منه، ومسلم به، باعتبار هذا التفاعل الحضاري[1] كيانا ثقافيا واسعا لا حدود له ولا نهاية، فمثلما كان للحضارة الإسلامية تأثير بالغ وبارز في الأمّم الغربية خلال العصور الوسطى بشهادة الغربيين أنفسهم، إذ الأمر دون ذلك ما نتصور؛ فإذا بأثره كان عكسا على الفكر العربي الإسلامي المعاصر مع بداية العصر الحديث خاصة، وهذا ما تحدث عنه كثير من الدارسين المحدثين على اختلاف مفاهيمهم وتصوراتهم وتوجهاتهم الفكرية، فتمثلت الحركة الاستشراقية بالفعل في العقل الغربي وجسدت مواقفه، واحتوت كل ما صدر من قضايا اللغة العربية في الفكر الغربي الحديث وعبرت عنه بامتياز واستحقاق.

ومن هنا؛ سنجري تطبيقات هذا الفصل بالوقوف على نخبة من الدارسين العرب المحدثين البارزين وعلى طائفة من مؤلفاتهم، في لمحات خاطفة على سبيل الأنموذج والمثال، وفي ظل هذا التخطيط الأولي كانت معالم الفصل متسعة على عدة أفكار تدور كلها حول الدور الذي لعبته الدراسات الاستشراقية في توجيه مسار الدراسات اللغوية العربية الحديثة، ومدى تأثيرها في الدارسين اللغويين العرب المحدثين، حيث انقسم هؤلاء في ذلك زمرا، وفي جملتهم إلى ثلاثة أقسام بارزة ألا وهي:

1- زمرة واكب جمهورها التصورات الاستشراقية، وركبوا متن الشطط في دعواهم هذه، فقد تتلمذوا على أيدي المستشرقين، وتربوا في أحضان الغرب، وتدربوا على المناهج الغربية، فتبنوا تعاليمه متأثرين بنظريات أعلامه، ورافعين شعاراتهم، عاملين على الترويج لمناهجهم، محاولين

---

[1]- ولكن إقرارنا بهذا التفاعل لا يدفعنا إلى الغاء ذواتنا، والانحلال الكلي داخل الثقافة الغربية، والانسلاخ من جلدتنا والانصهار فيها انصهارا كليا، لأن الأخير يعني الزوال والاندماج بعدما أصبح العالم قرية كونية صغيرة، على الرغم من الاختلافات الثقافية البينة بين الشرق والغرب، هكذا راحت معالم فئة جديدة من الدارسين العرب تلوح في الأفق، وتطرح جملة من الأفكار المواكبة للفكر الغربي ونظرياته، محاولين في الوقت ذاته تكييف خصوصيات الثقافية العربية مع مستجدات العصر على جميع الأصعدة، وبخاصة على الصعيد الفكري والعقدي الذي يميز أمّة بعينها عن بقية الأمّم محاولين في الوقت ذاته صبغ العالم الشرقي بالطابع الثقافي الغربي وبتصوراته.

بكل جهد نقل أفكار هؤلاء إلى العالم العربي، سواء عن طريق الترجمة إلى العربية، أو عن طريق التأليف فيها، حيث عكست مؤلفاتهم بعمق الآراء الاستشراقية، وتجسدت بالفعل مواقفهم إزاء اللسان العربي، وهذا ما ظهر جليا في بحوثهم ودراساتهم ومؤتمراتهم ودورياتهم وندواتهم ومجلاتهم وما إلى ذلك.

فنشأ عن هذه الحركة الفكرية؛ حركة لغوية تمثلت عموما في النقل عن الغرب، وترجمة كتبهم، ونقل أفكارهم ومناهجهم إلى الوطن العربي، والعمل على ترويجها بين مثقفيها، وهذا ما عكسته المؤلفات الصادرة خلال هذه الحقبة الزمنية، تحديدا مع أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث ساعدتهم هذه الحركة في نشر الأفكار الاستشراقية عامة واللغوية خاصة وتداولها في الوسط الثقافي العربي، ولقد أثر منهج المستشرقين تأثيرا فعالا في محيط الثقافة اللغوية العربية عامة عن طريق هؤلاء المقلدين، وظهرت لهم مؤلفات كثيرة حاولوا فيها معالجة قضايا عولجت بشكل مفصل في الفكر الغربي الحديث في ضوء المناهج اللغوية الحديثة، وفي إطار ما يسمى بالدراسات الإسلامية الاستشراقية الحديثة.

ومن أبرز الدارسين العرب المحدثين الذين تأثروا أيما تأثر بالفكر الغربي نذكر من اللبنانيين جورجي زيدان 1861- 1914م، ومن المصريين لويس عوض 1915- 1990م والقمص زكريا بطرس 1934- ت؟ والروائي يوسف إدريس علي 1927-1991م، والمترجم نسيم مجلي 1934- ت؟ وطه حسين 1889- 1973، وعبد الصبور شاهين 1929-2010م ورمضان عبد التواب 1930-2001م وغيرهم.

2- وطائفة أخرى حاولت جاهدة أن تكون منصفة في دراساتها وبحوثها عن الاستشراق والمستشرقين، وأن تكون موضوعية محايدة توخت أكبر قدر ممكن من الموضوعية بعيدة كلّ البعد عن الأحكام الانطباعية، عاملة بكل ما أوتيت من علم ومعرفة أن تضفي على بحثها جوا منطقيا علميا صارما، معالجة إياه بمنهجية جادة، حيث وضعت دراسات المستشرقين في الميزان للبحث والتمحيص، فكان الهدف الأساسي من دراساتهم هدفا علميا خالصا بحتا، بغية الخروج بجملة من الحقائق الإيجابية والسلبية معا.

3- ولفيف آخر رفض الدراسات الاستشراقية جملة وتفصيلا، بما لها وما عليها، وسخر جهده في سبيل تعرية بحوث المستشرقين ودراساتهم ، والتصدي لآرائهم، بهدف افساد مخططاتهم وسعوا في ذلك سعيا حثيثا في دراساته إلى كشف الأخطاء العديدة، والمغالطات المغرضة، والمكائد الهجومية المختلفة، وعملوا بكلّ جد على تصحيح المفاهيم الاستشراقية، التي تركت بصمات بيّنة على معالم الحياة في العالم الإسلامي عامة، وفي أوساط العالم العربي خاصة.

وقد أكدت أكثر المصادر المتخصصة بالموضوعات الاستشراقية أن أخطر ما أتى به المستشرقون على صعيد التأليف والنشر هو إصدار دائرة المعارف الإسلامية بعدّة لغات في غضون 1913-1934م؛ أي لمدة عشرين سنة، ترجمت إلى عدة لغات، وأعيد طبعها حديثا ويقال إنّ مصدر الخطر الرئيس فيها هو "أنّ المستشرقين عبئوا كلّ قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة"[1] وهي مرجع لكثير من الباحثين في دراساتهم على ما فيها من خلط وتحريف، وهذا ما أوضحه وأشار إليه الدكتور منذر معاليقي في ثنايا بحثه الموسوم: بـ "الاستشراق في الميزان" وهو خطر ما ورد في مؤلفات المستشرقين وبحوثهم، وعمل على الرد عليه بأساليب موضوعية حضارية، وبمناهج عقلية صارمة، وبحقائق علمية وتاريخية ووثائقية في بعض الأحيان تنقض سر ما يزعم الزاعمون، وتنفي زعم ما يدعون، وتفند ما يفترون، وتزعزع ما يسطرون، لأنّ العبرة بالحقائق لا بالادعاءات والمزاعم، وأنّ كلّ افتراءاتهم وأوهامهم تكذبها كلّ المعطيات والشواهد والبراهين التي تدخل في باب العلم لا محالة.

مع الإشارة إلى أنّ إقرارنا بالدور الفعال الذي لعبه المستشرقون وأذنابهم في تاريخ الثقافة اللغوية العربية من خلال مؤلفاتهم العديدة والمتنوعة، حيث بلغ الناتج الفكري للمستشرقين حسب الإحصائيات التي أوردها الباحث عبد العظيم الديب في مؤلفه المعنون بـ: المنهج في كتابات الغربيين خلال فترة مائة وخمسين سنة - 150س- بالتحديد بين 1800-1950م ما يربو على ستين ألف 60000 كتاب بين كتاب ومقالة في الفلسفة والتصوف والتاريخ والجغرافيا واللغة والأدب إلى ما ذلك من العلوم والفنون، وهذا بغض النظر عن

[1]- محمد البهي، المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، ص 14.

الدوريات المتخصصة، والمعاهد والمراكز الغربية التي تهتم بالدراسات الإسلامية التي تعد اليوم بالمئات، والتي تتوزع على القارات الأربع: أوروبا وآسيا وأمريكا وأستراليا.

1- 2- المستشرقون وتأثير مناهجهم اللغوية في دراسات الباحثين العرب المحدثين

من الثابت أنّ الدراسات اللغوية العربية وليدة الفكر العربي الإسلامي المحض بكلّ المقاييس والمعايير أصالة وابتكارا، حيث يدين هذا الفكر في نشأته وتطوره للقرآن الكريم فمن أجل حفظه من التصحيف والتحريف قعّدت القواعد، وصنفت المصنفات في جل العلوم اللغوية، من نحو وصرف ومعاجم وأصوات، وما إلى ذلك من العلوم التي ارتبطت نشأتها بالدراسات القرآنية، لحفظ القرآن الكريم وصيانته من اللحن، فكانت بذلك في بدايتها وسيلة لا غاية، وإنّ هذه الحقيقة بديهة في التعامل مع الفكر اللغوي العربي القديم بالنسبة لنا وباعتراف بعض المستشرقين قبل الشرقيين.

انطلاقا من ذلك؛ كان لزاما أن نتصور توجه المستشرقين إلى دراسة اللسان العربي والبحث في أصوله، وعلاقاته بالألسنة الأخرى، وذلك بإجراء مقارنات بينه وبين المدارس اللغوية المتنوعة، وعلاقة كل منها بالأخرى، على نحو ما عملوا لإظهار الآثار الحامية والسامية المتداخلة في أصوله، فتوجه بعضهم إلى فقه اللغة، ومنهم من درس قواعدها وصرفها ومعجميتها ولهجاتها استنادا إلى مبدأ الاحتكاك اللغوي بين الشعوب، ودوافعهم لذلك مختلفة وغاياتهم متعددة، منها: الحضارية والشخصية المزاجية والعلمية والنفسية والثقافية والدينية والتاريخية والإيديولوجية، وهلم جرا، إلا أنّها تصب كلّها في مجرى واحد، وتحقق غاية وحيدة؛ تتمثل في خدمة قضاياهم الاستشراقية، وفي تحقيق أهدافهم بكل أبعادها، مع الإشارة إلى أنّنا نجد: "من بينهم نفرا قليلين، حملوا أنفسهم على التزام الموضوعية والنزاهة والتجرد لوجه الحق، وقد آل الأمر ببعضهم إلى اعتناق الإسلام، والرضى بالله تعالى ربا

وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا"[1] على الرغم من أن هذا النفر النزيه من المستشرقين لم يشكل تيارا استشراقيا بارزا، ولم يحتل موقعا مرموقا في إطار حركة الاستشراق.

وأهمّ من ذلك كلّه؛ أنّ الدراسات اللغوية العربية لها قيمة كبيرة، فهي: "حلقة مهمة في سلسلة العلوم الإسلامية، وقد عدّها فايس J.Weiss على درجة من الأهمية لمن أراد أن يقوّم الحضارة الإسلامية[2] بل ذهب المستشرق إلى أبعد من ذلك ، فنوه بأهميتها التي تتجاوز دورها الكبير في تاريخ الدرس اللغوي بعامة، إلى مكانتها في دراسة تاريخ الفكر الإنساني على الإطلاق على حد قول الباحث إسماعيل أحمد عمايرة.

وهذا ما أكّدته جملة من الأقوال الاستشراقية الذائعة الصيت والشهرة، نذكر منها – على سبيل المثال لا الحصر ما ذكره المستشرق الألماني و. فون همبولت 1767–1835م بقوله: على أنّ اللغة بوصفها خاصية مميزة للأمّة ... ليس ببعيد أن ينبثق فهم الفيلولوجيا/فقه اللغة على أنّه معرفة لحضارة الأمّة بنشر نصوصها ثم دراستها"[3] فلا مجال للشك في أنّ دراسة اللغة العربية هي الأساس الرصين لدراسة الحضارة العربية والتعمق في فهم العالم العربي ويقول المختص في دراسات الشرق الأوسط والمهندس في تقسيم الشرق الأوسط البريطاني برنارد لوي Bernard Lewis 1916–2018م فقد وجد الطلبة الإنجليز في الهند: "أنّ تناول ألفاظ اللغة العربية والإنجليزية أصبحت كجزء لا يتجزأ للغة الأردية"[4] لدى دراساتهم لغات مسلمي الهند ومدينتهم، حيث إنّ أبحاثهم وتنقيباتهم تحتّم عليهم دراسة العربية التي هي أساس الثقافة الإسلامية في أي لغة من اللغات.

---

[1]– إسماعيل علي محمد علي، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل مدخل علمي لدراسة الاستشراق، ط3. مصر:2000 الكلمة للنشر والتوزيع، ص6.

[2]– إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، ط2. ص40، بتصرّف.

[3]– ر.هـ. روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، الكويت: 1978، المجلس الوطني للثقافة ولفنون والأدب، س227، عالم المعرفة، ص 286، بتصرّف.

[4]– محمد طارق "مساهمة وحيد الزمان الكيرانوي في اللغة العربية" مجلة المجمع العلمي العربي الهندي، 2018، مج37 ع2، ص 151، بتصرّف.

مع الإشارة إلى الدافع اللاهوتي الذي زاد حدة الاهتمام باللغة العربية الفصحى، وهي لغة مهمة لدى اليهود والنصارى على حد سواء، باعتبارها اللغة السامية الوحيدة التي كتب لها أن تعمّر هذا العمر الطويل دون أن يصيبها تحريف أو تصحيف، فاللغة العبرية التي أحياها اليهود ليست هي اللغة العبرية القديمة، ولا السريانية التي يتكلم بها بعض السوريين والعراقيين في القرى والمداشر هي السريانية القديمة، على الرغم من أنّ فيها من آثار العربية الشيء الكثير؛ لذا كانت أساسية في دراسات الساميات على وجه العموم "فعالم الأثار يحل طلاسم اللغات السامية الأثرية في ضوء معرفته بالعربية، ومن ملامح الشبه بين العربية والعبرية، والسريانية، استطاع علماء اليهود والنصارى أن يفكوا كثيرا من ألغاز نصوصهم الدينية، وهذا مسوغ وجيه من مسوغات إقبالهم الشديد على العربية قبل سواها من اللغات الشرقية"[1] وقد كان هذا من قبل معظم المستشرقين اللاهوتيين واليهود منهم خاصة منذ تاريخ مبكر من تاريخ الحركة الاستشراقية أمثال: المستشرق جوليوس Golius 1596-1624م وألبرت شولتنس Schultens 1686-1750م، والهولندي توماس إربينيوس Erpenius 1584- 1624م وغيرهم.

ويتجلى ذلك الاهتمام ويبرز ويتضح أكثر مع بروز السمة الغالبة على الدراسات اللغوية عند المستشرقين، وهي السمة التي أذكت جانب الاهتمام بأصول الكلمات واشتقاقاتها Etymology وقد كان ذلك إلى جانب عنايتهم الكبيرة بالزمن الذي ينتمي إليه النص، سواء أكان عربيا أم عبريا أم سريانيا ... وقد غلب على أسلوبهم في تعلم هذه اللغات تناولها من خلال النصوص المكتوبة، وليس من خلال القواعد النظرية فإذا وصل أحدهم من وراء ذلك إلى فهم النص لتحقيق الغاية الدينية بلغ مراده، أما المقارنات الاشتقاقية بين اللغات السامية والبحث في أصول الكلمات، وما إلى ذلك من قواعد"[2] فالدراسات اللغوية عند جل المستشرقين اللاهوتيين لا تعدو أن تكون من الوسائل المهمة لبلوغ الغاية الدينية ليس إلا.

---

[1]- إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية، ط2. عمان- الأردن: 1996م دار حنين العبدلي، ص 30.

[2]- المرجع نفسه، ص 31.

وعليه؛ فقد تنبه العقل الغربي منذ أمد طويل إلى أهمية اللغة العربية بوصفها سلاحا قويا يفوق السلاح العسكري بكثير، فهي أكثر خطورة وأشد وعورة في ميادين الغزو الفكري والثقافي والعقائدي خاصة؛ بل زادت مكانتها حين دخل المعادلة مركب جديد لا يستهان به وهو الغزو الفكري والثقافي لقلوب المسلمين وعقولهم المتمثل بالأساس في العولمة، ضمن العلاقات الحضارية بألوانها السلمية المختلفة: كالحرية وحقوق الإنسان والديموقراطية، وغيرها من الشعارات الغربية البراقة، التي لا تطبق ولا تفعل إلا في الأماكن التي تخدم مصالحهم فقط، ولذا كان لزاما أن يهتموا بالمستشرقين على نطاق التخطيط العام الغربي، وأن يدعموا المشروعات الاستشراقية التي تنجز مشاريع محددة، بغرض تقريب الاستفادة منها، حيث قدمت لهم في سبيل ذلك مختلف المساعدات المالية من عطايا وهدايا وتحفيزات وما إلى ذلك من الهدايا العينية من قبل المؤسسات السياسية والدينية (الكنيسة) التي قامت بالإغداق على المستشرقين مقابل الخدمات الجليلة التي كانوا يقدمونها ضد الإسلام والمسلمين، وفي هذا ما يشير إلى الدور البالغ والبارز الذي يلعبه في خدمة الأهداف الحضارية الغربية في الشرق عامة، وفي العالم العربي الإسلامي خاصة.

فتهيأ بذلك المناخ كلّه للمستشرقين من جميع النواحي، وتوفرت لهم جملة من الوسائل ساعدتهم على نشر أفكارهم الاستشراقية وتداولها، واللغوية منها خاصة، فعكفوا على التأليف تارة والتدريس وإلقاء المحاضرات في الجامعات العربية والغربية على حد سواء تارة أخرى وأحيانا إنشاء المجامع العلمية أو الوصول إلى عضوية المجامع العلمية واللغوية في كبرى البلدان العربية والإسلامية، والإفادة من تلاميذ المستشرقين، فعلقوا بذلك مهمتهم على أعناق المستغربين، لجعلهم يقومون بمهمة الاستشراق بجدارة، وذلك من خلال نقل أفكارهم ومناهجهم ونظرياتهم وآرائهم إلى الشرق عامة، وإلى البلاد العربية الإسلامية خاصة، وقد كانت من الثمار التي ترتبت عن ذلك كلّه، محاولاتهم تجريد الحضارة العربية الإسلامية من أخص خصائصها، من كل مزية أو خصيصة تتميز بها، فتراهم يحملون "ذلك المجد على الأسطورة

والخرافة، كما يحلو لكثير من الغربيين والمستشرقين خاصة[1] ويلتمسون لها أصولا في الحضارات القديمة التي سبقتها، كالهندية والسريانية والإغريقية وما إلى ذلك من الحضارات الإنسانية العريقة وربطها بالخيال والأساطير والخرافات الشعبية، وقد أثروا في نفوس طائفة من دارسي العرب المحدثين منهم والمعاصرين، أمثال: الدكتور لويس عوض، وعبد الرحمن أيوب، وخليل عمايرة، سلامة موسى 1887–1957م، والمفكر المصري أحمد لطفي السيد 1872–1963م، وطه حسين وغيرهم.

1- 3- الدارسون العرب المحدثون والمناهج اللغوية الغربية الحديثة

من المتفق عليه أن المنهج هو مجموعة من الوسائل والطرائق التي تسعى إلى غاياتها وغاية الباحث تكمن في الوصول إلى الحقيقة باستعمال تلك القواعد والخطوات والأدوات التي يستعين بها؛ ما دامت هذه الآليات توصله إلى الحقيقة، وهي الضالة المنشودة لكل منهج يسعى ويهدف إلى إدراك الحقيقة حتى ولو كان ذلك بشكل نسبي فهي أساس مقصده.

من هنا؛ كان ولا بّد على كلّ دارس أن يناهج منهجا يساعده في ذلك، وفي ظل التطورات السريعة التي حصلت في الدراسات اللغوية الحديثة، ومن خلال مبدأ التأثير والتأثر اهتم الدارسون العرب المحدثون بالمناهج الغربية الحديثة "وافترق المعنيون من العلماء والباحثين العرب بين شتى المذاهب والمناهج، فمنهم وصفيون تركيبيون، ومنهم معنيون بعلم اللغة التاريخي، ومنهم من فضل أقرب المناهج ظهورا... ووجد فيه ضالته، وكان من نتاج ذلك كله؛ أن أثرت الدراسات العربية في قضايا اللغة على الرغم من تفاوت المناهج وفهمها واضطراب المصطلحات واستخدامها"[2] إلا أنّها في الأخير مكنت معتمديها من الباحثين والدارسين من البحث في العربية، ومقارنتها بالمناهج اللغوية الحديثة بما تتضمنه من أفكار وآراء ومقارنات وتعليقات وتفسير وتحليل وتعليل، محاولين في الوقت ذاته الكشف عن

---

[1]– إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية، ط2. ص7، بتصرّف.

[2]– علي زوين، منهج البحث اللغوي: بين التراث وعلم اللغة الحديث «دراسات» ط1. بغداد: 1986م، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، وزارة الثقافة والإعلام، ص7.

الأسس والأفكار لهذه المناهج في تاريخ دراساتها القديمة؛ أي في تاريخ دراسات العربية منذ نشأتها إلى الوقت الحالي.

حيث أسهم ذلك كلّه؛ إسهاما فعالا في توجيه الدراسات اللغوية العربية الحديثة حتى المعاصرة منها توجيها جديدا أفضى بانعكاسات بالغة على الواقع الراهن للدراسات اللغوية في الثقافة العربية المعاصرة؛ الناجمة عن الالتقاء بين الثقافتين الوافدة والمستقبلة، مع الإشارة إلى أن هذه المناهج الغربية التي بدأ المستشرقون بتطبيقها على العربية تنطلق من منطلقات لغوية غربية صرفة "تجري على مقياس اليونانية"[1] مستمدة أساسا من أفكار أرسطو عن طبيعة اللغة اليونانية وعلم المنطق ومزيج من آراء أفلاطون، ونظريات الرواقيين عن أجزاء الكلام، وأفكار عن طبيعة المعنى انتشرت في فترات من القرون الوسطى، وفرضيات عن علاقة اللغة بالعقل وكانت شائعة بين فلاسفة القرن السابع عشر؛ وهي غير المنطلقات اللغوية للغة العربية التي كانت وليدة الفكر الإسلامي الصرف، كما أن لها خصائص تختلف تماما عن خصائص اللغات الأخرى، رغم القواسم المشتركة بينها وبين أخواتها السامية.

انطلق المستشرقون في دراساتهم للغات الشرقية عامة، وللغة العربية خاصة من منطلقات غربية بحتة، مستخدمين في ذلك المناهج التي تدرس بها لغاتهم، ومن المعلوم تاريخيا أن الدراسات اللغوية الغربية عرفت نشاطا وازدهارا فعالا في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، حيث بدأت ترتسم معالم علم اللغة الحديث وتتضح، بكونه علما مستقلا عن بقية العلوم الإنسانية، ثم بدأت مناهجه بينة واضحة، ومن أبرزها: المنهج التاريخي والمنهج المقارن والمنهج الوصفي ... وهلم جرا.

وفي ظل تطور الدراسات اللغوية الغربية وارتسام معالمها، ورصد أهم خصائصها واتضاح مناهج البحث فيها، وبحكم عامل الاستعمار الذي كانت تعاني منه جل الدول الشرقية عامة، والدول العربية الإسلامية خاصة، ممّا جعل تلك الدراسات تؤثر في نفوس شباب الشرق، حتى صارت حتمية ثقافية خارجية حتمية لا مفر منها، أضف إلى ذلك التأثر

[1]– تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ط1. مصر: 1990، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 14.

الذي نجم عن السياسة الاستعمارية المنتهجة، التي سعت بشتى السبل والطرق للظفر بذلك وما شكلته حملة نابوليون بونابارت Napoléon Bonaparte 1769–1821م خاصة من تأثير على الثقافة العربية على جميع الصُعُد "حيث كانت هذه الحملة أشبه بالنافذة الواسعة التي أطلت منها مصر والشرق على معالم هذه الحضارة الحديثة، والعلوم المدنية، فأيقظت منها هذا الموات الذي اكتنفها طوال العصر المغولي"[1] حيث كانت إيذانا بالبداية الفعلية للانفتاح على الثقافات الغربية، التي صاحبت تحولا جذريا عميقا في مسار الدراسات اللغوية العربية الحديثة، وهذا الانفتاح جاء بسبب إنشاء المعاهد والجامعات والمنتديات في بلاد مصر والشام وفتح باب الاحتكاك على مصراعيه بين الثقافتين العربية والغربية، فضلا عن أثر البعثات التعليمية العربية إلى البلاد الأوروبية التي نشطت بقوة مع عهد محمد علي 1805–1948م ومدى تأثر هذه البعثات بالفكر الغربي وثقافته: فكانت "بداية لمرحلة مثمرة من التجديد الشامل لجميع نواحي الحياة"[2] إذ عاد الباحث إلى العالم العربي حاملا معه هذا الفكر، ومحاولا تطبيق المناهج الغربية على الدراسات العربية دون مراعاة للخصوصيات والمميزات التي تتميز بها كلّ لغة عن غيرها من اللغات الأخرى: "حيث تفردت العربية حتى بين اللغات السامية باطراد الأوزان وقواعد التعريب وقواعد الإعراب"[3] واستطاعت أن تجري مع الحضارات وتلبي مطالبها بامتياز على مر العصور والأزمنة.

وزاد من الاهتمام بالمناهج الغربية اطلاع بعض اللغويين على طرائق التأليف الغربية كما هو الحال بالنسبة إلى رفاعة الطهطاوي 1801–1873م، الذي يكاد يكون حسب ما تذكره الدراسات المتخصصة في الميدان المؤسس الفكري الأول لحركة الاصلاح الحديث، لولا أنّ شيخه حسن العطار سبقه في ذلك، لكان من أوائل العرب المتأثرين بالمناهج اللغوية الغربية وتجلى ذلك بوضوح في المقارنات اللغوية التي كان يعقدها بين اللغة العربية

---

[1]– عبد الرحمن بن حسن بن محمد العارف، اتجاهات الدراسات اللغوية المعاصرة في مصر 1932– 1985م، مصر: 1994، رسالة دكتوراه، ص 22.

[2]– المرجع نفسه، ص 2.

[3]– أنور الجندي، اللغة العربية بين حماتها وخصومها، دط. القاهرة– مصر: 1965، مكتبة المعارف، ص 3.

ونظيرتها الفرنسية، فيما يخص المحسنات البديعية والمجاز وغيرها من الموضوعات البلاغية وفي كتابه: "التحفة المكتبية" الذي ألفه سنة 1868 بأمر من "علي باشا مبارك 1823؟-1893م حين تولى نظارة ديوان المدارس، وطلب منه تأليف رسالة في النحو سهلة المأخذ لدراسة المدارس الخصوصية والأولية"[1] فألّف الطهطاوي مؤلفه هذا على طريقة مؤلفات الفرنسيين في النحو "التي أعجب بها إعجابا شديدا أثناء بعثته إلى فرنسا، فخرج فيه على طريقة معاصريه من علماء الأزهر في الشروح والحواشي والتعليقات والتقريرات، فجاء الكتاب بسيط العبارة، سهل العرض، ليس له متن أو شرح، كما استخدم فيه لأوّل مرة الجداول الإيضاحية، كما أثرت فيه طريقة شيخه وأستاذه حسن العطار 1776- 1835م في التأليف ما هيأ له الفرصة للثورة على مناهج التأليف القديمة، فقد كان هذا الشيخ يميل إلى وضع شروح تعليمية مختصرة مختلفة عن المعهود والمألوف، حسب ما أشار إليه الباحث حلمي خليل في مؤلفه: العربية وعلم اللغة البنيوي الذي نشره سنة 2000.

وعليه؛ كان رفاعة الطهطاوي من أوائل العرب المحدثين المتأثرين بالمناهج الغربية الحديثة، وذلك بمحاولاته توضيح أساس التمييز الذي أرساه على اختلاف اللغة العربية عن باقي اللغات، كما ظهرت كتابات أخرى في العالم العربي على يد بعض اللغويين النهضويين أمثال: جبر ابن ميخائيل ضومط 1858-1930م وإبراهيم اليازجي 1847-1906، وشكيب أرسلان 1869-1946م، وجرجي زيدان 1861- 1914م من خلال تأليفه بالمنهجين المقارن والتاريخي، ونلمس ذلك في كتابيه: "الفلسفة اللغوية" و"اللغة العربية كائن حي" وغير من ذكرنا من المتأثرين بمناهج المستشرقين الغربيين، والمستشرقين الألمان منهم خاصة، بعد انتدابهم للتدريس، وإلقاء المحاضرات، وبعد تأسيس الجامعة المصرية سنة 1907-1908م ولعلّ أشهر هؤلاء المستشرقين وأبرزهم، الألماني برجيستراسر، وإينو ليتمان، وشاده وبول كراوس وغيرهم، وبعد تسللهم إلى المجامع العلمية الرسمية في بعض البلاد الإسلامية وتعيينهم في المجامع اللغوية العربية، فقد عين كلّ من فيشر وليتمان في مجمع اللغة العربية

[1] - حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة: دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، ط1. بنغازي- ليبيا:2009، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص 25.

في القاهرة، وعين كارل بروكلمان في مجمع اللغة العربية في دمشق، ومن صور حضورهم وأثرهم في ذلك إسهامهم في حركة نشر التراث العربي محققا، وعقدهم للمؤتمرات الدولية في علم اللغة، والتي ألقت بظلالها على تقدم الدراسات اللغوية في الوطن العربي عامة، وفي الجامعة المصرية خاصة.

وبذلك كلّه، مهدت الدراسات الاستشراقية "لمجموعة من أوجه التعامل حيال الظاهرة اللغوية، حيث تعرف الباحثون العرب على أهم المقاربات في مجال الدراسات التي سادت في الغرب، وخصوصا ما تعلق من ذلك بالدراسات التاريخية المقارنة بين الألسن، عقب اكتشاف اللغة السنسكريتية من قبل المستشرق البريطاني الشهير ويليام جونز William Jonse 1746–1749م في سنة 1768، وترجمته لكتاب: الفيدا للعالم الهندي بانيني، ويؤرخ بهذا الاكتشاف لبداية الدراسات التاريخية المقارنة، فتدعمت بهذا الاكتشاف حجية المقارنات بين اللاتينية واليونانية"[1] وانعكس هذا الطابع على بحوث المستشرقين ودراساتهم للعربية، وبفضل جهود هؤلاء المستشرقين، ساد المنهجان التاريخي والمقارن المنتشرين بين الدارسين اللغويين والباحثين الذين يهتمون بالدراسات اللغوية في جميع أصقاع المعمورة، وأضحى هذا الاتجاه السمة البارزة التي طبعت القرن التاسع عشر، وما إن يشار إلى هذا القرن؛ إلا وذكرت معه الدراسات التاريخية المقارنة للغات، كما اقترن اسم هذه الدراسات باسم وليام جونز، المبشر الحقيقي بعلم اللغة التاريخي المقارن، باكتشافه للسنسكريتية.

ولقد تجلت ملامح التأثر بالمنهج التاريخي المقارن بوضوح في بعض كتابات النهضويين خلال هذه الحقبة بالذات، وهذا ما يبدو جليا في كتابات كل من: إبراهيم اليازجي بمؤلفه: أصل اللغات السامية وذلك في سنة 1881، وكتاب: الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية لصاحبه جورجي زيدان، والمعلم جبر ضومط بمؤلفه: فلسفة اللغة العربية وتطورها، ومقارنات رفاعة الطهطاوي "التي أجراها بين اللغتين الفرنسية والعربية في حدود بعض الأصول والمباني"[2] بل تعدى ذلك إلى بعض القضايا البلاغية كالجناس والتورية وما إلى ذلك من

[1] – حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص 33.

[2] – المرجع نفسه، ص 35، بتصرّف.

القضايا البلاغية، وبذلك فك رفاعة الطهطاوي طوق العزلة عن اللغة العربية، ونزع عنها عباءة الجمود والثبات، وألبسها ثوب الحركية والتجدد لمسايرة متطلبات العصر ومستجداته وأدخلها بذلك في مسار الدراسات اللغوية الحديثة، وفي ظل مناهجها العديدة على اختلافها وتنوعها، وأدخلها ضمن حوار مقارن مع لغات أخرى.

وربّما كانت محاولة ضومط في كتابه: فلسفة اللغة العربية وتطورها لا تقل قيمة عن غيرها من المحاولات الأخرى ذات الصلة بروح الكتابات التحليلية وجوهرها الخاص بتفسير التطور اللغوي، وكان يؤكد ذلك باستمرار على وجوب تطور اللغة العربية: "لأنّ اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما يخضع له المجتمع"[1] لتبقى دائما لغة حية نامية تساير مستجدات النهضة الحديثة في جميع جوانب الحياة.

كما عالج جبر ضومط مسألة نشأة اللغة العربية، إذ رأى أنّ اللغة نشأت كسائر نشأة بقية الكائنات الحية، فإذا كانت هذه الكائنات الحية تعتريها سنن التطور والتغير والتبديل، فكيف تبقى اللغة على حالها تماما لا تتغير ولا تتبدل؟

كان لزاما إذن بحكم الانتماء إلى هذه النواميس أن تعتري اللغة باعتبارها عنصر من عناصر هذه المجموعة. ومن هنا نلاحظ نمو اللغة العربية وتفرعها تبعا لناموس الارتقاء والتطور الذي يصيب جميع الكائنات الحية على ائتلاف أنواعها وتباين أشكالها.

ومن البديهي فيما لاحظناه؛ أنّ العلاقة القائمة بين التصورات اللغوية عند ضومط وزيدان في كتابيهما السالفي الذكر؛ أنّه قد تبين لنا من خلال عنوانيهما، أنّ أفكار المؤلِّفين وآرائهم متداخلة ، تركت أثرا واضحا لاستمرارية الأفكار اللغوية من حيث المقارنة التاريخية، التي علّل بها الباحثون في علم اللغة في نهاية القرن التاسع عشر.

وعليه؛ نستشف من خلال هذه المؤلفات العربية الحديثة وغيرها تمكن الدارسين العرب المحدثين من أصول المنهج المقارن ومبادئه وأسسه، وفي مؤلفات جورجي زيدان وكتابه: "اللغة العربية كائن حي" خاصة، الذي شبه فيه اللغة العربية بالكائن الحي في النمو والتطور

[1] – مهدي المخزومي، في النحو العربي نقدٌ وتوجيه، ط2. بيروت– لبنان: 1986، دار الرائد العربي، ص 19.

والارتقاء، وبهذا يثبت إيمانه بالنظرية الداروينية ونظرية النشوء والارتقاء وهذا أمر طبيعي بالنظر إلى طبيعة التكوين الذي تلقّاه هؤلاء الدارسون على أيدي المستشرقين وتأثرهم بهم سواء عن طريق البعثات العلمية إلى أوروبا أو الدراسة في الجامعات العربية، والجامعة المصرية خاصة، أو الاطلاع على مؤلفات المستشرقين، أو الترجمة لهم، حيث أصبح هؤلاء مشبعين بالفكر الغربي وبأفكاره اللغوية الجديدة، محاولين تارة تجسيد ذلك في مؤلفاتهم، ونشر مبادئهم وأفكارهم من خلالها، وبثها تارة أخرى في عقول الدارسين العرب، حيث أخذ هؤلاء على عاتقهم مسؤولية توصيل هذه الأفكار اللغوية الغربية الجديدة إلى العالم العربي برمته.

كما تظهر المتابعة الدقيقة لهذه المؤلفات تأثر أصحابها الواضح بالمناهج الغربية الحديثة، وانسياقهم وراءها؛ بل انبهارهم بها، وهذا ما يفهم من بعض العبارات التي وظفوها وإلمامهم بالمنهج المقارن يتجلى بوضوح من عدم اقتصارهم على ما هو عام به بذكر العموميات؛ بل يتعدى اهتمامهم إلى تطرقهم إلى القضايا الجزئية في اللغات لتدعيم طروحاتهم، وعرضهم لبعض أراء المستشرقين لتدعيم ما ذهبوا إليه من أراء لغوية حديثة تساير مستجدات العصر الحديث ومتطلباته، مما ترك أثرا عميقا على بحوثهم ودراساتهم على اختلاف موضوعاتها وتنوع أساليبها وتباين أفكارها، وكانوا من المحدثين الذين حازوا أفضلية السبق في حمل لواء التجديد اللغوي في الثقافة العربية الحديثة بلا منازع.

ويبدو أنّ صيحات برجستراسر بمحاضراته: التطور النحوي وغيره من المستشرقين المهيمنين على هذا الاتجاه، ممن دعا إلى المنهج التاريخي المقارن تركت أثرها البين في دراسات اللغويين العرب المحدثين، أضحت تتوالى شيئا فشيئا بعدما بدأت ملامح اتجاه جديد تلوح في الأفق وتظهر إرهاصاته، إيذانا بميلاد منهج جديد يثور على ما سبقه من الآراء والتصورات اللغوية، ويكشف عن عدم اهتمامه بقضية التطور والتدرج التاريخي للغة، ألا وهو ظهور المنهج الوصفي العلمي "في معالجة كثير من القضايا اللغوية[1] على يد العالم اللغوي الشهير فردينار دي سوسير Ferdinand de Saussure 1857–1913م، الذي عرف

[1]– مسعود بوبو، اللغة والكلام بين إخوان الصفا والدرس اللغوي الحديث، مجلة المعرفة، الجمهورية العربية السورية: 1989، س28، ع317–318، ص 7.

بدوره أيضا طريقه إلى الثقافة العربية، على يد تلامذته جون روبيرت فيرث John Rupert Firth 1890–1960م، التي عادت إلى بلادهم، بعدما اطلعت على مناهج الغرب في معالجته اللغوية وتصانيفه الجديدة في هذا المضمار، فقد "وجّه سوسير بدراساته اللغوية أنظار اللغويين في الغرب إلى المنهج الوصفي، وقد رأوا في هذا المنهج ضالتهم المنشودة، وطريقتهم الوحيدة للقيام بعملهم، هذا وقد تأثر عدد من اللغويين العرب المحدثين بالمنهج الوصفي وأيدوه، وطبقوه في بحوثهم ودراساتهم"[1] مع تعديلات واختلافات متفاوتة من دارس إلى آخر بفضل سلامة نتائجه تطبيقه.

وقد كان من بين العائدين إلى أوطانهم خريج جامعة لندن الدكتور تمام حسان 1918–2011م والدكتور محمود السّعران ت 1963 والدكتور إبراهيم أنيس 1906–1977م والدكتور كمال بشر 1921م–2015م وغيرهم ممن اهتم بالتأليف في هذا الاتجاه من جهة وممن اهتم بترجمة ما ألف في هذا المجال من الدراسات اللغوية الغربية، ونقله إلى العربية من جهة أخرى، وبحكم إقامتهم الطويلة في الدول الأوروبية تمكنوا من ألسنتها، حيث فتحت لهم هذه الدول باب الاطلاع على الفكر الغربي وثقافاته فجاءت مؤلفاتهم إثر ذلك محملة بما قدمته الأبحاث اللغوية الغربية من مناهج وصفية علمية حديثة ومتأثرة بالآراء المعروفة والمعتمدة والمتبعة عند الدارسين اللغويين الغربيين في بداية القرن العشرين وحاملة روح كتابة جديدة دخلت الثقافة اللغوية العربية الحديثة، محاولين الاستفادة من كل ذلك في دراسة العربية، مستعينين بما كتبه المستشرقون عنها، ومن هنا نتساءل عن طبيعة القضايا اللغوية التي تطرق لها هؤلاء الدارسون؟ وما هي المرجعيات التي انطلقوا منها في نقدهم للتراث اللغوي العربي القديم؟ مع الإشارة إلى أن الساحة اللغوية الحديثة شهدت توجهات أخرى ظهرت حديثا، كالاتجاه التوليدي التحويلي الذي بزغ على يد اللغوي المعاصر نوام تشومسكي، وفي مرحلة قريبة ظهر الاتجاه الوظيفي، ومن ثم المعرفي، وغيرها من النظريات اللغوية الجديدة التي في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، وما هي أهم تجليات التشكل اللساني الحديث في الثقافة العربية الحديثة؟ وما هي النتائج المترتبة على ذلك؟

---

[1]– عاطف فضل "تمثلات المنهج الوصفي الإحصائي في الدراسة اللغوية الحديثة منهج وتطبيق" مجلة التربية والعلم جامعة الزرقاء– الأردن: 2010، مج17، ع4، ص 188.

وتصدى هؤلاء الدارسون المستعربون للتدريس والبحث في كبريات الجامعات المصرية ثم تبلور بشكل عام في الثقافة العربية، وقد خصَّ هذا الاتجاه تمام حسان بمؤلفات قيمة نظرية كانت أو تطبيقية ومنها؛ النظريتان القيمتان المتمثلتان في كل من كتاب: اللغة بين المعيارية والوصفية في سنة 1958 وكتاب: مناهج البحث في اللغة سنة 1990 وبمؤلف تطبيقي: اللغة العربية معناها ومبناها الذي نشره سنة 1994 وغيره من الدارسين العرب المحدثين، فلهؤلاء من خريجي جامعة لندن خاصة الفضل الكبير في تقريب المفاهيم اللغوية ومناهجها الدراسية وتبسيطها إلى الباحث العربي المتطلع، وكان ذلك عن طريق الترجمة إلى العربية أو بالتأليف فيها على وفق مناهج المستشرقين، وهي محاولات كانت ولا زالت مستمرة إلى يومنا هذا.

وقد كانت الدراسات اللغوية في الدول الغربية قد عرفت طريق الازدهار والرقي منذ أن توصل سوسير إلى دراسة اللغة دراسة علمية وصفية لذاتها ومن أجل ذاتها فجعل اللغة محل دراسة علمية بعدما كانت تدرس لغيرها، وقد "استندت «النظريات اللغوية» التي أعقَبَتْه للوصول إلى حقائق تجعل من اللغة علما؛ أي ظاهرة يمكن حسم معضلاتها حسما دقيقا، من خلال مقدمات ونتائج منطقية ورياضية استندت بنحو أو بآخر، على النتائج التي توصل إليها"[1] إنّ جهد سوسير ينصب أيضا في المنهج الوصفي الذي أقامه في صرح الحقل اللغوي الحديث، الذي تحول على يديه إلى نظريات سرعان ما ظهر علماء لغويون بارزون أضافوا إلى ما أسهم به سوسير، فما زالت مسائله الجوهرية مَشغلة خالفيه من الباحثين إلى اليوم، حيث أضحى العمود الفقري للبحوث اللغوية الحديثة، حتى المعاصرة منها، حيث شمل سوسير جميع المستويات اللّغوية على حد سواء من صوتيّة وصرفيّة ونحويّة ومعجميّة ودلاليّة نتج عنه ظهور العديد من المؤلّفات التي اشتملت على عدد من النظريات اللغوية الحديثة.

ومع مطلع القرن العشرين وشيوع المنهج الوصفي الذي أعطى تطورا وانتعاشا للدراسات اللغوية، وتوسعت مجالاته إلى أن عرف ظهور دراسات جديدة كانت في بداية الأمر فروعا لعلم اللغة العام محاولة أن تكوّن لنفسها كيانا خاصا بها مثل علم الأصوات، وعلم الدلالة وغيرها من فروع علم اللغة.

---

[1] – فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، تر: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: مالك يوسف المطلبي، ط1 بغداد: 1985، دار آفاق عربية – الأعظمية – بغداد، ص9.

وقد أدى تطور البحث اللغوي في الدول الغربية إلى استقلالية فروعه بعدما كانت تدرس ضمنه، ولم يكن استيعاب أساسيات هذه المفاهيم في الثقافة اللغوية العربية الحديثة فوريا، بل كان في حدود الأربعينات من القرن الماضي. والذي نريد أن نشير إليه هنا أنّ الدراسات اللغوية العربية بدأت، أول ما بدأت على شكل إشارات هامشية في كتب اللغة بصفة عامة، وفي بحوث علمية تنشر هنا وهناك، ثم بدأ عدد كبير من الباحثين العرب المحدثين في علوم اللغة بالمنهج الوصفي كتابة وتأليفا بعد أن اطلعوا على المناهج الغربية في هذا المجال، فكانت مؤلّفاتهم صدى لقراءات أجنبية لم تأت بجديد، حيث التزم هؤلاء بما ورد عن الغربيين.

ولقد بدأت خلال هذه الحقبة من تاريخ البحث اللغوي العربي، أي في بداية الأربعينات حركة التأليف اللساني العربي، وارتبطت بظهور كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي تحت عنوان: علم اللغة* الصادر في حدود سنة 1940، كما يذكر المُؤَلِف ذلك في هامش مقدمة هذا الكتاب إلا أنّ الدكتور محمود السّعران في كتابه: "علم اللغة: مقدمّة للقارئ العربي" ذكر أنّ علي عبد الواحد وافي قد أصدر كتابه: علم اللغة سنة 1941 عن المطبعة السلفية القاهرة، مستعرضا فيه جملة من الأفكار اللغوية الغربية الجديدة وقد استعرض المؤَلِف في كتابه هذا جملة من الأفكار اللغوية الغربية الجديدة، معرفا باللغة وفروعها ودراساتها دراسة جديدة، منوها بالمستوى العلمي للدرس اللغوي في الغرب، وما وصل إليه من درجات راقية من النضج والكمال، ويعضد رأي وافي

---

*- يُعد هذا الكتاب من الكتابات اللغوية التي حاولت أن تُعرف بعلم اللغة الحديث، وقد حاول فيه وافي أن يعرض شيئا مما كان متداولا بين علماء الغرب عن مفاهيم اللسانيات العامة، وفي هذا الصدد قال الدكتور محمود السّعران: "للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي ... فضل كبير في الوفاء بهذه الأغراض، وكان تأليفه في هذه الموضوعات، ولا تزال مصادر سهلة التناول قربت إلى قراء العربية العصيَ من أمر علم اللغة وفروعه ودراساته" حيث لعب هذا المؤلَف دورا مهما في التعريف باللسانيات العامة وإدخالها إلى الثقافة العربية، لذلك نرى أن وافي بكتابه هذا عمل أولا على نشر «علم اللغة» بالعربية، وعلى تبسيطه وتقريبه من الباحثين المتطلعين بصفة عامة ومن المفكرين العرب بصفة خاصة.

ينظر: محمود السّعران، علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، ص 26.

← كما أشاد مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1945 بالمجهودات الجبارة التي بذلها المؤلف في سبيل البحث والدرس والاستخلاص، ولما حواه المؤلَف من مختلف مسائل اللغة ومعالجة مشكلاتها ما تمس إليه حاجة الباحث المتطلع وللطريقة العلمية الجديرة بالتقدير التي نهج المؤلِف في تأليفه هذا الكتاب، وسعيه إلى بسط المعلومات وهذا ما يدل على غزارة وحسن إحاطة باللسانيات أو علم اللغة.

ينظر: إطراء مجمع اللغة العربية لعلي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص 3، بتصرّف.

محمود السّعران قائلا: "والقارئ الأوربي يجد في لغته عشرات وعشرات من المؤلفات والمصنفات منها المطول ومنها المختصر، ومنها ما وضع لعامة المثقفين، وما وضع لخاصتهم، فهو من هذا العلم في حال خير مرات ومرات من حال القارئ العربي منه"[1] على عكس الوضع المنحط لعلم اللغة في الدول العربية المتجلي في غياب مؤَلَف يُعتد به. وقد خطا علم اللغة خطوات كبيرة منذ صدور هذا الكتاب بشهادة فطاحل اللغة أمثال الدكتور محمود السّعران حيث قال عنه: "للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي... فضل كبير في الوفاء بهذه الأغراض، وكان تأليفه في هذه الموضوعات، ولا تزال من المصادر سهلة التناول قربت إلى قراء العربية العصيَ من أمر علم اللغة وفروعه ودراساته"[2] وغيره من الباحثين العرب في ميدان علوم اللغة.

ولعل الدكتور وافي حسبما ذهبنا فيه رأيا، فإنّ محاولته من، حيث رؤيتُه، جديدة في الدراسات اللغوية الحديثة، على الرغم من كون هذا الكتاب تعليميا يفترض فيه بسط الاتجاهات اللغوية على اختلافاتها وتباينها، ولا يُستبعد الأمر، من أنّه استوحى كمعاصريه من أقرانه الدارسين العرب، المنهج التاريخي المقارن من لدن المستشرقين في الجامعة المصرية.

وهذا ما نكتشفه عند القراءة المتأنية لمؤلفاته، التي تنم عن تأثر واضح ببعض قواعد المنهج الوصفي والتمييز بينه وبين المنهج المقارن "[3] حسب ما أقر له الدارس مصطفي غلفان في كتابه: اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة، ذلك من خلال اشارات عبد الواحد وافي إلى مستويات البحث اللغوي الصوتية منها والدلالية، التي يُعد كل واحد منها فرعا من فروع اللسانيات الحديثة.

إنّ ما يهمنا من هذا كلّه على وجه التحديد أن مباحث علم اللغة الحديث ظلت إلى غاية سنة 1941 حكرا على الاتجاه التاريخي المقارن الذي قرره المستشرقون في الجامعة المصرية على الرغم "من ظهور إرهاصات المنهج الوصفي في الثقافة العربية، ولم تنقشع هذه الرؤية السائدة... ويؤرخ لهذه البداية بعودة إبراهيم أنيس 1906-1976م، وقد ترسخ في الثقافة العربية

1- محمود السّعران، علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي، ص 26.

2- المرجع نفسه، ص 06.

3- مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة: حفريات النشأة والتكوين، ط1. دار البيضاء: 2006، شركة النشر والتوزيع المدارس، ص 102، بتصرّف.

بفضل الجهود التي أعقبت إبراهيم أنيس"[1] وكان من أبرز من ساهم في ترسيخ هذا الاتجاه ثلة من الباحثين المبرزين، نذكر منهم: حلمي خليل، وتمام حسان، وعبد الرحمن أيوب، ومحمود السعران وكمال بشر، وغيرهم من رواد علوم اللغة العربية الحديثة.

وقد سارت هذه الاتجاهات حسب ما ذكره الباحث مصطفى غلفان في تيارات ثلاثة واضحة المعالم والتوجه، على النحو الذي خلص إلى تقديم نظرة لغوية شاملة لكلّ تيار على حده، تتمثل:

أولا– في تيار الوصفية ونقد التراث اللغوي العربي.

ثانيا– في تيار التحليل البنيوي للغة.

ثالثا– في تيار تطبيق النظرية الحديثة على اللغة العربية.

ويعضد ما ذهب إليه الباحث غلفان ما أكده المفكر زكي نجيب محمود في كتابه المسمى: تجديد الفكر العربي بقوله: "وأما نحن في عصرنا، فقد نشأت لنا صراعات فكرية جديدة، تولدت عن ظروف العصر ومناخه، فكان لا بد لنا من وقفة إزاءها، وأهم تلك الصراعات الفكرية التي عانيناها منذ أول القرن الماضي، ولا نزال نعانيها في حدة، هي طريقة اللقاء التي نوائم فيها بين علوم حديثة شاءت تطورات التاريخ أن تظهر في أوروبا وأمريكا، وكان لزاما علينا أن نتقبلها كما هي... أهم الصراعات الفكرية التي نعانيها... هي طريقة اللقاء التي نوائم فيها بين تلك العلوم الحديثة من جهة، وبين تراثنا الفكري من جهة أخرى"[2] فهذا القول يساند جميع الآراء اللغوية العربية التي تجمع على ضرورة تطعيم القديم بالجديد، وهو الاتجاه الذي يقدم إضافة للفكر العربي المعاصر، مقسما اللقاء الفكري بين الشرق والغرب إلى ثلاث فرق: "ففريق منا آثر أن يعتصم بالتراث الماضي وحده وأن يغلق نوافذه دون العلم الحديث الوارد إلينا، حتى لقد كانت لفظة العلماء إلى عهد قريب جدا لا تطلق إلا على من ألم بالتراث الفكري وحده، وفريق آخر ذهب إلى النقيض الآخر، وارتمى في حضن العلم الوارد، مغلقا نوافذه دون تراثه؛ حتى كان الواحد من هؤلاء لا يكاد يحسن قراءة العربية نفسها؛ وفي ظني أنّ كلا الفرقين قد اختار لنفسه أسهل السبل، إذ ما سهل على الفريق الأوّل أن يعبر عصور التاريخ، قافلا إلى الوراء، ليجعل من نفسه نسخة مكررة مما

---

[1]– مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة: حفريات النشأة والتكوين، ص102، بتصرّف.

[2]– زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، ط9. القاهرة: 1993م، دار الشروق، ص 269– 270.

كان، وكذلك ما أيسر على الفريق الثاني أن يعبر البحر الأبيض المتوسط، لينهل من موارد العلم في أوروبا، من حيث يجعل نفسه نسخة مكررة مما هو كائن هناك. وكلا هذين الفريقين لا يصنع لنا ثقافة عربية معاصرة لأنّه إذا كان الفريق الأول عربيا، فليس هو بالمعاصر، وإذا كان الفريق الثاني معاصرا فليس هو بالعربي، وإنما العسر كل العسر هو ما تصدى له فريق ثالث، ما زال يتحسس خطاه على الطريق بغية أن يصوغ ثقافة فيها علم الغرب، وفيها قيم التراث العربي جنبا إلى جنب، لا بل متضافرين في وحدة عضوية واحدة"[1] وهذا رأي الغالبية الغالبة من علماء اللسانيات العربية الحديثة، وحتى المعاصرين أيضا، من ميسرين، ودعاة اصلاح وتوفيق، ودعاة التجديد، ودعاة التفاعل بين التراث وبين الحداثة قصد فهمه واستجلاء أبعاده اللغوية التي يتضمنها، مقترحة نظرة جديدة إلى اللغة العربية، وتجديد الرؤية في دراساتها اللغوية، وذلك من خلال إعادة قراءة التراث اللغوي العربي القديم، سواء في ظل المناهج اللغوية الغربية الحديثة أو في ضوء هذا التراث نفسه الذي يزخر بكنوز كثيرة، هذا جهد آخر يسهم في التأريخ للثقافة اللسانية العربية المعاصرة، ولا شك أنّ هؤلاء المجددين أسهموا إسهاما كبيرا في تعميق معرفتنا باللسانيات الحديثة وأعلامها، ولفت نظرنا إلى المجهودات الحاسمة التي بذلها الأقدمون في هذا المضمار ومدّ الباحثين المعاصرين بأدوات بحث قيمة.

مع أنّ واقع اللسانيات بالمفهوم الغربي: La réalité de Linguistique لم يكن معروفا في الدراسات اللغوية في المشرق العربي من قبل، إلا عن طريق شيخنا العلامة عبد الرحمن الحاج صالح 1927– 2017م ببحوثه العتيدة، بلا منازع.

ويشخص هذا الواقع اللساني العربي الحديث الباحث عبد الرحمن أبو صيني في رسالته المعنونة: باللسانيات العربية بين التقليد والتجديد بالقول: مرت اللسانيات العربية بأربع مراحل: اللسانيات التطورية واللسانيات التأريخية واللسانيات البنيوية واللسانيات التوليدية، مؤكدا تسجيل اللسانيات العربية حضورا مبكرا في نهاية القرن التاسع عشر، حينما طبق بعض اللسانيين نظرية

---

[1]– زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، ص 270–271.

النشوء والارتقاء، والاختيار الطبيعي على اللغة العربية"[1] محاولا عرض كلّ مرحلة من هذه المراحل عرضا بيبلوغرافيا، ممّا جعل رسالته هذه أشبه بالفهرسة اللسانية منها بالتأريخ للسانيات العربية الحديثة.

في حين حاولت الباحثة فاطمة هاشمي بكوش أن تفصل بين مراحل النشاط اللساني العربي الحديث، وأن تقسمها إلى ثلاثة أقسام تحتل منها مرحلة السبعينات المركز، ما قبل السبعينات، التي تعتبر نشاطا مبكرا تمثّل في جهود جملة من اللسانين وبخاصة المصريون ممن أوفدوا في بعثات تكوينية أو درسوا على أيدي المستشرقين، وعندما رجعوا، رجعوا محملين بالفكر اللغوي الغربي، عكستها مؤلفاتهم فيما بعد، وما بعد السبعينات بدأ نشاط مع المغاربة الذين توجهوا نحو أفكار المدرسة التوليدية التحويلية من أمثال العلامة الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح، وزاد هذا النشاط وتوسع أكثر فأكثر وتطور مع إنشاء مؤسسات لسانية من قبل المعاهد التابعة للجامعات ومراكز البحوث الخاصة باللسانيات، مع إشارة منها إلى ما حدث في اللسانيات العربية من انفصال بين اتجاهين في البحث اللساني، لا يمكن قياسه ممّا حدث في الغرب من انتقال منهجي من اللسانيات الوصفية إلى اللسانيات التوليدية، فما حدث في اللسانيات العربية، إذا تشكلت لسانيات بنيوية وصفية عربية في سياق المعرفي والتأريخي الذي عرفته اللسانيات الوصفية الغربية، وفي المقابل فإنّ التوليدية العربية لم تنشأ بوصفها مذهبا معارضا للوصفية العربية؛ بل إنّها نشأت منفصلة تماما عما أنتجته الحركة اللسانية في المشرق العربي، فكانت جهدا منقطعا عما سبقها.

وهذا ما ذهب إليه الدكتور حلمي خليل حين حاول التأريخ للسانيات العربية الحديثة من خلال تقسيمها إلى ثلاثة تيارات منفصلة تماما عن بعضها البعض في كتابه المعنون بـ: العربية وعلم اللغة البنيوي، فجعل منها ثلاثة تيارات مستقلة حدد على ضوئها توجه كل تيار، وهي:

1- نقد التراث اللغوي العربي.

2- التحليل البنيوي للغة.

3- تطبيق النظرة اللسانية الحديثة على اللغة العربية.

---

[1]- عبد الرحمن صالح أبو صيني، اللسانيات العربية في القرن العشرين بين التقليد والتجديد، رسالة دكتوراه، تونس: 1997، كلية الآداب- الجامعة التونسية، ص519.

فتقسيم حلمي يدل دلالة واضحة على استقلالية كل تيار عن الآخر في اللسانيات العربية الحديثة، حيث مثل كل تيار بكتاب أو كتابين أو عدة كتب، ثم قام الدكتور حلمي خليل بتلخيصها لتبيان الملامح العامة لكل تيار "في حين أن اللسانيات العربية خطاب واحد ينبني على سلسلة من المقولات يتضافر بعضها مع بعض حتى تتبين السمات العامة لهذا الخطاب وليست تيارات يستقل بعضها عن بعض"[1] فالدرس اللساني العربي حسب فاطمة بكوش خطاب موحد منسجم وذلك من خلال تحديدها البنية العامة للمقولات اللسانية العربية، وهي مقولات حكمت الدرس اللساني العربي من حيث هي إشكال ثقافي في طبيعتها، ومرتبطة بسعيها إلى تسويغ مشروعية وجودها في الثقافة العربية من خلال:

- القول بعدم كفاية الأنموذج التقليدي المتمثل في نظرية النحو العربي.
- القول بضرورة تبني الأنموذج الوصفي في الدراسة اللسانية.
- القول بحاجة اللغة العربية إلى إعادة الوصف من خلال النظرية اللسانية الغربية الحديثة.

تحاول الباحثة من خلال هذه المقولات صياغة الخطاب اللساني العربي الحديث من خلال جملة من المؤلفات والدراسات اللسانية التي ألّفها بعض اللسانين العرب المحدثين من أمثال: الباحث إبراهيم أنيس وعبد الرحمن أيوب، وكمال بشر، ومحمود السعران، وفيها تبنوا مناهج البحث اللساني الغربي الحديث الصِّرف، سواء ما كان متعلقا بالفكر الفيلولوجي أو ما تعلق بالبحث التأريخي، وما أتى بعدها من نظريات لغوية غربية.

ننتهي من المحاولات السابقة إلى أن الدارسين العرب المحدثين قد استفادوا من الحركة اللغوية الغربية الحديثة استفادة كبيرة، فأسسوا على إثر ذلك مواقف كثيرة، وشكلوا معظم تصوراتهم للدرس اللساني العربي الحديث؛ بل أقاموا على أساسها أراءهم في مختلف القضايا اللغوية الحديثة دون انكار فريق منهم جهود المستشرقين في البحث اللساني العربي المعاصر، والإشادة بدورهم الفعال في بلورة نشاطه وتناميه.

[1] – فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث: دراسة في النشاط اللساني العربي، ط1. القاهرة: 2004م، منتدى سور الأزبكية، ص5.

2- مؤلفات المستشرقين وتأثيرها في الحركة اللغوية الحديثة

سنحاول عرض بعض عناوين لمؤلفات المستشرقين بإيجاز أحدثت صدى واسعا في الثقافة العربية الحديثة، وشهدت على أصحابها بالتأثر العميق بمناهج المستشرقين وتوجهاتهم، والتأليف على غرار مؤلفاتهم، نذكر منها:

المستشرق	كتابه	الدارس العربي	كتابه
يوهان فك	العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب[1]	إبراهيم أنيس 1906-1978	مستقبل اللغة العربية المشتركة تاريخ النشر: 1960 الجامعة العربية.
		محمود فهمي حجازي	علم اللغة العربية تاريخ النشر: 1973
		رمضان عبد التواب 1933-2001	- التطور اللغوي في عربية القرون الأولى - لحن العامة والتطور اللغوي تاريخ النشر: 1967
		مراد كامل	دلالة الألفاظ العربية تاريخ النشر: 1963

[1] - أكدّ الباحث كيس فرستيغ في كتاب له مسمى: كتاب العربية: اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها بقوله: "وقعت عليه الأنظار لأوّل مرّة سنة 1950، وترجم أوّل مرة إلى العربية على يد الدكتور عبد الحليم النجار في مائتين وتسعين (290) صفحة، كما وقفت على طبعه دار الكتاب العربي عام 1951 ومن تصدير الدكتور أحمد آمين" كيس فرستيغ اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، تر: محمد الشرقاوي، مصر- القاهرة: 2003، المجلس الأعلى للثقافة، ص5.

	أحمد نصيف الجنابي	ملامح من تاريخ اللغة العربية. تاريخ النشر: 1981
	البدراوي الزهران	في علم اللغة التاريخي: دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى. تاريخ النشر: 1979
	عطية سليمان أحمد	في علم اللغة التاريخي اللهجة المصريّة الفاطميّة دراسة تاريخية وصفية تاريخ النشر: 1993

تحدد هذه الكتب بوضوح بداية انتقال الفكر اللغوي الغربي إلى ميدان التفكير اللغوي العربي الحديث حسب ما أشارت إليه هذه الدراسات العربية الحديثة في ميدان علوم اللغة ذات الصلة بالساميات نقلت فصولا من كتاب: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ليوهان فك، وأخذت العديد من آرائه واستنتاجاته من غير إشارة، هذا بالنسبة لتأثير الاتجاه التاريخي فضلا عما ألهمه من توجهات لدراسة التراث العربي المتمثل في كتب لحن العامة والتراث الجغرافي والمصادر التاريخية والطبية وغيرها.

ومن المستشرقين الذين أحدثت مؤلفاته صدى واسعا في الوسط الثقافي العربي على مستوى رفيع، يبرز في الاتجاه المقارن المستشرق الألماني كارل بروكلمان بمؤلفه الشهير: فقه اللغات السامية، ومن المتأثرين بهذا المؤلف تلامذة المستشرقين أيضا محاولين "البحث في أصول العربية ونشأتها، مع مقارنتها بشقيقاتها من اللغات السامية معتمدين النظريات

التي سادت في نهاية القرن التاسع عشر"[1] مثل: عبد الحليم النجار، ومراد كامل، والسيد يعقوب بكر، ومحمود فهمي حجازي، والطهطاوي واليازجي، حيث ظهر في كتبهم ما يدل على توجههم الفكري الجديد، ونجد من أكثرهم تجسيدا لكتاب بروكلمان السالف الذكر رمضان عبد التواب وخالد إسماعيل علي بمؤلفات مشهورة ذائعة الصيت، حسب ما يوضحه هذا الجدول:

المستشرق	كتابه	الدارس العربي	كتابه
كارل بروكلمان[2]	فقه اللغات السامية	رمضان عبد التواب 1930-2001	المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي تاريخ النشر: 1982، التطور اللغوي: مظاهره وعلله وقوانينه تاريخ النشر: 1981
		خالد إسماعيل علي	فقه اللغات العاربة المقارن مسائل وآراء تاريخ النشر: 2000

ويُعد الباحث العراقي خالد إسماعيل علي من أشد المتأثرين بكارل بروكلمان، وأكثر الباحثين تمثلا لمنهجه وآرائه وتوجهاته وتصوراته، وهذا باعتراف منه، وإنّ نظرة متفحصة للموضوعات التي عالجها في كتابه: فقه اللغات العاربة المقارن نراه يعرض من خلالها

[1] – فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، ص 12-123، بتصرّف.

[2] – نشر لأوّل مرة مع مجموعة باب اللغات الشرقية، وذلك 1906، وقد طبع مرة ثانية 1916، وترجمه إلى الفرنسية وليم مرسيه W.Marçais ومارسل كوهين Marcel Cohen 1910، ترجمه إلى العربية رمضان عبد التواب سنة 1977 ينظر: موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص 103.

للموضوعات نفسها التي عرضها بروكلمان في كتابه السالف الذكر، التي "تقوم على مقارنة للظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمعجمية في اللغات التي تنتمي إلى مجموعة لغوية واحدة أو عائلة لغوية واحدة"[1] كالحامية أو السامية، ويضيف الباحث محمود فهمي حجازي قائلا: إنّ هذه المقارنة تهدف إلى دراسة "فرع من أفرع الأسرة اللغوية الواحدة"[2] ومنهج هذه المقارنة يتناول بناء الكلمة وكلّ ما يتعلق بالأوزان وما ينشأ من اشتقاق الكلمات وما إلى ذلك، وهذا ما يتجلى في الأمثلة التي أوردها الباحث الزويني: كالضمير والمشتقات وأوزان الفعل الثلاثي والمزيد، وأوزان الأسماء ومقولات الجنس التذكير والتأنيث والعدد المفرد والمثنى والجمع والتعيين والتعريف والتنكير واسم العدد ولاحقة الإعراب، فكلّ هذه المسائل اللغوية وغيرها تدخل في مجال علم اللغة المقارن، ومن أبرز هذه المسائل التي تناولها بروكلمان بالبحث والتحليل والتفسير؛ موضوع التأنيث في العربية حيث يرى: "أنّها كانت في الأصل عنصرا من عناصر الإشارة"[3] فمن خلال هذه المؤلفات وغيرها، يتجلى أثر المناهج الغربية في اتجاهات الدراسات اللغوية العربية في العصر الحديث وما رسخته من أعراف لغوية وانعكاسات ذلك على الوسط الثقافي العربي المعاصر.

فالمتصفح لهذه المؤلَّفات المذكورة سلفا يلحظ من أوّل وهلة تأثر الدارسين العرب المحدثين بالفكر الاستشراقي وبنظرياته وآرائه، من خلال العنوان، فمعظم عناوين هؤلاء الدارسين العرب تتناول على وجه الخصوص المنهج التاريخي أو المنهج المقارن، فلا يكاد عنوان يخلو من هذه الألفاظ سوءا بالتلميح أو بالتصريح فكلها تدور في فلك الاتجاه المقارن أو التاريخي وأحيانا تجمع بينهما، وإن كان هناك فرق بينهما، وذلك ما أشار إليه الدكتور رمضان عبد التواب في مؤلفه: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، فالأوّل يدرس الظاهرة اللغوية عبر مختلف الأزمنة، والثاني يدرسها في ظل مقارنتها بأخواتها من اللغات التي تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة، فإنّ هناك "أصولا وخصائص جوهرية تجمع بين هذه

---

[1] – محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، ط1، بيروت: 1982، دار الفلاح للنشر والتوزيع، ص.48

[2] – محمود فهمي الحجازي، أسس علم اللغة العربية، دط. القاهرة– مصر: 2003، دار الثقافة للطباعة والنشر، ص 34.

[3] – كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص 42.

اللغات"[1] ليخلص في الأخير إلى فهم الحقائق والخصائص التي تجمع بين اللغات، واكتشاف أوجه التشابه بينها من الجوانب الصوتية والنحوية والمعجمية، لاستخلاص القوانين العامة المشتركة بينها لتصنيفها تبعا للخصائص التي تتميز بها، مبينا مدى قربها من لغة الأم، ولا يخرج عن نطاق ذلك.

كما يلمس الواقف عليها ملامح التأثر من خلال الموضوعات التي تطرقت لها هذه المؤلفات، فجلها تناولت علم اللغة من منظور تاريخي، أو من منظور مقارن، وأغلبها بحثت القضايا اللغوية من المنظورين، وكان مصدر هذا التأثر اطلاعهم على دراسة يوهان فك وكارل بروكلمان، حيث برز ذلك من خلال استشهادهم بآراء هؤلاء المستشرقين واستعمالهم لمصطلحاتهم اللغوية، وانتهاجهم منهجهم في التأليف والتصنيف، وأغلب مصادرهم في التأليف كانت مؤلفات استشراقية بالدرجة الأولى، لكلّ من: بروكلمان، برجستراسر، فندريس ستيفن أولمان وغيرهم.

فضلا عن تقديمهم لدراسات متواصلة في هذا المجال سواء كانت ترجمة لمؤلفات هؤلاء الأعلام والتأليف على طريقتهم وخصوصا من ترجموا لهم، حيث ترجم رمضان عبد التواب لبرجستراسر وبروكلمان وغيرهما، ومن المؤلفات التي نهج فيها المنهج التاريخي بشكل أكثر وضوحا كتابه الموسوم بـ: لحن العامة والتطور اللغوي المنشور سنة 1967، وهذا ما صرح به في مقدمة هذا المؤلف بقوله: "يعد هذا الكتاب أوّل كتاب يؤرخ لظاهرة اللحن في العربية، ويسبر أغوارها، ويوضح العلل في وجودها، وقد تجول هذا الكتاب بين القوائم التي ألفت في اللحن في العصر الحاضر، وبين عيوبها، وقد حاول اصلاح الخلل الواقع فيها وخرج بعد ذلك بقائمة مبرأة من العيوب مستوفية الأركان، مرتبة ترتيبا تاريخيا، بحسب الوفيات لكتب اللحن منذ أوّل تأليف إلى هذا الجانب المهم من جوانب العربية"[2] وإن استعمال

---

[1]– رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ط3. القاهرة – مصر: 1997، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ص7.

[2] – رمضان عبد التواب، التطور اللغوي ولحن العامة، ط2. القاهرة– جمهورية مصر العربية: 2000م، مكتبة زهراء الشرق، ص 3.

رمضان عبد التواب لعبارة تاريخيا يدل على اطلاعه على جديد البحث اللغوي الذي عرفته أوروبا آنذاك، ويضيف قائلا: "يقصد من هذا البحث إلى دراسة ما تبقى من تراث لحن العامة، التي أرسى قواعدها المحدثون من اللغويين، يقصد بذلك العلماء الغربيين المحدثين ونحن نحسب أن أحدا لم ينتهج هذا النهج من قبل"[1] كما يكشف القول السابق عن تأثر رمضان الواضح بمناهج المحدثين من اللغويين، واعترافه لهم بالفضل في أسبقية الاستعمال وادراكه بوضوح المسار الجديد الذي اتخذه البحث اللغوي، والذي اعتمده؛ أي المنهج التاريخي في ترتيبه للحن العامة حسب وفاة مؤلف كل كتاب بالتقويم الهجري، مطبقا في ذلك قوانين التطور اللغوي الحديث التي استنبطها المستشرقون في إطار المناهج اللغوية الجديدة التي بدأت ملامحها تلوح في الأفق، وهذا شيء لم يخفه؛ بل اعترف به بتعبير صريح واضح كما سبق البيان فيه.

ومن النتائج التي توصل إليها رمضان عبد التواب في مؤلفه هذا أن اللغة تمر بأطوار من التطور والتغير، متأثرة في ذلك بسائر النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغير ذلك وأنّها في تغيرها وتطورها تخضع لقوانين مختلفة، وتظهر آثارها في كل ما سلف من كلام العرب الذي أخرجته العامة من النّاس عن الفصيح على مرّ العصور، وهذه النتيجة نفسها التي قال بها المستشرقون وأكدتها مؤلفاتهم وبحوثهم ونظرياتهم.

ويتضح مما سبق ذكره؛ أنّ المنهج التاريخي المقارن ترك أثرا واضحا بينا على مؤلفات رمضان عبد التواب الذي ظهر حديثا على أيدي اللسانين الغربيين عامة والمستشرقين خاصة، الذي نقله المستشرقون إلى الوطن العربي، فنهجه في أغلب دراسته للظواهر اللغوية وهذا يبدو واضحا كتأثر غيره من الدارسين المصريين المحدثين، وشأنه في ذلك شأن الدارسين العرب المحدثين في الوطن العربي عامة، فعزّز ذلك من ظهور التيارات اللغوية المتخصصة في دراسة علم اللغة العربي الحديث مادة ومنهجا، واعتبر ذلك بمثابة الحراك المثير الذي غير التوجه الفكري في حقل الدراسات اللسانية العربية خاصة والدراسات اللغوية عامة.

---

[1]– رمضان عبد التواب، التطور اللغوي ولحن العامة، ط2. ص 7، بتصرّف.

كما ظهر في العراق سنة 1938 كتاب: نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها لأنستاس ماري الكرملي 1866– 1947، وببحثه الذي نشره في الجزء الأول من مجلة مجمع اللغة العربية الملكي سنة 1935 تحت عنوان: بحثان: البحث الأول في تناظر العربية واليونانية، والبحث الثاني في تناظر العربية واللاتينية، وقد حلل في البحثين مجموعة من المعطيات اللغوية ولهجاتها بالعربية الفصحى خاصة، حيث قارنها بغيرها من سائر لغات العالم في محاولة النهوض بدراساتها والنظر في اللغة بصفة عامة.

انطلق الكرملي في بحثه الأول وهو بحث مقارنٌ من رفضه لفكرة أحد اللغويين الفرنسيين أميل بوازاق Emile Boisacq التي أوردها في تأليفه: معجم أصول اللغة اليونانية، حيث يرى أن هناك مئات من الألفاظ "لا يعرف لها أصلا أو مقابلا في لسان من الألسنة المعروفة"[1] أمّا الكرملي فيرى عكس ما يراه بوازاق حيث قال: "أما أنا فقد أصبتها في هذه اللغة التي أسميتها: أشرف اللغات وأنبلها وأرجع الكرملي إخفاق هذا المؤِلف في رأيه إلى قصر نظره عن لغتنا الشريفة؛ أي العربية، فاستشهد على رأيه هذا بمجموعة أقوال الأئمة الراسخي القدم في اللغة منهم: الراغب الأصفهاني المفردات في غريب القرآن وابن منظور لسان العرب ومحمد مرتضى الحسيني الزّبيدي تاج العروس من جواهر القاموس وجلال الدين السيوطي المزهر في علوم اللغة وغيرهم من العلماء الأجلاء، ومن جملة الألفاظ[2] التي أرجع الكرملي أصلها إلي اللغة العربية وأطلق عليها اسم المعارضات نذكر جملة منها كما في هذا الجدول:

ألفاظ بوازاق	مقابلها العربي عند الكرملي
Abake[3]	معنى بكّ الرجل: افتقر. وأحمق باكٌّ تاك، وبائك تائك لا يدري ما خطؤه وصوابه. ويقال: بكأت الناقة وبكؤت: إذ قل لبنها. والبئر قل ماؤها من باب همز اللفظ. ويقال: عفكٌ أبِك: أي أخرق من باب القلب. ويقال: العَبَكَة: العباب البغيض.

[1]– أنستاس ماري الكرملي، البحث الأوّل في تناظر العربية واليونانية، مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، ج1، المطبعة الأميرية، ص 269.

[2]– المرجع نفسه، ص 170 – 177.

[3]– المرجع نفسه، ص 270.

	فإنّ كلمة: ب ك تدل على الفقر، فقر في النطق وفقر في الصدر من الخبث والكذب.
Baculum Im- bacillus	معناها العصا التي تعين الضعيف، وأصلها عصا أو متكأ له، ومنه العيُّ الباقل، والمثل العربي يقول: أعيا من باقل.
Abros[1]	معناها الرخو، واللطيف، والناعم، والغض والمخنّث.
Aggelos وتلفظ angelos[2]	ومعناها في لغة عدنان العَجِل، قال في اللسان: رجلٌ عجِلٌ وعَجُلٌ وعَجْلانٌ وعَجِلٌ وعَجَيْلٌ والعجْل والعجلة هي السرعة خلاف البطء فهذا هو أصل الكلمة عندنا.
Agostos[3] معناها الراحة في كلام هوميروس	والأصل عربي محض من عجس. قال اللغويون: عجس على الشيء قبض عليه، أو شدّ القبض عليه.
Compagne[4] أصلها حِبْرًا في الآرامية، يراد بها الرفيق والصاحب والصديق.	الحَبِر كالفرح: وهو الناعم الغض الجديد، يقال: شيء حبِرٌ أي ناعم جديد، ومثله الحَبيرَ، والحبر بالكسر: أثر النعمة والبهاء والحسن، ومنه قولهم: فلان حسن الحِبر والسِبر: إذا كان جميلا حسن الهيئة.

لقد تعجب أنستاس ماري الكرملي من اللغويين الغربين كلّ العجب كونهم لم ينتبهوا إلى هذه الألفاظ اليونانية، ولما يناظرها في العربية، لأنّهم لو فعلوا ذلك لوجدوا مفاتحها فيها، لأنهاّ من "نجار عربي صريح النسب"[5] إذن اللغة العربية وحدها كفيلة بحل مغلق دقائقها، وتطلعنا على سر وجودها في تلك الألسنة البشرية.

فإنّ إخفاق ذلك الجمهور من علماء الغرب الذين ألّفوا كتبا عديدة ومختلفة في مقابل اللغة اليونانية بما يجانسها في سائر الألسنة البشرية، وأقروا في بحوثهم أنّ هناك عددا من الألفاظ لا يوجد لها مقابل في لسان من الألسنة البشرية المعروفة، يرجع إلى عدم التعمق في أصول الألفاظ

[1]– أنستاس الكرملي، البحث الأوّل في تناظر العربية واليونانية، ص 271.
[2]– نفسه، ص 272.
[3]– نفسه، ص 276.
[4]– نفسه، ص 271.
[5]– نفسه، ص 277.

العربية، ولو كان "هؤلاء اللغويون الفقهاء عرفوا العربية لاستغنوا عن تلك الآراء الفارغة والمذاهب التي لا تسمن ولا تغني من جوع"[1] لهذا السبب ألّف الكرملي هذا البحث ليرد على هؤلاء الغربيين، وعلى "بوازاق" خاصة، ويثبت لهم بالدليل التاريخي القوي الذي لا يتيسر لأي كان نقضه أنّ تلك الألفاظ لها أصل وأصلها يعود إلى اللسان العربي الذي هو من الفصيلة السامية.

لم تقتصر اهتمامات الكرملي على مقارنة اللغة العربية باليونانية فقط ؛ بل قارنها أيضا باللاتينية في بحث معنْوَن بـ: البحث الثاني في تناظر العربية واللاتينية، وقد حاول في هذا البحث أن يجد لبعض مفردات اللغة اللاتينية التي لم يجد اللغويون الغربيون لها أصلا في لغات العالم بما يظنه الكرملي أصلا لها في اللغة العربية؛ ولكن هذه المرة لم يتعامل مع معجم: أصول اللغة اليونانية لبوازاق، بل مع مؤلف آخر هو معجم أ. وَالْدى Alois Walde وهو: "أحسن ديوان لاتيني تحليلي صنّف في اللاتينية وألفاظها ومقابلتها بألفاظ سائر الأمّم من الغربيين وغيرهم"[2] عل حد قول الكرملي.

والملاحظة التي تُؤخذ على أ. وَالْدى أنّ آراءه كانت كسائر أراء: "علماء الغرب الذين يجهلون الكلم العربية التي تجانس الكلم الهندية الأوربية، إمّا لجهلهم للغتنا، أو لقلة عنايتهم بها، أو لصعوبة وجود تآليف تفيدهم الفائدة التي ينشدونها، وإما تعصبا للغاتهم، وإبعادا للتحقيق ما في لساننا من البدائع والروائع. وهذه الخلة الأخيرة ينقاد لها شعوبيو اللغات، لا علماؤها الحقيقيون"[3] وكان هدف الكرملي **من** نسج هذه المقالة هو إظهار مدى مجانسة ألفاظ اللغة العربية لألفاظ اللغة اللاتينية في كثير من الأوضاع، ولا سيما كثرة الألفاظ أحادية الهجاء، أو ذات الهجاءين.

ومن الألفاظ اللاتينية المبدوءة بحرف **-V-** ويُعتبر هذا الحرف حرفا علة لا صحيحا ويشبه الحرف U الإيطالي؛ اللهم إلا أن يجيء بعده حرف علة أخر، فحينئذ يلفظ كالصحيح مثل: **V** الفرنسي في الألفاظ التي ذكرها الكرملي في هذا البحث، ويظنّ أنّ لها علاقة باللفظ العربي على نحو ما أوردناها في هذا الجدول:

1- أنستاس الكرملي، البحث الأوّل في تناظر العربية واليونانية، ص 272

2- المرجع نفسه، ص 280.

3- نفسه، ص 280، بتصرّف.

المفردة اللاتينية	نظيرتها بالعربية
Vafrum Vabrum[1] ← ومعنى الكلمة عندهم هو: متغير الأشكال ومختلفها؛ أي الذي يتموج ألوانا مختلفة، ومنه الشخص المحتال المتلون في أرائه؛ أي في كل لونٍ يكون.	العِفْرِيُ: الخبيث، المنكر الداهية، الشرير المُتَشَيْطِن قال ابن منظور في مادة (ع ف ر) ورجل عِفر وعفرية، ونفرية، وعفارية، وعفريت بين العفارة: خبيث منكر داه، والعُفارية مثل العفريت ... وكذلك رجل عفِّرين وعفرين وهو واحد. مع الإشارة إلى أنّ اللفظة العربية وردت بمعاني الكلمة اللاتينية جميعها، فضلا عن أن العربية جاءت بمعناها الأول، الذي تفرعت منه سائر المعاني.
Vacca[2]	ومعناها البقرة، وأصلها العربي حسب الكرملي هو الحقة ومعناها الناقة الهرمة.
Vaccinuim[3] وهو نَبْتُ ويسمى باللغة الفرنسية Vaciet.	ومعناها البُكُّءُ بالعربية وهو نَبْتٌ كالجرجير غير أن صاحب العين ضبطها بفتح الباء لا بضمها أي البَكْءَ. وقال ابن مكرم: في مادة ب ك ى: البَكَى، مقصور: نبت أو شجر واحدته بَكَاة. وقال ابن سينا: البكاة مثل البشامة لا فرق بينهما إلا عند العلم بهما. وهما كثيرا ما يَنْبُتَانِ معا.

1- أنستاس الكرملي، البحث الأوّل في تناظر العربية واليونانية، ص 284.

2- نفسه، الصفحة نفسها.

3- نفسه، ص 284.

Vacerra[1]: ⟵ معناها الوتد والعماد.	وهي قريبة المعنى في العربية من عصا وأقرب منها اللفظة العامية عصاة، وقد ذكرها اللغويون بقولهم: قال الفراء: أول لحن سمع بالعراق: هذه عصاتي.
Vacillo Vacillare[2] ⟵ ↓ وهو مصدره.	ومعناه في العربية عَسَلَ؛ أي الاضطراب، وهو معنى الفعل اللاتيني أيضا.
Vadum[3] ومعناها المخاضة ومنقطع النهر.	و(um) كلمتنا العربية واد وهو منفرج بين جبال أو تلال أو آكام يكون منفذا للسيل.
Vagina[4] وهو غمد السيف أو جفنه، وهو وعاء يحفظ فيه السيف.	ومعناها في العربية بالقلب: إما فجن أو جفن وإما أن يكون من حجن ومعناه أقام، لأن السيف يقيم فيه. ويقال حجن بالدار حجنا: أقام فيها.
Vaha Vah[5]	يقابلها معنى ومبنى: واه وواها.
Vaco[6] معناها فرع أي خلا، ومنه Vacansarka أي ساحة فارغة.	أصلها في العربية هو عَقَى ومنه في لغتنا، عَقَى الولد، سقاه ما يسقط عقيه: أي أفرغ بطنه.

ومن الملاحظ أنّ الكرملي حاول أن يثبت العلاقة بين فصيلة اللغات السامية وبعض الفصائل الأخرى ولا سيما الهندوأوروبية، ولتبرير ما افترضه ذهب الكرملي إلى القول بالأصل المشترك للغة الإنسان الأوّل "لأنّ الأمم كلّها، ساميها وحاميها ويافثها كانت يوما من الأيام مجتمعة في صعيد واحد، مختلطة أفرادها بعضهم ببعض، وتتكلم وتتفاهم بما يكوّن لغة واحدة شاملة الجميع، وقد بقيت آثارها في الألفاظ البسيطة التركيب، الأوّلية البنية، محاكاة الطبيعة"[7] وهذا

[1]– أنستاس الكرملي، البحث الأوّل في تناظر العربية واليونانية، ص 287.
[2]– نفسه، الصفحة نفسها.
[3]– نفسه، الصفحة نفسها.
[4]– نفسه، ص 280.
[5]– نفسه، الصفحة نفسها.
[6]– نفسه، ص 286.
[7]– أنستاس الكرملي "البحث الثاني في تناظر العربية باللاتينية"، ص 180.

كلّه يرجع إلى أنّ اللغة عبارة عن نظام اجتماعي معين تخاطب به جماعة معينة، وينتقل من جيل إلى جيل، ويتطور على مر الأزمان، حتى وصل إلينا في صوره المختلفة الراهنة.

وفي مؤلف آخر للكرملي نجده يتمثل ما ذهب إليه بعض المستشرقين، ويستدل بآرائهم ويستشهد بأقوالهم، وهذا ما أقره في مقدمة مؤلفه: نشوء العربية ونموها واكتمالها "هذا بحث لغوي، جريت فيه على الأسلوب الحديث"[1] أي على نهج اللغويين الغربيين المحدثين، الذي تناول فيه جملة من الموضوعات اللغوية، وفق المنهج التاريخي مشيرا فيها إلى تفرع الفعل الرباعي عن الفعل الثلاثي "زيادة تشبه الأصلية، غير الزيادات الاشتقاقية المعهودة؛ بل زيادات معنوية، من رباعية وخماسية مثل: الجمهرة، والجمهور، والجمهر، الجمجمة..."[2] إلى غيرها من الألفاظ الخماسية الأخرى.

ونجده كذلك يستشهد في بعض القضايا المتعلقة بأصالة بعض الألفاظ العربية برأي كبار المستشرقين الغربيين أصدقائنا على حد تعبيره مثل: الدكتور فيشر والدكتور لتمان، وهما ألمانيان، والأستاذ الإيطالي ميكلانجلو، فاستفتينا كلّ واحد منهم بكتاب خاص، وكتبنا إليهم رأينا في أنّ الكلمة من أصل عربي، ونقل إلى اليونانية، ومن اليونانية إلى الحبشية الجعزية محاولا تأكيد صدق ما ذهب إليه، ودعم طرحه برأي مستشرق آخر؛ هو المستشرق ثيودور نودلكه، بصدد ذكر هذا اللفظ في كتاب من كتبه الذي أفرد له فصلا كاملا، ذكر فيه الألفاظ المستعارة من الحبشية، وبينهن لفظ الحواري الذي أثبت فيه؛ من أنّ الكلمة التي معناها: الرسول من مادة لغوية عربية صرفة؛ وإنْ اخْتُلِف في أمر تأويلها، والشاهد في النص على أخذه برأي المستشرقين وتبنيه له، قول الأب أنستاس الكرملي هذا جواب الأستاذ ميكلاأنجلو غويدي في سنة 1938 الذي يحيل ضمنيا على فهم عميق وإدراك دقيق لبحوث المستشرقين ودراساتهم الاستشراقية، وفي الأخير ختم القضية بجملة من دلائل وقرائن شخصية، هي بمثابة خلاصة له.

---

[1]– أنستاس ماري الكرملي، نشوء اللغة ونموها واكتمالها، دط. القاهرة: 1958م، المطبعة العصرية، ص10.

[2]– المرجع نفسه، ص 141.

ونخلص بعد هذا إلى أنّ كلّ ما تفرّد به الكرملي من مؤلفات لغوية، ويبقى الكتاب مرآة الأمّة، تبرز ما توصل إليه التفكير اللغوي العربي في عصره، وخلاصة الإبداع اللغوي في جميع العصور، وكلّ مؤلف من هذه المؤلفات تمثل مرجعا لغويا أو وثيقة لغوية ضرورية للتفكير اللغوي ومدّونة كبيرة للبحث في قضايا تطوّر اللغة وحيويتها الذي يعكس تجربتها في الحياة.

كما برز أيضا في هذا الاتجاه التاريخي المقارن وأعلامه هم: إبراهيم السامرائي 1923- 2001م وعامر سليمان 1931- 2011، وعلي زوين، ونعمة رحيم الغزّاويّ 1935- ت؟ وطه باقر 1912- 1984م، وهاشم الطعان 1931- 1981م، ومحمد حسين آل ياسين 1931- 2006، وخالد إسماعيل علي وغيرهم، ويكفي أن نورد عناوين مؤلفات هؤلاء الدارسين لندرك مدى تمكنهم من بعض المفاهيم اللغوية السائدة في ذلك العصر، والضاربة في عمق التحليل التاريخي المقارن.

وبالرجوع إلى مؤلفات هؤلاء الدارسين، نجد مثلا إبراهيم السامرائي صدر له سنة 1979 كتاب بعنوان: مقدمة في تاريخ العربية، وفي سنة 1983 فقه اللغة المقارن والتطور اللغوي التاريخي، ودراسات في اللغتين السريانية والعربية سنة 1985، وفي سنة 1993 وكتاب: العربية تاريخ وتطور، وفي سنة 1986 صدر لعلي زوين كتابه الشهير: منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، وقد انطلق الباحث علي زوين في كتابه هذا من حقيقة مفادها: "أن منهج البحث اللغوي وفق المناهج الحديثة من الأمور التي تشغل أفكار المعنيين بالدراسات اللغوية سواء العربية منها أو غيرها، وقد شهدت السنوات المتأخرة نهوضا بهذا المنحى المنهجي، وألفت كتب ودراسات في العربية وقارنتها بما استجد من أفكار وآراء معظمها مجتلب من الدراسات الغربية"[1] وغيرها من المؤلفات التي صدرت في العصر الحديث، والتي اهتمت بدراسة اللغة العربية دراسة تاريخية مقارنة في ضوء المناهج الغربية الحديثة.

ومن أبرز أعلام علم اللغة الحديث الخوري مارون الغصن 1880–1940م بمؤلفه: حياة اللغة وموتها اللغة العامية الصادر سنة 1926 فقد تحدث في مؤلفه هذا عن حياة اللغة وموتها وعن اللغة

---

[1]- علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ط1، بغداد- العراق: 1986، دار الشؤون الثقافية العامة/ وزارة الثقافة والإعلام العراقية، ص7.

العامية وعن تحسين اللغة العربية بإدخال علامات الوقف عليها، قائلا: "أنّ كلّ لغة سائرة إلى الفناء قياسا على ما عرفه تاريخ اللغات القديمة[1] منطلقا من فرضية مفادها أنّ كلّ اللغة سائرة إلى الفناء لا محالة قياسا على ما عرفه تاريخ اللغات عبر العصور، ومن أهمّ هذه اللغات نجد كلا من اللغتين اليونانية واللاتينية، كما تحدث في كتابه عن الدعوة إلى العامية، "تلك الدعوة التي لم يدخر وسعا في تأييدها"[2] حيث كان يقصد في دعوته العامية السورية، مشيرا إلى مدى تعلق الشعب بها، داعيا إلى تقعيدها؛ أي وضع قواعد لها مثلها مثل الفصحى لتمكينها من احتلال مكانتها بين المتكلمين في المجتمع السوري على غرار كتاب: "في العامية المصرية بعنوان: أحسن النخب في معرفة لسان العرب سنة 1848 وفي سنة 1909"[3] الذي ألّفه محمد عياد الطنطاوي وكتاب: الرسالة التامة في كلام العامة والمناهج في أحوال الكلام الدارج لميخائيل الصباغ وغيرهما.

كما يبدو لنا جليا ممّا تقدم؛ أنّ معظم الدارسين العرب المحدثين في مضمار العربية قد نهلوا من الثقافة اللغوية الغربية الحديثة، وهذا يرجع إلى اطلاعهم على المناهج اللغوية الجديدة التي سادت الغرب خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بفضل تمكنهم من لغات أجنبية حيث سمحت لهم هذه الأخيرة بالاطلاع على الفكر اللغوي الحديث في أوروبا، فكان ذلك مصدرا هاما أضافوه لمعرفتهم بالثقافة اللغوية العربية القديمة، ودشنوا بذلك مرحلة جديدة من البحث في قضايا لغوية بالغة الأهمية، فجاءت كتاباتهم حاملة روحا جديدة، وشكل ذلك مفتاحا لمجالات معرفية أخرى. لقد عرفت الثقافة اللغوية العربية كتابات لغوية لا تختلف في شيء عن جوهر كتابات لغويي المرحلة الأوّلى، حيث نلاحظ الاستمرارية للأفكار اللغوية نفسها التي رددها دارسو ولغويو الحقبة الأولى في الفترة ما قبل القرن العشرين.

كما واصل الدارسون خلال هذه الحقبة البحث في القضايا اللغوية الحديثة نفسها، التي تناولها الفكر اللغوي الأوروبي في الفلسفة اللغوية وتاريخ اللغات ومبادئ المنهج اللغوي المقارن في

---

[1]- سيد حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ط1. جدة- السعودية: 2004، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع ج2، ص470.

[2]- نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر، ط1. مصر: 1964، دار نشر الثقافة بالإسكندرية ص 31.

[3]- المرجع نفسه، ص11.

اللغة عامة، وفي اللغات السامية الخاصة والنحو المقارن وغيرها من المباحث اللغوية التي تعرض لها المستشرقون بالتحليل والتفسير والوصف والتعليل.

حيث حاول دارسو هذه الفترة أن يعرضوا ما كان متداولا بين علماء الغرب والمستشرقين خاصة عن طبيعة اللغة ووظيفتها، ويستفيدوا بذلك كلّه في دراسة اللغة العربية، بما كتبه المستشرقون عن اللغة العربية وعن تاريخها وتطورها، باسم الإصلاح والتجديد في مختلف مجالات علم اللغة وغير ذلك من الأمور.

وإذا نظرنا إلى جهود علماء العربية خلال هذه المرحلة؛ مرحلة التأثر المطلق بالمناهج الغربية لدى بعض الدارسين العرب المحدثين، نجد أنّ أصل اللغة ونشأتها وتطورها في التكوين عبر مراحل؛ هو البحث في جميع مستويات اللغة: انطلاقا من الصوت، والدلالة، والتركيب وغير ذلك من الأمور، كانت من الأمور التي جذبت انتباههم، فعملوا في جهد لا يعرف الملل، فجاءت مؤلفاتهم تتّسم بالأصالة في موضوع نشأة اللغة العربية وتطورها من وجهة نظر تاريخية ومقارنة وقد يكون هذا حدث لأوّل مرة في تاريخ الدرس اللغوي العربي، لأنّ المصادر العربية القديمة واضحة الأثر في الكتابات المتعلقة بالمادة والقاعدة والمعجم والتركيب والصرف وغيرها من القضايا اللغوية، لأنّ المطلوب من هؤلاء الدارسين على حد ما صرح به نجيب محفوظ: "هو أن نستوحي لنخلق الجديد، سواء عبرنا المكان لننقل عن الغرب، أو عبرنا الزمان لننشر عن العرب الأقدمين"[1] على الرغم من أنّ هذه المؤلفات يُسجل عليها غياب الرؤية النظرية والمنهجية المتكاملة حيث تكون هذه الرؤية كفيلة بالتوغل في مثل هذه الدراسات اللغوية، فلاقت هذه النزعة التجديدية استجابة هائلة، ظهرت على إثرها أعمال وانجازات عديدة متنوعة.

وعليه؛ تضمن هذه الرؤية الجديدة تقديم جديد على المستوى العملي، يمكن من خلالها تسليط أضواء جديدة على اللغة العربية وقضاياها وفق ما تقدمه النظريات اللغوية الحديثة من مفاهيم ومناهج بحثية جديدة.

[1] - زكي نجيب محفوظ، تجديد الفكر العربي، ط9. القاهر- مصر: 1993، دار الشروق، ص 254.

ومهمّا يكن من افتراضاتهم بشأن نشأة اللغة وتطورها، فإنّهم قد استعانوا ببعض النظريات اللغوية الغربية "كالنزعة الداروينية ونظرية النشوء والارتقاء ونظرية النمو التلقائي للكائنات"[1] التي كانت جديدة في عصرهم في محاولتهم للنهوض بالدراسات اللغوية العربية مستفيدين في ذلك كلّه من اطلاعهم الواسع على كثير من المصادر الغربية، وأهمّ مصدر تاريخي فكري غربي أثر في لغوينا هو كتاب: أصل الفروع لداروين الصادر سنة 1859م، من مناهج تاريخية ومقارنة، وبذلك يكون هؤلاء قد مهدوا الطريق لجيل جديد من الباحثين المحدثين، فاتحين بذلك أبواب هذا النوع من الدراسات في مجال البحوث اللغوية العربية الحديثة لا محالة.

2- 1- نماذج من ملامح الفكر الاستشراقي في الدراسات العربية الحديثة

وقد تمخّض اهتمام العقل الاستشراقي بالمستعربين عن ظهور شخصيات شرقية دافعت دفاعا مستميتا عن دينها ولغتها وقوميتها، وعملت على كشف مكائد المستشرقين وعورات أذنابهم، ومن الشخصيات اللغوية البارزة الغيورة على دينها وتاريخ أمتها، التي اشتهرت بفضلها ودفاعها عن التراث الإسلامي وأعلامه ورموزه، ساعيا إلى كشف القناع عن كتابات الدارسين العرب المحدثين المقلدين للفكر الاستشراقي ومواقفهم وتصوراتهم، التي "لا تكاد تترك شيئا ممّا وجد في الفكر الغربي إلا وخاضت فيه مستندة إلى فكرة مفادها الفكر اللغوي العربي بحاجة ماسة إلى مناهج جديدة تساعده على التطوّر ومسايرة الركب اللغوي العالمي"[2] الباحث لويس عوض، محاولا في الوقت ذاته إظهار أغراضه ودوافعه الخلفية من وراء كتابته ونشرها الدكتور إبراهيم عوض في كتابه: مقدمة في فقه اللغة العربية: تحت المجهر، والنافح عن العربية في مواجهة التغريب محمود محمد شاكر 1909-1997م وغيرها من الشخصيات اللغوية البارزة الذين اشتهروا بفضلهم ودفاعهم المستميت عن التراث الإسلامي وقادته ومعالمه ورموزه.

[1]- فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، ص20، بتصرّف.

[2] - عبد الرحيم البار "الفكر اللساني العربي الحديث بين التّجديد والتّقليد" مجلة الممارسات اللغوية، الجزائر: 2016، ج7 ع35، ص 174.

وقد جاء في مؤلف: مقدمة في فقه اللغة العربية: تحت المجهر لصاحبه إبراهيم عوض فيما خطه لويس عوض في كتاباته العديدة المتنوعة عن العربية وعلومها وتاريخها أنّه لا يقول كلاما يقوم على المنطق ولا على العقل، ولا يمت للموضوعية العلمية بصلة، ولم يكن يعرف تلك اللغات التي يكرر ذكرها في كتابه من السنسكريتية والفارسية، والمصرية القديمة، والإيطالية، والألمانية، واليونانية، والاسبانية والهولندية، والسويدية، والأنجلوسكسونية وغيرها من اللغات العالمية، و"أنّ الرجل وضع أمامه كتابين أو ثلاثة لبعض اللغويين الأوروبيين وجعل ينقل منها بطريقة توهم من ليس لديه خبرة أنّه كان يتقن كل تلك اللغات وأن المقارنات التي كان يجريها في الجذور وما إليها، هي من عمل بعض اللغويين الأوربيين مثل: كوني وهرمان مولر وبوزواك"[1] وإن حاول أنّ يضيف هنا أو هناك من لدنه شيئا سطحيا ليس إلا، وأن العبرة ليس في معرفة اللغات وحدها؛ بل العبرة بالعلم الواسع والعميق بالموضوع المراد درسه، وبسلامة المنهج والإخلاص في العمل والاجتهاد الذكي في السعي وراء الحق، وتوخي أكبر قدر ممكن من الموضوعية ما لم يستطع الدكتور لويس عوض الوفاء بشيء منه، على حد قول الدكتور إبراهيم عوض.

واستدل في حكمه على هذا الباحث، وما ذهب إليه في شأن لويس عوض بشهادة بعض معاصريه أمثال الباحث والناقد والمؤرخ المصري غالي شكري غالب 1935-1998م الذي أكد بقوله المشهور: "لويس عوض نموذج للتناقض في حد ذاته"[2] حيث أورد هذا الأخير في كتابه الموسوم بـ: المثقفون والسلطة في مصر، أن توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي، وهم من أقرب المقربين إلى لويس عوض "قد فوجئوا بالكتاب طبقا لما ظهر بكلّ قوة من رد فعلهم وقت صدوره"[3] وإذ كان الدكتور محمود شاكر قد أظهر عوراته في

---

[1]- إبراهيم عوض، كتاب لويس عوض: "مقدمة في فقه اللغة العربية" تحت المجهر، ط1، القاهرة: 2015، مكتبة الشيخ أحمد الألوكة، ص 10، بتصرّف.

[2]- المرجع نفسه، ص 9.

[3]- نفسه، ص 11.

تخصصه ذاته، فما بال المسائل اللغوية الأخرى التي وردت في الدراسات التي خاض فيها هذا الرجل في مؤلفه هذا الموسوم بـ: مقدمة في فقه اللغة العربية.

كما لم يستثن من أدلته وبراهينه، نفي الشهادات الكاذبة التي قيلت في هذه الشخصية وصدرت كذلك من قبل المتملقين والمسرفين في تقدير أتباع المستشرقين، حيث ذكر على رأسها شهادة حامد الظالمى الواردة في مقاله المعنون بـ: لويس عوض ومنجزه في فقه اللغة العربية، التي استهلها بقوله: "إنّ الكتب المؤلفة في فقه اللغة كثيرة جدا، ولكنّها غير مثيرة فهي باعتقادي مقدمات لكتاب لويس عوض وهي كتب تتناول تعريف فقه اللغة وكيفية دراسته، ولم تدخل في صلب الموضوع الذي أدخله لويس عوض في كتابه المذكور آنفا على الرغم من عدّة ملاحظات عليه"[1] فقول حامد الظالمى هذا هو مجرد ادعاء ليس إلا تكذبه كلّ الشواهد والبراهين، محاولا أنّ يبين للقارئ ذلك بذكره جملة من الحجج المنطقية والبراهين العقلية التي توضح ذلك بقوة، وتفند أوهام لويس عوض التي كان يعيش فيها، ويعتبر نفسه رائدا فيها، حيث ذكر على رأسها:

1- إرساؤه قواعد المنهج التاريخي في النقد العربي؛ أي دراسته للأعمال الأدبية بوصفها نتاجا للبيئة التي أفرزته حسب ما صرح به لمجلة: الثقافة سنة 1990 تحت عنوان: غيبة العقل عطلت فكرنا وجمدت نهضتنا"[2] في حديث له مع نبيل فرج، في حين أنّ النقاد العرب المحدثين كانوا يعرفون هذا المنهج منذ زمن طويل، مجسدين ذلك في مؤلفاتهم ودراساتهم الأكاديمية، أمثال: طه حسين الذي اصطنع هذا المنهج في رسالته الأولى في الجامعة المصرية عن أبي العلاء المعري 973-1057م، وكان ذلك في أوائل القرن العشرين، وكان موقفه منه وفهمه له في منتهى الوضوح، ولا يقاس أبدا بما صنعه لويس عوض، فضلا عن أسلوب طه حسين الجميل العذب الذي لا يستطيع هذا الأخير مجاراته أيضا، ولم يكتف بادعاء الريادة في هذا المجال فقط؛ بل عطف على الشعر التفعيلي ...إلخ وأبى إلا أن يكون رائدا في ذلك كلّه، متصورا أنّ القارئ والقارئ العربي المسلم خاصة، يبتلع

1- إبراهيم عوض، كتاب لويس عوض تحت المجهر، ص 12

2- نفسه، ص 13.

هذه الدعاوي والافتراءات والمزاعم دون أي تدقيق وتمحيص، وينسى دينه وقوميته وكل ما يتصل بهما، ويركب موجة المحاباة وإرضاء العواطف، ويغفل عقله ولا يتقيد بشيء، ولا يذعن لشيء إلا لمناهج البحث العلمي الحديث، خاب لويس عوض وخاب ظنه، وخابت مزاعمه وإذا كان الأمر كذلك فما صلة إثارة الشك في هذا الموضوع؟ وما علاقته بجملة من الدراسات الاستشراقية الخاصة بأصل العرب وهويتهم، فالشك في أصالته متصل بجوهره بشك بعض المستشرقين في ذلك ليس إلا.

2- تفاخره بأنّه لا يهتم بدراسة النحو والصرف، وأنه استقى معرفته بالأسلوب من قراءة النصوص الراقية، والسؤال الذي طرحه الدكتور إبراهيم كان في الصميم جدا، حين قال: "أو يصح أن يقدم رجل مثله لم يتقن المعرفة بقواعد اللغة العربية على التعرض لأصول هذه اللغة وتاريخها على مدى ألاف السنين"[1] فهذا التصريح أثار استغرابنا أشد الاستغراب، كما أثار تعجب الدكتور إبراهيم عوض واندهاشه، وهذا ما ذهب إليه علي الحديدي في ترجمته لسيرة الدكتور لويس عوض في سلسلة: أعلام العرب، حيث ذكر أنّ هذا الباحث هو رب السيف والقلم فقد درس النحو والصرف دراسة رسمية لا مرة واحدة؛ بل مرتين، مرة في المدرسة وهو صبي، ومرة في المدرسة الحربية التي تخرج منها ضابطا، وبذلك برر الدكتور إبراهيم شكوكه التي كانت في محلها ولم تطش، لأنّها من مقتضيات العقل والمنطق.

3- زعمه بأنّه قرأ التراث العربي وتمكن من فهمه جيدا، حسب إجابته على سؤال نبيل فرج حين سأله في حوار له مع مجلة: الصياد اللبنانية في سنة 1982 المعنون بـ: تطوير اللغة العربية عن كتابه قائلا: "ألا ترى أنّه قد يثير الدهشة أن تضرب بسهم قوى في اللغة العربية، بينما دراستك العلمية المتخصصة هي الانجليزية؟ فكان جوابه أدهش من مؤلّفه هذا أنّه ما دام يكتب بالعربية، ويقرأ بالعربية، ويتكلم بالعربية، ويدرس التراث العربي، فمن حقه أن يدرس الشعراء العرب ويكتب عنهم ويخوض في فقه اللغة العربية! وهو جواب عجيب"[2] وإلا فالذين يكتبون ويقرؤون ويتكلمون باللسان العربي هم كثرة كاثرة، وهذا ليس مسوغا لهم

[1]- إبراهيم عوض، كتاب لويس عوض تحت المجهر، ص 14، بتصرّف.

[2]- نفسه، ص 16.

أن يصنعوا ما صنع لويس عوض، وغير ذلك من مزاعم هذا الرجل وافتراءاته الغريبة والعجيبة التي لا تعد ولا تحصى.

ومن أهمّ المسائل اللغوية التي ذكرها لويس عوض في مؤلفه: مقدمة في فقه اللغة العربية، التي استعرضها الدكتور إبراهيم عوض وفاض في تحليلها، ولعل من أغربها وأكثرها شذوذا هي التي تتعلق بتاريخ العرب وأصلهم، حيث بدأها؛ أي هذه المسألة بقوله: "إنّ أوّل ظهور للعرب على مسرح التاريخ في الشرق الأوسط، وقد ورد في نص لشالمانصر/ شلمنصر الثالث ملك آشور 858-823 ق م، محفوظ في مكتبة آشور بانيبال ملك الآشوريين 669-630 ق م، يتضمن إشارة إلى ملكات العرب Queens of Aribi"[1] وفي هذا السياق نراه يؤمن بما قرأه في بعض الكتب من أنّ المرأة في المراحل المبكرة من تاريخ العرب كانت هي رأس القبيلة بدلالة هذا النص، بالإضافة إلى أنّ أشهر القبائل العربية تحمل أيماءات مؤنثة مثل: أمية وربيعة وكندة ومرة، دون أن يشير إلى المصدر الذي نقل منه المعلومة مطلقا، وإن كانت الإشارة إلى شالمنصر موجودة في الفصل الأوّل من كتاب العالم العراقي الدكتور جواد على المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام تحت عنوان: تحديد لفظة العرب، وثمة كلام آخر في الكتاب ذاته (في الفصل الرابع عشر منه) لم ينتبه له لويس عوض، أو لعل الأولى أن نقول تجاهله، على الرغم أنّ شكوكا تتجه إلى أنّه نقل منه لا محالة، وهناك عدّة أسئلة نضعها إزاء ما ادعاه لويس عن أصل العرب القوقازى، أليس غريبا أنه لا العرب ولا القوقازيون يعرفون شيئا عن هذا؟ ولقد نفى الدكتور إبراهيم هذا الادعاء بالفتوحات الإسلامية ودخول القوقازيين في الإسلام، فلو كان هناك نسب مشترك لكانت هذه فرصة لاستعادة الروابط القديمة، ولا نجد شيئا في تراث العرب يدل على ذلك قط، سواء في الروايات التاريخية، أو الأساطير، أو الدين، أو العادات والتقاليد، أو حتى الأسماء كما يزعم لويس عوض ويدعي، جاهلا أو متجاهلا كل آراء المصادر الإسلامية التي أشارت إلى هذه القضية، وفي الأحاديث النبوية الشريفة إشارات متعددة إلى أن أبا العرب هو إبراهيم عليه السلام

---

[1]- إبراهيم عوض، كتاب لويس عوض تحت المجهر، ص 17.

وفي القرآن الكريم إشارات واضحة إلى ذلك في سورة (الحج) هذا ما أكده الله ﷻ بنص قرآني صريح بقوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨ ﴾ [الحج: ٧٨]

لكننا إذا نظرنا في كلام لويس عوض ودققنا فيه، نجده يدابر القرآن والسنة والعقل والمنطق وقوانين التاريخ على اختلافها وتنوعها على السواء، وحسبنا أن نذكر هذه الآية لنفند بها كلّ افتراءات الغربين ومزاعمهم، وندحض أكاذيبهم، ونكشف خداعهم وتضليلهم وتعصبهم، فهي تنفي بوضوح جلي كل ما ذهب إليه لويس عوض وغيره نفيا قاطعا، وكفتنا مؤونة البحث في هذه المسألة، وهكذا تتهاوى أدلة لويس وتتلاشى، ويُغلق عليها في أدراج التاريخ لا محالة كغيرها من الدعوات الزائفة التي لم يكتب لها البقاء والاستمرارية، بفضل رجال تمتعوا بفكر ثاقب لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه الجماعات وحملاتها، وعملوا على تفنيد كلّ ما عرضه المستشرقون والمبشرون والمستعربون على السواء وكشفوا زيفهم.

ويضيف الدكتور إبراهيم عوض: "أن النظرية القوقازية الخاصة بأصل العرب مأخوذة من عالم أوروبي هو آرثر كيت وليست من بُنَيات عقل لويس عوض كما يزعم"[1] كما أن قوله إن أبحاثه دلت على أن اللغات البشرية ترجع في الأصل إلى 3 لغات فقط، وهو كلام مأخوذ من العلماء الأوربيين جاهزا دون أن يكون له الفضل فيه، وبالمناسبة فكل كلام أولئك العلماء هو مجرد تخمينات ينقض بعضها بعضا ليس إلا، إذ ما من نظرية من هذه النظريات إلا وتجد من يرد عليها، ولا يترك فيها شيئا قائما على قدم وساق، ومنها النظرية القوقازية و**لويس** نفسه يقول" أن بنفنيست Benveniste لا يربط بين اللغة والجنس؛ فرغم سيادة اللغة القوقازية في مناطق خارج القوقاز، فإنّ الشعوب التي سادتها تلك اللغة كانت مختلفة في الجنس عن القوقازيين"[2] ومن هنا يتجلى لنا بوضوح تأثر لويس عوض الشديد بالنظريات

---

[1]- إبراهيم عوض، كتاب لويس عوض تحت المجهر، ص 30.

[2]- المرجع نفسه، ص 31.

الغربية سواء في إثباته للأشياء أو نفيها على حد سواء، فهو يقيمها بآراء غربية بحتة ويحاول نفيها كذلك بالاستناد على آراء الغربيين أيضا، وهذا باعتراف منه حين يقول: "إنّ عمله هو تحويل ما خمنه العلماء من قبل على أنّه احتمال إلى نظرية مبنية على أسس علمية متينة"[1] فأين رأي لويس؟ وأين ابداعه؟ وأين نظريته من كل ذلك؟ إذا كانت منطلقاتها وحججها وآراؤها مستمدة من الفكر الغربي الصرف ليس إلا؟ ومتى كان الافتراض الغربي والخيال العوضي – وحدهما– دليلا كافيا على إثبات الحقائق التاريخية أو ردّها؟ مع العلم أنّ هذه الحقائق التاريخية ثابتة ومؤيدة بوثائق كافية على مدى قرون من الزمن، فلا يحق للويس عوض ولا لغيره أن يجعل من هذه الأوهام والافتراضات والمزاعم الواهية مطية يركبها للبروز والظهور، رغبة في التحرر العقلي وشجاعة الرأي باسم البحث العلمي المزعوم، وبغية تشويه التاريخ العربي لحاجة في نفسه ليس إلا، ومسلكا للتضليل أريد منه أن يكون النغمة السائدة في حياتنا الفكرية والثقافية المعاصرة، فكانت بذلك مدعاة للجدل والنقاش، أكثر منها مبعثا للأمانة والموضوعية؛ لأنّ الآراء والأفكار التي عرضتها كانت مفعمة بالسطحية والتعصب والانحياز، وهذه الأمور من شأنها أن تسقط القيمة العلمية لأي مؤلف كان، لأنّ القيمة العلمية هي الدعامة المتينة لجميع المؤلفات على اختلاف أنواعها، وتباين موضوعاتها وتعدد غاياتها.

ونخلص ممّا تقدم أن هذه الدراسة التي قام بها الدكتور إبراهيم عوض تعدّ من الدراسات العربية الرائدة في ميدان كشف عورات المستغربين المحدثين في مجال فقه اللغة العربي، وتفنيد الآراء التي ذهب إليها لويس عوض بالدلائل العلمية والقرائن التاريخية وكانت الغاية منه إبراز المغالطات والدسائس التي وقع فيها هؤلاء القوم، وكشفت لنا في الوقت ذاته عن العقلية العربية الواعية، وعن الروح النقدية العالية التي يتمتع بها الدكتور إبراهيم عوض في تحليل المسائل وفك رموزها، مستندا في ذلك على الموضوعية العلمية في تحليل الأمور

[1]– إبراهيم عوض، كتاب لويس عوض تحت المجهر، ص31، بتصرّف.

ونقضها أو إثباتها، ساعيا من وراء ذلك كلّه إلى كشف الحقائق التاريخية، وإثباتها بدلائل ومصاديق علمية يظنها كافية للتدليل على ذلك ليس إلا.

3- توقف النشاط الإستشراقي في أواخر السبعينات من القرن العشرين

أثار الواقع الراهن للنشاط الاستشراقي في الثقافة العربية المعاصرة، ولا يزال يثير أسئلة كثيرة عن الأسباب الكامنة وراءه، في زمن أصبح فيه الاستشراق التقليدي ضربا من ضروب النسيان "ففي الواقع لم يكن هذا التحوّل هامشيا، وإنّما كان أشبه بتتويج لتفاعلات ثقافية وفكرية وسياسية متعددة داخل الحقل الاستشراقي التقليدي"[1] هذا ما قاد مجموعة من الباحثين العرب في الفكر الاستشراقي وتاريخه إلى القول بتوقف النشاط الاستشراقي في سبعينات القرن الماضي، وبالتحديد عام 1973، الذي عقد فيه مؤتمر كبير بمناسبة مرور مائة عام على بداية عقد المستشرقين لمؤتمراتهم العالمية، والتي كانت تعقد كل ثلاث إلى خمس سنوات "وكان اللافت في المؤتمر أنّه شهد تصويتا على مدى رغبة المشاركين في الإبقاء على مصطلح مستشرق، كانت النتيجة لصالح إلغاء التسمية، والتوافق على تغيير اسم المؤتمر إلى المؤتمر العالمي للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال إفريقيا، وهكذا ألغى المستشرقون المعتمدون مصطلح الاستشراق، ورمي به في مزبلة التاريخ كما يقول برنارد لويس في كتابه المعنون بـ: الإسلام والغرب"[2] وهذا يعمق الإشكال أكثر ويزيد من حدته ويجعلنا نحس بنوع من التناقض الصارخ بين هذا القول وبين حقيقة العلاقة القائمة بين الشرق والغرب، المتمثلة في علاقة صدام فكري عقائدي قوي أزلي بين الكتلتين من أجل الخضوع والهيمنة والسيطرة ليس إلا، كون هذا الصدام ناتجا عن الاختلاف في الرؤى والعقائد والأفكار والمصالح وما إلى ذلك.

وتجدر بنا الإشارة هنا ونحن نتحدث عن توقف النشاط الاستشراقي بمنظوره التقليدي إلى الشيء الذي يلفت الانتباه وهو تنكر ورفض بعض المستشرقين مصطلح الاستشراق

---

[1]- عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي، حول الاستشراق الجديد: مقدمات أولية، ط1. الرياض: 1435هـ، مجلة البيان مركز البحوث والدراسات، ع 177، ص 12.

[2] – المرجع نفسه، ص 11، بتصرّف.

والدعوة إلى تسميته بتسمية أخرى، ويتجلى ذلك بوضوح في قول المستشرق الفرنسي ميكال أندريه Miquel André 1929 الذي يرفض هذه التسمية قائلا: "أنا لست مستشرقا[1]، وأرفض هذه الكنية"[2] ويزعم أنّه يجهل "معنى تعبير الاستشراق"[3] معللا ذلك بقوله: تاريخيا الاستشراق يعني أنّ باحثا غربيا يقوم بأبحاث حول الشرق، ودعا المستشرق مكسيم رودنسون Maxime Rodinson 1915 –2004 إلى "ضرورة استبدال الاستشراق بتعبير دراسات شرقية"[4] في حين أنّ المتتبع لنشاط هذا الفكر يجده يحتفظ بنفس الأهداف والدوافع والرؤى رغم تغيير التسمية.

وقد ظهر هذا النشاط إلى الوجود منذ أن بدأ الاهتمام الغربي بالإسلام كحضارة وثقافة وتاريخ وعلم ومعرفة وتراث، ويتجلى هذا بوضوح ويبرز منذ أنّ جعلت الكنيسة الإسلام وعلومه، باعتبار أنّ الاستشراق نشأ في أحضان الكنيسة من شتى الجوانب: سواء كانت شريعة أو ثقافة أو حضارة أو تاريخا أو نظما قديما أو ثروات أو امكانات على اختلافها وتنوعها، حيث كانت الكنيسة ميدانا خصبا للدراسات الغربية عامة، وللدراسات الاستشراقية خاصة، تتأرجح بين تحطيم المسلمات التي يؤمن بها المسلمون تارة، وفي الوقت ذاته حماية الغربيين المبالغ فيها من التعرف على حقيقة الإسلام والاقتناع به أو الدخول فيه تارة أخرى.

إنّ النشاطات الاستشراقية بمناهجها المختلفة، وفروعها المتباينة قائمة على التقولب والتجاوز والتغير الدائم والمستمر، لا تثبت له الصورة ظرفا حتى يتراءى تفككها، فتبرز معطيات جديدة تحدث أزمات حديثة، والعالم في حقيقة الأمر ينتظر هذه الأزمات ويتغذى منها؛ بل قل يبحث عنها ويختلقها، لأنّه لا يستمر إلا بها، وإلى هذا أشارت جميع القضايا

---

[1]– بعد أن أصبح مصطلح الاستشراق متخما ببعد إيديولوجي غير مرغوب فيه، وأصبح بفعل عوامل عدة يمثل المرادف الذهني للصورة البغيضة عن الاحتلال، وعدم الموضوعية، والعدائية، وغير ذلك. ينظر: عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي حول الاستشراق الجديد، ص 81.

[2]– حسب الله يحي وآخرون "حوار مع المستشرق الفرنسي أندريه ميكل حوار خاص بآفاق عربية" مجلة الاستشراق بغداد– العراق: 1987، ع2، ص 193.

[3]– المرجع نفسه، ص 194.

[4]– نفسه، ص 196.

الحديثة والراهنة لأنّها خصيصة فكرية، وأزمة ثقافية، إذ يفترض في كلّ مرحلة من مراحل التاريخ البشري أن يتجدد بناؤها باستمرار، وتظهر بثوب جديد، وبقالب متجدد لا محالة.

وعليه؛ يبقى مفهوم الاستشراق كأسلوب من أساليب الفكر الغربي الحديث والموجه وإنّ كان من المتيقن أنّ مدلوله غير حديث، يقوم بالأساس على تمييز معرفي عرقي إيديولوجي عميق بين الشرق والغرب، يعنى بدراسة أوضاع المجتمعات الشرقية بالتحليل والتنقيب لمقاصد متباينة، وأهداف غربية متنوعة، ويرتبط ارتباطا وثيقا بحماية المصالح الحيوية للدول الغربية أولا، وبسيادة النموذج الفكري الغربي، بكلّ حيله ومخططاته وهيمنته على العالم برمته ثانيا، متخذا أشكالا متعددة، ومسالك متجددة، كونّه مصدرا من مصادر المعلومات والتوصيات عن المجتمعات الشرقية كافة، وهذا ما ذهب إليه إدوارد سعيد وأكده في كتابه: الاستشراق حين قال: "أن الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه"[1] كونّه نمطا من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه ليس إلا، وكان يردد طرحه هنا أنّنا: "ما لم نكتنه الاستشراق بوصفه إنشاء فلن يكون في وسعنا أبدا أن نفهم الفرع المنظم تنظيما عاليا وهو الذي استطاعت الثقافة الغربية عن طريقه أن تتدبر الشرق - بل حتى أن تنتجه- سياسيا، واجتماعيا، وعسكريا، وعقائديا، وعلميا، وتخيليا في مرحلة ما بعد <عصر> التنوير"[2] وقد فسر الباحث عبد المتعال محمد الجبري هذا الإسقاط بإسقاط وعي زائف على الشرق وإنشاء أسطورة قبل كلّ شيء وتدعيمها، ونفى نفيا مطلقا أنّ تكون دراسة المشرقيات قد اهتمت بقراءة الواقع الشرقي وتحليل وقائعه بمنهج يلتزم الدقة والأمانة العلمية، وأكّد بوقائع تاريخية غائرة في القدم أن: "القيام برحلة إلى البلاد العربية سوف يلقي الأضواء على كلّ الأمور والتساؤلات المتعلقة بالدراسات اللغوية للكتب المقدسة ليس إلا"[3] وإذا كان الأمر كذلك؛ فإننا نتساءل وبإلحاح، وبمعية المتابعين للحركة

---

[1]- إدوارد سعيد، الاستشراق، تر: كمال أبو ديب، مكتبة ديوان العرب، ص 31، بتصرّف.

[2]- المرجع نفسه، الاستشراق، ص 31-32.

[3]- عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، ط1. القاهرة: 1995م، مكتبة وهبة، ص 15 بتصرّف.

الاستشراقية هل فعلا توقف النشاط الاستشراقي بمفهومه التقليدي في ضوء الأزمات المتكررة والصراعات المتجددة السائدة حاليا بين العالم الشرقي والعالم الغربي؟ وما هو الاستشراق بمفهومه الحديث؟ وما هي أساليبه المنتهجة ووسائله المستعملة؟ وما هي آليات المنهج الموظف نظرا لتباين الخلفيات الفكرية الغربية التي ينطلق منها هؤلاء الباحثون المزعومون؟ وما هي أذرعه؟ إن كانت أهدافه ومخططاته لا تزال في الأعم هي نفسها، ومناهجه خالية من الموضوعية والتجرد، والحياد، والنزاهة العلمية، كونها مناهج مشوهة زائفة قائمة على النفي والاسقاط والافتراض تارة، والشك والطعن والانتقاء تارة أخرى، مع الإشارة في نفس الوقت إلى الدور البالغ الذي لعبته هذه المناهج في توجيه مسيرة الحركة الاستشراقية عامة، حيث تفنن المستشرقون في اختيارها وعرضها تحت شعارات ومسميات وهمية زائفة، تتناسب مع أهداف المرحلة الاستعمارية، وكان ذلك إما تحت مظلة الشرعية العلمية أحيانا، وغطاء العقلانية أحيانا أخرى، وهي بريئة من هذا وذاك، في ظل سياسة استشراقية لا تختلف عما كانت عليه من قبل، وتضرب كتاباتهم العديدة بموضوعاتها المتباينة أكبر الأمثلة على ذلك، وتكشف القناع عن هؤلاء القوم الذين قدموا الزيف والضلال والخداع على أنّه منهج علمي نزيه صارم خالٍ من الأغراض المشبوهة أو من اللمز والغمز من جهة، ومن الخطأ والزيغ والشطط من جهة أخرى، لأنّ الاستشراق وإنّ تغير مفهومه، وتوسع نشاطه، وتجددت أساليبه، واختلفت مناهجه، وتباينت قواعده، وتعددت هيئاته ومؤسساته ومنظماته، فإنّه يبقى نمط من أنماط التفكير الغربي "يشير إلى مجمل الاهتمام العلمي بشؤون الشرق، فهو قطعا لم يتوقف؛ بل ما زال في نشاط وفعالية"[1] كونه أسلوبا من أساليبه التي تتطلع إلى التعرف على الفكر الشرقي وخصائصه بغية إخضاعه لسلطتها، للسيطرة عليه والتحكم فيه، كونه جزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري القائم بين الشرق والغرب، وبمرور الوقت ازدادت أهميته –وفي الوقت الراهن خاصة– أكثر فأكثر وتعاظمت مكانته، وتجلت صورته، لأهدافه المتباينة ومقاصده المختلفة التي تتجدد على مر العصور والأزمنة، كون الاستشراق "في جوهره منهاجا

[1]– عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي، حول الاستشراق الجديد، ص 83.

علميا يسعى إلى فهم العالم الإسلامي وثقافاته المختلفة من العلوم الإنسانية والعادات الاجتماعية التي يتميز بها دون غيره من المجتمعات الأخرى"[1] وذلك تحسبا لمستجدات كلّ عصر على حده، ورهاناته الواردة والمتوقعة التي تفرض على الفكر الغربي وتحتم عليه التجدد والتقولب حسب معطياتها ومتطلباتها المتجددة والمتغيرة على طول الخط تماشيا مع التقدم العلمي والتكنولوجي، وذلك عن طريق معرفة التناقضات القومية للشعوب عامة والشعوب الإسلامية خاصة، والخلافات الطائفية التي تحويها، والصراعات الأهلية الداخلية والنزاعات الإقليمية المنتشرة هنا وهناك، وغيرها من القضايا المحورية والحساسة لغايات توجيهية صرفة، وهذه حتمية عصرية لا بّد منها مفروضة على كلّ فكر حي يقظ يستشرف التوقعات المستقبلية ويخطط لها بجدية واقعية، ليجعلها تساير أهدافه، وتخدم مصالحه وتحقق غاياته، وتجسد خططه، بغرض التحكم في مسار المجتمعات الإسلامية وتوجهاتها للسيطرة عليها وإخضاعها للتبعية دون قيد أو شرط.

وعليه؛ يبقى النشاط الاستشراقي نشاطا موجها يعكس تطلعات الفكر الغربي بكلّ أبعاده وتوجهاته ومرجعياته ومخططاته وغاياته، ويسعى دائما إلى ابتداع "مقولات ومنظورات ورؤى جديدة ودحض الرؤى القديمة علميا وفلسفيا"[2] كونّها معبرة بعمق عن كلّ ما خلفه منظرو الاستشراق من أعمال ومؤلفات وبحوث ودراسات ومقالات وموسوعات يتعللون بها تفسيرا ووصفا، فمن الطبيعي جدا أن يفرض ذلك كلّه الاستمرارية في الزمن أكثر ممّا يفترض القطيعة، بصرف النظر عن آلياته ووسائله ومسمياته وشعاراته.

ولقد تعمق في الآونة الأخير، وبالضبط في العقود الأخيرة من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين اهتمام الدول الغربية قاطبة بالمجتمعات الشرقية، وبالأخص بالشعوب الإسلامية بشكل لافت، وهو اهتمام متجدد على اعتبار دراسة مكونات هذه المجتمعات

---

[1]- شفيعة الداغستاني "المستشرقة الألمانية أنا ماري شيمل" مجلة الاستشراق، بغداد- العراق: 1990، ع4، ص 221 بتصرّف.

[2]- زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط، تر: شريف يونس، ط1. القاهرة- مصر: 2007، دار الشروق، ص 21.

وتحليلها قديم قدم البحوث الاستشراقية من شتى الجوانب: الثقافية، واللغوية، والتاريخية والقومية، السياسية، والاقتصادية، وغيرها من مكوناتها الجوهرية من جهة، ودراسة قضاياه المختلفة ومشكلاته المتعددة في المقام الأول من جهة أخرى، لفهم أعمق لمجريات الأحداث التي تجري في المجتمعات الشرقية عامة، وتقلباتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى الأخلاقية فصار يمثل أهم الأدوار التي يضطلع بها الفكر الغربي المعاصر، لما تقدمه هذه الدراسات والبحوث من معلومات دقيقة تسهم في تحديد التوجهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية العالمية، وذلك من خلال توظيف تلك التقارير التي تقدمها هذه الأبحاث والدراسات، واستغلالها في اتخاذ قرارات تخدم توجهاتهم ومصالحهم الاستراتيجية البحتة وحماية أمنهم القومي، حيث تُعدّ المحرك الأساسي لاتخاذ القرارات المتعلقة بالقضايا الساخنة الأساسية التي تشغل المجتمع الدولي حاليا، أيا كانت درجة شراستها وخطورتها وانعكاساتها على الشعوب الشرقية، وهنا تظهر لنا علاقة السياسات الغربية الجديدة بتوجهات الاستشراق الكلاسيكي وبمخططاته.

يتجلى ذلك من خلال الموضوعات والمفاهيم والاستراتيجيات والأهداف والغايات والمقاصد وفقا للمعطيات التاريخية التي تثبت ذلك، لأن القائم وراء الظاهرتين والمسير لهما هو الفكر الغربي بأساليبه المتباينة وأدواته الموجهة، والاختلاف يكمن حاليا في صاحب هذه المهام، فإذا كان المستشرق سابقا هو من يقوم بهذه المهام والأدوار، في ظل هيئات استشراقية ومؤسسات عالمية على اختلاف مسمياتها، فالخبير الغربي أو المستشرق الجديد أو المستشرق المراجع المستظل براية البحث والدراسة الأسطوانة الغربية المعهودة على مر النشاط الاستشراق بمراحله المختلفة ومحطاته المتباينة على اختلاف تخصصاته في مراكز الرأي والأبحاث والدراسات العالمية المعاصرة، المصطلح عليها ب "بمستودعات الأفكار: ثينك تانكس Think Tanks وهي منظمات بحثية خاصة تهدف بشكل حصري إلى إنتاج أفكار لصالح السياسة لا إلى البحث العلمي المجرد"[1] وهي منتشرة عبر مختلف أصقاع

[1]- زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته، ص 21.

المعمورة، وهي من تقوم الآن بهذه الأدوار المنوطة بالمستشرق سابقا، بأدوات عصرية جدا تمكنه من انجاز مهامه بدقة عالية، وبصورة محكمة، حتى بات أحد أهم الفاعلين الأساسين في رسم الخريطة السياسية العالمية الآنية والمستقبلية، وأحد أهم المؤثرين في خط حدودها وتوجيهها مستقبلا لا محالة إلى حد التغيير والتبديل الشامل والكامل؛ بل قل إلى حد التغيير الكلي والجذري بنظر الكثير من المراقبين.

فالمشهد العالمي العام اليوم يقدم صورة تتجلى للعيان بوضوح عن مبالغة الغرب في درجة الخوف من العالم الإسلامي؛ بل الخوف العميق- الرهاب[1] - الفزع من الإسلام وكل ما يرمز له، والغريب في الأمر أن هذه الظاهرة ليست وليدة العصر الحديث؛ بل هي ظاهرة قديمة تعود إلى تراكمات تاريخية بدأت مع ظهور الدين الإسلامي على مر الأزمنة والعصور غير أنها انتشرت وشاعت وتوسعت استعمالاتها أكثر مع الأحداث الشهيرة التي شهدتها أمريكا في بداية القرن الواحدة والعشرين – سبتمبر 2001م- وذلك الخوف نفسه هو الذي دفع بخلايا التفكير/ بمراكز الأبحاث الغربية الحديثة إلى إدراك أنّ الحرب على الإسلام والمسلمين في الفترة الراهنة، وفي ظل الأحداث الأخيرة التي عمقت الفجوة بين الشرق والغرب أكثر فأكثر هي حرب فكرية/نفسية منقطعة النظير في المقام الأول، فالصراع في خضم النظام العالمي الجديد، كما يقول المنظر للسياسة الدولية والمفكر الأمريكي المعاصر صامويل هنتنجتون Samuel Phillips Huntington 1927-2008: "لن يكون أيديولوجيا أو اقتصاديا؛ بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر، والمصدر الغالب للصراع ثقافيا"[2] لأنّ ما يهم الناس حسب نظرية صامويل بعد انتهاء الحرب الباردة ليس هو الأيديولوجية أو المصالح الاقتصادية؛ بل الإيمان، والأسرة، والدم، العقيدة، فذلك هو ما يجمع الناس، وما يحاربون من أجله، ويموتون في سبيله، وهي مهمة تضاف إلى مهام المستشرقين الجدد، لتمرير السياسات

---

[*]– ورد في معجم المعاني الجامع أن (رُهاب مأخوذ من مادة رهب) اسم يدل في علم النفس على أنه خوف عميق مستمر على غير أساس من واقع الخطر أو التهديد من موقف ما أو شيء معيّن.

[1]– صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام الدولي، تر: طلعت الشايب، تقديم: صلاح قنصوه، ط2. 1999، ص10.

الاستعمارية في مناطق محددة بدقة عالية، ولبلوغ هذه الغاية تعمل هذه المراكز الفكرية/ التفكيرية الغربية بلا هوادة على تشويه المفاهيم الإسلامية الأصيلة وتحريفها، وإفراغها من محتواها، وإعطائها مضامين جديدة تؤجج مشاعر الحقد والكراهية وتعمقها، وتحي الضغينة الدفينة في وعي المواطن الغربي ضد الإسلام كعقيدة، والمسلمين كحضارة، لتضليل الرأي العام العالمي وتحريضه، وشحنه بمشاعر سلبية، ودفعه إلى تبني مواقف أكثر دفاعية حيال الإسلام، وهو الأمر الذي أدى بالطبع إلى افتعال الحوادث والنزاعات والصراعات الراهنة، أو ما يعرف في الاصطلاح المعاصر بالفوضى الخلاقة بخطى واضحة ومنتظمة، لاستغلالها في تمزيق الوحدة الفكرية للمجتمعات الشرقية وبالأخص المجتمعات الإسلامية، وتوسيع دائرة الخلاف بين المسلمين باسم الدراسات للفرق والمذاهب والأحزاب الإسلامية، وتوظيفها على الدوام في إطار استراتيجيات الهيمنة الشاملة، ومن ثم تفسيرها بما يعطي الانطباع السلبي عن الإسلام والمسلمين، ويصورهم في قالب شيطاني خطير ويضعهم في خانة الشر والأشرار التي تحمل بين طياتها صورة الدم والقتل والقتال والعداء والعنف والإرهاب، ليس هذا وحسب؛ بل يلونونها بالأسود ويجعلونها "مهدِّدة لكي يبدو استخدام العنف شرعيا"[1] والتي تفرض على الناس كافة محاربتها وتقويض أسسها وهدم كيانها، وهذا ليس مجرد خطابات سياسية جوفاء فارغة المحتوى؛ بل سياسة محكمة دقيقة أنشأت لكلّ عصر لغته الرمزية الخاصة به، وخطاباته المناسبة لأوضاعه الراهنة إلى حد القول إنّ الوقائع الجديدة تفرض البحث عن تفسير جديد يلائمها مستندة في ذلك على دراسات وبحوث نظرية وتطبيقية وميدانية دقيقة، معتمدة على أساليب بحثية جد مبتكرة قوامها العداء والكراهية ومجابهة كل ما يحمل بين طياته صورة الإسلام؛ بل قل كل ما يرمز للإسلام من قريب أو من بعيد، وهذا ما يُعدّ شكلا من أشكال العنصرية الممنهجة في العصر الحديث، وهو ما يعرف في الاصطلاح المعاصر بمصطلح الإسلاموفوبيا Islamophobia ويكيلون له كل الاتهامات والانحرافات والنقائص، حتى صار الإسلام في نظرهم تهمة في حد ذاتها والإسلام بريء من

---

[1]- بيار كونيسا، صنع العدو أو كيف تقتل بضمير مرتاح، تر: نبيل عجان، مر: جمال شحيّد وسعود المولى، ط1. بيروت: 2015، المركز العربي للأبحاث والدراسة السياسات، ص 33.

جميع التهم، حيث تعمل مراكز الفكر هذه على تفكيك الفكر الإسلامي وتحليل مفاهيمه بعمق ودقة لصوغ خطاب غربي قادر على محاورته والتصدي له بكلّ الوسائل والإمكانات والأدوات العصرية – أقول العصرية لأنّ التجديد الفعلي لا الصوري سمة من سمات الحياة المعاصرة– لتصل في الأخير إلى صياغة قيم إسلامية جديدة، لا سيما القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية تتماشى مع القيم الغربية وتوافقها؛ بل قل تحاكيها وتطابقها قابلة للتغيير المستمر وفق مقتضيات الحداثة ومقتضيات تحديث المجتمع الجديد على جميع المستويات والصُعد السياسية والثقافية والاجتماعية وحتى الأخلاقية، بل تمكنت من "خطف وعي الآخرين وارتهانه"[1] وجعلته يساير مستجدات العصر ومتطلباته، بهدف إنتاج منظومة فكرية شرقية جديدة ترتمي في أحضان الغرب، تستجدي منها المبادئ العقائدية، والمقاييس الأخلاقية، والمعايير الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، قابلة للخضوع والتبعية خضوعا تاما بدون قيد أو شرط لا تقوم من بعده لهم قائمة أبدا.

ووفقا لما تذكره بعض المصادر الإعلامية المختلفة؛ وتبينه بعض الاستطلاعات الميدانية، وتفسره جل الإحصائيات المتخصصة؛ وتؤكده المعطيات والدلائل، فإن هذه المراكز الفكرية الغربية التي تقع تحت مسميات مختلفة، ومفاهيم عصرية متباينة، وتخصصات متنوعة، يأتي في صدارتها أقدم وأعرق معهد من معاهد الرأي والفكر في العالم، ألا وهو المعهد الأمريكي الشهير بروكينغز Brookings Institution نسبة إلى مؤسسه روبرت بروكينغز سنة 1916 ثم يليه المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية ومركز هوفر Hoover أسس سنة 1919، إضافة إلى مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي ثم مركزه بروكسل البلجيكي والمعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية IISS في لندن، وغيرها من مراكز صناعة الفكر والهيمنة المتعددة الأشكال التي تتوزع على باقي بلدان العالم، وهذا ما نشرته مجلة الإيكونوميست في افتتاحيتها بعنوان: هجمة دبابات الفكر قائلة: إنّ أمريكا أصبح لديها جيش خطر من المفكرين الذين احترفوا تهييج القوة واستثمارها"[2] وهذا ما أكدته الباحثة وسيلة خزار بقولها: فقد

[1]– محمّد حسنين هيكل، الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق، ط1. مصر: 2003، دار الشروق، ص 11.

[2]– المرجع نفسه، ص 271.

صار تمويل البحوث والدراسات... في يد المؤسسات الاقتصادية الكبرى والأجهزة الحكومية وهذا ما يجعل هذه المؤسسات والأجهزة تتحكم في تحديد نوعية الأبحاث واتجاهها وفي مجال التفسير واستخلاص النتائج"[1] وهذا ما مكنها من لعب دور أساسي في عملية صنع القرارات الدولية مهما بلغت درجة خطورتها، وإعداد السياسات العامة للدول والمجتمعات كافة، كما أن مصادر تمويل هذه الخلايا البحثية يأتي من عدة مصادر – ومعظمها من مصادر مشروطة وهذا ما أكده أحد أساتذة التاريخ في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة الأمريكية في مقال كتبه في مجلة الشؤون الخارجية بعنوان "الارساليات الأمريكية في الشرق الأدنى" بقوله: "يمكننا أن نحشد احصاءات هائلة تتعلق بملايين الدولارات وبألوف النفوس التي ضحت في هذا السبيل"[2] وهذا ما يشوه استقلالية البحث في هذه المراكز ويعقدها ويحد من نشاطاتها وإبداعاتها، ويدخلها في فضاء التوظيف الأيديولوجي السلبي، ودائرة الملحقات المبطنة المحكومة بالأجندات السرية المعصوبة بالعنصرية، منها مصادر حكومية عسكرية ومؤسسات أكاديمية، وشركات أو مؤسسات كبرى، ورجال أعمال، ومنظمات عالمية وهيئات غربية، وغيرها من مصادر التمويل العديدة والمتنوعة، مع الإشارة إلى الدور الذي لعبته خلايا التفكير هذه في صنع السياسات العالمية الراهنة ورسم توجهاتها المستقبلية دور بارز لا يستهان به، وذلك بنشرها لمنشورات وتقارير تبرر فيها الغزو الغربي لبعض الدول الإسلامية وتروج لمختلف الدعايات الغربية وتوجهها وتعممها، وتعمل على ترجمتها على أرض الواقع وهذا ما تؤكده الاندفاعية الإعلامية الشرسة التي تمارسها لتشويه صورة الإسلام والمسلمين في مختلف أرجاء المعمورة، ويؤكد الدكتور الوهيبي هذه العلاقة الوثيقة بين عالم السياسة وعالم البحث العلمي بتصريح لمجلة الأيكونوميست البريطانية في إحدى افتتاحياتها إن أحدا لم يكن في مقدوره أن يناقش أن هذه المراكز أصبحت بذاتها حكومة الظل في أمريكا؛ بل

---

[1]– وسيلة خراز، الأيديولوجيا وعلم الاجتماع: جدلية الانفصال والاتصال، ط1. 2013، منتدى المعارف، ص 293 بتصرف.

[2]– مصطفى خالدي وآخرون، التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي، ط3. صيدا–بيروت: 1953، المكتبة العصرية، ص 23.

وتأكد أنّها الحكومة الخفية الحقيقية التي تصوغ القرار السياسي وتكتبه، ثم تترك مهمة التوقيع عليه للرئيس ومعاونيه الكبار في الإدارة، وهذا وضع يسيء إلى الفكر في قيمته، ويسيء إلى الإدارة في قراراتها، فمهما قلنا وفلسفنا فلن نكون أبلغ وأدق من هذا التصريح الدقيق الذي وصف بدقة العلاقة غير الأخلاقية التي توظف البحث والمعرفة لتحقيق أغراض سياسية صرفة، يقول زكاري لوكمان بصورة واضحة مباشرة: "قدم المستشرقون خدمات جليلة للقوى الاستعمارية، وسمحوا لأنفسهم أن يجيروا المعرفة لتخدم السلطة"[1] ولقد استخدمت السلطة الغربية جميع الطرق واستغلت جميع المناسبات لتحقيق أغراضها "فصناعة التطبيب والتعلم ونقل الكتب من لغة إلى أخرى كلّها يجب أن توجه توجيها"[2] يضمن استمرار فعاليتها، فهذا التصريح سجل بصدق مهام مخابر البحث خلايا التفكير التي انتشرت بعد الحرب الباردة إلى حد المقولة المشهورة وشهد شاهد من أهلها.

ودور آخر يضاف إلى أدوارها لا يقل أهمية عن غيره من الأدوار الفاعلة في صناعة القرار الحاسم؛ ألا وهو إصدارها لمؤلفات عديدة – كتب، مجلات منشورات، وهلم جرا تناهض قضايا الإسلام والمسلمين في المقام الأول، وجعلت منها مطية سياسية تغذي كل ما ينمي النزاعات والانشقاقات والصراعات في الدول الشرقية عامة، وبخاصة في الدول الإسلامية، حيث تعمل على افتعال أزمات مؤقتة ثم توجهها وتستغلها في خدمة مصالحها حتى أضحت – بحق– هذه المراكز مطابخ لصناع القرار على اختلاف مجالاتهم وتوجهاتهم للتأثير ولخدمة المصالح من جهة، وللضغط والنفوذ من جهة أخرى، ومراكز لصناعة الرموز والقادة السياسيين العالميين المرغوب بهم، وخلايا تفكير جهنمية لإبداع أساليب المواجهة العصرية، مهمتها مواجهة الإسلام والمسلمين في المقام الأول، بغية خدمة المجتمعات الغربية وحماية مصالحها سواء كانت سياسية أو اقتصادية وهلم جرا، مؤكدة ثقافة نفوذ الغرب في العالم، وذلك من خلال النشاطات العديدة ذات الطابع العلمي المعلن عنها التي تقوم بها ممثلة في الأبحاث الميدانية والدراسات الأكاديمية والمنشورات والدوريات المحكمة التي

---

[1]– عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي، حول الاستشراق الجديد، ص 38.

[2]– مصطفى خالدي وآخرون، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص43.

تصدرها بين الفينة والأخرى، والمؤتمرات العالمية، والمنتديات الدولية التي تعقدها عبر مختلف أصقاع المعمورة، وتعمل على نشرها مختلف وسائل الإعلام الغربي وتسعى إلى تصعيديها وتأجيجها أكثر وأكثر، وهذا ما نشهده في الوقت الراهن على أرض الواقع.

عموما؛ تبقى الظاهرتان، سواء الاستشراق التقليدي الكلاسيكي أو الاستشراق المعاصر المتجدد تحملان في طياتهما نوعا من التشكيك في مصداقيتهما، وهذا التشكيك يرجع إلى تغيير نشاطهما وتحويل غاياتهما في شتى المجالات، حيث كان الاستشراق بكلا نوعيه يتميز بطابع بحثي علمي من الجانب النظري كإطار عام في مراحله الأولى محصورا في دائرة الانتفاع من علوم الشرق وحضاراته، في حين أصبح موسوما بسمات أخرى بعيدة كلّ البعد عن الموضوعية والنزاهة العلمية، وخرج بذلك إلى أغراض دينية، وسياسية، وعسكرية واقتصادية وغيرها، تسعى إلى فرض السيطرة على شعوب الشرق وثرواتها "كون الاستشراق بعمومه جزءا من الحركة العلمية والفكرية واللغوية والثقافية الواسعة في أوروبا وأمريكا"[1] خصوصا عندما يكون الشرق هو الإسلام كحضارة وثقافة وعقيدة وشريعة ولغة وتاريخ وأمة وتراث، واستخدام تلك المعرفة في خدمة أغراض استعمارية محضة، وذلك بفرض السيطرة والتوسع والهيمنة الشاملة على المحور الشرقي وشعوبه.

ومن الملاحظ أنّ استشراق الأمس التاريخي التقليدي الاستعماري ليس هو استشراق اليوم أي الاستشراق المعاصر، فالاستشراق المتجدد بأيديولوجياته المستحدثة وآلياته المعاصرة قد طوّر من أدواته كثيرا، وذلك باعتماده على مناهج وطرائق البحث في حقول معرفية جديدة على نطاق واسع، كاعتماده على مختلف فروع العلوم الإنسانية الحديثة ومناهجها المطّورة وبخاصة العلوم الاجتماعية، وشهد الحقل الاستشراقي المتجدد وعلى نحو متزايد الاهتمام بالمنهج الأنثروبولوجي المرتبط ارتباطا وثيقا بمختلف مداخل التحليل الثقافي، والمنهج اللغوي الفيلولوجي المستحدث بعدما كان محتكرا من قبل الفيلولوجيين والمحترفين المتمكنين من اللغات الشرقية، فأضحى الاستشراق بثوبه الجديد في ظل العولمة: جامعة بجميع فروعها

[1]– عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي، حول الاستشراق الجديد، ص 15، بتصرّف.

وتخصصاتها: سياسة واجتماع واقتصاد وأنثروبولوجيا ودراسة المناطق تخطيطا واستراتيجية محكمة، ووسع بذلك من دائرة بحثه وأفقه في حين كان الاستشراق التقليدي لم يتعد نطاقه اللغوي وإطاره الرسمي المدرسي، وخرج عن نطاق المركز اللغوي الغربي وعن مركزيته، ونقل مركزه إلى أمريكا تزامنا مع مؤتمر الاستشراق الذي عقد سنة 1967، الذي تناول الوضع الاقتصادي للعالم الإسلامي، ليشكل بذلك ظهيرا اقتصاديا لإعادة ترتيب أوراق العالم المعاصر، في ظل النظام العالمي الجديد من منظور أمريكي صرف، مركزا جل اهتماماته على منطقة شمال إفريقيا، ومنطقة الشرق الأوسط كمركز صراع، ونقطة توتر، وذلك لما تحمله هذه المنطقة من اعتبارات تاريخية ودينية وأثرية وحضارية جعلتها مهد الحضارة الإنسانية قاطبة، ولما تحمله من أهمية استراتيجية ورمزية تاريخية ودينية، ومكانة أثرية وحضارية مرموقة في الثقافة البشرية عامة على نطاق واسع، وقد أكّد هذه المكانة المستشرق تييري هنتش Thierry Hentsch 1944–2005 بقوله: "إنّ الممانعة الرمزية في الثقافة العربية الإسلامية لتقدم قيمنا العالمية في شرق البحر المتوسط تزعجنا بنحو خاص، لكون هذه المنطقة مترسخة في مخيالنا الجماعي بوصفها عائدة إلينا منذ أقدم الأزمنة، ليس بسبب الانضواء العابر للشرق المتوسطي في منطقة النفوذ اليوناني الروماني وحسب؛ بل أيضا بسبب رنين الحكايات التوراتية في نفوسنا"[1] ولقد أثر هذا الاعتقاد في الدوافع السياسية الغربية إزاء الشرق، وتجسد في الحملات العسكرية التوسعية المتكررة على فلسطين عبر التاريخ وأصبحت مسألة الهيمنة على المنطقة ومجتمعاتها مهمة حضارية ومسؤولية إنسانية في المنظور الغربي، يعبر عن هذه المهمة جولز هارماند Juele Harmand عندما "أكد ضرورة القبول بهرمية الحضارات"[2] وبالتالي أحقية الأفضل منها بفرض نفسه على الآخرين حسب المعتقد الغربي الحديث.

---

[1]– تييري هنتش، الشرق المتخيل: رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي، تر: غازي برو وخليل أحمد خليل، ط1. بيروت: 2004، دار الفارابي، ص 406–407.

[2]– عبد الله يوسف سهر محمد، مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين، ط1. الإمارات: 2001، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ص 16.

وقد تناول الباحث الوهيبي منهجين اعتبرهما من أكثر المناهج المستخدمة في حقل الاستشراق المتجدد، مستعرضا أهم الأطروحات التي قدمت فيهما:

أولا- المنهج الأنثروبولوجي

يهتم علم الأنثروبولوجيا بدراسة الإنسان بشكل عام، وهو "ينقسم إلى الأنثروبولوجيا الطبيعية، والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية واللغوية واللسانيات الأنثروبولوجيا"[1] تهتم هذه الأخيرة بالجماعات الإنسانية والظواهر الاجتماعية التي تستحق تفسيرا من خلال العوامل الثقافية كما يقول الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي.

ومن هنا نلاحظ أنّ الأنثروبولوجيا ولدت من مراقبة الغربيين للممارسات اللغوية والعقائد والأعراف التي تمتاز بانتظامها، وتختلف بعمق ممارستهم وعقائدهم وأعرافهم، ولم يكن علماء الأنثروبولوجيا بعيدين عن الاستناد إلى قاعدة نظرية تقود أعمالهم فقد استعاروا نماذجهم من علوم وفلسفات ذات توجه طبيعي، سوسيولوجي أو نفسي، مما أسهم بتداخل هذه الحقول وتعايشها.

وقد استعرض عبد الله الوهيبي باقتضاب أبرز المقولات والنظريات التي قال بها علماء الأنثروبولوجيا في دراساتهم للمجتمعات العربية والإسلامية، ومن أشهرها: النظرية الانقسامية وأنثروبولوجيا الإسلام والنظرية النسوية وغيرها.

ارتبطت الأوّلى النظرية الانقسامية بالأنثروبولوجي البريطاني إيفانز بريتشارد ت 1973م في دراساته على مجتمع النوير* التي كتبها بطلب من الحكومة البريطانية والنوير قبيلة نيلية وثنية تعيش في جنوب السودان، وتُعدّ هذه المجتمعات القبلية في نظر الأنثروبولوجيين على الأقل مجسدة لفكرة البناء القبلي العاجز عن تشكيل مجتمعات ذات قرابة، وقد فسر بريتشارد التركيبة السياسية- الاجتماعية في مثل هذا المجتمع بنموذج المجتمع المنقسم دائما على نفسه، بعد الوصول إلى مرحلة قرابية معينة، ليكون منها مجموعة ثقافية- سياسية مستقلة بذاتها، وأنّ هذه المجتمعات تتجسد حياتها الاجتماعية- السياسية في

[1]- عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي، حول الاستشراق الجديد، ص 100.

*- النوير قبيلة نيلية وثنية تعيش جنوب السودان.

التأكيد على القرابة، ورفض الأغراب أو الأباعد، وقد واجهت هذه النظرية الكثير من الانتقادات على مستوى الشواهد التاريخية التي تؤكد عكس ما تدعيه، وعلى المستوى التحليلي الأنثروبولوجي.

ومن الأطروحات الأكثر شهرة وإثارة في العصر الحديث، أطروحة أنثروبولوجيا الإسلام التي درست الإسلام بوصفه الإطار الأشمل للممارسات الثقافية كافة في المجتمع العربي المسلم.

وتتدرج أطروحة كليفورد غيرتز 2006 في أنثروبولوجيا الإسلام في كتابه: الإسلام من وجهة نظر الإناسة-التطور الديني في المغرب وإندونيسيا"[1] حيث يرى هذا الباحث أنّ المجتمع الإسلامي مثل سائر المجتمعات شديد الحركة والتغير، أما البنى والثوابت البادية فهي رموز تبقى عناوينها، وتتغير معانيها، وتنقطع وتتضاءل علاقاتها بالواقع في الأزمات فيظهر التشدد بسبب توتر المقدس، فليس هناك مجتمع عالمي إسلامي؛ بل هناك مجتمعات إسلامية، وتقاليد إسلامية متعددة لا تجمعها إلا رموز ومقدسات عليا، تظهر وحدة أو شبه وحدة في الوعي، لكن لا علاقة في الواقع يبن ما يحدث في المغرب وما يحدث في إندونيسيا وتحدث التطورات الاجتماعية والثقافية في المجتمعات الإسلامية مثلما يحدث في المجتمعات الأخرى التي لا تدين بالإسلام.

أما فيما يتعلق بـ: النظرية النسوية فهي نظرية تقوم على رفض الفروقات بين الذكر والأنثى، وأن التباين بين الذكر والأنثى لم يكن نتيجة ماهية، أو نتيجة الطبيعة المؤنثة؛ بل هي نتيجة بناء اجتماعي ثقافي، ويروج لها كثير من العديد من الباحثين والناشطين والمثقفين والإعلاميين والصحفيين وغيرهم.

وتهدف هذه النظرية كغيرها من الأبحاث النسوية في الشرق الأوسط إلى "تفكيك الصورة النمطية للمرأة المسلمة بوصفها حسب التصور الغربي كائنا صامتا، وسلبيا وخانعا وضحية عاجزة"[2] وهي تصورات بالغة السوء، والسوداوية عن وضع المرأة المسلمة عامة

---

[1]- عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي، حول الاستشراق الجديد، ص 106.

[2]- المرجع نفسه، ص 108.

وهو ما يحاول الإعلام الغربي بشدة على تباين وسائله نشرها وترسيخها بعمق في وعي المخيال الشعبي العالمي، التي كانت لا تزال هذه التصورات تلقى صدى عاطفيا كبيرا عند الكثيرين من سكان المعمورة، ليس حبا في المرأة العربية المسلمة أو دفاعا عن حقوقها؛ بل يستغلها لتحقيق أغراض سياسية، وأهداف استراتيجية بحتة ليس إلا، وبموجب هذه التفسيرات السلبية التي تدور في نطاقات مركزية محددة: القبيلة، المرأة ، الإسلام التي أضحت من صميم عمل المستشرقين الجدد على اختلاف توجهاتهم تمكن الفكر الغربي من شرعنة أخلاقية لمشاريعه المشبوهة، ولتدخلاته العسكرية، وتوفير الدعم الجماهيري لها.

ومن الأطروحات المهمة في الأنثروبولوجيا النسوية التي ذكر الوهيبي كتاب سينيثيا نلسون عن النساء في الشرق الأوسط، والمنشور في سنة 1974، وقد قامت في الكتاب بتحليل مفهوم ونظام الأبوية عن طريق طرح مجموعة من الأسئلة التي يحتمها الوضع الاستثنائي لنساء الشرق الأوسط: كيف تمر النساء بخبرة الفصل الجنسي ويحافظن عليه؟ كيف ولماذا يبدو أنهن يتعاون في هذا النظام غير القائم على المساواة؟ كيف تسهم النساء في إعادة إنتاج النظام، وكيف تقاومه؟

وقد أنتجت هذه الأسئلة مجموعة من الأعمال المعقدة التي تصف أيديولوجيا العلاقات بين الذكور والإناث في العالم العربي، ومنح الباحثون وزنا متغيرا للإسلام كنظام أيديولوجي يوفر مفاهيم تؤثر في خبرة الخضوع عند النساء، ووفرت ممارسات الحجاب وعزل النساء والايدلوجية الأخلاقية التي أسهمت فيها هذه الممارسات خصوصا خطاب الحشمة الجنسية بالمنطقة أكثر إثمارا في التنظير للعلاقة بين الأيديولوجيا وعلاقة القوة في مجتمعات الشرق الأوسط.

ثانيا- المنهج اللغوي (الفيلولوجي) المطوّر

تأثر هذا المنهج بالمدارس اللسانية الحديثة في نقد النصوص عامة، تطويرا للتراث النقدي الذي شاع تطبيقه منذ القرن التاسع عشر على نصوص العهدين القديم والجديد فقد "قدم العديد من المستشرقين الجدد طروحات تنتمي إلى حقول علم اللغة المقارن الفيلولوجيا

التي تدرس بالأساس النص القرآني، وتاريخ الإسلام المبكر، أو تاريخ الحقبة الذي نشأ فيها الإسلام، وظروف تلك النشأة وتداعياتها"[1] على حد تعبير الدارس الوهيبي.

ويتميز هذا الاتجاه البحثي حسب الدكتور الوهيبي بنقده الجذري للدراسات التاريخية والفيلولوجية في الاستشراق التقليدي، والتنديد باعتمادها على المصادر العربية، وكذلك محاولته توظيف بعض المعطيات الأركيولوجية في مشروعه لإعادة بناء تاريخ النص القرآني وسائر وقائع الإسلام المبكر، ومن أهم الدراسات التي ذكرها الوهيبي، والتي تبنت هذا المنهج دراسة بعنوان: Ur-Kuran أي: القرآن الأصل ومصطلح Ur-Text أي: النص الأصل، ظهر في الدراسات النقدية الأدبية الجديدة، ويعني أن النص الأدبي يتكون من جملة من النصوص المتراكمة، والمتعاقبة التي تشترك فيها كل البشرية، من ثم فإن النصوص الأدبية مهما كان نوعها، أو جنسها، أو لغتها، إنما نشأت من نص أصل مفهوما لا واقعا فعليا، وهو موصول بنظرية تراكم النصوص وتفاعلها للإحالة على سياقه الثقافي العام الذي تشكل فيه.

ثم يستطرد الوهيبي في ذكر بعض الدراسات التي تأثرت بهذا المنهج وبآلياته البحثية مشيرا إلى استعارة فونتر ليلنف هذا المفهوم، مفهوم نص أصل، فبدل من أن يستعمله بوصفه تصورا نظريا، ذهب يبحث فعليا عن النص القرآني الأصل وقام بعمل تجميع للنص الأصلي للقرآن، وتوصل بعد تطبيق لمنهج الانتقائي إلى أن القرآن ليس سوى تركيب عربي لجملة من النصوص اليهودية والمسيحية، وأنّ ما يزيد عن ثلث القرآن- قصار السور تحديدا نظرا إلى طابعها الشعري، وأسلوبها الغنائي الديني- ليست سوى مقاطع من أناشيد كنسية مسيحية كان يرددها الكهان في صلواتهم.

والملاحظ على هذه المناهج المعاصرة؛ أنّها جعلت من النص القرآني، والإسلام وتاريخه، والفترة الأولى منه خاصة، هدفا للتحليل والنقد للمتكلمين والنقاد على حد سواء وذلك باعتمادها في نقدها على المادة الأركيولوجية الأثرية على اختلافها وتنوعها، كالنقود القديمة، وبعض الوثائق التاريخية سواء كانت باليونانية أو بالسريانية أو بالآرامية وغيرها من

[1]- عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي، حول الاستشراق الجديد، ص 112.

اللغات القديمة التي تعود إلى زمن الفتوحات الإسلامية، وكذلك بالاعتماد على النقوش والكتابات التي كتبت على بعض المعالم التاريخية، وأنّها كررت الخطاب المناوئ للإسلام وكتابه وتاريخه الذي لم يتغير في جوهره منذ عهد يوحنا الدمشقي مرورا بالعصر الوسيط وانتهاء بالاستشراق المعاصر المتجدد، رغم تبديل الواجهة وابتكار بعض المصطلحات أو تجديدها.

وعلى الجملة فإنّ؛ الاستشراق المتجدد يعمل على إعادة إنتاج مضامين الاستشراق الكلاسيكي في قوالب سوسيولوجية، وأنثروبولوجيا معاصرة، ويذكر الباحث عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي على لسان أوليفيه مووس أنّ هذا التيار الاستشراقي الجديد يتهيكل حول أربعة افتراضات:

1- المجالس الإسلامية كلّ متجانس، هذا الافتراض يقوم على تحديد مزدوج لعالم عربي إسلامي ينظر إليه ككيان متجانس، ولمحددات ثقافية، يفترض أنّها تقدم معلومات عن الفعل الجماعي والفردي للمسلمين، وأحيانا يتم تقليص التعددية التي تميز الحركات العاملة باسم الإسلام لتحولها إلى مفهوم جامد، ذي منطق تحقيري يسمى الإسلام السياسي، وينتج عن هذا الموقف سلسلة من الافتراضات المنهجية التي تقدم مقاربة تتسم باختصار التعددية في المجال الإسلامي.

2- الإسلام يشكل استثناء، بمعنى أنّ الإسلام بوصفه نظاما للقيم يخبرنا عن كلّ نواحي الحياة الاجتماعية، والفردية للمسلمين، وإنّ أي تطور نحو الديموقراطية مثلا، أو الاعتراف بحقوق الإنسان لا يمكن إلا أن يكون نتاج قطيعة مع الإسلام، أو خضوعه لعملية التغريب وغيرها من المفاهيم.

3- جمود العالم الإسلامي، وهذا الافتراض على تصوير المجال الإسلامي بوصفه كتلة صامتة، وساكنة، يتشكل الفرد فيه عبر الثقافة والدين، المؤطرين بقوة عبر الأعراف الاجتماعية، ويخالف النمط الغربي الديناميكي الحديث، الذي يشكل معقلا للتحرر، ويوفر مساحات للإنجاز الفردي.

4- العنف الإسلامي هو نتاج ثقافي، يقوم هذا الافتراض على استخدام مصطلح الإسلام السياسي، أو الإسلام كمرادف للأيديولوجية الشمولية، بحيث تكون مبادئها هي خصائص عملية مباشرة تفسر اللجوء إلى العنف، وفي المقاربة الاستشراقية الجديدة يرتبط مخيال الإرهاب الإسلامي بشكل وثيق بتعريف العقلية العربية، وهو ما يفسر استخدام الإرهاب كنتيجة للتأخر الثقافي، ولخصائص محددة لثقافة عربية إسلامية.

ومن هنا نلحظ أن أطروحات هذا الحقل المتجدد لا زالت تجتر وتعيد التصورات التقليدية للفكر الغربي في تناول الشرق والعرب والمسلمين، مع تطور الوسائل التي تقدم مختلف الرؤى والتفسيرات والتحليلات الغربية عن العالم الشرقي وشعوبه، سواء أكانت كتبا أو مجالات أو فضاءات إعلامية مرئية أو مسموعة أو تقارير صحفية، حتى أعمال سينمائية دون أن ننسى الفضاء الأزرق الافتراضي أو غير ذلك من الوسائل العصرية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الاستشراق المعاصر تزامن مع قوة الإعلام الغربي وسيطرته على مختلف الحقول الفكرية العصرية على نطاق واسع، والإعلام الإليكتروني خاصة، وذلك لتمكنه من توظيف مختلف الأدوات الحديثة والآليات العصرية، التي سهلت له تحقيق أهدافه الدقيقة وغاياته المحددة بدقة، وشارك في صياغة معادلاته كلّ من الصحافيين والباحثين والكتاب والناشطين والمدونين والمستخبرين العسكريين، والمخبرين السريين، وغيرهم من الفاعلين في شتى الحقول الفكرية.

وإن شئت فقل إنّ السياسة الغربية عامة قائمة على معالجة المفاهيم التي جاء بها الإسلام، وقررها أتباعه كافة الذين تبنوا لسانه خاصة فصعدوا بذلك من قاع البداوة إلى قمة الحضارة والتألق، وهيأت لهم فرصة الانطلاق إلى آفاق أوسع في كلّ مكان وفي كلّ زمان أدهشت الناس كافة على مر العصور والأزمنة، فوجدوا أنفسهم أمام لغز محير مدهش يفرض نفسه عليهم فرضا، ولا بّد لهم من معرفته جيدا، واكتشاف كنوزه؛ وذلك بالتنقيب في مفاهيمه والبحث في شريعته وأصوله، محاولين الكشف عن حقيقته، وإدراك مقاصده إدراكا حقيقيا كما شهد بذلك الغربيون المنصفون أنفسهم، لإيجاد مصدر قوته، وسر ديمومته، لمكافحته والقضاء عليه انطلاقا منها، وهو هدف الإنسان الغربي عبر التاريخ الإنساني، وصمود

الإسلام أمام كل هذه المحاولات الغربية الشرسة لدليل قاطع على قوة بنيانه، وصدق دعوته وتماسك الرؤية التي يقدمها للعالم، في ظل غياب كلّي للنموذج الحضاري الأكفى خاصة لبناء نموذج حضاري عادل قوي قائم على التوافق والاتساق بين جميع مصادر العلم والمعرفة، جوهره «التوحيد» وعماده الحرية والأمل والاحترام المتبادل بين الشعوب، وأساسه الحضارة الراقية، وأصله العلم والمعرفة، وامتلاكه أرقى مستويات الكفاية، وحجية النظر، فكان لزاما أن تكون هذه العلاقة الثلاثية الدائرية التفاعلية قائمة على العناصر الحية التالية:

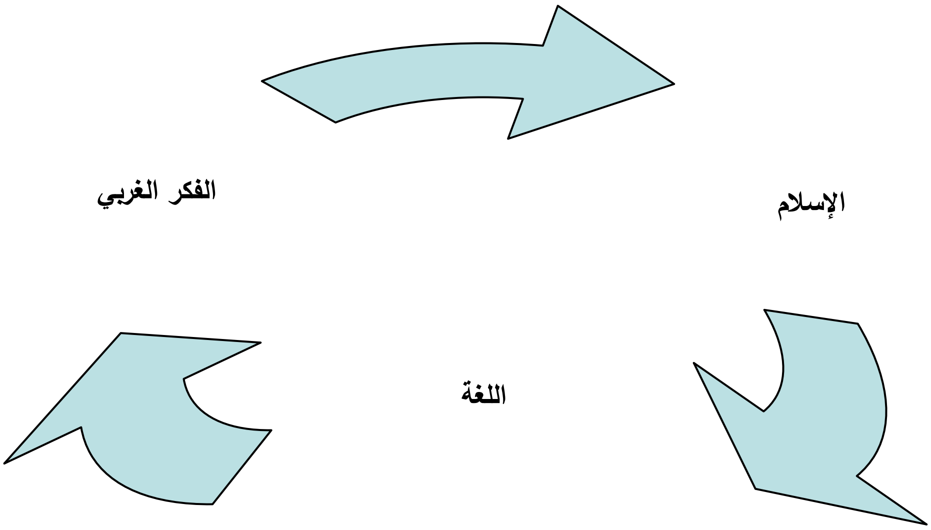

وبمجرد تأملنا لهذه العلاقة الدائرية المبنية على العناصر الحية القائمة بين كلّ من الفكر الغربي واللسان العربي والدين الإسلامي تتجلى للملاحظ أسباب الصراع القائم بين الشرق والغرب منذ الأزل، وتشهد عليه الحركة الاستشراقية عبر محطاتها المختلفة ووسائلها المتباينة؛ ولا بد من دراستها لكي نتمكن من حل كلّ ما يصادفنا من ألغاز ومعضلات مستقبلية قادمة إلينا لا محالة، ونبني مستقبلنا على أساسها.

وعليه؛ فالسؤال الذي يطرح وبإلحاح هو: هل تمكن المفكر العربي من المواءمة بين الفكر الوافد من وراء البحار والغوص في بحره بكل ما يحمله من سلبيات وإيجابيات، من عصرنة ومهالك في آن واحد، وبين تراثنا الذي بغيره فقدنا ذواتنا وكياننا لا محالة؟ هل من سبيل إلى ذلك يا ترى؟ حتى وإن حدث ذلك فعلا، فالأمر صعب، لأنّ القضية صعبة وصعبة جدا تتطلب منا الجمع بين الماء وجذوة نار فهل هذا ممكن؟ والسؤال المطروح يحتاج إلى الإمعان فيه، وإلى وقفة متأنية فاحصة شاخصة للواقع المعيش ولمتطلبات العصر ومقتضياته

ومعطياته الشائكة، لأن المعضلة لا تكمن في القول النظري؛ بل تكمن في الفعل التطبيقي فكيف نطبق؟ وكيف نهيء المناخ لذلك؟ ومن أين سنبدأ؟ ومتى سنبدأ؟ وما الوسائل المطلوبة لتحقيق الهدف المنشود؟ وما السبيل إلى ذلك؟ وما هي الصيغة المنشودة؟ لأن القضية قضية أمّة، وليست قضية فرد أو شخص أو جماعة.

ومهما يكن من أمر؛ فإنّ الحركة الاستشراقية إن واصلت دورها الكلاسيكي في ممارسة أدوارها المعهودة، أو ظهرت بثوب جديد تحت مسمّيات عصرية لا تزال ظاهرة كأنّها حية تسعى، كونها إحدى أهم الايديولوجيات الاستعمارية/الاحتلالية، وأدواتها الاستراتيجية الفعالة بين العلانية والخفاء، وأهدافها الشريرة تفوق بكثير وتطغى على أهدافها الخيرة بحكم ميزان القوة الذي يحكمها، يعتمد أساسا على تقنيات السيطرة الجائرة في شتّى صورها وأنواعها وكانت متباينة في مقاصدها، وذلك ابتغاء تحصين جغرافيتها الحضارية ومعالمها الفكرية والثقافية واللغوية، كون الحضارة بالمفهوم الغربي المعاصر كيانا ثقافيا أوسع، بيد أن الحضارة مزيج مركب من الدين والتاريخ الثقافي والاجتماعي والمصالح الاستراتيجية ومطامح الغرب العابرة للقارات على نطاق واسع، ولاسيما بعدما أصبح المحور الشرقي في وضع الرجل المريض إذ تراجع تراجعا رهيبا على جميع الصُعد، وكافة المستويات، ممّا جعله يتعرض لأزمات مصطنعة وانشقاقات موجهة، وصراعات مفتعلة مهلكة ومدمرة توسعت مع السنين وتعمقت جذورها مع العقود الأخيرة، والوضع الراهن لمعظم بلدان محور الشرق بتجلياته كافة خير دليل وأقوى برهان على الواقع المنحط الذي وصلت إليه المجتمعات الشرقية على العموم.

خلاصة الفصل:

يمكن القول فيما سبق إنّ علم اللسان العربي الحديث من فقه اللغة واللسانيات والصوتيات والدلالة والسيمياء والأسلوبية وغيرها من فروع علم اللغة الحديث كانت وليدة التأثر بالدراسات الغربية وبمناهجها المختلفة وبنظرياتها المتباينة، وإن كان موجودا في الدرس العربي القديم بمسميات مختلفة، والناظر في المصنفات والكتب اللغوية المتداولة على مستوى الساحة الثقافية العربية عامة، وبين المشتغلين بالدرس اللساني الحديث خاصة يلحظ ذلك

جيدا، ويلمس أيضا مدى إغفال بعض الدارسين العرب المحدثين الجهود النيرة التي بذلها علماء العربية في الدرس اللغوي باختلاف ميادينه ظنا منهم أنّه علم لم يكن للعرب معرفة به والحركة اللغوية القيمة التي قام بها علماء اللغة القدامى بما أنتجته خير دليل على مجهودات هؤلاء، والدور الفعال والبارز الذي لعبه النحاة قديما من جمع واستنباط وتقعيد وضبط وغيرها من الفنون اللغوية فالدراسات العربية بمختلف فروعها ومسمياتها نحوا وصرفا وصوتا ودلالة وبلاغة ولغة ومعاجم تناولها الأقدمون في كتبهم تناولا مسهبا مستفيضا وإن لم يسموها بأسمائها المعروفة اليوم.

وهذا كلّه يؤكد تأكيدا مطلقا على استفادة الدراسات الغربية الحديثة من أعمال ومجهودات اللغويين العرب القدامى، وذلك كان عن طريق المستشرقين بالدرجة الأولى الذين عملوا بجد وكد على نقل أعمال النحاة واللغويين والبلاغيين العرب القدامى إلى لغات أجنبية كثيرة، موظفين التقنيات الفنولوجيا الحديثة التي مكنتهم من تصحيح النصوص وشرحها ونشرها، سعيا منهم لاكتشاف الحضارة العربية الإسلامية من خلال ذلك، وممّا لا شك فيه هو أخذ هؤلاء القوم عن علوم العربية من خلال إعادة ترتيب وتصنيف مؤلفاتها، والفصل بين مستوياتها بعد أن كانت تسير ظلا في كنف العلوم الأخرى من غير أن تحمل عنوانا مميزا له استقلال في موضوعاته ومعاييره الخاصة، من أجل تيسير دراساتها وتسهيلها، فالذين فتحوا باب التأثير والتأثر على مصراعيه، سواء بالترجمة إلى لغاتهم أو عن طريق التدريس في الجامعات المصرية، حملوا على عاتقهم مسؤولية الاحتكاك الثقافي واللغوي بين الحضارتين الشرقية والغربية.

نستجلي ممّا سبق؛ تأثر المستشرقين الشديد وهم يدرسون العربية بالمناهج الفكرية في أوروبا، فسارت بحوثهم اللغوية في ضوء المنهجين التاريخي والمقارن هذا بالنسبة للقرن الثامن والتاسع عشر، أما في القرن العشرين فقد مال بحثهم إلى استعمال المنهج الوصفي مسقطين كثيرا من مفاهيم علم اللغة في موضوعاتها ومصطلحاتها السائدة في أوروبا على دراساتهم للعربية خصوصا واللغات الشرقية عموما، فدرسوا العربية في ضوء مناهجهم اللغوية في دراسات لغاتهم، وقد يصلون من وراء ذلك إلى نتائج لا تتفق وبنية اللغة العربية، كما

أشار إلى ذلك جملة من الباحثين المحدثين، ونبه إلى ذلك بعض المستشرقين أمثال: بروكلمان في كتابه: فقه اللغات السامية إلى أن مفاهيم المستشرقين في علم اللغة هي نفسها مفاهيم اللغويين الغربيين، والبحوث لا تزال مستمرة، ولا تزال لها حظوة كبيرة في التنظير والتطبيق على حد سواء.

– يكشف المتتبع آراء الدارسين العرب المحدثين عن طبيعة الأثر الذي ألحقته الثقافة الغربية بالساحة الثقافية العربية الحديثة حتى المعاصرة، إذ سار معظمهم على النمط الغربي في جل دراساتهم اللغوية على طول الخط، منتهجين نهجا علميا معتمدين فيه على النزعة الاستشراقية وآرائها ونظرياتها في كثير من الأحيان حتى لإثارتهم القضايا المشكوك بها حول اللغة وما يتعلق بها، نازعين نزعات داروينية، ديكارتية، مستفيدين من كل ما ظهر في الغرب في ميدان اللغة ومنهج البحث فيها، مشيدين بجهود المستشرقين، داعين إلى ترجمة أعمالهم اللغوية والعلمية والأدبية إلى اللغة العربية، وجلهم ممن أوفدوا في بعثات تكوينية إلى الدول الأوروبية، وقد عادوا محملين بالفكر اللغوي الغربي عكسته فيما بعد مؤلفاتهم على تباين موضوعاتها، بحيث جعلوا من أنفسهم نسخة مكررة لما هو هناك، ومن أبرز ممثليها: جرجي زيدان طه حسين، وغيرهما.

– الملاحظ على جل مؤلفات الدارسين العرب المحدثين اهتمام أصحابها بنقد التراث العربي القديم وإعادة وصفه وتفسيره وفق المناهج الغربية الحديثة، واهتمامهم بالمنطوق على حساب المكتوب، سالكين في ذلك سبلا متباينة، محاولين التجديد والبحث عن تفسيرات لم يقلها علماء العربية قديما، وسعيهم المستمر إلى إحيائه على أساس منهج علمي بناء يبلور قيمته ويثبتها ويحافظ عليها للأجيال القادمة، مع إغفالهم أو إهمالهم جانب تحقيق التراث العربي القديم وهذا عند معظمهم، ومن أهم ممثليها: الدكتور إبراهيم أنيس، والدكتور تمام حسان والدكتور كمال بشر، والدكتور محمود السعران، إلى غيرهم من الدارسين العرب المحدثين.

– كما يلاحظ الدارس لهم أهمية كلّ ما قدمه هؤلاء القوم كلّ منهم على انفراد، فمنهم من حاول أن يدرس اللغة العربية على النمط التاريخي تارة، وعلى النمط المقارن تارة أخرى

ومنهم من جمع بينهما، ومنهم من حاول أن يسجل تراثها الضخم، ومنهم من اهتم بدراسات اللهجات المحلية لارتباط هذه الأخيرة بالشعور القومي، وهذا لم يكن أبدا بدافع علمي محض أو حبا في هذه اللهجات؛ بل أمر يتعارض مع الأبعاد القومية والحضارية للأمّة العربية واشتد هذا النشاط خلال المرحلة الاستشراقية، بدوافع غربية موجهة، ومن أجل تحقيق أغراض سياسية ودينية بحتة، كإبعاد المسلمين عن اللسان العربي الفصيح، وبالتالي ابعادهم عن القرآن الكريم.

ومنهم من عني بالمذاهب الفكرية والسياسية والفرقية وبالأخص الدينية التي ظهرت في العالم الإسلامي خلال تاريخه الطويل، فالواقف على مؤلفاتهم يلمس بوضوح اهتمامهم البالغ بالإسلام وبالقرآن وبلسانه وبمحمد ﷺ وتعصب أغلبيتهم الغالبة، وأكثريتهم الكاثرة لهذه الظواهر الدينية جميعها، ومنهم من غاص في الفكر الشيعي، ومنهم من دقق في الفكر الصوفي، ومنهم من بحث في الفكر السني لغاية في أنفسهم، ولأهداف مرسومة بدقة، وأخطأ كثير منهم في تقدير ذلك، ووقعوا في مزالق شتى بشهادة المستشرقين المنصفين أنفسهم وهذا يرجع بالأساس إلى اهتمامهم بالمراجع أكثر من اهتمامهم بالقضايا؛ بل عمل بعضهم على إثارتها بدون أي داع، فعكست بذلك دراساتهم مواقفهم الفكرية، وكشفت عن شخصية كل واحد منهم، واتجاهاتها المتباينة.

- إنّ المتتبع لمسار الحركة الاستشراقية يلاحظ اهتمام المستشرقين بالتراث العربي الإسلامي، وهي حقيقة لا يمكن لأحد إنكارها؛ فألفوا الآلاف المؤلفة من الكتب، ونشروا عشرات الآلاف من المقالات، وأصدروا العشرات؛ بل المئات من المجلات، والعشرات من الموسوعات دارسين في كل منها مختلف قضايا الإسلام ومعضلات القرآن الكريم، وحياة الرسول ﷺ وغيرها من المسائل اللغوية والأدبية والفلسفية والتاريخية والسياسية والفقهية والتشريعية وغيرها من المسائل التي تتصل بهذا التراث من قريب أو من بعيد، بصفة مباشرة أو غير مباشرة، كذلك ترجموا عددا كبيرا من المؤلفات العربية إلى اللغات العالمية المختلفة وعنوا بجمع مخطوطاته وتحقيقها، ونظم فهارسه؛ وغير ذلك من أعمالهم العديدة، حتى بدوا كأنهم قد صبوا جل اهتمامهم على ذلك التراث وعنوا به عناية خاصة، لكننا نزعم أن كل هذا

الاهتمام المفرط والزائد بالتراث العربي الإسلامي بجوانبه المختلفة وقضاياه المتباينة كان موجها لا محالة، وهذا بإجماع باحثي العرب المعاصرين أمثال: إبراهيم عوض وعمر فروخ وصلاح الدين المنجد وأنور الجندي وغيرهم، حيث كان اهتمامهم منصبا على تراث من نوع خاص، كاهتمامهم بتراث الحلاج 858- 922م، وابن عربي الحاتمي الطائي 1165-1240م، والسهروردي 1154-1191م، وابن الراوندي 827-911م وغيرهم من الشخصيات المعروفة بسير وتراجم ملتبسة في التاريخ الإسلامي الطويل، فاهتمامهم الزائد يكشف لنا كثيرا من الخبايا والأسرار، وأكبر دليل على ذلك اهتمامهم بالجوانب المضطربة والمثيرة للشبهات في التاريخ الإسلامي الطويل لإعلانها وإبرازها وتضخيمها وتفخيمها والنفخ فيها قدر استطاعتهم رغبة منهم في إحيائها من جديد، وإيقاظ فتنتها، لإثارة النزعات والانشقاقات داخل صفوف المسلمين واستغلالها في خدمة مصالحهم الاستشراقية الصرفة، وأجندتهم السياسية المسطرة بدقة، ومخططاتهم الغربية المحضة بجلاء تام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ تجدهم يقودون حملات شرسة ضد رموز التاريخ الإسلامي وقادته ومقدساته، ويؤلفون كثيرا من المؤلفات للطعن في هؤلاء الأعلام وتشويه سيرهم، ومن هنا نتساءل إلى أين يقودهم إنكار قيمة هؤلاء الأعلام والرموز والمقدسات؟ إذا كان التراث هو الآثار المكتوبة والشفوية التي حفظها التاريخ كاملة كانت أم مبتورة من السلف إلى الخلف حسب ما وثقته وأكدته الحقائق التاريخية عبر العصور.

ومن الجلي إذن أنّه لا بّد من دراسة كل ما يصدر عن الهيئات الغربية رسمية كانت أو غير رسمية على اختلاف تخصصاتها وتوجهاتها ومرجعياتها من بحوث ودراسات ومقالات ومجلات عن الإسلام وتراثه ونبيه وكتابه، وعن المسلمين أيضا، ونقدها نقدا منهجيا وموضوعيا وتوجيهيا لدحض العبث وتفنيده، الذي تمارسه منذ أمد بعيد، فإنّ ذلك من أقدس الواجبات وأنبلها للدفاع عن الإسلام، والكيان الشرقي ككل والكيان العربي خاصة باعتبار هذا الأخير يعمل دون كلل أو ملل على إعادة صياغة ثقافة عالمية تتقبل كلّ ما هو غربي وتمقت كل ما هو شرقي إسلامي خاصة، وفق منظور غربي يخدم الأهداف الغربية وأجندتها السياسية، ويرعى مصالحها ويجسد مخططاتها، ويحقق سياستها بدقة لامتناهية.

خاتمة

قام هذا البحث على إبراز إسهامات المستشرقين في تنشيط مجال البحث اللغوي بجملة من الأفكار اللغوية، فهذه الإسهامات من جهة؛ تسهم في الوقوف على جهود المستشرقين في مجال علم اللغة بصفة عامة، والإسلامية بصفة خاصة، ولا يمكن من جهة أخرى؛ إغفال الجهد المضني الذي قدمه المستشرقون في إحياء التراث العربي، إذ كانت لأفكارهم وآرائهم في الدراسات اللغوية أكبر الأثر في مسار علم اللغة العربي الحديث، وانتهى البحث إلى العديد من النتائج أُوجِزُ أهمّها على هذا النحو:

– اختلف الدارسون في مجال الاستشراق حول مفهومه كمصطلح، هل هو حركة أو نشاط أو ظاهرة أو علم، كلّ علل بما يخدم طرحه، ورغم إشكالية المفهوم، إلا أنّهم اتفقوا على أن الاستشراق بتجلياته كافة بقي يحافظ على مناهجه العلمية ومضامينه الفكرية الثقافية على طول محطاته التاريخية المتنوعة.

– اهتم المستشرقون على اختلاف مشاربهم وتباين توجهاتهم بمصادر التراث اللغوي العربي اهتماما منقطع النظير، نظرا لقيمتها العلمية والثقافية، فضلا عن كونها جزءا لا يتجزأ من معارف الحضارة الشرقية كافة، وكان هذا الاهتمام مبنيا على وعي تام بقيمة هذه المصادر التي تحمل تراثا غنيا في مجالات شتى من ميادين العلوم والمعارف.

– استفاد المستشرقون عند تحقيقهم المصادرَ اللغوية من مناهج نشر النصوص اللاتينية ومن مناهج التوثيق عند العرب الأولين، وأبدعوا في وضع قواعد التحقيق، ونالوا على إثر ذلك أفضلية السبق في المضمار، فعرفوا قيمة تلك النصوص وسعوا إلى حفظها وفهرستها وتحقيقها وترجمتها ثم نشرها.

– لم تسلم جل المناهج الغربية من الخطأ والزلل، وبرهنت على عدم قدرتها من حيث هي مجموعة من الآليات تحددها شروط متصلة بالوضعية المادية المطلقة لفهم النصوص والحكم على صحتها، كونها تصور بعمق النزعة المادية للفكر الغربي تحت ستار العلم والموضوعية.

– اهتم المستشرقون باللغات الشرقية، والعربية خاصة، ودرسوها دراسة مستفيضة من مستوياتها المختلفة الصوتية والصرفية والتركيبية وغيرها، منذ تدوينها حتى يومنا هذا، دون إغفال لهجاتها، محاولين من خلالها التعرف على عادات أهلها وتقاليدهم وعقيدتهم وعلومهم وتاريخهم وتراثهم، كما اعتمدوا في بحوثهم على الكلمات العبرية وضبطها، لدراسة التوراة في لغتها الأولى لما يربطها من علاقة وثيقة معها باعتبارهما من فصيلة واحدة، ومن أجل ضبط الكتاب المقدَّس وإعادة بعثه في صورة جديدة صادقة بعيدة كلّ البعد عن الخيال والخرافة الذي تبنته البِيَعُ والكنائس على مرّ العصور والأزمنة السابقة.

– يلاحظ المتتبع للحركة الاستشراقية أنّ علاقة روادها باللغة العربية تختلف من جيل لآخر بحسب اختلاف مدارسهم، حيث أخذ المعاصرون يبتعدون عن الفصحى الكلاسيكية؛ وهذا يرجع بالأساس إلى أنّ المستشرقين التقليديين كانوا متأثرين بالدرس اللغوي العربي القديم، في حين أصبح المعاصرون يدرسون العربية في ظل الدراسات الغربية ذات الأصل اليوناني الصرف ويقعدون للهجاتها.

– ترجع الأهداف الأولى للتأليف في المعجمية العربية من قبل المستشرقين إلى حاجة دينية– تعليمية، تتمثل في الرغبة في معرفة مفردات العربية، ثم تطور الأمر إلى التأليف في هذا المجال وفق عدة مناهج لغوية، ويتجلى ذلك بوضوح في المعاجم التي أنتجها هؤلاء مثل معجم دوزي وفيشر وغيرها.

– تطورت دراسة اللهجات العربية المعاصرة على أيدي بعض المستشرقين لأغراض فكرية أهمها الدعوة إلى الكتابة بها وإحلالها محل الفصحى، وتجسد هذا الاهتمام بالتأليف فيها، وهذا ما لا يمت للبحث اللغوي العلمي بصلة.

– جاءت معظم مؤلّفات المستشرقين؛ مؤلّفات مشككة في مصادر التراث الشرقي عامة وفي مصادر التراث العربي خاصة، في حين نسجل ضعف المواكبة لأطروحات المستشرقين الجديدة من قبل النخب الشرقية، وهذا يعود بالأساس إلى قلة المختصين في هذا الميدان العلمي

(الاستشراق) والأطروحات الاستشراقية الجديدة خاصة، والتي تبحث في القضايا المعاصرة، والتي ظهرت في خضم اشتداد تيار العولمة الجارف ثقافيا وفكريا وسيطرته على منافذ التأثير كافة، حيث تُعدّ نمطا من أنماط الاحتلال الغربي الجديد وبالتحديد في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

– الاستشراق بنوعيه، أو قل بتسلسل مراحله، خاضع في نشأته ومناهجه ونظرياته وتصوراته على اختلافها وتعددها للفكر الغربي وما يصاحبه من تطور في العلوم والمناهج، فكما قام الاستشراق الكلاسيكي بتطبيق هذه المناهج باختلافها على الدراسات العربية، فإنّ الاستشراق المعاصر المتجدد جزء من الثقافة الغربية وتطبيق لنظرياتها ومناهجها في دوره الجديد المنوط به.

الاستشراق عبر مراحله المتباينة، بأساليبه المختلفة، ومناهجه المتنوعة منذ يوحنا الدمشقي مرورا بالعصر الوسيط، وانتهاء بالاستشراق المعاصر، بقى يحمل أفكارا مناوئة للفكر الشرقي وحضارته رغم تبديل الواجهة المصطلحية من فينة إلى أخرى، حسب حاجات الغرب المتجددة لمواجهة متطلبات الحضارة ومستجداتها.

– الاستشراق رغم ما قيل عن علميته – إلا ما يمكن استثناؤه– لم يكن يوما علما يبحث عن حقيقة ما ليكتشفها – البحث عن حقيقة العلوم الشرقية– أو يسعى من أجل معرفة أكثر دقة للعلوم الشرقية؛ بل هو في حقيقة الأمر سلاح في أيدي الغربيين لتحجيم الأنا وهيمنة الآخر ليس إلا، وهذا بحكم هدف العملية المعرفية الذي يتمثل في المعرفة الخالصة والبحث عن الحقيقة بشهادة المعطيات التاريخية التي مر بها النشاط الاستشراقي على طول حقباته المتباينة.

– عمل الاستشراق الكلاسيكي على خدمة مصالح الفكر الغربي وضمانها، فقد عمل الاستشراق المتجدد على تثبيت مصالحه في العصر الحديث أيضا، والحفاظ على فرض مناهجه وآرائه ونظرياته، وقد جسد هذا الدور ولعبه جيدا الأنثروبولوجيون، وهذا ما صرح به الأنثروبولوجي إيفانز بريتشارد حين قال: بأنّ مهمة الأنثروبولوجيين هي مساعدة الاحتلال، فإذا كانت سياسة حكومات المستعمرات أن تحكم عن طريق الرؤساء الوطنيين، فسوف يكون من المفيد أن نعرف

هؤلاء الرؤساء ووظائفهم في المجتمع، ومدى سلطتهم، وكذلك إذا كانت السياسة المرسومة تهدف إلى إدارة شعب من هذه الشعوب تبعا لعادته التقليدية وقوانينه فيجب التعرف أولا على طبيعة هذه القوانين والعادات، وهذا لن يكون إلا بالتمكن من لسانهم والتعرف على مختلف تعابيره واتقانها.

– انصبت الدراسات الاستشراقية المعاصرة على المراجعة الكلّية لمناهج الدراسات المعتمدة في المدارس الاستشراقية الكلاسيكية، بهدف تجاوزها، ولما تركه المستشرقون الكلاسيكيون من آراء ونظريات، وكيفية مواصلة هذه الجهود الأصيلة في الوقت الراهن وذلك بإعادة تهيئتها وتفكيكها في أسلوب معالجة قضايا الإسلام لإعادة قراءة بنيتها بطريقة معاصرة، لأجل الاستنتاج من أن الإسلام نشأ غامضا، وأنّه ذو بداية مبهمة، هذا من جهة، واما الافتراض بوجود نسبة كبيرة من اليهودية والنصرانية في القرآن الكريم وهذا من جهة أخرى، والمدهش أنّ كلا الافتراضين يفضي إلى التشكيك في نشأة الإسلام ومصدريته وموثوقيته ليس إلا، والمقصود بذلك – كله– الانتقال بالنص من المرحلة التوثيقية إلى المرحلة الأركيولوجية، ومنه نشأ الجدل الحاد في الدراسات المعاصرة بين التاريخ والأركيولوجيا والنص؛ بل تعدت ذلك إلى اللغات.

– أفلس الاستشراق في جل تفسيراته اللغوية والسياسية والاقتصادية لدوافع النهضة العربية الإسلامية على مر التاريخ البشري، عاجزا عن تقديم إجابة علمية موضوعية عن معظم الظواهر المتعلقة باللغة والفكر والحضارة، ولا يزال رواده حتى الآن عاجزين عن فهم هذه الحقيقة والبيئة المحيطة بها وإدراك واقعها، وهذا بحكم المعرفة الدنيوية المنغمسة تماما في المادية، في عالم تحفزه المصالح المتلوثة دون القيم الإنسانية ومبادئها.

– ركز المستشرقون في دراساتهم على الشخصيات القلقة، وعمدوا إلى ابرازها في صورة غير صادقة لخدمة أغراض معينة حسب ما تقول الوثائق والدلائل، وعملوا بجد وكد على غرس أسباب الخلاف والتمزق بين الشعوب الشرقية، والمسلمة منها خاصة، وذلك باعتمادهم على الاختلافات المذهبية والطائفية والحزبية وغير ذلك ممّا يمكن أن يبعث الشقاق والخلاف في هذه المجتمعات من مسائل لها جذور دفنت تاريخيا، والعمل على إحيائها وتأجيجها من وقت لآخر

وتوجيهها حسب مصالحهم وأطماعهم وأهدافهم الجيوستراتيجية من أجل التفرد بزمام الأمور والسيطرة على الرأي العام وعلى العالم.

– أكدت الحركة الاستشراقية أنّ الاهتمام باللغة العربية وبتراثها قد ازداد على مرّ السنين فهناك أكثر من دورية تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا، نذكر على سبيل المثال المجلة الدورية للدراسات العربية.

مهما يكن من أمر؛ فإنّ الحركة الاستشراقية لعبت دورا لا يمكن انكاره في تطوير العلم والمعرفة في العالم الشرقي، فقد أسهمت بإسهاب في تحقيق التراث العربي وفهرسته ودراسته وترجمته ونشره وإبراز أهميته.

وفي الأخير لا يسع القول إلاّ أن هذا الموضوع متشعب جدا وما قيل فيه مجرد مقاربة وقطرة من محيط لأنّ الحديث عن الاستشراق بإيجابياته وسلبياته، وبمحاسنه ومساوئه، كما أنّه يجب الاستفادة من كلّ مجهودات المستشرقين وذلك بالتطرق إلى أهم تجاربهم في هذا الفن وغيره فهي جديرة بأنّ يفرد لكلّ منها دراسات أكاديمية مستقلة.

قائمة مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم.

أ. العربية:

1- الكتب

1. إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، دط. القاهرة: 2003، مكتبة الأنجلو المصرية.
1. إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل، ط1. مصر: 1998، مكتبة البلد الأمين.
2. ـــــــ كتاب لويس عوض: مقدمة في فقه اللغة العربية تحت المجهر، ط1 القاهرة: 2015، مكتبة الشيخ أحمد الألوكة.
3. إبراهيم مدكور، المعجم الكبير، القاهرة: 1971، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
4. أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السامرائي ط3. الأردن: 1985م، مكتبة المنار.
5. أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب كتاب سيبويه تح: عبد السلام محمد هارون، ط3. القاهرة: 1996، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع.
6. أبو بكر بن الحسن بن دريد الأزدي، الاشتقاق، تح: عبد السلام محمد هارون، ط1. بيروت: 1991م، دار الجيل.
7. أبو الحسن علي الحسني الندوي، مقالات وبحوث: حول الاستشراق والمستشرقين إعداد: سيّد عبد الماجد الغوري، ط1. دمشق- بيروت: 2002، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع.
8. أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، تح: حسن هنداوي، ط2. دمشق: 1993، دار القلم.
9. أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ط1. بيروت: 1968، دار صادر للطباعة والنشر.
10. أبو قيس صيفي بن الأسلت، ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت الأوسي الجاهلي تح: حسن محمد باجودة، ط1 القاهرة – مصر: 1973، دار التراث.
11. أحمد رحيم كريم الخفاجي، التراث النقدي العربي والتقويل الحداثي المعاصر، العراق: 2009م، جامعة بابل.

12. أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دط. القاهرة: 1998، منتدى مكتبة الاسكندرية، دار الفكر العربي.
13. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ط6. القاهرة: 1988، عالم الكتب.
14. أحمد نعيم الكراعين، علم الدلالة بين النَظَر والتطبيق، ط1. بيروت: 1993، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
15. إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، ط1. القاهرة- مصر: 2006، رؤية للنشر والتوزيع.
16. ـــــــ الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، ط4، بيروت- لبنان: 2014، دار الآداب للنشر والتوزيع.
17. ـــــــ الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، ط1. مكتبة ديوان العرب، مجلة أدبية فكرية ثقافية اجتماعية.
18. أرند جان فنسنك، دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى اللغة العربية: محمد ثابت أفندي وآخرون، ط1. مصر: 1934، مطبعة مصر – شركة مساهمة مصرية.
19. إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية المنهج التاريخي، المنهج المقارن المنهج الوضعي، المنهج الإحصائي، ط2. عمان – الأردن: 1996م، دار حنين العبدلي.
20. ـــــــ المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية بحث في الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية، ط2. عمان- الأردن: 1996، دار حنين.
21. ـــــــ المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية، ط2. عمان- الأردن: 1996، دار حنين العبدلي.
22. ـــــــ بحوث في الاستشراق واللغة، ط1. عمان-الأردن: 1996 مؤسسة الرسالة، دار البشير.
23. إسماعيل علي محمد علي، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل مدخل علمي لدراسة الاستشراق، ط3. مصر:2000، الكلمة للنشر والتوزيع.
24. أغوست فيشر، المعجم اللغوي التاريخي، ط1. القاهرة: 1967م، مجمع اللغة العربية القسم الأول من أول "حرف الهمزة" إلى "أبد".
25. أ. فيشر، المعجم اللغوي التاريخي القسم الأول من أول "حرف الهمزة" إلى "أبد"، ط1. القاهرة: 1968، مجمع اللغة العربية المصري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.

26. أنستاس ماري الكرملي، نشوء اللغة ونموها واكتمالها، دط. القاهرة: 1958م، المطبعة العصرية.
27. أنور الجندي، الموسوعة العربية الإسلامية، سقوط العلمانية، ط2. بيروت – لبنان: 1980 دار الكتاب اللبناني.
28. ــــــ الموسوعة العربية الإسلامية، الفصحى لغة القرآن، بيروت لبنان: 1982، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة.
29. ــــــ مقدمات العلوم والمناهج، دط. القاهرة: 1979، دار الأنصار، ص63.
30. ــــــ اللغة العربيّة بين حُماتها وخصومهَا، دط. القاهرة– مصر: 1965 مكتبة المعارف.
31. أنور محمود زناتي، حامل لواء التاريخ في الأندلس ابن حيَّان القرطبي 377-469/988هـ-1076م، ط1.عمان: 2014، دار زهران للنشر والتوزيع.
32. امرئ القيس، ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2. مصر: 1964 دار المعارف.
33. أنور محمود زناتي، معجم افتراءات الغرب على الإسلام، ط1. موقع نصرة رسول الله.
34. البدراوي عبد الوهاب زهران، دحض مفتريات ضدّ إعجاز القرآن ولغته وأباطيل أخرى اختلقها الصليبي المستغرب الدكتور لويس عوض، مكة المكرمة: 1985، مطابع رابطة العالم الإسلامي، سلسلة كتاب دعوى الحق.
35. برجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، تع: رمضان عبد التواب، ط2. القاهرة: 1994، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
36. بلاشير، القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، نقله: رضا سعادة، دط1. بيروت– لبنان: 1974، دار الكتاب اللبناني.
37. بيار كونيسا، صنع العدو أو كيف تقتل بضمير مرتاح، تر: نبيل عجان، مر: جمال شحيّد وسعود المولى، ط1. بيروت: 2015، المركز العربي للأبحاث والدراسة السياسات.
38. تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ط1. مصر: 1990، مكتبة الأنجلو المصرية.
39. تييري هنتش، الشرق المتخيل: رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي، تر: غازي برو وخليل أحمد خليل، ط1. بيروت: 2004، دار الفارابي.

40. تيودور نولدكه، تاريخ القرآن، تعديل: فريديريش شفالي، نقله: جورج تامر وآخرون ط1. بيروت: 2004، دار النشر جورج ألمز هيلدسهايم – زوريخ– نيويورك.
41. جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة شرح وضبط: عبد الرحمن البرقوقي، ط1. مصر: 1904م، دار الفكر العربي.
42. جهاد يوسف العرجا وإيمان دلول، فنّ الصّناعة المعجميّة بين القديم والحديث.
43. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2. بغداد: 1993م، جامعة بغداد.
44. جوناثان ري، وج.أو. أرمسون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، تر: فؤاد كامل وآخرون ط1. مصر: 2013م، المركز القومي للترجمة.
45. جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي، تر: إبراهيم أحمد شعلان، ط3. مصر: 2000.
46. حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة: دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، ط1. بنغازي– ليبيا:2009، دار الكتاب الجديد المتحدة.
47. حسن عزوزي، آليات المنهج الاستشراقي في الدراسات الإسلامية، ط1. فاس–المغرب: 1996، مطبعة آنفو–برانت.
48. حسن علي حسن مطر الهاشمي، قراءة نقدية في تاريخ (القرآن الكريم) للمستشرقين ثيودور نولدكه.
49. حسين نصّار، المعجم العربي نشأته وتطوّره، ط4. القاهرة: 1988، دار مصر للطباعة.
50. حمودي صمودي، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس: مشروع قراءة، مجلد 21، السلسلة 6 كلية الآداب والعلوم الانسانية، تونس، 1981 منشورات الجامعة التونسية.
51. خالد بن عبد الله القاسم، مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، ط1. المملكة العربية السعودية: 2010م، ج2، دار الصميعي للنشر والتوزيع.
52. خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط7. بيروت– لبنان: 1986، دار العلم للملايين.
53. داود حلمي السّيد، المعجم الإنجليزي بين الماضي والحاضر دراسة في منهج معجمة اللغة الإنجليزية، ط1. الكويت: 1978م، جامعة الكويت.

54. ر.هـ. روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، الكويت: 1978 المجلس الوطني للثقافة ولفنون والأدب، عالم المعرفة.
55. ر.هـ. روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة الكويت: 1997، سلسلة كتب ثقافية شهرية المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب.
56. رضا محمد الدقيقي، الوحي إلى محمد بين الإنكار والتفسير النفسي، ط1. قطر: 2009 دار الميمان.
57. رمضان عبد التواب، التطور اللغوي ولحن العامة، ط2. القاهرة– جمهورية مصر العربية: 2000، مكتبة زهراء الشرق.
58. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ط3. القاهرة – مصر: 1997، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع.
59. رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، ط6. القاهرة، 1999، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع.
60. رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، تر: مصطفى ماهر، دط. القاهرة: 2011، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
61. روم لاندو، الإسلام والعرب، نقله: منير البعلبكي، ط2. بيروت: 1977، دار العلم للملايين.
62. رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، تح: محمد سليم النعيمي، دط. العراق: 1398هـ/1978م، دار الحرية للطباعة.
63. زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط، تر: شريف يونس، ط1. القاهرة– مصر: 2007، دار الشروق.
64. زكريا هاشم زكريا، المستشرقون والإسلام، مصر: 1965، لجنة التعريف بالإسلام المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية الكتاب العشرون.
65. زكي نجيب محفوظ، تجديد الفكر العربي، ط9. القاهر– مصر: 1993، دار الشروق
66. زينب عبد العزيز، فضائح الحضارة الصليبية: ترجمات القرآن إلى أين؟ وجهان لجاك بيرك، ط1. القاهرة: 2005، مكتبة وهبة.

67. ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي: الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ط1. ليبيا: 2001 دار الكتب الوطنية.

68. سيد حسين العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ط1. جدة- السعودية: 2004 دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع.

69. شاكر عالم شوق، ترجمة معاني القرآن الكريم ودور المستشرقين فيها، بنقلاديش: 2007 دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ.

70. شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، ط9. القاهرة: 1995، دار المعارف.

71. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي 1 العصر الجاهليّ، ط13. القاهرة: 1999، دار المعارف.

72. شوقي ضيف، تحريفات العامية للفصحى في القواعد والبنيات والحروف والحركات ط1. القاهرة- مصر: 1994، دار المعارف.

73. صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام الدولي، تر: طلعت الشايب تقديم: صلاح قنصوه، ط2. 1999

74. صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان تراجمُهم وما أسهمُوا به في الدّراسات العربيّة ط1. بيروت- لبنان: 1978، دار الكتاب الجديد.

75. طه حسين، في الشعر الجاهلي، دط. تونس: 1997م، دار المعارف للطباعة والنشر سوسة تونس.

76. عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، 2010.

77. عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان.

78. عبد الحفيظ سطلي، ديوان أمية بن أبي الصّلت، دط. سوريا: 1974م، المطبعة التعاونية بدمشق.

79. عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ط1. مصر: 1979 دار العالمين للملايين.

80. عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3. بيروت - لبنان، دار العلم للملايين 1993.

81. عبد الرحمن بن حسن بن محمد العارف، اتجاهات الدراسات اللغوية المعاصرة في مصر 1932- 1985م، مصر: 1994، رسالة دكتوراه.
82. عبد الرزاق عبد المجيد ألارو، تاريخ تطوّر ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة اليوربا مجمع الملك فهد، 2001.
83. عبد العزيز بن عثمان التوجيري، العالم الإسلامي في عصر العولمة، ط1. المملكة العربية السعودية: 2004، دار الشروق.
84. عبد الكريم الرديني، المعجمات العربية دراسة منهجية، ط1. دار الهدى، الجزائر.
85. عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ط1. المغرب: 2010م، دار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان للرباط.
86. عبد الله بن عبد الرحمن الوهيبي، حول الاستشراق الجديد: مقدمات أولية، ط1. الرياض: 1435هـ، مجلة البيان مركز البحوث والدراسات.
87. عبد الله يوسف سهر محمد، مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين، ط1. الإمارات: 2001، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.
88. عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، ط1. القاهرة: 1995م مكتبة وهبة.
89. عدنان الخطيب، المعجم العربي بين الماضي والحاضر، ط2. بيروت: 1994، مكتبة لبنان ناشرون.
90. عصام فاروق، المستشرقون وتأثرهم بالفكر اللغوي الغربي في دراسة العربية، مصر: 2013، جامعة الأزهر، كلية الألسن، جامعة عين الشمس، مؤتمر الدراسات العربية في عالم متغير.
91. عفاف صبره، المستشرقون ومشكلات الحضارة، دط. مصر: 1985م، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع.
92. على توفيق الحمد، المعجم التاريخي العربي: مفهومه- ووظيفته- محتواه، مجلة المعجمية- تونس، 1990.
93. علي بن إبراهيم الحمد النملة، جهود العلماء المسلمين في دراسات الكتابات الاستشراقية حول القرآن الكريم رصد ورقي ببليوجرافي.

94. علي بن إبراهيم النملة، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين: استقراء للمواقف، الرياض: 1993 مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية.
95. علي زوين، منهج البحث اللغوي: بين التراث وعلم اللغة الحديث «دراسات» ط1. بغداد: 1986، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، وزارة الثقافة والإعلام.
96. علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، إشراف عام: داليا محمد إبراهيم، ط3. مصر: 2004 نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
97. عمر لطفي العالم، المستشرقون والقرآن الكريم: دراسة نقدية لمناهج القرآن الكريم، ط1. مالطا: 1991، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي.
98. فاطمة الهاشمي بكوش، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث: دراسة في النشاط اللساني العربي، ط1. القاهرة: 2004، منتدى سور الأزبكية.
99. فاطمة محجوب، الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية، دط. القاهرة: دس، دار الغد العربي.
100. فردينان دي سوسور، علم اللغة العام، تر: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: مالك يوسف المطلبي، ط1 بغداد: 1985، دار آفاق عربية – الأعظمية – بغداد.
101. القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، شرح وضبط: عبد الرحمن البرقوقي.
102. كاتارينا مومزن، جوته والعالم العربي، تر: عدنان عباس علي، إشراف: عبد الغفار مكاوي، كويت: 1995م، عالم المعرفة.
103. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله: عبد الحليم النجار، ط 5. جامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار المعارف.
104. كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، تر: رمضان عبد التواب، دط، المملكة العربية السعودية: 1977، جامعة الرياض.
105. ـــــــ تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: عبد الحليم نجار، ط4. القاهرة: دت دار المعارف.
106. مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ط1. الجزائر: 1969، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوريع.
107. ـــــــ وجهة العالم الإسلامي مشكلات الحضارة، تر: عبد الصابور شاهين ط1. سوريا: 2002، دار الفكر بدمشق.

108. محمد البهي، المبشّرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، مطبعة الأزهر.
109. محمد السّعيد بن السيّد جمال الدين، الشّبهات المزعومة حولَ القرآن الكريم في دائرة المعارف الإسلاميّة والبريطانية، ط1. المملكة العربية المتحدة: 2013، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
110. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ط1. دمشق : 2002، دار ابن كثير.
111. محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دط. بيروت – لبنان: 2001، دار الكتب العلمية.
112. محمد بن عبد الله الشرقاوي، في الفكر الإسلامي المعاصر الاستشراق دراسة تحليلية تقويمية، دط. كلية دار العلوم– جامعة القاهرة.
113. محمد حسن عبد العزيز، المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج، ط1. القاهرة: دس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2008.
114. ـــــــ المعجم العربي للغة العربية: وثائق والنماذج، ط1. جمهورية مصر العربية: 2008، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.
115. ـــــــ القياس في اللغة العربية، ط1. القاهرة: 1995، دار الفكر العربي.
116. محمد حمادي الفقير التمسماني، تاريخ حركة ترجمة معاني القرآن الكريم من قبل المستشرقين ودوافعها وخطرها.
117. محمد خليفة حسن أحمد، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، ط1. القاهرة: 1997، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
118. محمد عزيز نظمي سالم، تاريخ المنطق عند العرب، دط. الاسكندرية: 1983 مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.
119. محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، ط1، بيروت: 1982، دار الفلاح للنشر والتوزيع.
120. محمد عمارة، رؤية نقدية للحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، مركز الدراسات المعرفية: 2002.
121. محمد عمارة، الغزو الفكري وهم.. أم حقيقة؟ مصر: 2003، قضايا إسلامية معاصرة تصدرها الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف.

122. محمد فاروق النبهان، الاستشراق: تعريفه، مدارسه، آثاره، دط. الرباط– المملكة المغربية: 2012م، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. إيسيسكو.

123. محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ط3. بيروت – لبنان: 1981م، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.

124. محمّد محمّد داود، جدليّة اللغة والفكر، ط1. القاهرة – مصر: 2009، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

125. محمود السّعران، علم اللغة: مقدّمَة للقارئ العربي، ط1. بيروت– لبنان: دت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

126. محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط1. القاهرة– مصر:1989، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع.

127. محمود فهمي الحجازي، أسس علم اللغة العربية، دط. القاهرة– مصر: 2003، دار الثقافة للطباعة والنشر.

128. محمود محمد شاكر، رسالة في الطرق إلى ثقافتنا، دط. مصر: 1997م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

129. مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، دط. مصر: 1985، مكتبة الشروق الدولية.

130. مصطفى السّباعي، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، دط. دار الورق للنشر والتوزيع، المكتب الإسلامي.

131. مصطفى خالدي، عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية: عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي، ط3. صيدا– بيروت: 1953، منشورات المكتبة العصرية.

132. مصطفى عبد الغني، ترجمة جاك بيرك للقرآن: من القراءة إلى التفسير، بيروت: 2001، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر.

133. مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة: حفريات النشأة والتكوين، ط1. دار البيضاء: 2006، شركة النشر والتوزيع.

134. منذر معاليقي، الاستشراق في الميزان، ط1. بيروت– لبنان: 1997، المكتب الإسلامي.

135. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقدٌ وتوجيه، ط2. بيروت- لبنان: 1986، دار الرائد العربي.
136. موجز دائرة المعارف الإسلامية، ط1. 1998، مركز الشارقة للإبداع الفكري.
137. الموسوعة العربية العالمية، ط2. الرياض- المملكة العربية السعودية: 1999، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع.
138. محمد نصار، الموسوعة العربيّة الميسّرة، ط1. بيروت – لبنان: 2010، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع صيدا والمكتبة العصرية.
139. ميمونة علي عوني، الدرس اللغوي في النصف الأول في القرن العشرين، ط1. الأردن: 2016، دار غيداء للنشر والتوزيع.
140. نايف خرمة، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت: 1978.
141. نجيب العقيقي، المستشرقون موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى اليوم، ط4. مصر، دار المعارف.
142. نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر، ط1. مصر: 1964 دار نشر الثقافة بالإسكندرية.
143. هاري سينت فيلبي، الربع الخالي، تر: صبري محمد حسن، ط1. القاهرة: 2007 المركز القومي للترجمة والهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، إسلامية الكتاب العشرون.
144. وسيلة خراز، الأيديولوجيا وعلم الاجتماع: جدلية الانفصال والاتصال، ط1. 2013 منتدى المعارف.
145. وليد عاطف الأنصاري، نظرية العامل في النحو العربي عرضا ونقدا، ط2. الأردن: 2014 دار الكتاب الثقافي.
146. يحي عبابنة، النحو العربي في ضوء اللغات السامية واللهجات العربية القديمة دراسات مقارنة، دط. الأردن: 2015، دار الكتاب الثقافي للنشر.
147. يوهان فك، العربية: دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، تر: عبد الحليم النجار، تصدير: أحمد أمين بك، تقديم: محمد يوسف موسى ومحمد حسن عبد العزيز، دط. القاهرة: 2014 الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.

148. يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين: نقله: عمر لطفي العالم، ط2. بنغازي– ليبيا: 2001، دار الكتب الوطنية.

2- الرسائل والآطاريح الجامعيّة

1. عبد الرحمن صالح أبو صيني، اللسانيات العربية في القرن العشرين بين التقليد والتجديد، رسالة دكتوراه، تونس: 1997، كلية الآداب– الجامعة التونسية.
2. عبد الحسن عباس حسن الجمل الزويني، البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، 2010.

3- المجلات والدوريات

1. إبراهيم مدكور "مجمع القاهرة والمصطلح العلمي" مجلة مجمع اللغة العربية، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر: 1978.
2. أنستاس الكرملي "البحث الثاني في تناظر العربية باللاتينية" مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، القاهرة: 1934، المطبعة الأميرية.
3. ـــــــ "البحث الأوّل في تناظر العربية واليونانية" مجلة مجمع اللغة العربية الملكي القاهرة: 1934، المطبعة الأميرية.
4. أحمد محمود أبو زيد "فيلبي الرحالة البريطاني" المجلة العربية، مصر: 2012.
5. بسام بركة "الترجمة إلى العربية: دورها في تعزيز الثقافة وبناء الهويّة" مجلة تبين الدّوحة– قطر: 2012، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات.
6. ثائر الحلاق "مناهج المستشرقين في دراسة الإسلام: دراسة وصفية تحليلية" مجلة الجامعة الأسمرية، ليبيا: 2017، مركز البحوث والدراسات العلمية.
7. حسن بن إدريس عزوزي "ملاحظات على ترجمة معاني القرآن للمستشرق الفرنسي جاك بيرك" ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف: 1422هـ.
8. حسب الله يحي وآخرون "حوار مع المستشرق الفرنسي أندريه ميكل حوار خاص بآفاق عربية" مجلة الاستشراق، بغداد– العراق: 1987.
9. ـــــــ "حوار مع المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون حوار خاص بآفاق عربية" مجلة الاستشراق، بغداد– العراق: 1987.

10. ساعد هماش "سوسيولوجيا البيئة في ظل المدارس النظرية والاتجاهات المفسرة" مجلة الباحث الاجتماعي، الجزائر: 2017.
11. سعد مصلوح "عن مناهج العمل في الأطالس اللغوية" مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة– مصر: 1976.
12. شفيعة الداغستاني "المستشرقة الألمانية أنا ماري شيمل" مجلة الاستشراق، بغداد– العراق: 1990.
13. صبيح حمود التميمي "علم الأصوات عند سيبويه للمستشرق الألماني أرتور شاده (1883م/ 1952م) محاضرة برؤية استشراقية ومراجعة حديثة" مجلة آداب الرافدين 2010.
14. علي توفيق الحمد "نحن والمستشرقون مع دراسة تحليلية لأثر المستشرق دوزي في المعجمة العربية" مجلة جامعة النجاح للأبحاث، الأردن: 2001.
15. عاطف فضل، تمثلات المنهج الوصفي الإحصائي في الدراسة اللغوية الحديثة منهج وتطبيق، مجلة التربية والعلم جامعة الزرقاء– الأردن: 2010.
16. علي القاسمي "المعجم التاريخي للغة العربية" مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 2017.
17. فولف ديتريش فيشر "في تطور أساليب الكتابة العربية ومسائل لغوية شتى" حوار وتقديم: ظافر يوسف، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، 2001..
18. فايز ترحيني "الاستشراق إدوارد سعيد" مجلة الانماء العربي للعلوم الإنسانية بيروت: 1983.
19. قطاط فريد "ترجمة رودي بارت لمعاني القرآن: دراسة تقويمية، مجلة التنوير المعهد العالي لأصول الدين بجامعة الزيتونة – تونس، دار المنظومة.
20. مسعود بوبو "اللغة والكلام بين إخوان الصفا والدرس اللغوي الحديث" مجلة المعرفة الجمهورية العربية السورية: 1989.
21. محمد سعدون المطوري "الاستشراق الألماني ودوره في الدراسات الاستشراقية: تاريخ الاستشراق الألماني وملامح من أسسه المنهجية" مجلة الدراسات الاستشراقية العراق: 2015.
22. محمد شوقي أمين "من التراث المعجمي: مثال (أخذ) من معجم فيشر" مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة: 1978.

23. محمد طارق، مساهمة وحيد الزمان الكيرانوي في اللغة العربية، مجلة المجمع العلمي العربي الهندي، 2018.
24. محمد علي رضائي إصفهاني "جولة في دائرة معارف ليدن القرآنية" مجلة الدراسات الاستشراقية، 2014، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية في العتبة العباسية المقدسة.
25. مصطفى عبد الغني "ترجمة جاك بيرك للقرآن: من القراءة إلى التفسير" دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر بيروت: 2001.
26. منير محمد جواد الصميدعي "أثر البيئة في التنشئة الاجتماعية للطفل" مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية الكوفة: 2017.
27. ياسر عبد الرحمن الليثي "اللغة العربية ودراسات الاستشراق الإسلامية" مجلة التسامح سلطنة عمان: 2007، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.

4- المواقع الإليكترونية

1. خالد حسين أحمد أبو عمشة، دور المعجم في تعليم اللغة العربية وتعلّمها للناطقين بغيرها، معهد قاصد- الأردن.https://learning.aljazeera .
2. علي القاسمي، المعجم التاريخي للغة العربية، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 12-06-2017. www.alfawanis.com.

ب- المراجع باللغة الأجنبية:

149. Hans Wehr, a Dictionary of Modern Written Arabic, Edited by: J. Milton Cowan, Third Edition.

150. Theodore Noldeke, Die Semitischen Sprachen, Leipzig, 1899, C.H. Tauchnitz.

151. Muhammad al-Bahi and Muhammad Yasin Arabi, The Religious Objective of Orientalism in Studying Islamic Literature according to, Universiti Kebangsaan Malaysia: 2012, International Journal of Islamic Thought.

فهرس البحث

مقدمة.. 1

تمهيد: الاستشراق: مفهومه، ومراحله، وأهدافه، وغاياته 7

الفصل الأوّل

المستشرقون وفن تحقيق المصادر اللغوية

1- نظرة المستشرقين إلى مصادر العربية حسب المراحل التاريخية 16

2- المعاجم القديمة، وتأليفهم المعاجم العربية على الطريقة الحديثة 24

1/2- المعاجم القديمة 24

1/2-1- رَيِنْهَارْت دوزي 1820-1883م 26

2/2- المعاجم الحديثة.. 30

2/2-1- أوغست فيشر 1865-1949م 30

2/2-2- نماذج من مواد معجم أكسفورد اللغوي التاريخي: 37

3- نظرتهم إلى النحو العربي.. 41

1/3- دي ساسي 1758-1838م 42

4- فقه اللغة العربية ومقارنته باللغات السامية 48

5- البلاغة 52

6- نظرة المستشرقين إلى الصوتيات العربية.. 57

خلاصة الفصل: 65

الفصل الثاني

أعلام المستشرقين المشهورين ونشاطهم في التراث اللغوي العربي

1- أعلام المستشرقين المشهورين ونشاطهم في التراث اللغوي العربي 69
2- الجيل الأوّل من المستشرقين المتأثرين بالفكر اللغوي العربي القديم 76
3- الجيل الثاني: المستشرقون ونظرتهم إلى العربية الكلاسيكية 93
3 – 1- كارل بروكلمان 117
4- الجيل الثالث: المستشرقون ومنهج البحث اللغوي الحديث 123
5- المستشرقون وصناعة المعاجم ووضعها 129
خلاصة الفصل: 137

الفصل الثالث

المستشرقون والموسوعات

1- المستشرقون والموسوعات 142
2- دائرة المعارف والموسوعات 145
2-1- دائرة المعارف القرن العشرين: 148
2-2- الموسوعة الفلسفية المختصرة 150
2-3- الموسوعة العربية في الوثائق والمكتبات 151
3- مفهوم دائرة المعارف الإسلامية 151
3- 1- ترجمتها إلى اللغة العربية 152
3-2- موضوعاتها 156
3- 3- منهجها 158
3- 4- إبداع دائرة المعارف الإسلامية 159
3- 5- قيمتها العلمية 163

3- 6- تطبيقات دائرة المعارف الإسلامية 164

3- 7- الهيكلية العلمية.. 170

3- 8- توجّهات دائرة المعارف الإسلامية 171

3- 9- الأهداف والغايات 172

3- 10- التعريف بمآخذ البحوث والنقد على دائرة المعارف الإسلامية 174

3- 11- أخطاء الدائرة في المسائل اللغوية........................... 177

3 - 12- عدم توظيف أخصائيين في القرآن الكريم 191

خلاصة الفصل 193

الفصل الرابع

المستشرقون وترجمة القرآن الكريم

1- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم 197

2- ترجمة معاني القرآن الكريم من وجهة نظر علماء الإسلام ومفكريه............ 201

3- اتجاهات المستشرقين في دراسة لغة القرآن الكريم 206

4- المنهج الاستشراقي المتبع في دراسة القرآن الكريم 207

5- اعتمادهم على الدراسات الأوروبية 219

خلاصة الفصل: 222

الفصل الخامس

المستشرقون وصلتهم بالدارسين العرب المحدثين

1- المستشرقون وصلتهم بالدارسين العرب المحدثين 227

1- 1- تأثير المستشرقين في البحث اللغوي الحديث، والوسط الثقافي العربي 230

1- 2- المستشرقون وتأثير مناهجهم اللغوية في دراسات الباحثين العرب المحدثين 234

1- 3- الدارسون العرب المحدثون والمناهج اللغوية الغربية الحديثة 238

2- مؤلفات المستشرقين وتأثيرها في الحركة اللغوية الحديثة 253
2- 1- نماذج من ملامح الفكر الاستشراقي في الدراسات العربية الحديثة 268
3- توقف النشاط الإستشراقي في أواخر السبعينات من القرن العشرين 275
خلاصة الفصل 295
قائمة مصادر البحث ومراجعه 306
فهرس البحث.. 321

ملخّص البحث

لقد ظل التراث اللغوي العربي يشغل العلماء والمفكرين الغربيين عامّة، والمستشرقين خاصّة، منذ فجر الإسلام، وذلك نظرا لقيمته لدى المسلمين كأمّة لها مقوّماتها، والإسلام أساس هذه المقوّمات، وضامن استمرارها، ومشتمل على عناصر الحضارة الإنسانية عموما وأسبابها، ومن ثمّ كانت الحاجة ماسة إلى دراسته وفهمه واستيعابه، بمختلف جوانبه ومصنّفاته، قصد فهم ماضي الأمّة وحاضرها لتحديد التوجهات الدقيقة لمستقبلها.

إنّ الصلة بين المستشرقين والتراث اللغوي العربي قديمة، وقد تأثروا به حقّا، الأمر الذي دفعهم إلى دراسته، وشدّة عنايتهم به، وبكلّ ما يتّصل به، من لغة، وآداب، وثقافة وتاريخ، وفلسفة وقد نشروا كثيرا من دراساتهم في كتب عدّة، ومجلات عامة ومتخصصة بلغات مختلفة في أماكن متفرقة من العالم، وفي مجالات متنوعة، كالمجلة الآسيوية الفرنسية، ومجلة الجمعية الشرقية الأمريكية، ومجلة شؤون الشرق الأوسط، ومجلة العالم الإسلامي الأمريكية، ومجلة الجمعية الآسيوية الملكية الإنجليزية.

وقد جمعوا معظم بحوثهم في مؤلّف ضخم تحت عنوان: (دائرة المعارف الإسلامية) وأصدروها بعدة لغات، ولا شّك أنّ هذه المؤلفات المطولة قد أسهمت إسهاما كبيرا في تعميق معرفتنا بالفكر الاستشراقي وأعلامه أكثر فأكثر في العصر الحديث، نظرا لأهمية هذه الأخيرة وأثرها البالغ في الفكر الشرقيّ المعاصر، بالإضافة إلى المؤتمرات الاستشراقية الدورية التي كانت فرصة لتوحيد الجهود الاستشراقية وتنظيمها، ويشترك في عضوية هذه المؤتمرات مئات المستشرقين في كلّ دورة.

ولعلّ من الجدير بالملاحظة تسلّل بعض المستشرقين إلى المجامع العلمية العربية اللغوية في كبرى البلدان العربية والإسلامية كأعضاء فاعلين فيها، وهي الوسيلة التي أسهمت في تسريب الفكر الاستشراقي إلى هذه المؤسسات، والتأثير عليها سلبا أو إيجابا ومكنت المستشرقين من الاتصال المباشر بالعلماء والمفكرين العرب والمسلمين، والاستيلاء على المناصب المهمّة، وكراسي الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات.

بضميمة (الارساليات الشرقية) التي كانت تشبه إلى حدّ كبير تلك البعثات إلى الأندلس لتلقي العلوم العربية، حيث توجّه الشرقيون بكونهم طلاّب علم موفدين إلى الجامعات الغربية في مختلف التخصصات، لتنشط بهم حركة الفكر الاستشراقي وإشاعته في الأوساط الثقافية في العالم الإسلامي وغيره، واجتهدوا في القيام بمهمة الاستشراق من خلال نقل أفكارهم ومناهجهم

ونظرياتهم وآرائهم إلى الشرق، ولا سيما البلاد العربية الإسلامية، وهذا ما تؤكّده التيارات الفكرية والنظريات والمناهج الغربية التي وفدت على مجتمعاتنا وذاعت فيها.

لقد حملت معها هذه الارساليات ما أثّرت به في مجريات الأحداث وتوجّهاتها في عصرنا الحديث، حيث أكدوا بهذا الاهتمام البالغ على قيمة التراث اللغوي العربي وأهميته ممّا يدل على أنّ دراسة هذا التراث وما يتعلق به كان ولا يزال أمرا بالغ الأهمية لعلم الاستشراق وبحوثه على اختلاف توجهاته.

وعلى الرغم من تضارب الآراء، وتعدد الأقوال، وكثرة الاحتمالات، فمن الصعب الحصول على تاريخ دقيق يحدّد بداية هذا النشاط، فإنّ علم الاستشراق يضرب في الأزمان ماضيا وحاضرا ويختلف باختلاف مدارسه تنظيرا وتطبيقا، وهو في ذلك متنوّع كما وكيفا فالمتّفق عليه هو أنّ هذا التيار الغربيّ درس كلّ شيء يتعلق بالشرق لغة، وأدبا، وفكرا وفنّا، وتراثا، بدأ بمباركة القساوسة والأساقفة في الكنيسة وبرعاية من المؤسّسات العسكرية والتجارية والدينية، وبقرار رسميّ من مجمع فيينا الكنسيّ سنة 1312، بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية ويذهب بعضهم إلى أنّه بدأ في القرن العاشر الميلادي، وهناك من يقول أنّه بدأ في القرن الحادي عشر، وأرجع بعضهم تاريخ أقدمه إلى القرن الثامن الميلادي، وبالضبط إلى سنة 711م، بعدما فتح العرب الأندلس، فازدادت حرارة بعض العناصر الغربية في التعرف على عقلية الفاتحين العرب المسلمين وأفكارهم، واتجاهاتهم، وتصوراتهم، وسرعة انتشارهم وتغلّبهم على الخصوم، وسر تفوّقهم ومصدر تقدمهم، وحقيقة دستورهم وعقيدتهم، ونوع فلسفتهم الدينية.

ثم اشتدّ هذا النشاط في القرون الوسطى، وشهد دعما ماديا ملحوظا من قبل الدوائر الغربية على اختلاف توجّهاتها الفكرية، وكان هذا سببا في توسّع حركة التأليف الاستشراقي، حيث قذفت المطابع بآلاف الكتب الاستشراقية في مختلف الميادين، وتمّت ترجمة القرآن العظيم على أيديهم إلى اللاتينية، ثم منها إلى اللّغات الأوروبية الأخرى.

كما أنّ الناظر في تاريخ هذا النشاط الاستشراقي يرى أنّه قد مرّ بمحطّات تاريخية هامّة حسب تطوّر الفكر الغربيّ الصليبيّ منذ نشأته حتّى الوقت الراهن، بدءا بالاستشراق اللاهوتي مرورا بالاستشراق الرسمي الأكاديمي، وانتهاء بالاستشراق الجديد المتمثل بالأساس في الغزو الفكريّ لبلاد الشرق عامة، وللمسلمين خاصّة، بغية انتاج أجيال من المثقّفين المسلمين تعمل على تحقيق أهداف استشراقية عجز المستشرق – في حد ذاته– عن تحقيقها.

وهكذا أصبح للحركة الاستشراقية كيان ضخم تعلق بها منذ نشأتها، خلق كثير لكلّ دوافعه وأغراضه - حسب متطلبات كلّ مرحلة ومستجداتها- وتتلاقى كلّها عند هدف واحد، هو التشويش على الإسلام والمسلمين، وبدافع التوسّع الاستعماري، والمحافظة على المصالح الغربية، وعرف روادها جيدا كيف يتقنون فنونها على اختلافها، وكيف يجسّدون خططها، ويحققون أهدافها.

وإنّ المطّلع على مؤلفات المستشرقين، يلمس توفّرها على خصائص التأليف الغربيّ في كثير منها منذ زمن بعيد، بيد أنّ المستشرقين في بداية الأمر اكتفوا بالجمع والتحقيق والتصنيف والنشر والفهرسة، لا التأليف، وهذا الجانب يوضّحه اهتمام عدد كبير من المستشرقين الألمان خاصة، بجمع وتحقيق وفهرسة التراث اللغوي العربي، وتذكر لنا المصادر المختلفة العدد الكبير ممّن توجّهوا إلى التحقيق والتصنيف والنشر والترجمة ولهؤلاء بحوث مفيدة في هذا المجال.

هذا الاهتمام المتزايد بالتراث اللغويّ العربيّ كان لابد أن يسفر عن جملة من المؤلّفات في مجال الدراسات اللغوية على اختلاف فروعها، فنال التراث النحوي نصيبا من الدراسة، والتحليل وإبراز المآخذ، إلى جانب تحقيقه وفهرسته وترجمته إلى لغاتهم، ومن أبرز هؤلاء الذين كانت لهم اليد الطولى في ذلك: المستشرق الفرنسي أنطوان إيزاك سلفستر دي ساسي Antoine Isaac Silvestre de Sacy والألماني يوهان جاكوب رايسكه Johann Jakob Reiske 1716-1774م، والبولوني بيبر شتاين كاسيميرسكي Kazimirski Biberstei 1780- 1865م، والهولندي رَيِنْهَارْت دوزي Reinhart Pieter Anne Dozy 1820- 1883م، والألماني أوغست فيشر August Fischer 1865- 1949م وغيرهم.

ومهما تكن أهداف المستشرقين، فلا يمكن إنكار الخدمات الجليلة، والإسهامات الجبّارة التي قدّمها بعضهم في مجال الدراسات الإسلامية والعربية، التي تتمثل في إحياء التراث العربي الإسلامي وحضارته عن طريق جمع الكتب وطبعها ونشرها، وتحقيق المخطوطات النادرة التي تحمل تراثا غنيّا في شتّى مجالات العلوم والفنون، والمحافظة عليه في المكتبات الأوروبية وصيانتها من التلف والضياع وفهرستها فهرسة علمية بأحدث الوسائل، بغضّ النظر عن هدف هذه العناية الفائقة، وهكذا أصبحت أوروبّا تحوي أعظم مكتبات العالم وأغناها وأهمها، بندرة مخطوطاتها التي تقدّر بعشرات الآلاف؛ بل قد يصل عددها إلى مئات الألاف، وقد عرفنا كثيرا من كتب التراث محقّقة ومطبوعة على أيديهم حسب ما أشار إليه كلّ من الباحث محمد فتح الله الزيادي في كتابه: ظاهرة انتشار الاسلام وموقف بعض المستشرقين منها، ومحمد كرد علي 1876-1953م في كتابه: الإسلام والحضارة

العربية، ومن أبرز الكتب التي ذكرها هذان الباحثان: سيرة ابن هشام، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والمغازي للواقدي، والكشّاف للزمخشري، وتاريخ الطبري، وكتاب سيبويه والاشتقاق لابن دريد، والأنساب للسمعاني، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، والملل والنحل للشهرستاني، وعمدة عقيدة أهل السنة والجماعة للحافظ النسفي، وفتوح الشام للأزدي وفتوح الشام للواقدي، والكامل للمبرد، والجمهرة لابن دريد، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وفضائح الباطنية للغزالي، وتاريخ اليعقوبي، والفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة، والتعريفات للجرجاني، وطبقات الحفّاظ للذهبيّ، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وتهذيب الأسماء للنووي وصحيح البخاري، والمقتضب لابن جني ومقالات الإسلاميين للأشعري، والوافي بالوفيات للصفدي والتيسير في القراءات السبع للداني، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، والأغاني للإصفهاني والأوائل للسيوطي، والطبقات لابن سعد، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والفقه الأكبر لأبي حنيفة كما أشار إلى عدد هائل من دواوين الشعر العربيّ في عصوره المختلفة.

وهكذا نجد أنّ حدود هذا العلم قد رسمت معالمه، وظهرت في الموروث اللغوي الاستشراقي بشكل يتفق مع الدّرس اللّغوي الحديث منذ أمد بعيد، وتشهد على ذلك المؤلفات اللغوية بكلّ فروعها التي تزخر بذخيرة كبيرة في هذا المجال من الدّراسات اللغوية؛ والناظر إلى المكتبات الغربية يُدرك غناها بهذه الكتب، حيث نجد بعضها تحتوي على المئات، بل الآلاف.

ويبقى النشاط الاستشراقيّ نشاطا موجّها يعكس تطلّعات الفكر الغربيّ بكلّ أبعاده وتوجهاته، ومرجعياته، ومخططاته، وغاياته، ويسعى دائما إلى ابتداع مقولات ومنظورات ورؤى جديدة، ودحض الرؤى القديمة علميا وفلسفيا حسب ما أكّده زكاري لوكمان في مؤلّفه: تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط، كونّها معبّرة بعمق عن كلّ ما خلّفه نظّار الاستشراق من أعمال ومؤلّفات وبحوث ودراسات ومقالات وموسوعات يعلّلون بها تفسيرا ووصفا، فمن الطبيعي جدّا أن يفترض ذلك كلّه الاستمرار في الزمن أكثر ممّا يفترض القطيعة، بصرف النظر عن آلياته ووسائله وعناوينه. ومهما يكن من أمر؛ فإنّ الحركة الاستشراقية –إن واصلت دورها الكلاسيكيّ في ممارسة أدوارها المعهودة، أو ظهرت بثوب جديد تحت عناوين عصرية– لا تزال ظاهرة، كونها إحدى أهمّ الايديولوجيات الاستعمارية وأدواتها الاستراتيجية بين العلانية والخفاء، وأهدافها الشريرة تفوق بكثير أهدافها الخيّرة بحكم

ميزان القوة الذي يحكمها، والذي يعتمد بالأساس على تقنيات السيطرة الجائرة في شتّى صورها وأنواعها، كانت متباينة في مقاصدها، وذلك ابتغاء تحصين جغرافيتها الحضارية ومعالمها الفكرية والثقافية واللغوية، كون الحضارة بالمفهوم الغربيّ المعاصر كيانا ثقافيا أوسع، لكونها مزيجا مركّبا من الدين والتاريخ الثقافي والاجتماعي، والمصالح الاستراتيجية ومطامح الغرب العابرة للقارات على نطاق واسع، ولا سيما بعدما أصبح المحور الشرقيّ في وضع الرجل المريض، وتراجع تراجعا رهيبا على جميع الصعد ممّا جعله يتعرّض لأزمات مصطنعة وانشقاقات موجّهة، وصراعات مفتعلة مهلكة ومدمرة، توسعت مع السنين، وتعمّقت جذورها مع العقود الأخيرة، والوضع الراهن لمعظم بلدان محور الشرق بتجلياته خير دليل على الواقع المنحطّ الذي وصلت إليه المجتمعات الشرقية على العموم.

ملخّص:

لقد ظهرت الحركة الاستشراقية في العالم الإسلامي عامّة، والعالم العربيّ خاصّة، على أيدي أجيال من المستشرقين في مجال العلوم الإسلامية والعربية، منذ سقوط الأندلس، حتّى السبعينات من القرن العشرين، حيث بذلوا جهدا كبيرا في دراساتهم الأكاديمية في ميدان التراث الإسلاميّ والأدبي واللغوي، من تحقيق المخطوطات بأنواعها، ولغة ونحو وبلاغة ومعاجم ولغة القرآن ودراسات لغوية، ودراسات لغوية سامية بفصائلها؛ فكانوا في ذلك على أهواء، منهم الجائرون في آرائهم، ومنهم المنصفون، ولنا من خلال هذه الدراسة أن نخرج بطريحة أو نقيضة أو نتيجة بمقتضى البحث العلميّ السليم.

Résumé:

Le mouvement orientaliste a vu le jour dans le monde islamique en général, et dans le monde arabe en particulier, grâce aux générations d'orientalistes dans le domaine des sciences islamiques et arabes, à partir de la chute de l'Andalousie jusqu'aux années soixante-dix du XXème siècle, ou ils ont fourni un effort considérable dans leurs études académiques dans le domaine du patrimoine islamique, littéraire et linguistique ; à l'instar de l'authentification d'une diversité de manuscrits, la langue, la rhétorique, les lexiques, la langue coranique, et les études de langues sémitiques et ses groupes, chacun a sa convenance. Il y a parmi eux ceux qui ont un parti pris dans leurs opinions et ceux qui sont impartiaux. Ainsi, nous avons tenté à travers cette étude, de sortir avec une thèse ou une antithèse ou un résultat (une synthèse) conformément à une saine (objective) recherche scientifique.